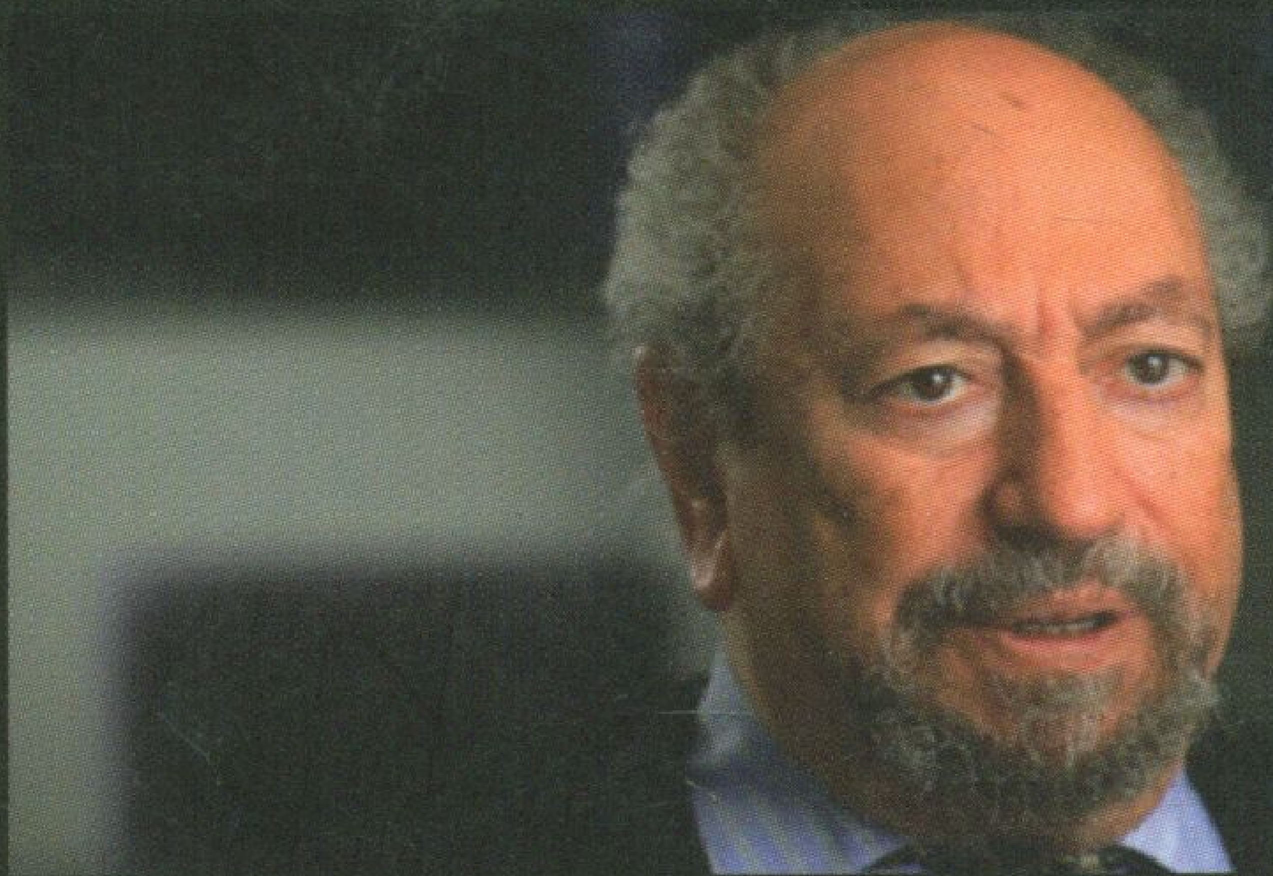
مختارات ميريت

سيرة
سعد الدين إبراهيم

(١)



مذكرات

سيرة

سعد الدين إبراهيم

سيرة

سعد الدين إبراهيم

الجزء الأول

الطبعة الأولى ٢٠١٣.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit٥٦@hotmail.com

الغلاف إهداء من الفنان: **مجدى الشافعى**

التدقيق: **أحمد مجدى همام**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٣٣٦٧

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٣٥١-٦٥٩-٣

سيرة

سعد الدين إبراهيم

(الجزء الأول)

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٣

هذه المُذكرات جزء من السيرة الذاتية

السيرة الشخصية لأي إنسان هي رحلة حياته منذ المهد، أو المولد، إلى اللحد أي الرحيل الأبدي من عالمنا. ولا يمكن لأي إنسان أن يحكي كل وقائع هذه الرحلة، ولا يمكن تضمينها جميعاً في كتاب واحد مهما امتدت صفحاته، لا مادياً فقط، ولكن أيضاً لأن كثيراً من وقائع حياتي هي وقائع نمطية، لابن قرية مصرية، لا تختلف عن تلك التي شارك في مثلها ملايين من أبناء جيلي (١٩٣٨-٢٠١٣).

ولذلك فإن ما كتبته في هذه المُذكرات كان بالضرورة "انتقائياً" من عدة نواحي، أولها، ما تذكرت أنه كان مُختلفاً عن المُعتاد في حياتي اليومية. وثانيها، ما اعتقدت أنه كان محطات فاصلة في حياتي، مثل الانتقال من ثم إلى الولايات المتحدة، ثم من قريتي (بدّين) إلى أقرب مدينة (المنصورة)، ثم إلى العاصمة (القاهرة)، وهو الانتقال الذي ارتبط بمراحل الدراسة المُتتالية. ولكن السفر إلى الولايات المتحدة، للحصول على الدكتوراه في عِلم الاجتماع، كان نقلة فرعية، استحقت التفضيل، خاصة لما صاحبها من نشاط طُلابي سياسي، وضعني في صِدام مع نظام الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**، أثناء رئاستي لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا، أدى إلى إجراءات عقابية أخّرت عودتي إلى مصر ثلاثة عشر عاماً. وهو ما غيّر كثيراً في مسيرتي المهنية، الاجتماعية والأسرية.

وفي كل الأحوال هناك العشرات الذين أتيت على ذكر أسمائهم في هذه المُذكّرات . من مصريين، وعرب، وأجانب. فإذا قُيّد للأحياء منهم أن يقرؤوها، فأرجو أن يصححوا لي إن كنت قد نسيت أو أخطأت في حقهم، أو في سرد وقائع تتعلق بهم. أما من فارقوا دنيانا، فلهم الرحمة وليغفر لي الأحياء من ذويهم، إن كنت قد تجاوزت في سردي أو أحكامي فيما يتعلق بهم، بما قد يَخدش مشاعرهم.

إن العقود الستة من انخراطي في الحياة العامة شهدت أحداثاً مرحلية، ووطنية، وإقليمية، وعالمية، كنت شاهداً عليها. وقد انفعلت بها من ناحية،

وتقاطعت هي مع مسيرة حياتي من ناحية أخرى. وشجّعني كثيرون على الحديث عنها من منظوري الشخصي. وهو ما حاولته في هذه المُذكّرات فأرجو أن تكون إضافة، ولو متواضعة، تُسهم في فهم التاريخ الاجتماعي لمصر والوطن العربي منذ منتصف القرن العشرين إلى أوائل القرن الحادي والعشرين.

لقد كُنت محظوظاً أنني التقيت وجهاً لوجه كل رؤساء مصر . **جمال عبد الناصر**، و**أنور السادات**، و**حسني مُبارك**، و**محمد مُرسي**. كما التقيت عدداً من الرؤساء والملوك العرب، مثل الملك **فيصل**، والملك **حسين** والملك **الحسن الثاني**، والرئيس العِراقي **صدام حسين**، والرئيس السوري **حافظ الأسد**، والرئيس السوداني **جعفر نميري**، واللبناني **بشير الجميّل**، والرئيسين الفلسطينيين **ياسر عرفات**، و**محمود عباس**، وحاكم قطر الشيخ **حمد بن خليفة آل ثاني**، وزوجته المُتميزة، الشيخة **موزة بنت ناصر المُسند**، والزعيم الليبي **مُعمر القذافي** (الذي ساجلته لمدة ساعة على قناة الجزيرة عام ١٩٩٥).

كما أتيحت لي فُرصٌ لم تتح لكثيرين غيري من أبناء جيلي. كان أهمها، لا فقط الدراسة والعمل خارج مصر (الولايات المتحدة، وكندا، وبريطانيا، والمغرب، والجزائر، والسعودية، والعِراق، والأردن، ولبنان وقطر) ولكن أيضاً الإسهام في تأسيس وإدارة عدد من المنظمات غير الحكومية، أو ما أصبح يُصطلح عليه بتعبير منظمات "المجتمع المدني" كانت بدايتها المنظمة العربية لحقوق الإنسان (ومقرها القاهرة)، ومركز دراسات الوحدة العربية (ومقره بيروت)، والمجلس العربي للطفولة والتنمية (ومقره الرياض بالسعودية)، ومنتدى الفكر العربي (ومقره عمّان بالأردن)، ومركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية (ومقره القاهرة)، والمؤسسة العربية للديمقراطية (ومقرها الدوحة بدولة قطر). كذلك تمت دعوتي لعضوية مجالس أمناء عدد من المنظمات الدولية غير الحكومية، منها جامعة حقوق الأقليات (ومقرها لندن)، ومنظمة القانون والحقوق (ومقرها مونتريال، بكندا)، والوقفية الأهلية للديمقراطية (ومقرها واشنطن)، والجمعية الدولية لعِلم الاجتماع (ومقرها المكسيك).

وسواء جاء أو لم يجئ ذِكر هذه الخبرات والتجارب صراحة في المُذكّرات، إلا أنه من المؤكد أنها أثّرت بدرجات مختلفة على كاتب هذه السطور، وكانت وراء سعيي الدائم في العقود الأربعة الأخيرة من أجل نشر وتعميق ثقافة الديمقراطية، فِكراً ومُمارسة، في مصر والوطن العربي. وحينما هبّت نسائم ثورات الربيع العربي للديمقراطية . بداية بتونس، ومروراً بمصر وليبيا، واليمن، والبحرين، والأردن، وسوريا، شعرت أن كفاحي وآلافاً غيري، لم يذهب هباء منثورا. وربما تجلّت سُخرية التاريخ، وعدالة السماء في كون نفس السجن

(مزرعة طُرة) ونفس العنبر (رقم ٦)، ونفس الزنزانة التي قضيت فيها ثلاث سنوات (٢٠٠٠-٢٠٠٣)، هو نفس المكان الذي يقضي فيه الرئيس السابق حسني مُبارك، ونجلاه علاء وجمال، وكذا أقطاب نظامه، بما في ذلك رئيس وزرائه (د. أحمد نظيف)، عقوبات سجن عن جرائم فساد، واستغلال نفوذ، والتواطئ في قتل متظاهرين، خلال أحداث ثورة يناير ٢٠١١.

إن ثورات الربيع العربي، هي خير تعويض لي ولأبناء جيلي، الذين حاولوا إسقاط الأنظمة المستبدة خلال نصف القرن السابق، ولم يُحالفهم التوفيق. وعزاؤنا أن أجيالاً جديدة، أخصب خيالاً، وأقدر تنظيماً، وأقوى إرادة، استطاعت أن تُكمل هذه المُهمة التاريخية، فانبهرت بها أمتها، وأبهرت هي العالم، فلهم خير الجزاء.

سعد الدين إبراهيم
المعادي – القاهرة
٢٠١٣/١/١

طفولتي

١٩٣٨ - ١٩٦٥

بداية الوعي

وُلدت في ٣ ديسمبر ١٩٣٨ في قرية بدّين، مُديرية (الآن مُحافظة) الدقهلية، ونشأت في سنوات طفولتي الثماني الأولى في عائلة مُمتدة، في بيت كبير ضم إلى جانب والديّ وإخوتي الستة، جدتي لأبي، وعمين وأطفالهما. ولما كانت هذه الأسرة ممن كان يُطلق عليهم "الأعيان"، من مُتوسطي مُلاك الأرض، فقد كان يعمل عندها حوالي سبعة أنفار، من مُختلف الأعمار، كانوا يُعاملون مثل أفراد الأسرة الآخرين. ونشأت أخاطب الكبار منهم "بالعم". ولم أدرك إلا ربما في سن العاشرة التفرقة بين "الأعمام" بقرابة الدم و"الأعمام" مجازاً. ولكن هذا الإدراك لم يُغير من الاحترام الواجب لهم، كما عودني الوالدان، وكما امتثل لذلك أشقائي وشقيقاتي الأكبر والأصغر.

ما أتذكره من هذه المرحلة، أنها كانت في عمومها طفولة سعيدة، دافئة، وآمنة. فإلى جانب وجود أطفال آخرين في نفس البيت الكبير، من الأشقاء وأولاد العمومة، فقد كان الشارع الذي يقع فيه منزلنا، يضم أقارب من الدرجتين الثانية والثالثة . أي أعمام والدي، وأولاد عمومته. وكان يُطلق على مجموعات الأقارب هؤلاء "جنس الدسوقية" نسبة إلى جد أكبر هو **رزق إبراهيم الدسوقي**، الذي يُقال أنه ينحدر بدوره من أحد أولياء الله الصالحين، وهو السيد **إبراهيم الدسوقي**. ويُقال أيضاً إن **إبراهيم** هذا وفد إلى مُديرية الدقهلية، وتحديداً إلى حيث استقر به المقام كأحد الذين استوطنوا في عهد **محمد علي الكبير**، بين المُشرفين على الزراعة وجباية الضرائب للوالي. وهو أحد من كوفئوا على خدماتهم في أواخر عهد **محمد علي** بإقطاعه خمسمئة فدان، توارث أبناؤه حيازتها، إلى أن آلت إليهم ملكيتها تدريجياً مع أواخر عهد الخديوي **إسماعيل**. ومع كثرة الأولاد والأحفاد كان ما آل إلى جد والدي **رزق إبراهيم** حوالي مئة فدان.

وكان **لرزق إبراهيم** أربعة أولاد ذكور، أكبرهم **إبراهيم**، ثم **قاسم والدسوقي وعبد اللطيف**. وكان والدي **محمد** . هو أكبر أولاد **إبراهيم** الذي أنجب ثلاثة أولاد، وكان الآخران هما **علي (إبراهيم رزق)** و**عبد الوهاب (إبراهيم رزق)**، إلى جانب ثلاث شقيقات هن **عزيزة وشفيقة ونبيهة**. وما كان لي أن أعي

وأتذكر هذا التاريخ الأسري إلا بسبب حب استطلاعي عن تسميتي باسم "**سعد الدين**".

وحسبما يرد من السرد الشفوي المؤكد بقرائن موثقة. فإن جدي (**إبراهيم رزق**) كان أكبر الأبناء وأكثرهم حظوة ومكانة عند والده **رزق إبراهيم**، الذي اصطفاه ليرسله إلى الأزهر، ثم زوّجه من إحدى الأسر التي تنحدر من أصول تركية. وكانت تلك إحدى علامات الوجاهة الاجتماعية. فكانت جدتي (**عائشة عمرو**) ذات شعر أشقر وعيون زرقاء... وهو ما سيظهر في بعض أبنائها (مثل والدي **محمد**) وأحفادها، فيما بعد. يُقال إن **إبراهيم** بحظوته، وتفضيله لتلقيه تعليماً أزهرياً، ثم بزواجه من أسرة تركية مرموقة كان موضع حسد بين أشقائه، وخاصة ممن يليه مُباشرة في ترتيب الإنجاب، وهو **قاسم**. ثم جاء والدي إلى الحياة كأكبر أبناء **إبراهيم**، فتمتع بحظوة أبيه **إبراهيم**، وجده **رزق**. وسار على نفس نهج أبيه، فالتحق بالأزهر... ولكن الحياة لم تمهل الأب **إبراهيم**، الذي وافته المنية في أثناء الحرب العالمية الأولى. وبسبب ما رافق تلك الحرب من أزمة اقتصادية ضغط العم **قاسم** حتى يتوقف الإنفاق على تعليم **محمد** بينما أعمامه (**قاسم والدسوقي وعبد اللطيف**) يكدحون وحدهم في أرض العائلة. وكان أبوهم **رزق** (جد والدي) ما زال على قيد الحياة، ولكنه كان قد وهن وطعن في السن، فأذعن لرغبة ومكائد **قاسم** الذي أصبح أكبر الأبناء والأشقاء بعد رحيل جدي **إبراهيم**. ويُحكى أن **قاسم** قد حمل نفس الحقد، والذي كان يشعر به نحو أخيه الأكبر **إبراهيم** إلى أكبر أبنائه (**محمد**) الذي هو والدي. ولما كانت أحكام الإرث في الشريعة الإسلامية لا تسمح بمُشاركة الأحفاد في وراثة جدهم (**رزق**) إلا من خلال أبيهم، فقد كان رحيل **إبراهيم** (جدي) قبل أبيه (**رزق**) يعني حرمان والدي وأشقائه من أي ميراث، ولأن الجد الأكبر **رزق** كان يعي ذلك فقد أوصى بأن يذهب ما كان سيؤول لابنه، **إبراهيم**، لذريته. ولكن بعد رحيل **رزق** في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، طعن **قاسم** في قانونية تلك الوصية لمُخالفتها للنصوص الشرعية (أحكام الميراث). ودخل والدي وإخوته في نزاع قضائي طويل، لم يُحسم إلا في أوائل ديسمبر ١٩٣٨، بفوز والدي وأشقائه (أي فرع **إبراهيم**) على عمه الشرير **قاسم**، فنالوا حقهم في إرث والدهم، وحيث جاء مولدي قبل يوم واحد من كسب القضية، فقد اعتبر هذا الفرع من الأسرة أن هذا المولود الجديد كان "وجه السعد"، ونُصرة الحق، وتأكد ذلك في طقس (السبوع) الذي يُشعل فيه الأقربون سبع شموع في اليوم السابع، ويُرفَق مع كل شمعة اسم مُفضّلٌ لأحد هؤلاء الأقربين، ويتحلق الكبار والأطفال حول صينية الشموع، يشربون ويأكلون ويُغنون أثناء احتراق الشموع... والشمعة التي تحترق

آخراً، يكون الاسم المُرفق معها هو الفائز، وهذا ما حدث مع تلك الشمعة التي كانت رفق "**سعد الدين**"!.

كذلك تصادف أن يوم مولدي كان العاشر من رمضان وهو ذكرى غزوة بدر، ويستبشر به المسلمون خيراً. ويبدو أن هذه السلسلة من الوقائع قد جعلت الأسرة تحتفي بي أكثر من المُعتاد، وكذلك تتصور أو تتوهم "البركة" و"الفضيلة" و"الذكاء"، و"الوسامة" في المولود الجديد... وكان وعيي المُبكر بذلك بين الثالثة والرابعة من عُمري، حيث كانوا يخصونني بالمُداعبة واللعب والحلوى والملابس الجديدة.

ومن ذكريات هذه الطفولة المُبكرة زواج شقيقتي الكُبرى "**روحية**" لابن العمدة **أحمد السيد البيلي**. وكان ضمن الجهاز الذي يُزَف عادة من منزل العروس إلى منزل العريس، كانت هناك ماكينة خياطة مُرتفعة يجري نقلها على عجل، وقد أركبوني عليها أثناء الموكب... وكانت الناس في شوارع القرية يُهللون. ولا بد أنني شعرت بسعادة طاغية . لا لزواج شقيقتي، الذي لم أكن أدرك معناه تماماً، ولكن لركوبي على ماكينة الخياطة العجيبة. وأذكر أنني كلما زرت شقيقتي في السنوات التالية، وإلى أن رحلت عام ١٩٨٢، كنت أتعمد السؤال عن الماكينة التي اكتشفت أنها كانت ماركة سينجر (singer) والتي ظلت صالحة للاستعمال لما يقرب من أربعين سنة.

وبمُناسبة زواج شقيقتي الكبرى من ابن العُمدة، وكان من عائلة مُمتدة أخرى (أو جنس) "البيالية" – نسبة إلى بلدة "بِيَلا"، التي تقع حالياً في مُحافظة كفر الشيخ – تعجبت فيما بعد دون أن أستقصي أو أتحقق ما إذا كان جدهم الأكبر وجدنا الأكبر أي **البيلي والدسوقي**، أحدهما نسبة إلى بيلا والآخر نسبة إلى دسوق، قد وفدا من تلك المنطقة في شمال الدلتا معاً ضمن موجة هجرة واحدة.

بعد سنة واحدة من زواج **روحية**، تزوج شقيقي الأكبر **إبراهيم** من **أنوار نصر العلامي**، بنت شيخ البلد، ومن عائلة مُمتدة ثالثة تعرف باسم جنس "العلامية"، الذي كانت جدتي لأمي تنتمي له، وهي الحاجة **سيدة العلامي**. وهنا كانت ذاكرتي أوعى بتفاصيل الزواج، التي كان أهم ما فيه بالنسبة لطفل في الخامسة هو حضور "طباخ إفرنجي" من المنصورة، وذبح عجل، وإعداد موائد مُمتدة لإطعام ما بدا لي وقتها مئات المدعوين، ووجود عدد غير مسبوق من السيارات التي جاء بها بعضهم. وأهم من هذا وذاك أصناف الحلويات التي أعدها الطباخ الإفرنجي، والذي بقيت قريباً منه طوال يوم الفرح، أراقبه وأحظى بعينات من إبداعه.

كان العُرس الثالث الذي أذكره من تلك المرحلة في طفولتي المُبكرة هو ذلك الخاص بأصغر أعمامي وهو **عبد الوهاب**، والذي كان مُعلماً في المرحلة الإلزامية وقتها... وإن كان بعد ذلك أعد لامتحان التوجيهية رياضة من منازلهم، ثم التحق بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية، وهو مُتزوج. وكان ذلك شيئاً فريداً بقريتنا في حينه. وكانت عروس عمي هي **ابتسام إسماعيل أبو جبل**، من جنس "الجبالوه". وكانوا الأقرب للدسوقية (أي أسرتنا أو جنسنا) مكانياً في القرية، وزمام الأراضي الزراعية مملوكة لأفراد من كلتا العائلتين. وكان منهم نائب عُمدة القرية.

ولم يبق من العائلات الكبيرة في قريتنا بدّين إلا عائلتان أُخريان هما "**الحلاونية**"، التي تنحدر منها والدتي **جوهرة السيد عبد الله حلاوة**، والذي كان أكبر مالك للأراضي في القرية في ذلك الوقت (حوالي ٥٠ فداناً). أما العائلة المُمتدة السادسة فقد كانت "**القلامشة**"، والتي جمعت صلة مُصاهرة بينهم وبين الحلاونية (أسرة أمي)، حيث تزوج شقيقها (**النادي**) من القلامشة الذين انتقلت إليهم العمودية في تاريخ لاحق.

كانت هناك عدة أسر مُمتدة أخرى، ولكنها لم تكن لا بحجم ولا ثراء هذه العائلات الست، والتي تبادلت مناصب العمودية والمشيخة. وكان الوحيد الذي حصل على لقب "بك" رسمياً هو من أسرة جدتي لأمي، أي "**العلامية**"، وهو "**إسماعيل بك العلامي**"، وكان ناظراً للخاصة الملكية. وكان **إسماعيل** بك هذا هو خال والدتي، وقد اعتبرَته قدوة ومثلاً أعلى، تمنت لأولادها أن يحذوا حذوه. وكان ذلك أحد أسباب تشجيعها لأولادها على مواصلة التعليم والاجتهاد فيه، رغم أنها هي نفسها كانت أمية.

وكان لكل أسرة مُمتدة كبير ينوب عنها في إدارة شؤون القرية، وأمام الجهات الحكومية، وفي مراسم الزواج لأبنائها وبناتها، والاحتفالات الدينية. مثل المولد النبوي، والمعراج، ونصف شعبان، وإحياء ليالي شهر رمضان الكريم. وكان والدي - الشيخ **محمد إبراهيم رزق** هو كبير عائلة الدسوقية. وكان بهذه الصفة يرتدي زياً خاصاً، أقرب إلى زي رجال الأزهر. ولم أكن متأكداً ما إذا كان ذلك لأنه قضى عدة سنوات في الدراسة الأزهرية، أم لأنه شيخ البلد، أم لأنه كبير عائلة الدسوقية. وكان كبار هذه الأُسر الست المُمتدة يُطلق عليهم الأعيان.

شهر رمضان

من ذكريات طفولتي المُحببة **طقوس شهر رمضان.** ففضلاً عن الأطعمة والمشروبات الخاصة في ذلك الشهر، كان منزلنا يستضيف مُقرئاً للقرآن الكريم، من ناحية كفر الزيات. وكان يُرتل القرآن في مضيفة المنزل الكبير، مرة قبيل الإفطار، ثم ثلاث مرات مُتفرقة بعد صلاة العشاء، إلى أن يحين موعد السحور. ثم نذهب جميعاً إلى مسجد العائلة، على بُعد خمس دقائق من منزلنا، لتأدية صلاة الفجر. وكانت المُشاركة في هذه الطقوس الرمضانية رمزاً للنضج. وأظن أنني حرصت وسعدت بالمُشاركة فيها بدءاً من السادسة من عُمري! بما في ذلك تجربة الصيام. ومع الإخوة وأولاد العمومة، كنا نتنافس في أداء هذه الشعائر والطقوس الرمضانية. كما كنا نمارس ضبطاً اجتماعياً طفولياً، إذا اكتشفنا أن واحداً منا قد أفطر يوماً في رمضان، فكنا نتعقبه بغنوة جماعية، أتذكر بدايتها، وهي: يا فاطر رمضان... يا خاسر دينك.. حتروح النار حدف حدف...

تزامن وعيي المُبكر مع مُنتصف الحرب العالمية الثانية. وكان كبار الأسر المُمتدة أو أعيان البلد يتناوبون الزيارات في عصاري رمضان للحديث عن **هتلر وتشرشل وموسوليني وستالين**، وهي أسماء لم تعنِ لي كثيراً في حد ذاتها، ولكن أخبار الحرب كانت تستأثر باهتمامي. وكان الأعيان يأتون بصحيفة أو مجلة، ويقرأ أحدهم ويستمع الآخرون، ثم تبدأ مُناقشاتهم. وكنت أستمع لهم بشغف شديد. بل وكنت أشعر بمنزلة خاصة حينما يرسلونني إلى "**أحمد البوسطجي**" لإحضار الصُحف منه إلى مجلسهم في بيتنا الكبير. ولم أدرك سبب تعاطف الأعيان مع **هتلر** إلا بعد سنوات، وهو كراهية الإنجليز، الذين كانوا يحتلون مصر، وهو تطبيق مُبكر للقول المأثور "عدو العدو صديق".

كانت هناك فلكلوريات وخرافات وخزعبلات كثيرة ملأت أجواء طفولتنا . من أبو رجل مسلوخة، للعفاريت والجان والشياطين. وكانت تستخدم للتسلية تارة، والتخويف تارة، والتربية والتهذيب تارة ثالثة. ولكن على ذكر التخويف والحرب العالمية الثانية، أذكر يوماً أن شيخاً مُعمَماً، له قامة والدي، وزيّه الأزهري، وحذاؤه، دخل علينا عصر أحد الأيام وعلى وجهه شيء غريب ومُخيف... فجريت لأول وهلة حينما رأيته مُقدماً عليّ مُردداً "أريد أن آكلك... فمن أين تريد أن تؤكل؟"... وجرى هو بدوره يُلاحقني ويُريد الإمساك بي... ولأن الصوت كان أشبه بصوت والدي... فقد تحول الشعور إلى نصف خوف، ثم إلى مُداعبة، وخاصة حينما أمسك بي، وبدأ يتظاهر بالتهامي... وواتتني الشجاعة لجذب القناع الذي كان يلبسه. والذي اتضح أنه "كمامة" أشبه بالقناع للوقاية من

الجراثيم والسموم والغازات التي أشيع في ذلك الوقت أن **هتلر** سيستخدمها ضد الإنجليز وحُلفائهم في مصر. ولأن الوالد كان يتردد على المنصورة مرتين أو ثلاث أسبوعياً، لقضاء أعماله وأعمال الأسرة المُمتدة وبقية القرية، فقد أراد الاحتياط لنفسه ولأسرته الصغيرة التي يصطحبها أحياناً إلى المدينة. وبعد زوال خشيتي من الكمامة، بدأتُ أستخدمها لإلقاء الرعب في رفاقي ممن لم يحز ذويهم شرف امتلاك "كمامات" مثلنا. والطريف أن هذه الكمامات ظلت في حوزة الأسرة في البيت الكبير، طوال الخمسين سنة، التالية، حيث شاهدها أطفالي . **راندا وأمير** . في إحدى زياراتهما لقريتي بدّين.

وعلى ذكر الاحتفاظ "بكمامات" الحرب العالمية الثانية طوال نصف قرن، لم نكن في القرية نرمي أو نتخلص من أي شيء . كان كل شيء من الصُحف القديمة إلى الزجاجات والأدوات المنزلية والملابس والأثاث يتم الاحتفاظ به . في طابق مسخوط كنا نسميه "الصندرة" . بين طابقَي المنزل الكبير. وكان يُعاد تدوير واستخدام كل ما هو قديم، إما بواسطة الأسرة نفسها، أو بأن تعطيه والدتي لأحد المحتاجين من الأقربين أو الأبعدين. ولذلك كنت أرى في طفولتي دائماً من يأتي إلى منزلنا يسأل عن "جرنال" أو "زجاجة" أو "كراسة" أو "ورق" لتحرير عقد أو إيصال. وكان الوالد في هذا الصدد مُنظماً للغاية. فقد كان لديه مكتب كبير، له خمسة أدراج، يحتوي كل منها على مُحتويات ومحفوظات، مُصنفة بدقة مُتناهية، وهو وحده الذي يعرف التصنيف ويسترجعه عند الحاجة. وحيث كانت تتاح لي فرصة حيازة مفاتيح هذا المكتب الضخم، كنت أهوى اكتشاف هذه المحتويات، دون العبث أو التفريط فيها إلا قليلا. وفي كل مرة كان أبي يكتشف أن هناك من "عبث" أو "تسلل" إلى مكتبه. كان يستقصي ويُحقق في الأمر، ثم يزجر "المذنب" أو يُعاقبه عقاباً خفيفاً.

لا أذكر أن أياً من والديّ قد استخدم عقاباً بدنياً معي أو مع أحد من إخوتي. ولكن طفولتي لم تخلُ من مثل هذا العقاب . سواء بواسطة أخي الأكبر، **إبراهيم**، الذي كان يكبرني بخمس عشرة سنة، أو بواسطة المعلمين. كان بالقرية ثلاثة كتاتيب لتعليم القرآن. وكان كُتاب أسرتنا المُمتدة هو كتّاب "الشيخ **بدر**". وقد قصده من يكبرني ومن يصغرني من أطفال العائلة. وأظن أنني كنت في الرابعة حينما بدأت التردد على كُتّاب الشيخ **بدر**، الذي يقوم على تحفيظ القرآن، حتى لمن لا يعرف القراءة والكتابة بعد. وكان ذلك يتم بطريقة التلقين، فيقرأ الشيخ (سيدنا) الآيات، ويُردد الأطفال خلفه تلك الآية جملة جملة. وإذا تعب سيدنا، فإنه يوكل هذه المُهمة لأحد الأولاد الأكبر، الذين يكونون قد حفظوا بالفعل نصف سور القرآن على الأقل. وكان كل منهم يُسمى "بالعرّيف"، الذي

هو بمثابة مُساعد "لسيدنا" (**الشيخ بدر**). وكان هذا الأخير يجلس على مصطبة أعلى حوالي متر من سطح غرفة الكُتّاب، وبيده عصا طويلة، تسمى "مقرعة"، وتصل إلى كل أركان الغرفة المخصصة للكُتّاب، والمُلحقة بمنزل سيدنا الشيخ **بدر**. وكنا كأطفال نردد بصوت عالٍ، ودون فهم، ما يقرأه سيدنا أو العرّيف. وكان من الطبيعي أن يسهو أو يتعب أحدنا، فإذا لاحظ سيدنا ذلك فإنه كان يُسارع بضربه بمقرعته ضربة كفيلة بإيقاظ الساهي أو الشارد أو المُتعب، فيصيح فجأة بترديد النص بصوت عال، يختلط فيه التعبير عن ألم الوجع مع الحرص على تفادي ضربة ثانية. وأذكر أنه في أحد هذه المشاهد، جاءت ضربة المقرعة أشد من المُعتاد. وكانت على رأسي، فصاح بقية الرفاق "دم يا سيدنا، رأس **سعد** تخر دماً..." فنهض سيدنا الشيخ **بدر**، وأخذني إلى داخل منزله، المُلاصق للكُتّاب، ونادى على زوجته، وكان اسمها **هانم**، أن تأتيه ببعض "البُن" أو "الدقيق"، ثم بإعداد كوب ليمونادة. وبدأ الشيخ والخالة **هانم**، يُداويان الجرح، الذي كان على ما يبدو صغيراً، حيث لم أشعر بأي ألم، ولكنني استمتعت بالاهتمام والليمونادة، وباستراحة حوالي ساعة. وفي نهاية اليوم وقبل أن أنصرف أخذني سيدنا جانباً، ولقنني ما ينبغي أن أقوله لوالديّ، لو سألوني عن سبب الضمادة على رأسي. وجاء التلقين كالآتي:

" إن سيدنا كان يقصد أن يضرب **عبد ربه** (طفل آخر) لشقاوته... ولكن **عبد ربه** حينما رأى المقرعة قادمة، تحاشاها بسرعة فأصابتني أنا..."

ولكن يبدو أن سيدنا لم يرد أن يدخل في حرج مع أسرة **عبد ربه**، الذي كان أيضاً من الأعيان... فغير الرسالة التلفيقية كالآتي:

"أو قل لهم إنك في الفسحة وأنتم تغادرون الكُتّاب وتتزاحمون على السلالم، وقعت وارتطمت رأسك بحافة أحد السلالم..."

وحين وصلت إلى منزلنا، كان الأعيان يجلسون في الشرفة الأمامية . كعادتهم أثناء النهار . وبادرني أحدهم بالسؤال عما حدث لي. فحكيت الحكاية، لا كما حدثت، ولكن كما لقنني إياها الشيخ **بدر**. وضجت الشرفة بالضحك... لسبب لم أتبينه لحظتها... ولكن عيناً آخر طلب مني أن أحكي الحكاية مرة ثانية... وحينما وردت لفظة "أو"، ضجت الشرفة بالضحك... وطبعاً أدرك الوالد وبقية الأعيان أنني كنت أردد كذبة لقنها لي الشيخ **بدر**، ورددتها بدقة الببغاوات. وكان هذا درساً مُبكراً سأسترجعه مراراً وتكراراً كلما أردت الغوص في مُعضلات النظام التربوي المصري والعربي، والذي هو تجسيم وتمهيد للنظام السياسي المُستبد، الذي يعتمد على العقاب البدني والخوف، والجُبن أو النفاق والكذب، والامتثال لما تريده أو ترردده السُلطة (سيدنا)!

كان في قريتنا (بدّين) مدرسة للتعليم الإلزامي لمدة أربع سنوات. وكنت توّاقاً إلى هجر الكُتّاب، الذي أصابني بالملل والضجر والجلوس على حصير على الأرض، والالتحاق بمدرسة بدّين الإلزامية التي كان يدخلها أطفال القرية . بنيناً وبنات . في عُمر السادسة. ولأن عمي **عبد الوهاب** كان مُعلماً فيها، فقد استثنيت من شرط استكمال العُمر المطلوب، والتحقت وأنا في الخامسة وعشرة شهور، بدلاً من انتظار سنة أخرى. وكنت سعيداً، وأظهرت علامات تفوق خلال السنوات الثلاث التي قضيتها فيها. وفي تلك المدرسة بدأت أول قصة حب لي. فقد أعجبت ببنت اسمها "**وحيدة**"، وكانت أسرتها من أعيان القرية الذين يمتون لنا بقرابة، وهم "العلامية"، أخوال والدتي... وبُحت لوالدتي بهذا الحب، وماذا على أن أفعل؟ فربتت علي وأخبرتني أنه حينما أكبر، يمكن أن أطلب يدها من خالي الحاج **محمود العلامي**. وفي طرفة أخرى لا أنساها، أني بعد سنة، أي وأنا أنتقل إلى الصف التالي، لا بد أنني اعتقدت أنني كبرت، وكان حبي **لوحيدة** قد تضاعف. فانتهزت فرصة وجود والدها في واحد من مجالس الأعيان في شرفة منزلنا، فتوجهت إليه مخاطباً: "خالي الحاج **محمود**... أنا طالب القرب منك في بنتك **وحيدة**..." وضجت الشرفة بالضحك مرة أخرى... ولم أدرك وقتها لماذا يضحكون... ولكنني تذكرت مشهد الضحك قبل ثلاث سنوات حول واقعة مقرعة الشيخ **بدر**. ومع ذلك الوقت أدركت أنني ربما قلت شيئاً غير مُناسب... ولكن الحاج **محمود** ربت على كتفي وقبّلني، وقال "أهلاً وسهلاً... ولكن لننتظر حتى تكبروا وتكون قد وفّرت مهرها..." فتوجهت لوالدي بالحديث لينجدني... فقال ما معناه، أنه أيضاً مُستعد... ولكن حينما أكبر أنا و**وحيدة**!. وظلت القرية تتندر على هذه الواقعة لعدة سنوات... أما رفاق اللعب فطالما أغاظوني أو داعبوني بترديد "يا بتاع **وحيدة**..."!

كان من تقاليد القرية الاحتفال بالمولد النبوي بطريقة فريدة في قريتنا عن القرى المُجاورة. إذ كانت عائلتا "الحلوانية" و"القلامشة" تتنافسان في تدريب الشباب على الطوابير العسكرية قبل المولد بشهر على الأقل، ثم تستأجران ملابس عسكرية من مُخلفات الجيش لمن تم تدريبهم، واستحضار فرقتين من عازفي الموسيقى العسكرية الراجلة. وكانت كل فرقة تختص بعساكر إحدى العائلتين في موكب طويل يبدأ بعساكر "الحلوانية"، ثم الحِرف المُختلفة، ثم في نهاية الموكب عساكر "القلامشة" مع فرقتهم من عازفي الآلات النحاسية. وأذكر أنني شاركت مرة واحدة وأنا في السابعة في هذا الموكب مع عساكر الحلوانية. وشعرت بزهو كبير حيث كنت الطفل الوحيد الذي ارتدى ملابس كشفية، وأثار

الأمر تعليقات شتى في ذلك العام. كان الحلوانية يرتدون الكاكي، بينما القلامشة يرتدون زى الشرطة الصيفي الأبيض.

ومن التقاليد الريفية التي شاركت فيها أيضاً وأنا صبي لم يتجاوز الثامنة "المآتم". وكانت العادة تجري على أنه في مساء يوم المأتم ترسل الأسر الميسورة "صينية" عامرة باللحوم والأرز والخضار. وكان رب الأسرة يصحب أو يستقبل الصينية الخاصة بأسرته في سرادق العزاء. وكانت حكمة هذا التقليد تتلخص في أن أهل الفقيد الذي رحل، لا وقت لديهم لإعداد موائد الطعام للمُعزين من خارج القرية. وقد تصادف في مأتمين أن كان والدي وأشقائي الذكور خارج القرية. ولكن الوالدة التي تُصرّ دائماً على القيام "بالواجب"، كانت تعد الصينية وترسلني في صحبتها، فآخذ مكاني بين أعيان القرية الذين يُعدون صواني مُماثلة. وكان عليّ أن أدعو بعض المُعزين من خارج القرية إلى مائدتنا أو صينيتنا. وكنت أقلد والدي في الإلحاح على الضيوف للاستزادة من الطعام. ودوماً كنت أسترجع تلك الخبرات لسنوات، لأنها أسهمت في إنضاجي وتكريس إحساسي بذاتي.

وعلى ذكر المآتم، فقد شهدت في طفولتي بقرية بدّين عدداً منها في أسرتي الأبوية، وفي أسرة والدتي (الحلوانية). فقد توفي أحد أعمامي وهو **علي إبراهيم** ضمن وباء الكوليرا الذي اجتاح مصر عام ١٩٤٦، وكذلك أحد أخوالي **النادي السيد عبد الله**، وكان هو الشقيق الوحيد لوالدتي، وأربع أخوات أخريات. ثم بعد ذلك بعامين، فقدت جدتي لوالدي (ستّي **عيشة**)، وكذلك أحد أصدقاء الطفولة، وهو جاري **فاروق**، ابن المعلم **شحاتة**، البنا الماهر. وقد حزنت على هؤلاء الأربعة حزناً شديداً. وكانت هذه بداية تجربة الحزن لطفل لم يتجاوز التاسعة. وظل هذا الحزن معي لعدة سنوات وكنت أزور قبورهم في كل عيد. ولا شك أن فقد صديقي **فاروق** بعد مرض قصير، ومعرفتي بالخبر في عطلة نهاية الأسبوع في شهور الدراسة الأولى بالمنصورة كان صدمة عميقة... فبقية الأقارب الذين رحلوا كانوا كباراً أو أصابهم المرض لفترة مهّدتني نفسياً لرحيلهم. أما صديقي **فاروق**، فقد كان رفيقاً في كل مُغامرات الطفولة المُبكرة وكان نِداً ذكياً، سواء في كُتّاب القرية أو مدرستها الإلزامية. ورغم أنه كان وحيد والديه، وكان يتمنى أن يلحق بمدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية، إلا أن أسرته لم تكن تستطيع إرساله إلى المدينة ودفع مصروفات الدراسة، حيث لم تكن مجانية التعليم قد بدأت بعد. ولم أستوعب أنا في تلك السن معنى وتداعيات الفوارق الطبقية، والتي حرمت **فاروق** من فرصة للتعلم الإضافي، وحرمتني من استمرار رفقته معي في المنصورة. وأذكر إلحاحي على والدتي أن تتدخل مع أسرة **فاروق** لإقناعهم بإلحاقه بنفس المدرسة... وعرضت والدتي أن تتكفل أسرتنا بمصروفاته ولكن

والده (المعلم شحاتة) كان مُعتداً بنفسه، وكان يؤمن بأن "الكار" أو صنعة البناء ستكفل **لفاروق** مُستقبلاً كريماً. وربما كان المعلم **شحاتة** على حق. فقد كان هو البنا الوحيد في القرية، ولا يتوقف الطلب على خدماته.

المنصورة

كانت قريتنا (بدّين) تبعد عن أقرب وأكبر مدينة، وهي المنصورة حوالي ١٥ كيلومتراً. ولم تكن الطرق إلى المنصورة معبَّدة، ولكنها مُمهدة. وكانت سُبل الذهاب إلى المنصورة من القرية مُباشرة لا تتوافر إلا لعدة أسر ممن كانت تملك حناطير أو كاريتّات، تجرّها الخيول أو البغال. وكنا إحدى هذه الأسر. ولكن رحلة الحنطور كانت مقصورة على سفر الوالد أو أحد الأشقاء مع سيدات الأسرة. فيما عدا ذلك، كان على من يُريد السفر إلى المنصورة أن يتوجه إما إلى قرية "ميت علي" أو قرية "محلة الدمنة"، اللتين كانتا على خطين للقطارات، وكانت كل منهما تبعد عن قريتنا ثلاثة كيلومترات في اتجاهين عكسيين. وكان السفر عن طريق إحداهما هو الأكثر شيوعاً.

وكانت المنصورة بالنسبة لنا كأطفال ربما مثلما كانت باريس **لرفاعة الطهطاوي** في قرن سابق. ولم أكن أذهب إلى المنصورة في سنوات عُمري الثمانية الأولى إلا بسبب المرض لرؤية الطبيب. كانت المنصورة مدينة جميلة مُبهرة بأضوائها ومحلاتها، ومقاهيها، وحدائقها، وسياراتها وحناطيرها الكثيرة. ولأن شقيقاً لي كان يكبرني بأربع سنوات كان قد التحق بمدرستها الابتدائية الأميرية، فإنه كان يُحدثني عن المنصورة فاشتقت للذهاب إليها. وكنت ألح على والدي أن يأخذني معه... وفي مرة من كثرة إلحاحي، وعدني أن يفعل ذلك في رحلته التالية بعد أيام... وظللت أحلم وأستعد لذلك. ولم يكن في نية والدي أن يأخذني معه، ولكنه وعد بذلك لأكف عن الإلحاح... وربما اعتقد أنني سأنسى الأمر في اليوم التالي... وأظن أنني كنت في السادسة، وفي اليوم الموعود استيقظت مُبكراً، كما يفعل والدي... وذكرته بوعده... ولكي يُصرفني ويتخلص من إلحاحي اشترط أن آخذ حمّاماً وأغير ملابسي... وأثناء استحمامي، سمعت صليل الخيل مما نبّهني أن رَكَب والدي قد تحرك في طريقه إلى المنصورة بدوني. فقفزت من الطشت الذي كانت والدتي تستخدمه لإعطائي حماماً، وجريت بسرعة البرق على الطريق المؤدي من منزلنا إلى خارج القرية ومنه إلى المنصورة... ولم أنتبه لنظرات أو تعليقات الناس، إلى أن لحقت بركب والدي وأنا مُنقطع الأنفاس، وأبكي بحرقة وصوت مسموع... وقد بهت والدي فلفني بعباءته، وعاد بي إلى المنزل، وهو يهدئ من روعي ويطيب خاطري... وكانت

هذه ربما هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيت فيها وجه والدي شاحباً حزيناً، وربما مُحرجاً... وأدركت لحظة العودة إلى المنزل أنني كنت أجري في شوارع القرية عارياً، كما ولدتني أمي. ارتديت ملابس نظيفة، وركبت الحنطور مع والدي في طريقنا إلى المنصورة... شعرت بالانتصار، ثم بالبهجة مع الوصول إلى المنصورة... ولا أدري ماذا كان يشعر به والدي، فقد كان صامتاً معظم الطريق إلا من إلقاء التحية أو رد على تحيات الآخرين.

تركني والدي في ضيافة الخواجة **فيكتور** وزوجته. وكان هذا الخواجة شريكاً تجارياً في تسويق أقطان قريتنا. ولم يكن غريباً عني فقد تعود أن يزورنا في بدّين في موسم حصاد القطن. ولكنها كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيتاً أجنبياً، أو أرى زوجة أجنبية... وبينما كان الخواجة **فيكتور** يتحدث العربية بلكنة يونانية، إلا أن زوجته **مارسيل** كانت لا تعرف إلا بضع كلمات. ومع ذلك فقد رحبت بي، وداعبتني، وغمرتني بالحلوى ومشروبات الكازوزة، التي كانت جديدة عليّ... حينما حان وقت الغداء ترددت وتمنعت عن تناول غذائهم لاعتقادي أنه ربما يكون "لحم خنزير"... هذا رغم أنني كنت أتناول الطعام في منزل عم **جرجس**، صاحب ماكينة الطحين في قريتنا، وحيث كان ابنهم الوحيد **وليم** صديقاً لي يلعب معنا ويأكل في منزلنا، وآكل في منزلهم. ولكن ربما لأنهم كانوا مصريين وجيراناً فلم يكن لدي نفس التحفظ الذي شعرت به في منزل الخواجة **فيكتور** وزوجته **مارسيل**.

في عصر ذلك اليوم عاد والدي من أعماله في المدينة، واصطحبني لرؤية شقيقي **حامد**، الذي كان مع هذا الوقت قد انتهى من يومه الدراسي. ورغم أنني كنت أرى شقيقي طوال شهور الصيف، وفي عطلة نهاية الأسبوع، إلا أن رؤيته بالبدلة الإفرنجية وفي المنصورة كان له مذاق خاص. وكانت **مارسيل** قد أخبرت والدي أنني تمنعت عن تناول الغداء في منزلها... أخذني الوالد أنا وشقيقي **حامد** إلى مطعم كباب "أبو شامة"، ثم بعد ذلك إلى حلواني "راندبلو"، حيث تناولنا البسطة (الجاتوه). وشعرت أنني في جنة عدن أو السماء السابعة!.

تلميذ قروي في المدينة

ظلت المنصورة منذ زيارتي الأولى لها مصدراً للانبهار والإلهام، والشوق للالتحاق بالمدرسة فيها... وقد تحقق ذلك أخيراً في العام الدراسي ١٩٤٨/١٩٤٧. واستأجرت الأسرة لنا شقة صغيرة تتكون من غرفة واحدة وصالة صغيرة ودورة مياه، في الطابق الثاني في حي المُديرية، القريب من مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية. وكانت صاحبة العقار سيدة مُسنة اسمها

"**أم الشامي**". كما كان يناديها كثير من الجيران من صغار ومتوسطي الموظفين الذين يتعامل معهم والدي وشقيقي الأكبر **إبراهيم** في تصريف شؤون الأسرة والقرية في المصالح والدواوين الحكومية. وكانت الفكرة أن يأخذ هؤلاء الجيران اهتماماً بي (٩ سنوات) وشقيقي **حامد** (١٣ سنة)، أي المُراقبة عن بُعد. وكان لشقتنا الصغيرة تلك شرفة على شارع ضيق، مُتفرع من شارع المُديرية الرئيسي. وأذكر أن شعوراً بالإثارة والاستقلالية والرغبة في الانطلاق تملكني بعد أن اطمئن علينا الوالد، وودعنا عائداً إلى القرية. قضيت ساعات طويلة في الشرفة (البلكونة) أراقب حركة الناس في المدينة وأستمع إلى أحاديث ومُناقشات الجيران، والتي دار جزء كبير منها عن بلد جديد بالنسبة لي في ذلك الوقت اسمه "**فلسطين**".

أما المدرسة نفسها فقد كانت واحدة من تلك المدارس العريقة التي بُنيت في عهد **محمد علي** باشا الكبير، في العام ١٨٣١. وكانت على الطراز الإسلامي، من طابقين على شكل حرف **U** يتوسطها ملعب لكرة القدم، وهو الفناء الذي كان التلاميذ يصطفون فيه في الصباح، كل حسب فرقته الدراسية، للبدء بتمرينات رياضية في السابعة والنصف، ثم النشيد الوطني وتحية العلم المصري الأخضر الذي يتوسطه هلال وثلاثة نجوم بيضاء. ثم تبدأ الحصص الدراسية في تمام الثامنة، حيث كنا نتوجه إلى الفصول في طابور مُنتظم يتقدمه مُدرس أولى تلك الحصص في ذلك اليوم. وكان على الجانب الآخر من المبنى والفناء الرئيسي ملعب لكُرة السلة، وآخر للكُرة الطائرة، ورابع للريشة الطائرة. وباستثناء كُرة القدم التي كنا نعرفها ونمارسها في القرية، كانت بقية هذه الرياضات جديدة عليّ تماماً. كذلك كان جديداً ومُبهراً حديقة الطيور المُلحقة بالمدرسة على الجهة الرابعة من المبنى الرئيسي.

كل ما رأيته في الأيام الأولى بتلك المدرسة أبهرني وأثار حُب استطلاعي واستمتاعي، ورغبتي في تجريبه. كذلك كنا في مُنتصف اليوم نتوجه إلى مطعم المدرسة لتناول وجبة غداء ساخنة من الأرز والخضار واللحوم، والسلطة والفواكه. وكان المُعلم الذي تتزامن حصته مع وجبة الغداء يتناولها معنا. وكان شقيقي **حامد** في السنة الرابعة في نفس المدرسة، وكان قد أعدّني ودرّبني لكيفية استخدام الشوكة والسكين، وهو ما لم نكن قد تدربنا عليه في القرية، التي يقتصر تناول الوجبات الساخنة فيها على استخدام الملعقة واليد.

في أول يوم اثنين، وقد كان نصف يوم دراسي نخرج فيه من المدرسة في الواحدة، بدلاً من الرابعة. أخذني شقيقي إلى "**سينما عدن**"، التي تقع على نيل (بحر) المنصورة، وكانت مُتعة أخرى، حيث رأينا الصور المُتحركة، وجريدة

مصر الناطقة (وهي شريط إخباري)، وحلقة من مسلسل "**فيومانشو الجبار**"، ثم فيلما عربياً طويلاً هو "**ليلى بنت الفقراء**". وكانت هذه التجربة توازي تجارب اليومين السابقين في إبهارها ومتعتها. ولكن شقيقي حذرني من البوح للوالد أو لأحد في الأسرة في بدّين، أو أي من الجيران بأننا ذهبنا إلى السينما. فقد كان ذلك يُعتبر ابتذالاً وانحرافاً، حيث إن واجبنا هو المدرسة والمُذاكرة فقط. وكان ذلك درساً آخر في الكذب والإنكار. ولكني بدوت مُستعداً لتعلمه. كذلك سأتعلم، وأنكر، استئجار **وركوب الدراجات**، والذي كان بدوره يُعتبر ابتذالاً وانحرافاً.

كنت أقضي وقتاً لا بأس به في شرفة شقتنا الصغيرة، ولدهشتي ومُتعتي كنت اسمع الأولاد والكبار يتحدثون ويحكون ما رأوه في فيلم ليلى بنت الفقراء وحلقة فيومانشو الجبار. وفي زيارة مُفاجأة لشقيقي الأكبر **إبراهيم** ضبطني مُتلبساً وأنا أصحح إحدى وقائع الفيلم في مُناقشة بين أولاد الجيران في الشارع. فسحبني من الشرفة إلى الداخل، واستجوبني، وحصل على اعتراف كامل. وانتهى الأمر بحفلة أخرى من الضرب لي و**لحامد**. ثم بعد أن غادر **إبراهيم** إلى القرية، تلقيت علقة أخرى من **حامد**، لعدم انضباطي في حفظ الأسرار والكتمان. وبعد ذلك تداولنا في الكيفية التي كان يمكن بها الحديث عن الفيلم، دون الاعتراف بأننا شاهدناه في السينما. وكان الحل المبدئي هو أننا سمعنا الناس تحكي القصة مراراً وتكراراً، حتى حفظناه صم؟ وفي الاثنين التالي، وكل اثنين ذهبنا إلى سينما عدن، التي كانت تغير الفيلم كل اثنين. وتعلمت الكتمان، كصمام للأمان!.

كان يوم الخميس، مثل الاثنين، نصف يوم، كبداية لعطلة نهاية الأسبوع. وكانت العادة أن يتوجه أبناء الريف إلى قراهم خميساً وجمعة، لرؤية الأهل، والاستمتاع بوجبات منزلية، ثم بعد صلاة الجمعة نتناول الغداء مع الأهل، ثم نبدأ رحلة العودة إلى المنصورة. كانت والدتي وجدتي وشقيقتي (**شفيقة**) وشقيقي الأصغر **أحمد**، قد أوحشوني للغاية حيث لم أرهم لمدة أسبوع كامل، وكان ذلك رقماً قياسياً بالنسبة لي حينها. أما الوالد والشقيق الأكبر فقد كنا نراهما على الأقل مرتين خلال الأسبوع.

بعد مُتعة اللقاء والاحتفاء والعشاء، في صباح اليوم التالي، جاءت الوالدة على غرفتنا لإيقاظنا للإفطار في حوالي العاشرة... ثم بينها وبيننا سألت بصوت هامس، هل صحيح ما يدّعيه أخوكم الأكبر **إبراهيم** من أنكم تذهبون إلى "السينما". كان **حامد** لا يزال يغط في نوم عميق، فقلت لها "نعم"، حيث وجدت صعوبة شديدة في الكذب والإنكار على أمي. فسألت بعفوية، وما هي هذه السيما؟ فصحّحت الكلمة أولاً، ثم شرحت لها الموضوع... وبدا عليها الاهتمام الشديد، وهو ما شجّعني على أن أقص عليها حكاية "**ليلي بنت الفقراء**"، وبدا

عليها التأثر الشديد، ثم فجأة استيقظ **حامد**، ليصحح إحدى وقائع الفيلم، ويأخذ الخيط لإكمال القصة، وكان هو راوياً ماهراً في استخدام يديه، وتغيير نبرة صوته طبقاً للسياق السردي. سألَت الوالدةُ سؤالاً أو سؤالين عن القصة وعن أجرة السيما، ثم استنهضتنا للإسراع للفطور.

وكانت العادة أن تعد الأسرة لنا طعاماً طازجاً، يكفي ليومين أو ثلاثة، ثم يحضر لنا الوالد أو **إبراهيم** إمداداً وسط الأسبوع.. فإذا تعذر قدومهما، فإن أحد الأنفار العاملين في مزارعنا يأتي على مطية (حمار أو بغل) ومعه "الزوّادة". وكان الطعام المُعتاد هو طاجن المعمّر، وبداخله دجاج أو حمام أو لحوم، أو إناء (حلة أو قدر) من محشي الكرنب أو الخس أو ورق العنب، إلى جانب مصروف نقدي أسبوعي في حدود ربع جنيه (٢٥ قرشاً) للإنفاق منه على الضروريات أو الكماليات الأخرى. وقد كان هذا المصروف تحديداً، هو ما كنا نوفر منه ثمن تذكرتي سينما، وأجر ساعة للدراجة، ونصف قرش أو قرش لساندوتش أو مشروب في الفسحة المدرسية، (بين العاشرة والعاشرة والنصف) ما عدا الاثنين والخميس.

وكان الشيء المُبهر الآخر خلال الشهر الثاني من الدراسة في نوفمبر ١٩٤٧ هو الانشغال بقضية فلسطين. وكان طلبة المدارس الثانوية يخرجون في مُظاهرات احتجاجية. وكانت أهم مدرستين في هذا الصدد هما الثانوية الأميرية والصنايع، وهما في الطرف الآخر من مدينة المنصورة، ثم مدرستي المُعلمين والملك الكامل الثانوية، وهما في وسط المدينة. ثم نحن في الطرف المُقابل، أقصى شرق المدينة. ومع أننا كنا مدرسة ابتدائية لتلاميذ بين التاسعة والثالثة عشرة، إلا أن مدرستنا كانت مُلاصقة للمديرية (المحافظة الآن). وكان لا بد للمتظاهرين أن يُسمعوا أصواتهم وهتافاتهم للحكومة أو السُلطة، حتى لو كانت هذه كما سأكتشف بعد ذلك، لا تملك من الأمر شيئاً. وكان الروتين التظاهري في المنصورة في تلك الأيام هو أن تبدأ المُظاهرة بما كنا نسميهم بالطلبة "الفطاحل" - أي الأكبر سناً، والأقوى جسماً، والأقل تحصيلاً - وهو ما كان ينطبق على طُلاب الصنايع والأميرية الثانوية. فقد كانوا دائماً جاهزين للتظاهر من أجل أي شيء ولأي شيء. ثم تسير المُظاهرة مُخترقة وسط المدينة، وتقف أمام كل مدرسة في طريقها، تهتف بصوت أعلى، فإذا لم يخرج طلابها للانضمام إلى الموكب، فإن المُتظاهرين الأوائل يقذفون المدرسة المُمتنعة أو المتمنّعة بالحجارة، ويستهدفون عادة النوافذ الزجاجية للفصول الدراسية، وهو ما يكفي عادة لاستفزاز طلبة المدرسة المُستهدفة، فيصيح أحد فطاحلها بنفس هتاف المتظاهرين في الخارج، ويندفع خارجاً، فيندفع بقية الطلبة من خلفه، إلى أن يصلوا إلى بوابة

المدرسة، فيبعدوا البوّاب جانباً ويفتحوا البوابة ليلتحقوا بالمُظاهرة، التي تكون مع وصولها إلى مدرستنا قد بلغت أوجّها عددياً. فإذا حاولت قوات الأمن تفريقها فإن اشتباكاً قد يحدث. وكان السلاح المُفضل للأمن في ذلك الوقت هو "الكرابيج"، سواء في أيدي الراجلين منهم أو راكبي الخيول، بينما الطلبة لا يملكون إلا الزلط والحجارة، والكر والفر... وفي كثير من الأحيان كانت السُلطات لا تتعرض للمُظاهرات إلا في حالات بعينها مثل الاعتداء على المحال الخاصة أو الأموال والمؤسسات العامة أو لحدوث شجار بين مجموعات من المُتظاهرين، أو الاشتباك مع مواطنين أو مدنيين وخاصة ممن يبدون أنهم أجانب، وكانت المنصورة مليئة بهم.

كان في المنصورة ما بين خمسة عشر وعشرين تلميذاً من أبناء قريتنا في مراحل الدراسة المُختلفة، وفي مدارس مُختلفة، بما فيها الصنايع والثانوية الأميرية . أي الفطاحل. وكانوا جميعاً من أولاد الأعيان، الذين تحدثت عن أسرهم المُمتدة (أو أجناسهم) الست ... وكان منهم من ينتمون إلى أسرتنا المُمتدة (الدسوقية)، وأحدهم هو ابن عم والدي، وهو **حامد قاسم رزق**، وهو العم الذي دخل والده في نزاع قضائي طويل، انتهى لصالح فرعنا من الأسرة في نفس يوم مولدي، وقيل إن ذلك أحد أسباب تسميتي **بسعد الدين**. وكان **حامد قاسم رزق** أصغر خمسة إخوة ذكور، ولكنه الوحيد الذي أرسله والده إلى المنصورة لاستكمال تعليمه، وهو ما أثار حفيظة إخوته عليه، وحين توفى **قاسم** في مُنتصف الأربعينيات، أصر الإخوة على إخراج **حامد** من الدراسة أو إنقاص نصيبه من ميراث أبيهم. وبسبب هذه المشاكل وربما لأسباب أخرى تعثر العم **حامد** في الدراسة، فكان دائم الرسوب والإعادة... ولذلك مع الوقت الذي ذهبت أنا فيه إلى المنصورة، كان عمي **حامد** (هكذا علّمنا الوالدان أن نخاطبه) قد وصل العشرين من عمره، ولا يزال في التوجيهية (الثانوية العامة حالياً). ورغم مشاكل الميراث إلا أن العم **حامد** كان لا يزال له من الموارد ما يُمكّنه من سكن خاص به، يستقبل فيه أصدقاءه وصديقاته، فيدخن، ويحتسي الخمر، ويقال إنه كان يتعاطى الحشيش أيضاً. ورغم أسلوب حياته "البوهيمي" أو "المُنحرف" هذا، فقد كان العم **حامد** شخصية جذابة شكلاً وموضوعاً. كان غاية في الوسامة بالمقاييس المصرية طولاً وعرضاً: عيون ملونة، وملامح رقيقة، وشعر فاتح منساب. وكان أصدقاؤه يطلقون عليه "**كاري جرانت**" أحياناً و"**جيلين فورد**" أحياناً أخرى. ومع ذلك كان يهوى السياسة ويسير في المُظاهرات، أو يشارك في التخطيط لها إن لم يكن في قيادتها. وفي المرات القليلة التي سمح لي فيها بالجلوس معه ومع رفاقه في المنصورة، أو في بدّين، كان يشرح لي بشكل مُبسط

يتناسب مع وعيي ما هي الاشتراكية، والشيوعية، وحركة السلم، وما تيسر من العلاقات الدولية. ورغم كل ما كان بين والده ووالدي من خلافات إلا أنه لم يكن يأنس إلا لوالدي، يستشيره في كل شؤونه العائلية. وكان هو بدوره واعياً بأن أسلوب حياته في المنصورة يمكن أن ينعكس علينا سلبياً، فتعمد أن يظل على مسافة تقينا الفساد والإفساد.

كان انبهاري بالمنصورة في الأسابيع الأولى سبباً في صدمتي الدراسية الأولى بمدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية، حيث جاء ترتيبي الأخير في الفترة الأولى في صفي الدراسي أولى سادس، والذي كان به ٤٩ تلميذاً. وكانت صدمتي هي اهتزاز ثقتي بنفسي، حيث كُنت دائماً في مُقدمة رفاقي في مدرسة القرية. ودفعتني الصدمة إلى شحذ همتي إلى أقصى درجة. وأثمر ذلك، في صدمة أخرى، حيث جاء ترتيبي الأول في الفترة الثانية. وهو ما لم يُصدقه مُدرس اللغة العربية، وكان اسمه الأستاذ "**أبو زيد الجهلان**"، فكان يتعمد استدعائي للخروج إلى السبورة، ويُملي عليّ كلمات صعبة، مليئة بالهمزات، ويطلب مني كتابتها. فإذا أخطأت، وهو ما كان يحدث كثيراً، وخاصة لإحساسي بالرهبة والاضطراب، كان يسخر مني، ويُشبعني ضرباً على كلتا يديّ بخيزرانته. فلم أفرح بتفوقي، بل وكرهت حقيقة إحرازي للمركز الأول. ولم يتوقف اضطهاد الأستاذ أبو زيد الجهلان إلا بعد تدخل ناظر المدرسة، وكان اسمه **محمود بك أمين**. وجاء ذلك نتيجة تلكّؤي في الذهاب إلى مكتبه لأخذ صورتي ووضعها في لوحة الشرف المُخصصة لأوائل الفصول. ولما سألني عن سبب تلكّؤي عن الحضور، انفجرت باكياً، وأجبت بعدم رغبتي في أن تظهر صورتي في لوحة الشرف، حيث إنني لا أستحق ذلك، طبقاً لما يقوله لي الأستاذ **أبو زيد الجهلان**. هدأ الناظر من روعي، وأجلسني بالقرب منه، وطلب لي كوباً من الشيكولاتة الساخنة. وتم تصويري، رغم تمنعي. وعُدت إلى الصف. ولا أدري ماذا حدث بين الناظر ومُدرس اللغة العربية. ولكن الذي حدث هو أن الأستاذ **أبو زيد الجهلان**، توقف عن اضطهادي أمام بقية تلاميذ صفي (أولى سادس).

لقد ظلّت تلك الخبرة محفورة في ذاكرتي مدى الحياة. فرغم عشرات المُعلمين الذين مروا عليّ خلال العشرين سنة التالية، إلا أنني لا أتذكر أسماء مُعظمهم، ولا وقائع خبراتي في صفوف الدراسة المُختلفة في المنصورة، أو بالقاهرة، أو لوس أنجلوس، أو سياتل. وكثيراً ما كنت أشعر بالانقباض في كل مرة أحقق فيها إنجازاً يتم التنويه به أو تكريمه... وفقط في السنوات العشر الأخيرة أدركت أن بذور هذا الانقباض ربما تعود إلى تلك الخبرة المُبكرة في الصف أولى سادس بالمدرسة الابتدائية بالمنصورة.

أعوام الصِّبا (١٠-١٤)
١٩٤٩-١٩٥٢

كانت سنوات الدراسة الثلاث التالية في مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية أقل إثارة ودرامية من السنة الأولى (١٩٤٧/١٩٤٨). وكانت مصادر الإثارة في تلك السنوات من خارج المدرسة والدراسة. فمع السنة الثانية الابتدائية، كان شقيقي الأكبر **حامد** قد أنهى دراسته الابتدائية، والتحق بمدرسة الملك الكامل الثانوية (الأميرية أيضاً)، وكانت سمعتها أنها الأفضل من مدرسة المنصورة الثانوية. فقد كانت تقبل الأكثر تفوقاً من الحاصلين على الابتدائية. ولأن حجمها كان أصغر، فقد تكرّست سمعتها الأكاديمية. وانتقل جزء من اهتماماتي من مدرستي إلى مدرسة شقيقي، فأصبحت مولعاً بالاستماع، ثم بالمُشاركة في النقاش الذي كان يدور بين مُراهقين يكبرونني بثلاث سنوات أو أكثر. وكان نفس الشيء يحدث مع أقران عمي (**حامد** الآخر) الذي كان يكبرني في ذلك الوقت بعشر سنوات على الأقل، والتي تراوحت بين أحاديث السياسة، والأيديولوجيا، والبنات. وكان بين جمهرة أقران شقيقي **حامد**، وعمي **حامد**، خليط من كل التيارات والأحزاب.

بدأت اسمع عن الإخوان المسلمين والاشتراكيين والشيوعيين، وحكايات عن أن الإخوان أبلوا بلاءً حسناً في حرب فلسطين، وإن كانت قد انتهت في أوائل عام ١٩٤٩ (وأنا في الثانية الابتدائية) بهزيمة الجيوش العربية. سمعت حكايات عن بطولات **أحمد عبد العزيز**، وعن حصار الفالوجا، وبطولات ضباط مصريين مثل "**الضبع الأسود**" (**علي طه**)... وحكايات عن "**الأسلحة الفاسدة**"، التي كانت أحد أسباب الهزيمة... لم أتحقق من صحة أو دقة هذه الحكايات والروايات، ولكنها تركت عندي انطباعاً عاماً بأن "**فسادا**" ما هو سبب الهزيمة وضياع فلسطين. وأن الملك **فاروق** ضالع في الفساد، وأنه أحد أسباب الهزيمة.

اصطحبني أخي عدة مرات إلى **شعبة الإخوان المسلمين بالمنصورة**، حيث استمعت إلى خطباء يُناقشون الشأن العام من وجهة نظر إسلامية... كما اصطحبني عمي **حامد** عدة مرات إلى فرع **حزب مصر الفتاة الاشتراكي** ويقع في الناحية المُقابلة من نفس الشارع، وسمعت لأول مرة أحاديث عن الفقراء والأغنياء، والمُطالبة بتأميم الشركات الأجنبية، والإصلاح الزراعي، وتحديد الملكية الزراعية، والضرائب التصاعدية. وحضرت مؤتمراً جماهيرياً حاشداً في أرض فضاء قرب شعبة الإخوان، ومصر الفتاة، تحدث فيه زعيم مصر الفتاة **أحمد حسين**، الذي أشعل الحماس في جماهير الحاضرين بدعوته إلى تكوين

"**كتائب للفدائيين**" للجهاد ضد الإنجليز في منطقة القنال أولاً، ثم الزحف بعد ذلك لتطهير فلسطين من عصابات الصهيونية. ودعا الرجل إلى التبرع من أجل هذه "الرسالة المقدسة". وأذكر أن إحدى السيدات الحاضرات، من شدة حماسها، تبرعت بأساورها الذهبية... وأشاد بها **أحمد حسين** إشادة بالغة، ودفع ذلك بدوره عشرات الحاضرين إلى تبرعات سخية. حتى أنا تبرعت بعشرة قروش، كانت نصف مصروفي الأسبوعي في ذلك الوقت.

في النصف الثاني من ذلك العام الدراسي سمعت عن اغتيال رئيس الوزراء **محمد فهمي النقراشي** باشا، ثم بعد أسابيع سمعت عن اغتيال المرشد العام للإخوان المسلمين **حسن البنا**، وأشارت أصابع الاتهام إلى أن أحد شباب الإخوان هو الذي اغتال رئيس الوزراء، وأن أحد ضباط القسم المخصوص (البوليس السري) هو الذي اغتال المُرشد انتقاماً لقتل **النقراشي**. وكانت مشاعرنا كتلاميذ (ابتدائي) مُتأثرة بما كان يقوله لنا طلبة (ثانوي)... وكان التعاطف العام مع الإخوان ضد الحكومة التي كان الملك **فاروق** رمزاً لها. وعلمني شقيقي كيف أرسم صورة **حسن البنا**، بطربوشه وملامحه التقية الوديعة!. وزاد التعاطف مع الإخوان حينما أصدر رئيس الوزراء **إبراهيم باشا عبد الهادي**، قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وأمر بقفل مقرّاتهم، واعتقال زعمائهم... وبدأنا نسمع قصصاً عن التعذيب في السجون، وكانت إحدى القصص المُتواترة بين الكبار -ووصلت إلى إسماعنا نحن الصغار- قصة "**العسكري الأسود**" الذي قيل إنه كان يقوم بالاعتداء الجنسي على المُعتقلين من الإخوان المسلمين.

ومما زاد من استقطاب مشاعر العداء للملك والحكومة، أنه كانت في كل هذه القصص والحكايات والروايات ما يوحي بأن الإنجليز والصهاينة ضالعون في إيذاء القوى الوطنية والشرفاء من أبناء الشعب. ويبدو أن ذلك كان هو الأسهل على وعينا المُبكر . أي أن نضع كل من نكرههم في سلة واحدة، وأن نعتقد أن ثمة تخطيطاً وتعاوناً بينهم ضد مصالح مصر والعرب. وربما كانت هذه الأحاسيس والإيحاءات الغامضة هي البذور الجنينية لما سأكتشف فيما بعد أنه "**نظرية المؤامرة**" في تفسير كل ما يحيق بنا من هزائم ونكبات. فما دام "الجندي المصري" هو أقوى وأشجع جندي في العالم، وما دام الضباط المصريون الشرفاء كلهم بذلّ وعطاء واستعداد للاستشهاد، ومع ذلك هُزمنا في فلسطين، فلا تفسير لذلك إلا أن "خيانات" على أعلى المُستويات هي السبب. وكانت قرينة "الأسلحة الفاسدة"، دليلاً بالنسبة لنا على صحة هذه النظرية (المؤامرة). فلا أحد من الأقران كان لديه الوعي أو المعلومات، لكي يقول لنا مثلاً، أن الجندي المصري الذي ذهب إلى فلسطين كان **جاهلاً أمياً، وتنخر فيه**

الأمراض، وخاصة البلهارسيا، ولم يكن مُدرباً على القتال تدريباً كافياً، ولم يتم توعيته وتعبئته معنوياً، لماذا يُقاتل في فلسطين؟ وهذه كلها معلومات تعلمناها وعرفناها، بعد ذلك بسنوات طويلة، وخاصة حينما تكررت الهزائم رغم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية وجلاء الإنجليز.

وفي العام الدراسي التالي (١٩٤٩/١٩٥٠) والذي تزامن مع الصف الثالث الابتدائي، كانت مصر تستعد لعقد انتخابات برلمانية... وكان التنافس الرئيسي في تلك الانتخابات بين حزب الوفد، الذي يتزعمه **مصطفى النحّاس** باشا، والحزب السعدي الذي يتزعمه **إبراهيم عبد الهادي** باشا. وكانت مشاعري ومشاعر كل من أعرفهم مشاعر وفدية. فقد كانت مُعظم العائلات الريفية من متوسطي الملاك (الأعيان) ذات جذور وفدية. كما كان زوج شقيقتي الكبرى **أحمد السيد البيلي**، صديقاً ومندوباً لكبار الوفديين المرشحين في الدقهلية. وأذكر أنه في إحدى جولات سكرتير عام حزب الوفد، وهو **فؤاد باشا سراج الدين**، لتعضيد مُرشح الحزب في دائرتنا، وهو **المنجي محمد**، توقف في منزلنا بقرية بدّين، وخاطب أهل القرية الذين تجمّعوا أمام المنزل من الشرفة، وتناول وجبة سريعة، قبل أن يُغادر إلى محطة تالية. وكانت تلك الزيارة الخاطفة محل اهتمام واعتزاز القرية والدائرة فاكتسحها **المُنجي محمد**، وكان مُحامياً من أقربائنا بالمُصاهرة. كما اكتسح الوفد تلك الانتخابات على مُستوى مصر كلها. وكانت السيارات تردد بآلات التنبيه: يحيا **النحاس** باشا... يحيا **النحاس** باشا... كانت مظاهر البهجة عامة على الأقل في المُحيط الذي كنت واعياً به في ذلك العمر (حوالي ١١ عاماً).

وكان من القرارات المُبكرة للحكومة الوفدية هي الإفراج عن المعتقلين السياسيين، ومنهم الإخوان المسلمون. وأعيد فتح شعبة الإخوان... وكان أحد المُعلمين الذي تتلمذ على يديه شقيقي **حامد** في مدرسة الملك الكامل في ذلك الوقت من القيادات الوسطية للإخوان وكان اسمه **صلاح الشربيني**، وكان خطيباً مُفوهاً وشخصية جاذبة للشباب. وكان عادة أحد خطباء الثلاثاء. كما كان ضمن القيادات العُليا للإخوان، والد زميل لشقيقي وهو **أسامه خميس حميدة**، وكان **د.خميس حميدة** صاحب إحدى الصيدليات الكبرى في قلب مدينة المنصورة (السكة الجديدة). ومع ذلك الوقت أصبح الرجل نائباً للمُرشد العام الجديد، الذي اختاره مكتب الإرشاد، وهو المستشار **حسن الهضيبي**، الذي استقال من القضاء للتفرغ لموقعه الجديد. وهكذا وضعتني مجموعة من الصُدف على مقربة من كوادر وقيادات الجماعة. ورغم حداثة عمري إلا أنه كان هناك اهتمام منهم لجذبي أسوة بشقيقي إلى صفوفهم. ولكن حُبي للسينما والمسرح

المدرسي والتمثيل، ومن بعدهم اهتمامي بالجنس الآخر في مُقتبل المُراهقة، كل ذلك وقف حائلاً في طريق تلك المُحاولات.

تزامن العام الدراسي التالي (١٩٥٠/١٩٥١) مع الصف الأخير في المرحلة الابتدائية... وكنت قد حافظت طوال سنوات هذه المرحلة على تفوقي، ضمن الخمسة الأوائل، ولكن حُبي الأول كان لمادة "التاريخ"، التي كنت أحصل فيها عادة على الدرجات النهائية. وضمن مادة التاريخ، استهواني مُبكراً التاريخ الحديث، الذي بدأ في مصر بالحملة الفرنسية، وكان هذا التاريخ مُقرراً على الصف الرابع الابتدائي . حيث كان التاريخ الفرعوني في الصف الثاني، والتاريخ الإسلامي في الصف الثالث. وأذكر أنه حتى وأنا في الصف الأول (١٩٤٧/١٩٤٨) كنت أختلس قراءة كتاب التاريخ المُقرر على شقيقي في الصف الرابع خلال ذلك العام. وكانت شخصيتا **نابليون بونابرت**، و**إبراهيم** باشا، ابن وقائد جيوش **محمد علي** تستهويانني، وأعتبرهما قدوة أتطلع للسير على نهجيهما، وكُنت أحفظ كتاب التاريخ عن ظهر قلب... بل وكنت أختال بالتصحيح للمدرس إن سها أو وقع في خطأ، وهو ما كان يحدث بين الحين والآخر.

في العُطلة الصيفية كنا نترك السكن في المنصورة، ونعود بأثاثنا البسيط (سرير ودولاب ومكتب ومرتبة ولحاف) إلى القرية لثلاثة أو أربعة شهور. ثم في بداية العام الدراسي التالي نتوجه مع نفس العفش إلى المنصورة، نبحث عن مسكن جديد، قرب المدرسة... وغالباً ما كان ذلك يتم في غضون ساعات معدودات... كنت أقضي العُطلة الصيفية في قراءة الروايات والقصص والمجلات المُصورة. كما كان يحلو لشقيقي الأكبر **حامد** قراءة مجلة فكاهية هي "**البعكوكة**". بل وكان يُراسلها بنكات وأزجال من تأليفه. وكان يحلو له أن يوقّع رسائله بالأحرف الأولى من اسمه الرباعي: **حامد محمد إبراهيم رزق** (ح.م.إ.ر) وحين انقطع عن المُراسلة لشهر كامل، تساءل مُحرر البعكوكة عما حدث لـ "حمار" بدّين مركز المنصورة دقهلية... وصار ذلك موضعاً لمُعاكسته ومُشاكسته من الأصدقاء والأقران لسنوات طويلة، ومن مجلة **البعكوكة** نفسها إلى أن توقفت عن الصدور، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

كان أحد واجباتنا الأسرية أثناء العُطلة الصيفية هو المُساعدة في الإشراف على رعاية محصول القطن... وكان وقتها محصولاً كثيف العمالة . بدءاً من خفه إلى تنقية أرضه من الحشائش، إلى تنقية أوراقه من "لطع الدود".. إلى جمع المحصول. وكنت أستمتع في البداية بهذه المهام... ثم استثقلتها... ثم راقت لي في عُمر المُراهقة، حيث كانت معظم العاملات في تنقية ثم جمع المحصول من

الفتيات، صديقات الطفولة اللائي أصبحن مع ذلك الوقت مُكتملات الأنوثة، وتعلمن المُداعبة والغزل... ومن خلال بعضهن، كانت خبراتي الجنسية المُبكرة، في حقول القطن أو الذرة.

كانت مواسم الحصاد (القطن والأرز والذرة) تتزامن مع بداية الخريف (سبتمبر)، وكان الريف ينتعش بوفرة الخير والأموال (الإيراد) والفواكه، وهو نفس الوقت الذي نستعد فيه للعام الدراسي الجديد، بملابس جديدة، وأدوات مدرسية جديدة... وكانت طلباتنا كأطفال وصبية وشباب تؤجل طوال العام إلى حلول هذا الموسم، الذي كان يسمى "الإيراد". حتى زملاء الطفولة الذين لم يذهبوا مثلنا إلى "البندر" (أي المدينة) للدراسة، وبقوا في القرية، وشبّوا عن الطوق، كانوا يعوضون الحرمان من الدراسة بالزواج المُبكر، في موسم الإيراد. وهكذا ما إن يحل شهرا أكتوبر ونوفمبر، حتى تزدان قريتنا بحلة جديدة، إما بالصبية والشباب الذين يتهيأون للذهاب للدراسة في المنصورة، أو استعداداً للأفراح والليالي الملاح.

وحينما كبرت وتزوجت وأنجبت، كان يحلو لي أن أفعل مع طفليّ - **راندا وأمير** - نفس الشيء كلما طلبا شراء لعب أو ملابس... حيث كنت أتذرع لهما بأن ينتظرا "للإيراد"... ويسألان عن المعنى والسبب، وأستمتع أنا بالشرح لهما بحكاية أول "ساعة يد"، وأول"قلم حبر"، وأول "بنطلون طويل"، وأول "كرافتة" (رباط عنق) اشتراها لي والدي... كانت دائماً في "الإيراد"... وبعد أن سمعا كل القصص كانا يسألان: وأين القطن والأرز والذرة، ونحن في القاهرة أو لوس أنجلوس؟ وأستمر أنا في المناورة... "إذن لا بد من الانتظار حتى نعود إلى قريتنا بدّين". ثم علمتهما والدتهما أن تلك هي "قريتي أنا... وليست قريتهما... وكان "الإيراد" إيراد جدّهما **محمد**، وليس إيراد أبيهما **سعد**، وأن "إيرادي" هو في بداية كل شهر... ومرت سنوات... وحينما رزقت ابنتي **راندا** بطفليها (**لارا وسيف**) رأيتها تستخدم معهما نفس الأسلوب... أي "الإشباع المؤجل"... وليس "الاستجابة العاجلة" لكل طلب استهلاكي أو استمتاعي. وبعد ستين سنة ما زال موسم الإيراد في قريتي بدّين، ومدينتي المنصورة يثير ذكريات وشجون الطفولة والصبا والشباب، رائحة القطن والأرز والذرة والبلح والجوافة والبطاطا... وشراء أول ساعة يد وأول بنطلون طويل، وأول قلم حبر، وأول كشكول (بدل الكراسة)، وركوب أول دراجة، ودخول أول سينما... لقد كان حقاً زمناً جميلاً، رغم مقرعة سيدنا الشيخ **بدر**، وخيزرانة مُعلمنا **أبو زيد أفندي الجهلان**!.

طالب ثانوي في مدرسة الملك الكامل
١٩٥١/١٩٥٢ ـ ١٩٥٥/١٩٥٦

كانت كلمة "تلميذ" ترتبط بوصف الصغار في المراحل الدراسية الأولى. فإذا أنهى الدارس المرحلة الابتدائية، باجتياز امتحانها كشهادة عامة، ما بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، فيمكن أن يتوظف بها، أو يستكمل تعليماً حِرفياً في مدارس الزراعة والصنائع والتجارة، أو يواصل تعليماً عاماً ثانوياً. وقد اكتفى أولياء أمور العديد من أقراني سواء من أبناء قريتي أو أبناء المنصورة بالشهادة الابتدائية، أو دخلوا التعليم الحِرفي. ولكن شقيقي وأعمامي، وأولياء أمورنا كانوا من الأقلية الحريصة والقادرة على مواصلة أبنائهم للتعليم الثانوي العام، وفي ذهنهم التعليم الجامعي بعد ذلك. ولم تكن "مجانية التعليم" كسياسة قد أقرت بعد، رغم أن تلك كانت بين الوعود الانتخابية لحزب الوفد، والذي عين **د.طه حسين** بك وزيراً للمعارف (التربية والتعليم فيما بعد) لهذا الغرض. وكان من يتعلم في الثانوية والجامعة يُلقب بطالب، وليس بتلميذ!

إلغاء مُعاهدة ١٩٣٦

كان العام الدراسي ١٩٥١/١٩٥٢ عام انتقالي من "تلميذ ابتدائي" إلى "طالب ثانوي". وكان ضمن طقوس هذا الانتقال المرحلي، أن يُقلع الدارس عن ارتداء البنطلون القصير، ويرتدي بنطلوناً طويلاً، ويستخدم "قلم حبر" بدلاً من "ريشة حبر" للكتابة، وأن يستخدم "كشكولاً" بدلاً من "كراسة"... هذا ضمن شكليات أخرى، كنا نعتبرها غاية في الأهمية لتمييز "الطالب" عن "التلميذ". حتى الفارق بالإنجليزية كان من أول ما تعلمناه "Pupil" يعني تلميذ، و "Student" يعني طالب ولكي تكمل صورة هذا الأخير، فهو يُضيف ربطة العنق (الكرافتة)، وربما يلبس خاتماً ذهبياً (إذا كان من أسرة ميسورة) أو فضياً (إذا كان من أسرة مُتوسطة). وإذا ذهب إلى المُصوراتى، فلا بد من أن تظهر كل هذه الإضافات في الصورة، بطريقة أو بأخرى!

ولكن بعد أن تخبو هذه البهجة الأولية لطالب الثانوي، فإننا نوزع اهتماماتنا بين الدراسة، والهوايات، والجنس الآخر، وفي حالتي استمر اهتمامي المُبكر بالسياسة والشأن العام.

ألغى **النحاس** باشا معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، وكان ذلك مطلباً شعبياً. فقد كانت المُعاهدة تقر بتواجد عسكري لبريطانيا في قناة السويس. وهو ما رأيناه انتقاصاً من السيادة والاستقلال. وما زلت منذ ذلك الوقت أتذكر عبارة الزعيم

الجليل – كما كان الناس يُلقبونه – **مصطفى النحاس**: "من أجل مصر وقّعنا مُعاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أعلن إلغاء المعاهدة". وتابعت مع غيري من طلبة مدرسة الملك الكامل الثانوية البهجة الشعبية بهذا القرار، كما خرجنا في المُظاهرات التي تطالب الإنجليز بالجلاء فوراً. وسمعت ورددت مع المتظاهرين هتافات "**الاستقلال التام أو الموت الزؤام**"، و"**مصر والسودان لنا... وإنجلترا إن أمكنا**"... "**تموت... نموت... وتحيا مصر**". ورغم أنني لم أعِ وقتها معنى "الموت الزؤام"... إلا أن ذلك لم يمنعني من ترديد هذا الهتاف وغيره بصوت يشق عنان السماء.

تابعت أيضاً بحماس أخبار الفدائيين الذين كانوا يُغيرون على مُعسكرات الاحتلال الإنجليزي في منطقة القناة والإجراءات القمعية والعقابية المضادة... والتي كُنا نخرج مُتظاهرين احتجاجاً عليها... وما زلت أذكر قصة الفلاحة المصرية "**أم صابر**" التي تصدت لرصاص الإنجليز، حتى تعطي فرصة للفدائيين الذين كانوا يختبئون في حظيرة مُلحقة بدارها بعد تنفيذ إحدى عملياتهم... وكانت هذه النماذج للتضحية والفداء تشعل وجداني... وتجعلني أتعجل النمو حتى أنضم إلى كتائب الفدائيين.

في نوفمبر من عام ١٩٥١ أيضاً تزوجت شقيقتي الثانية **شفيقة** من شاب من عزبة مُجاورة سُميت باسم عائلته، وهو **عبد الفتاح نصر أبو خزيم**، الذي كان يعمل مأموراً للضرائب في المنصورة، وتم العُرس في احتفال كبير في المنصورة في صوان أقيم على سطح المنزل الذي كُنا نسكن فيه في تلك السنة بحي (الحسينية). فمع ذلك الوقت كان قد دخل شقيقي الأصغر **أحمد**... الذي سار على نفس نهجي ونهج **حامد**... مدرسة المنصورة الابتدائية... ثم بعد ذلك الملك الكامل الثانوية... وحيث أصبح ثلاثة من الأشقاء معاً، فقد عملنا على ضم أصغر شقيقاتنا **آمال** لتدخل المدرسة في المنصورة... وأصبحت الشقة التي تستأجرها لنا الأسرة أكبر... وأصبحت الوالدة تأتي لتقضي معنا عدة أيام كل شهر... لذلك جاءت إقامة عُرس الشقيقة **شفيقة** في المنصورة، وليس في بدّين، تجاوباً مع هذا التطور الأسري، حيث لم يكن من الأشقاء في بدّين مع ذلك الوقت إلا الأخ الأكبر **إبراهيم** وأسرته الصغيرة. فحتى شقيقتي الكبرى **روحية** وزوجها وأبنائها كانوا قد انتقلوا إلى المنصورة، واتخذوا سكناً لهم في حي "المُختلط" الأرستقراطي. أما **شفيقة**، العروس، فقد سكنت في حي ميت حدر، قرب عمل زوجها (مأمورية ضرائب المنصورة). وبانتقال الثقل العائلي من قرية بدّين إلى مدينة المنصورة، لم أعد أعود إلى القرية كل يوم خميس، كما كانت العادة في الأعوام الأربعة السابقة. وفي المُقابل أصبح هامش الحُرية أضيق قليلاً مما كان في تلك السنوات الخوالي.

في ديسمبر من عام ١٩٥١، مع اشتداد العمليات الفدائية، وشكوك الإنجليز بأن الشرطة المصرية في مُدن القناة الثلاث ـ السويس والإسماعيلية وبورسعيد ـ تتواطأ مع الفدائيين، فقد حاصرت وحدات من الجيش الإنجليزي مبنى مُديرية أمن مُحافظة الإسماعيلية، وطالبت بإخلائه وتفتيشه، بحثاً عن فدائيين قيل إنهم اختبؤوا فيه... وأعطى وزير الداخلية وقتها، فؤاد **باشا سراج الدين**، أوامره إلى قوات الشرطة بأن ترفض الإنذار وتدافع عن مقرّها إلى آخر رجل. وهو ما كان، وانتهى المشهد إلى مذبحة، حيث لم يكن أفراد الشرطة المحلية نِداً لقوات الجيش الإنجليزي عدداً أو عتاداً أو تدريباً، فقتل مُعظمهم. ولم ننتظر نحن أو غيرنا من طلاب المدارس والجامعات سوى ساعات حتى خرجنا في مظاهرات عارمة وغاضبة. وفي المنصورة حيث كانت ما تزال هناك جاليات أجنبية ومحال وشركات يملكونها، فقد تعرضت لهجوم طلابي بالزلط والحجارة... ويبدو أن نفس الشيء وقع في عدة مدن. ولهذا السبب أصدرت الحكومة قراراً بإقفال المدارس إلى "أجل غير مُسمى"، ثم سرعان ما قررت أن تمنح إجازة نصف العام مُبكراً، في النصف الأول من يناير ١٩٥٢.

حفل التكويج ومسرح القرية

منذ وفاة صديق الطفولة **فاروق شحاتة** وأنا في الصف الأول الابتدائي، نمت وتعمقت صداقتي بآخر يكبرني بسنة، وكان اسمه أيضاً **سعد** الطحّان. فقد كُنا نلعب كُرة القدم سوياً في فريق أسميناه "النجم الذهبي"، وكان يتنافس مع فريق آخر بالقرية سمى نفسه "الريشة الفضية". وكانت التدريبات والمُنافسة تستمر طوال شهور الصيف. أما وقد تقرر إغلاق المدارس إلى آجال غير مُسماة، فقد استأنفنا المُنافسة خلال فترات الإغلاق. أكثر من ذلك بدأنا نشاطاً مسرحياً في القرية، حيث كنا نقدم مسرحيات دينية ووطنية. وحينما لا يكتمل العدد المطلوب سواء في النشاط الرياضي أو المسرحي من تلاميذ وطلاب المدارس، كنا نستعين بصبية وشباب من أهالي القرية... ولم يخل الأمر من الطرائف في هذا الصدد، ومنها طرفتان ما زلت أتذكرهما : الأولى، حينما استعنا بشاب قروي لدور بسيط، وهو دور حاجب في مشهد لتتويج ملك جديد. وكان عليه فقط أن يُعلن بدء المراسم، مع فتح الستار، وهو وسط المسرح، بعبارة "حفل التتويج"، وكان هناك كالعادة مُلقن من وراء الستار يهمس للمُمثلين بكلمات أدوارهم. ونادى الشاب القروي، في زي الحاجب الملكي "حفل التكويج". وبدلاً من أن يترك المُلقن الأمر يمر، فإنه همس من جديد للحاجب "**حفل التتويج يا ولد**"، فردد الحاجب بأعلى صوته "**حفل التكويج يا ولد**". وضحك الجمهور،

وبدلاً من أن يتغاضى المُلقن، فقد همس للمرة الثالثة "**حفل التتويج... يا حمار**"، فردد الحاجب "**حفل التكويج... يا حمار**" فانفجر الجمهور في ضحك أكثر، اضطررت معه، وقد كنت المخرج، لإقفال الستار... وانشغلت بفض الاشتباك بين "**المُلقن**" والقروي الذي يُمثل دور الحاجب!

كانت الطرفة الثانية في مشهد آخر، في مسرحية أخرى، واستعنا مرة أخرى بأحد شباب القرية في دور حارس لسجن يوجد به أحد المُعارضين للنظام الملكي... وجاء الملك إلى السجن... وبعد تبادل عدة عبارات مع السجين، جذب الملك سوطاً من الحارس، وانهال به ضرباً على السجين مغلول اليدين والقدمين... ثم قهقه الملك عدة ضحكات ساخرة، وخرج من المشهد. فما كان من القروي الذي يقوم بدور الحارس، إلا أن فعل نفس الشيء، دون أن يعي أن الملك كان يفرقع بالسوط دون إيذاء حقيقي للمُمثل (السجين). وهنا صاح السجين "حوشوا هذا الحمار الذي يضربني بحق وحقيقي...". ومرة أخرى كان لا بد من إسدال الستار بسرعة، وفض الاشتباك، لا بين الحارس والسجين فقط، ولكنه أيضاً بين أسرتيهما اللتين تدخلتا، كلٌ لنصرة ابنها.

كان صديقي **سعد الطحان** رفيقاً وشريكاً في كل هذه الأنشطة، وفيما بعد في الغزل وحُب شقيقتين، كانت أسرتهما تعيش في القاهرة وتعود إلى القرية في الإجازات... وأثمرت قصة الحُب المُبكرة هذه بعد عشر سنوات تقريباً في زواجه من إحدى الشقيقتين... وقتها كانت قد تفرعت وتباعدت مساراتنا.

حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢)

عدنا في مُنتصف يناير إلى صفوف الدراسة من جديد، ولكن لم تمر عشرة أيام، إلا وكان حريق مروّع قد وقع بالقاهرة... يوم السبت ٢٦ يناير... وقرأنا في صحف اليوم التالي تفصيلات مُذهلة عن إشعال النار عمداً بكُبرى الفنادق والبنوك والمحال التجارية بواسطة جماعات من السوقة... وهو ما استدعى إنزال قوات من الجيش لإخماد المُظاهرات والمُساعدة في إطفاء الحرائق، بعد أن أخفقت قوات الشرطة والمطافئ في السيطرة على الموقف.

سمعنا أيضاً في نشرة الأخبار المسائية، التي كانت تذاع في الثامنة والنصف أن الملك قد أقال وزارة **النحاس**، وفرض الأحكام العُرفية، وعطّل المدارس والجامعات إلى أجل غير مُسمى. حزنّا لإقالة حكومة الوفد التي لم يطل بها العهد في السلطة إلا سنتين... وشممنا جميعاً رائحة تحالف غير مُقدس بين الإنجليز والقصر، لإخماد الحركة الوطنية المُشتعلة منذ إلغاء المُعاهدة وتصاعد حركة الفدائيين في منطقة القنال. وبالفعل نجح هذا التحالف في

السيطرة على الأمور. فالأحكام العُرفية منعت التظاهر، والحكومات المُتعاقبة بعد الوفد لم تكن مُتعاطفة مع المُقاومة، ومع الإنجليز فرضت عليها حصاراً أشبه بالكمّاشة. ورغم أن القائمين على حركة المُقاومة لم يكشف عنهم في حينه، إلا ما عرفناه من مصادر مُتناثرة، وقتها، فقد تأكد لنا ككبار فيما بعد أنها كانت خليطاً من شباب الطليعة الوفدية والإخوان والضباط الأحرار.

عدنا لمقاعد الدراسة في مُنتصف فبراير ١٩٥٢، وانتظمت الدراسة إلى نهاية العام الدراسي، في مُنتصف يونيه، لتعويض ما يوازي شهراً ونصف من التوقف بسبب الإضرابات في النصف الأول من العام.

٢٦ يوليو ١٩٥٢: شاهد على خروج الملك

كنت في سنوات سابقة قد زرت الإسكندرية في فصل الصيف، كنوع من المُكافأة على تفوقي الدراسي. وكنت أحل في ضيافة أسرة عمي **عبد الوهاب إبراهيم رزق**، الذي كان يدرس الهندسة (شُعبة كهرباء) في جامعة الإسكندرية، ويعمل في بعض الوقت في مصلحة الأرصاد الجوية، فرغم أنه كان صاحب أطيان، تدر عليه إيراداً معقولاً، إلا أنه كان قد تزوج قبل اثني عشر عاماً، وأنجب ثلاثة أطفال، فأصبح في حاجة إلى دخل إضافي... وكان هذا العم يحمل لي محبة خاصة منذ طفولتي... وهو الذي كان يُصرّ على دعوتي لقضاء جزء من الصيف مع أسرته... وحكت لي زوجة عمي **(أم سامي)** أن أحد أسباب محبته الخاصة لي، هي أن والدتي كانت ترعاه في طفولته كما لو كان ابنها، ولأنه كان الأكثر جدّية في الدراسة، فقد وقفت والدتي إلى جانب قرار الإبقاء عليه في مقاعد الدراسة بالمنصورة، مقابل وعودة ولدها **إبراهيم** إلى بدّين لأنه لم يكن بنفس الجدّية... وحيث لم تكن ظروف الكساد الأعظم في الثلاثينيات تسمح بالإنفاق على اثنين، في غياب مجّانية التعليم... ومنذ ذلك الوقت وذاك الموقف اشتهرت "**الست جوهرة**" (وهو ما كان يُلقبها به الجميع) بأنها نموذج الإنصاف. وكثيراً ما كانت نساء القرية، وحتى بعض رجالها، يلجأون إليها للتوسط في المُنازعات... وكان الجميع (إلا أقاربها) يقبلون أحكامها بلا جِدال.

وهي بدورها كانت تعزّ عمي **عبد الوهاب** وتعامله كابن لها، خاصة وقد وجدته طفلاً يحبو، حينما تزوجت أبي، بعد فقد والدهما (جدي **إبراهيم**) و**عبد الوهاب** لم يُكمل الثانية من عُمره. وفي الزيارة الصيفية لعمي في الإسكندرية، كانت والدتي ترسل معي "زيارة" تتكون من عدد من الطيور المذبوحة (أوز وبط ودجاج) والفطير المشلتت، والبيض والجبن والأرز والعسل.

ولم تكن سلة واحدة تكفي هذه الكمية، بل ثلاث سلال على الأقل... ولأن كمية الطيور المذبوحة كبيرة، وفي غياب الثلاجات المنزلية الحديثة في ذلك الوقت... فقد كان عمي يُسارع بدعوة الأقارب والأصدقاء المُقيمين في الإسكندرية - مثل إحدى أخوالنا **السيد بك عبد المجيد**، وصهره **أحمد أفندي رخا**، وأولاد خالاتنا وهم **حامد عزت**، وكان يدرس الحقوق، و**ماهر الرس** وكان يدرس الهندسة، و**صالح شهاب الدين** وكان يدرس الآداب.

ولم يكن صيف ١٩٥٢ مُختلفاً عن سابقيه في هذا الصدد... فقد توجهت بصحبة والدي والسلال الثلاث إلى المنصورة صباح يوم ٢٣ يوليه، ومنها إلى محطة القطارات الميري... وأخذنا القطار إلى الإسكندرية... وفي القطار بدأت تتساقط على إسماعنا أنباء عن حركة قام بها الجيش فجر اليوم، وأذيعت أخبارها في السابعة، ثم الثامنة، صباح اليوم... وطبعاً لم نكن نحن في بدّين قد سمعنا تلك الأخبار... فرغم أنه كان في منزلنا راديو (يعمل بالبطارية) إلا أنه لم يكن مُعتاداً أن نستمع له في الصباح... هذا فضلاً عن أننا كنا مشغولين بالإعداد لرحلة الإسكندرية... أما صحيفة "المصري" التي اشتريناها في محطة المنصورة للتسلية أثناء رحلة الأربع ساعات، فلم تحمل أخبار تلك الحركة ... فمن الواضح أن طبعة الأقاليم كانت تُطبع في حوالي العاشرة من مساء اليوم السابق.

بمُجرد وصولنا إلى الإسكندرية ثم إلى منزل عمي في الظهيرة ... ولم يكن قد عاد من عمله بعد... توجهت إلى الراديو لسماع الأخبار... وسمعت المزيد مما يؤكد ما كنت قد عرفته في القطار. ورغم توقي وأبناء عمي للذهاب إلى البحر، إلا أنني مكثت إلى جانب الراديو، أنتقل من محطة إلى أخرى، بما في ذلك محطة الشرق الأدنى البريطانية وراديو إسرائيل... ثم في المساء كان منزل عمي قد امتلأ بالزوّار المُعتادين، خاصة وأن مُعظمهم كان يسكن في نفس العمارة، التي يملكها **السيد بك عبد المجيد**، بمنطقة باكوس... وقامت نساؤهم بمُساعدة زوجة عمي في إعداد مائدة عامرة، سمعت فيها الدعوات للست **جوهرة**... ثم انتقل الرجال إلى الشُرفة الكبيرة لشقة عمي في الدور الثاني من العمارة... وبدأت مُناقشة الأحداث، وكلٌ يُدلي بقدر من المعلومات التي تسقّطها، ثم سرعان ما انتقلوا إلى تحليل معاني ما حدث - مُقدماته، بدءاً من حريق ٢٦ يناير، إلى الارتباك السياسي الذي تجلى في تغيير الحكومة ثلاث مرات في ستة شهور، وانتخابات نادي الضباط، التي خسر فيها صِهر الملك وفاز فيها اللواء **محمد نجيب**، مُمثل ما يُسمى بالضباط الأحرار... وكانت هذه كلها أسماء جديدة، اسمعها لأول مرة. وأجمع الحاضرون على أن ثمة انقلاباً أو ثورة في الأفق... وحاول البعض أن يُخمّن موقف الإنجليز والأمريكيين... وعما

إذا كانوا سيتدخلون لنُصرة الملك، كما حدث في حركة عرابي ١٨٨٢... ونمت في تلك الليلة وأنا في حالة من الإثارة والتطلع لما تحمله الأيام التالية.

غادر والدي في اليوم التالي، عائداً إلى المنصورة وبدّين... وتوجهت وأبناء عمي إلى البلاج... ومعي ما تيسر من الجرائد... لم يكن أبناء عمي الأصغر مني بعدة أعوام ذوي اهتمام بالسياسة... فكنت أسبح وألعب معهم ساعة أو ساعتين، ثم أعود إلى الصُحف أقرأها للمرة الثانية... وأتأمل صور الضباط الذين كانوا يتحرّكون في آلياتهم وسياراتهم... ولكن الصُحف لم تنشر إلا اسم اللواء **محمد نجيب**، قائد الحركة، ورئيس نادي الضبّاط. وعلمت من ذات الصُحف أشياء عديدة عن خلفية الرجل (أمه سودانية) وتاريخه (كأحد أبطال حرب فلسطين).

وفي المساء تجمع الكبار مرة أخرى في شرفة شقة عمي لمزيد من النقاش... وكنت أستمع باهتمام شديد، دون أن أشارك في الكلام... ولكنني اعتبرت نفسي محظوظاً بزيارتي لعمي في هذا التوقيت... وسرنا على هذا النهج في اليومين التاليين... إلى أن كان عصر يوم ٢٦ يوليو، حيث سمعنا بياناً بصوت المذيع **د.جلال معوض**، يُعلن أن الجيش قد وجّه إنذاراً إلى الملك **فاروق**، بأن يتنازل عن العرش لولي عهده **أحمد فؤاد** الثاني، وأن يُغادر البلاد قبيل السادسة من مساء اليوم.

ضجت الشوارع بالزغاريد... وخرجت الناس بالآلاف عصر ذلك اليوم إلى كورنيش الإسكندرية، باتجاه قصر رأس التين، في غرب الإسكندرية... وكنت وعمي، وصهري **عبد الفتاح نصر** الذي انتقل في اليوم السابق إلى الإسكندرية، وشقيقتي **شفيقة** ضمن الآلاف المؤلفة، التي احتشدت قرب القصر الملكي... ورأينا عن بعد موكباً يتقدمه الملك ببذلته الملكية العسكرية البيضاء وجسمه البدين، تعقبه الملكة **ناريمان** وبقية الحاشية... ورأينا حرس التشريفة يؤدون له التحية العسكرية... ثم سمعنا إحدى وعشرين طلقة... بعدها تحرك اليخت الملكي "**المحروسة**" إلى عرض البحر المتوسط... وظللنا نرقبه إلى أن اختفى في الأفق... لقد كان يوماً مشهوداً في حياة مصر وحياتي لن أنساه أو أنسى تفاصيله.

معلمون يتركون بصماتهم

كانت السنوات الأربع التالية في مدرسة الملك الكامل الثانوية مليئة بالنشاط والإنجاز، وخاصة بمرور الوقت، للدرجة التي أصبحت فيها في السنتين الأخيرتين مرموقاً، على مستوى المنصورة وعلى مستوى القطر المصري.

وبداية، ترك عدد من المُدرسين بصماتهم العميقة على شخصيتي، وعلى تفكيري، واختياراتي التالية في الدراسة والمسيرة المهنية. من أولئك أستاذ اللغة العربية **إبراهيم عيد**، الذي حببني في اللغة مُجدداً، بعد الجفوة التي استمرت عدة سنوات بسبب العقدة التي أحدثها **أبو زيد الجهلان**. كان **إبراهيم عيد** يُعاملنا كأصدقاء... وكثيراً ما دعاني أنا وزميل آخر اسمه **شعبان عبد الحي** إلى منزله للشاي أو الغداء. كذلك أثر فيّ أستاذان مُتعاقبان لمادة التاريخ هما **محمد حسين**، و**زكي أحمد**. وأستاذان للجغرافيا هما **فتحي المنيّر**، و**عبد اللطيف دراز**، وأستاذان للغة الإنجليزية، هما **حلمي رفلة**، و**فيكتور فرج**. وكان هذا الأخير وسيماً ممشوقاً وغاية في الأناقة واللياقة والكفاءة. وكان مُعظمنا يعتبره مثلاً أعلى جديراً بالمُحاكاة. وهو بدوره كان يُشعر كل منا بآدميته، ويُخاطبنا باحترام غير معهود. فأنا دائماً السيد/ **سعد الدين إبراهيم** (Mr. Ibrahim)، وكان يُصر على الحديث بالإنجليزية من أول دقيقة في حصة الإنجليزي إلى آخر دقيقة. ومع ذلك كان الجميع يفهمونه.

أما الشخص الأخير الذي أثر فيّ بأكثر ما تصورت فهو مُدرس الفلسفة وعلم الاجتماع **محمد عوض**. وكان رجلاً خفيف الظل، ساخراً، ويُشرف على فريق التمثيل. وكان عكس الأستاذ **فيكتور فرج** في كل شيء. فلم يكن وسيماً ولا أنيقاً ولا دقيقاً في مواعيده. ومع ذلك وجدته شخصية جذابة ومُثيرة. وكثيراً ما تعجبت حول هذين المُتناقضين في كل شيء شكلاً وموضوعاً. ومع ذلك كان كل منهما محل إعجابي الشديد. وربما كان ذلك أحد البذور الجنينية التي جعلتني أقبل التنوع... وأجد في كل نموذج إنساني واجتماعي شيئاً جديراً بالتقدير... وهو ما تعلمته فيما بعد، ففهمت ما ينطوي عليه مفهوم "**التعددية**". أحببت اللغتين العربية والإنجليزية بسبب **إبراهيم عيد** و**فيكتور فرج**. وكنت بالفعل أحب التاريخ والجُغرافيا. أما الجديد فقد كان نمو حبي لعلم الاجتماع بسبب الأستاذ البوهيمي المرح الساخر **محمد عوض**، وهو ما سأنتهي بالتخصص فيه مهنياً. وكان هؤلاء المُعلمون في مُجملهم سبباً في اختياري لشعبة "**أدبي**"، رغم تفوقي في الرياضيات، والتي كان يُمكن أن تؤدي بي لدراسة الهندسة. إلا أن المواد العلمية لم تستهوني: الطبيعة والكيمياء والأحياء . ولا أذكر أسماء من درسوها لي، رغم أنني كنت أجبر نفسي على حفظها (وليس فهمها) لأغراض النجاح المشرّف فيها، وحتى لا يتأثر ترتيبي العام.

وجدير بالذكر أن إعجابي بشخصيتي **نابليون بونابرت** و**إبراهيم** باشا كان قد جعلني أفكر جدياً في دخول الكلية الحربية. ولكنني اكتشفت في الصف الأول الثانوي أنني مُصاب "**بقصر النظر**"، وأحتاج لنظارة طبية، وقد أحزنني

ذلك كثيراً، وبقيت لمدة طويلة ضائعاً، لا أعرف ماذا أريد أن أكون، كنت في وقت من الأوقات قد أعجبت **بأنتوني أيدن** وزير خارجية بريطانيا، وقرأت وقتها أنه كان قد تخصص في **"اللغات الشرقية"**. فأصبح ذلك المجال وعلم الاجتماع مجالين مُحتملين – وإن كانا غامضين – للدراسة الجامعية. وكانا غامضين، لأنني لم أكن مُتأكداً من الجدوى العلمية المهنية لهما، ماذا يُمكن أن أعمل بهما بعد التخرج؟ ولم أكن أعرف أحداً درسهما وتوظف بهما . اللهم إلا الأستاذ/ **محمد عوض**، مدرس الاجتماع في مدرسة الملك الكامل. ومع حبي له، فلم يكن مثلاً أعلى أريد الاقتداء به. وسألته مرة ماذا يمكن لدارس الاجتماع أن يعمل بعد التخرج. فأنارني الرجل، بأنه يُمكنه أن يعمل أشياء كثيرة، بحثاً ومُمارسة، حيث إن هناك فرعاً لعلم الاجتماع لكل نشاط إنساني . من علم الاجتماع الديني إلى علم الاجتماع الاقتصادي، إلى علم الاجتماع العائلي إلى علم الاجتماع السياسي. وإلى ذلك الوقت كانت الدراسات الشائعة والشعبية، لمن يدخلون الشعبة العلمية، هي الطب والصيدلة والهندسة، ولمن يدخلون الشعبة الأدبية هي الحقوق والتجارة والآداب. وكان أمل مُعظم الشباب أن يكون طبيباً أو مُهندساً أو صيدلانياً، أو ضابطاً في القوات المُسلحة أو الشرطة. وإذا دخل أحد كلية الحقوق فقد كان أمله أن يتخرج وكيل نيابة. ولسبب ما درج الأستاذ **محمد عوض** على مواصلة الحديث معي حول مستقبلي المهني... وكانت كل جولة حديث تنير الطريق أكثر. وساعدني هو على الحسم بأن المهم **"أن أحب ما أدرسه، وأن أتفوق فيه"**!

قامت حكومة الثورة بتعديلات عديدة في تنظيم التعليم شكلاً ومضموناً، على أمل أن يتواءم مع روح الثورة ويخدم أهدافها. من ذلك إعادة تقسيم السلم التعليمي إلى ثلاث مراحل . ابتدائي، وإعدادي وثانوي. بدلاً من مرحلتين: ابتدائي وثانوي. أصبحت المرحلة الأولى طبقاً لهذا التقسيم ست سنوات، والإعدادية ثلاث سنوات، والثانوية ثلاث سنوات. وكانت مجموعتي العُمرية هي أول من طُبق عليها هذا النظام الجديد، في العام الدراسي ١٩٥٣/١٩٥٢، والذي حصلت فيه على شهادة جديدة هي **"الإعدادية"**. وبدءاً من العام الدراسي ٥٤/٥٣ أصبحت في "صف" هو الأول الثانوي. طبقاً لهذا النظام أنهي تعليمي الثانوي في العام الدراسي ٥٦/٥٥. أي أن عدد سنوات الدراسة لن تتأثر، ولكن فقط مُسميات مراحلها. وأصبحت دفعتي العُمرية هي الوحيدة التي حصلت على **الشهادات الابتدائية (٤ سنوات) "الإعدادية"، والثانوية**، وهاتان الأخيرتان حصلت عليهما من نفس المدرسة (الملك الكامل) التي قامت بإعطاء "الإعدادية" لمجموعة عُمرية واحدة، وهي مجموعتي، وبعدها أصبحت للشهادة الثانوية فقط.

مع حلول العام الدراسي ١٩٥٣/١٩٥٤، أيضاً كان شقيقي الأكبر قد حصل على الثانوية العامة، التي كانت آخر مرة يُطلق عليه "الشهادة التوجيهية". وحصل على مجموع مُتوسط، اختار به أن يلتحق بكلية التجارة، جامعة الإسكندرية.

فلسفة الثورة ومواجهة مع عبد الناصر ١٩٥٤/١٩٥٥

بدأت العام الدراسي ١٩٥٤/١٩٥٥ في المنصورة، وأنا للمرة الأولى بدون صحبة شقيقي **حامد**. ووجدت نفسي فجأة وأنا أقل من السادسة عشر مسؤولاً عن ثلاثة آخرين من صغار الأسرة: شقيقي الأصغر **أحمد**، وأصغر شقيقاتي **آمال**، و**سمير** ابن شقيقي **إبراهيم**. ومرة أخرى استأجرت الأسرة لنا شقة من ثلاث غرف في حي الحسينية، قرب مدرسة الملك الكامل. وبدأت أشعر بمسؤولية هؤلاء الصغار!.

أطلقت الثورة في العام الدراسي السابق (٥٣/٥٤) عدة مُبادرات للتعبئة السياسية، للشباب خصوصاً، والمجتمع عموماً. منها: "**معونة الشتاء**"، و"**قطار الرحمة**"، و"**جيش التحرير الشعبي**"، و"**هيئة التحرير**". وكانت المُبادرتان الأوليان اجتماعيتين لمُساعدة الفقراء والمحتاجين، بينما كانت الثالثة والرابعة سياسيتين لامتصاص واستيعاب الطاقات الوطنية للشباب. وقد شاركت، مثل آلاف، في المُبادرات الأربع بقدر ما كان مسموحاً. ومن ذلك تلقي تدريبات عسكرية في ساعة مُبكرة كل صباح - من السادسة والنصف إلى الثامنة إلا ربع، ثم نهرول إلى المدرسة التي تبدأ في الثامنة صباحاً. وكنا نظل طوال اليوم بملابس التدريب العسكرية خمسة أيام أسبوعياً (مع راحة يومي الخميس والجمعة). وقد استمر ذلك لسنتين على التوالي، أُعطينا في نهايتهما امتحاناً عملياً، تضمن اختباراً في الرماية بالذخيرة "الفشنك"، ثم بالذخيرة "الحية"، وحصلنا على شهادة تعطي أصحابها أولوية في دخول الكُليات العسكرية أو التطوع في جيش التحرير الشعبي. وكان هناك بالطبع جزء تلقينياً عن "**العدو**"، الذي نتدرب من أجل مواجهته، هو "**المحتل الإنجليزي**" و"**إسرائيل الصهيونية**".

كذلك كان جزء من التعبئة المعنوية العامة صدور سلسلة من الكتب الشهرية، "**اخترنا لك**"، ثمن كل منها خمسة قروش، وقد حرصت على شرائها، وقراءتها، وساهمت في تشكيل وعيي السياسي. وأذكر منها، كتاب "**اعرف عدوك**"، و"**بروتوكولات حُكماء صهيون**"، و"**لماذا نكره الشيوعية**".

ولكن الحدث الأهم في ذلك العام الدراسي (١٩٥٤/١٩٥٥) هو مُحاولة اغتيال **جمال عبد الناصر**، في ميدان المنشية بالإسكندرية، في أكتوبر، واتهام الإخوان المسلمين بالتدبير له، وهو ما أدى إلى صدور قرار بحل الجماعة، واعتقال آلاف من أعضائها، ومُحاكمة وإعدام عدد من قياداتهم بتهمة المسؤولية عن محاولة الاغتيال... وتضمنت حملة الاعتقالات بعضاً من زملائنا وأصدقائنا، منهم اثنان كنت أعرفهما شخصياً، الأول هو **أحمد الذهبي**، كان فعلاً عضواً مبتدئاً في الإخوان، والثاني وهو **عبد الحميد حسنين**، من قريتي وكان طالباً في مدرسة الصنائع الثانوية، ولم يكن يمت للإخوان بصلة، وبالعكس عُرف عن **عبد الحميد** الذي كان يكبرني بأربع سنوات، ويتكرر رسوبه، أنه "مُنحل" (طالب بايظ)، وهو ما كان يعني وقتها، تدخين السجائر والحشيش، وشرب الخمر، والانغماس في اللذات النسائية. وبهذه المواصفات كان أقرب إلى أحد أعمامي، **حامد قاسم**، الذي ذكرته في موضع سابق من هذه المُذكرات. ولأن **عبد الحميد**، بعكس **أحمد الذهبي**، لم يكن له صلة بالإخوان، ولا يعرف عنهم شيئاً، ولا يهتم بالسياسة أو أي شأن عام، فكلما أنكر أنه إخوانيٌّ، عذبوه، وكلما قال إنه لا يعرف إخواناً آخرين أو أي شيء عن الإخوان، عذبوه أكثر... حتى فقد عقله، فأودعوه مُستشفى الأمراض العقلية... وقد تأثرتُ وكل من يعرفون الحقيقة عن **عبد الحميد**، بمأساته هو وأسرته، وبكاء أمه (**الخالة هانم**) المُستمر، وخاصة حينما ترانا في القرية خلال الإجازات.

وارتبط الحدث المُهم المذكور أعلاه، وتداعياته، بقرار حكومة الثورة بعقد مُسابقة بين طلبة المدارس الثانوية حول كتاب كان قد صدر **لجمال عبد الناصر**، زعيم الثورة، بعد اختفاء اسم وصورة **محمد نجيب** من الإعلام، بعنوان "**فلسفة الثورة**". وكان لديّ حماس للثورة، وللشعارات التي رفعتها، والإجراءات والقوانين والسياسات التي اتخذتها. لذلك حينما أعلنت المدرسة عن مُسابقة في كتاب "فلسفة الثورة" **لجمال عبد الناصر**، والذي كان قد صدر في أوائل العام، تقدمت لها على الفور. وحسبما فهمت كانت المسابقة على مُستوى المدارس ثم على مُستوى المناطق التعليمية، ثم على مُستوى القطر. واجتزت كل هذه المُستويات بنجاح، ثم كنت الأول على القطر المصري، وهو ما لم أتوقعه، وسعدت له كثيراً. المهم أن الثلاثين الأوائل بمُعدل اثنين من كل منطقة تعليمية، تمت دعوتهم إلى القاهرة، ورتب لهم مُعسكر في المدرسة السعيدية بالجيزة. وكان هناك فقط طالبتان من القاهرة كانتا تحضران معنا الأنشطة النهارية ثم تعودان إلى منزلهما. وكان ضمن هذه الأنشطة زيارة المعالم الرئيسية للقاهرة (الأهرامات، والقلعة، والمتحف المصري والإسلامي) ومشروع مُديرية التحرير

الذي كان من مفاخر الثورة الوليدة لغزو الصحراء. وطوال الأسبوع كان ٢٨ طالباً يتنافسون على جذب اهتمام الطالبتين، التي كانت إحداهما شقيقة وزير التربية والتعليم، وعضو مجلس قيادة الثورة، **كمال الدين حسين**، وكان اسمها "**صفاء حسين**"، وكانت بالفعل جميلة للغاية. وكنت بالطبع أحد المُتنافسين، وخاصة لجذب اهتمام **صفاء!**.

كانت قمة هذا المُعسكر، والذي لم نعرفه إلا في صباح اليوم ونحن نركب الأتوبيس هو أننا مُتوجهون بصحبة السيد/ **كمال الدين حسين** عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التربية والتعليم، إلى **مبنى قيادة الثورة** في الجزيرة للقاء الرئيس **جمال عبد الناصر**. وحدث وجوم ودهشة لدقيقة أو دقيقتين، ثم بدأت توجيهات المُشرفين، وكانوا أربعة، عن كيفية التصرف بأدب وتهذيب وإنصات، والظهور بمظهر من يفهمون فلسفة الثورة. وطلب من بعضنا أن يعودوا إلى غرفهم في داخلية المدرسة السعيدية لارتداء ملابس أكثر احتراماً ووقاراً. وتحرك الموكب في حوالي الحادية عشر. وخلال عشرة دقائق كُنا في المبنى التاريخي لمجلس قيادة الثورة، والذي كان قبل ذلك أحد استراحات الملك **فاروق**، في أقصى الجزيرة، مُطلاً على القاهرة، وعلى الجزيرة جنوبياً، وهي جزيرة منيل الروضة.

جلسنا في إحدى غرف الانتظار بمبنى قيادة الثورة، وكُنا في أوائل شهر أبريل، ومرت علينا المشروبات المثلجة. ثم قمنا بجولة سريعة في المبنى. وفي تمام الثانية عشرة أخذنا المُشرفون، إلى مكتب الرئيس **جمال عبد الناصر** الذي استقبلنا عند المدخل وصافحنا واحداً واحداً بحفاوة ظاهرة، وإلى جانبه السيد **كمال الدين حسين**، الذي قدمنا كصفوة الصفوة التي تعمقت في فكر الثورة... ورحب بنا الزعيم وأشاد بالمجهود الذي بذلناه، وأكد أنه طلب شخصياً الاطلاع على مجموعة الكتب التي قرأناها في الجولة الأخيرة... واتضح له أنه لم يكن قد قرأ بعضها، فاستكمل ذلك في عطلة نهاية الأسبوع (خميس وجمعة)، ولكنه يريد أن يسمع منا... فدعانا للجلوس حول مائدة الاجتماعات، التي اتضح لنا أن مجلس قيادة الثورة والوزراء كانوا يجتمعون حولها. وظللنا لوهلة صامتين مُتهيبين، فبادرنا هو بسؤال: "**ماذا وجدتم من فروق بين ثورتنا والثورات العالمية الأخرى، والتي شملت الإنجليزية والفرنسية والبلشفية والتركية والصينية؟** ومرة أخرى ظل الجميع صامتين، والتقت عيناي بعيني إحدى الفائزات وهي **صفاء حسين**... وفسرت نظرتها كما لو كانت رجاء لي أن أتحدث، بما أنني "الأول"... فاستجمعت ما استطعت من شجاعة وقلت ما معناه "**كانت ثورة يوليو تتميز عن الثورات الأخرى، بأنها كانت ثورة بيضاء**". فبادرني الزعيم، أليست

"**كانت**" فعل ماضي... فهل حدث ما أزال عنها تلك الميزة؟. ووقعت عيناي على وجه الوزير بجانب الزعيم، وكان وجهه يميل للاحمرار ولكنه في تلك اللحظة ازداد احمرارا وتقطيباً... فأسقط في يدي، وأصيب لساني بالشلل فلم أستطع الرد على سؤال الزعيم... وظل زملائي التسعة الآخرون لائذين بالصمت... وسألني الزعيم "**اسمك إيه؟**"، فرد التسعة بما يشبه الصوت الواحد "**سعد الدين إبراهيم** يا ريس (وكان هذا هو اللقب الذي يُخاطبه به الجميع في ذلك الوقت). فربت الزعيم على كتفي، وقال "استكمل يا **سعد الدين**..."، وكانت عيني تتنقل بسرعة بين وجوه الزعيم والوزير و**صفاء**... قلت بصوت مُنخفض أشبه بالهمس "أقصد ما وقع من إعدامات للعمّال واعتقالات للإخوان المسلمين، مؤخراً، وربما كان لدى الثورة أسبابٌ قوية لذلك... فحبذا لو تحيطوننا بها علماً، ونحن ابناؤكم المُخلصون..." سألني الزعيم عن مصدر معلوماتي... فذكرت أنها الصحف والإذاعات والمعرفة الشخصية... توقف الزعيم وسأل زي إيه المعرفة الشخصية؟ فحكيت قصة **عبد الحميد حسنين**... وكان الزعيم يدون مُلاحظاته... وبعد أن فرغت وصمت مثل الآخرين... وعيون الوزير تبدو كما لو أن شراراً يخرج منها... وحتى وجه **صفاء** بدا لي مُمتقعاً... ربت الزعيم مرة أخرى على كتفي وبنظرة أبوية حانية، سأل إن كنا قد سمعنا آخر نكتة عن "قلم حبر الرئيس". فانفرجت أساريرنا، بمن في ذلك **كمال الدين حسين**، الذي يبدو أنه كان قد سمعها من قبل، ولكن الطلبة ردوا معا "لا".

حكي الزعيم **جمال عبد الناصر**، أنه في مُنتصف يوم عمل، وهو على مكتبه هذا، لم يجد قلم حبره الباركر ٥١ الذي أهداه إياه الرئيس الأمريكي **أيزنهاور**. فاتصل **بزكريا محيي الدين**، وزير الداخلية، وأبلغه بفقد القلم، ورجاه أن يُساعده في البحث عنه... ثم بعد خمس دقائق، وهو (أي **جمال**) يُعيد ترتيب بعض الملفات على مكتبه، وجد قلم الحبر تحت أحد هذه الملفات. فاتصل **بزكريا محيي الدين** مرة ثانية، ليخبره بأنه وجد القلم. فرد عليه **زكريا**: إزاي يا ريس إحنا قبضنا على الحرامي، واعترف بسرقة قلم سيادتك". وانفجرنا جميعاً ضاحكين. ثم وعد الرئيس أن يُحقق في موضوع **عبد الحميد حسنين**. وقال إنه لا يستبعد أن يكون ما قاله **سعد الدين** قد حدث فعلاً. وبرره بأن الثورة ورثت نفس الجهاز الأمني للعهد البائد، وكأي جهاز بيروقراطي يُريد أن يُثبت ولاءه للعهد الجديد، فيكون "**ملكياً أكثر من الملك، أو ثورياً أكثر من الثورة**". أما حادث اعتداء المنشية، فقد أكد الرئيس لنا أنه وقع بتدبير الإخوان، لذلك كان لا بد من حل الجماعة ومُحاكمة الضالعين في حادث الاعتداء... ولا بد أن أجهزة

الأمن المحلية في كل مُحافظة كانت تتنافس للقبض على أكبر عدد من الإخوان المسلمين لتباهي المُديريات الأخرى.

ثم طلب الرئيس أن يسمع مُلاحظات أخرى من بقية المُتسابقين. فسأل البعض عن حقيقة "البنود السرية" في اتفاقية الجلاء، وسأل آخرين عن حلف بغداد ومعركة مصر معه. وأخبره بعضنا عن مُشاهداتنا لمشروع مُديرية التحرير، والشائعات التي تدور حول سد عالٍ في أسوان.

كان الرئيس يدوّن هذه الأسئلة بمُنتهى العناية، ويُجيب عن كل منها بجدية وإسهاب أشعر كل واحد منا بالأهمية. فقد عاملنا هذا الزعيم كما لو كنا رجالاً جديرين بالاحترام.

ظهرت صورة لقائنا مع **عبد الناصر** في صحف اليوم التالي، وأُرسلت لكل منا صورتان مع تحية رقيقة وتوقيع **جمال عبد الناصر**. وتصدرت صورتي وأنا أصافحه جريدة الأهرام... وتأثرت جداً، كصبي، بهذا اللقاء. وبعد أربعة أيام تسلمت في المنصورة رسالة مع أحد المسؤولين في مُديرية أمن الدقهلية من رئاسة الوزراء، تؤكد التحقق مما حدث **لعبد الحميد حسنين**، وأنه سيكون في منزله وبين أسرته مع استلامي للرسالة، وأنه سيلقى رعاية خاصة لتعويضه عما حدث له بسبب أخطاء أمنية سيُجرى حساب المسؤولين عنها. طرت فرحاً بالرسالة، وتوجهت فوراً إلى بدين وإلى منزل أسرة **عبد الحميد حسنين** لأزف الأخبار إلى والدته الحزينة. وقرأت لها الرسالة، وأثناء حديثنا وصل **عبد الحميد** في سيارة إسعاف من القاهرة، ومندوب الرئاسة، والعديد من الهدايا. وكان فرحاً في القرية كلها. وتأثرت للغاية بكل أحداث الأسبوعين، في القاهرة والمنصورة وبدّين. وحسمت أي تحفظات كانت لديّ عن الثورة، وودعت علاقاتي الشخصية بالإخوان، وعلاقاتي الأسرية بالوفد.

صدّقت رواية الزعيم وقتها عن الأجهزة البوليسية العفنة التي ورثتها الثورة عن العهد البائد. وصدّقت روايته عن أن الإخوان المسلمين حاولوا فعلاً اغتياله. وأصبحت أكثر تأييداً وحباً للثورة ولزعيمها **جمال عبد الناصر**. ولم ألتقِ بالزعيم وجهاً لوجه بعد لقاء أبريل ١٩٥٥، إلا بعد أكثر من خمس سنوات، في خريف ١٩٦٠، لتسلم شهادة الليسانس ضمن المتفوقين والحائزين على جوائز الدولة في عيد العلم. وأدهشني وأغبطني أن الزعيم وهو يُصافحني تذكر لقاءنا السابق وسألني عن **عبد الحميد حسنين**. فشكرته على الأمرين. والمهم أن تلك التجربة، بما فيها مشهد حواري مع **عبد الناصر**، أعطاني ثقة هائلة في النفس. ونسيت بالطبع أني كنت أرتجف في داخلي، لولا نظرات **صفاء حسين** المشجعة والمعجبة، ولولا ابتسامات **عبد الناصر** الأبوية. الطريف في ظاهرة **صفاء حسين**

التي وقع في حبها ثمانية وعشرون طالباً لمدة أسبوع، أنها ستختفي، ولم تظهر حتى في السنة التالية (١٩٥٦/١٩٥٥) التي أقيمت فيها مُسابقة مُشابهة، وذهب أوائلها إلى المدرسة السعيدية في مُعسكر مُشابه، ولم أرَ **صفاء حسين** إلا بعد خمسين عاماً، في مُناظرة بيني وبين أستاذين آخرين، في ربيع ١٩٩٥، وحيث كانت تجلس في الصف الأول سيدة ترتدي فستاناً أسود أنيقاً. ولاحظت أنها تنظر لي طوال المُناظرة بلا انقطاع، وبدا لي أنها لم تكن تصغي أو تنظر للمُناظرين الآخرين حينما كان يأتي دورهما في الكلام **(د.جلال أمين، ود.عبد الوهاب المسيري)**. وبعد المُناظرة تقدمت هذه السيدة، وبشيء من الاستحياء والتردد، قالت إنك لن تتذكرني، ولكننا تقابلنا منذ سنوات طويلة. فقاطعتها، وقلت لها أنت **صفاء حسين**. فانهمرت الدموع من عينيها، ورددت "أنت تتذكرني أنت تتذكرني. لقد عرفت بعودتك إلى مصر منذ عشرين عاماً، وأنا أعمل في مكتبة الجامعة الأمريكية، وطالما رغبت طوال هذه السنين أن آتي لأسلم عليك، ولكنني كنت أتردد خشية ألا تتذكرني، ولم تواتني الشجاعة لفعل ذلك إلا الليلة (كنا في رمضان)، وبعد ترملي بعدة شهور".

برنامج أوائل الطلبة

كنت سعيداً مُختالاً بما حققته من إنجاز وشهرة... وأصبح هدف التفوق في كل ما انتويته، هدفاً نصب عيني...

كان شقيقي **حامد** في السنة الثانية في كلية التجارة بجامعة الإسكندرية. وكنت، منذ غادرنا إلى جامعته، كبير بيت المنصورة، حيث كنا أربعة من الأسرة نعيش معاً (أنا وشقيقي **أحمد**، وشقيقتي **آمال**، وابن شقيقي **إبراهيم، سمير**). ورغم ما شعرت به من حُرية وسُلطة في رئاسة هذه الأسرة المُصغرة، أحسست بعبء المسؤولية. لذلك كنت أطلب من الوالدة أن تلتحق بنا، وخاصة قرب نهاية العام مع اقتراب موسم الامتحانات. لذلك كانت معنا طوال شهر مايو ١٩٥٥. وانتهى العام الدراسي بنجاح الجميع وبدرجات مُتفاوتة من التفوق. ولكنني كنت أشعر بأن ذلك العام الدراسي هو أهم وأمتع عام في حياتي. وجاءت إجازة الصيف المُعتادة، بنشاطها ورومانسياتها الصيفية المُعتادة، سواء في حقول القطن، أو على السكة الزراعية بصحبة صديقي **سعد الطحان**.

كان العام الدراسي ١٩٥٦/١٩٥٥، آخر الأعوام في الملك الكامل الثانوية، في المنصورة. وكنا جميعاً ندرك أهمية الاستذكار الأكثر جدية استعداداً لامتحانات الثانوية العامة، والتي أصبحت أكثر تنافسية منذ عام ١٩٥٣، حينما قررت حكومة الثورة أن يكون دخول الجامعات على أسس من الفرص المُتساوية

من خلال مكتب عام للتنسيق. وكنت قد قررت لهذه الغاية أن أقلل من أنشطتي المدرسية والرومانسية الأخرى في ذلك العام. ولكن فوجئت باستدعاء من مكتب الناظر لي أنا وأربعة طلاب آخرين، وعدد من المُدرسين، ليُخبرنا الناظر أن مدرستنا قد وقع عليها الاختيار لتمثيل منطقة المنصورة التعليمية في برنامج إذاعي يُسمى "**أوائل الطلبة**"، الذي كان يُقدمه وقتها الإذاعي الشهير **عباس أحمد**. وكان عندي فكرة عن البرنامج، فقد كان عمره عدة سنوات، وكان يُذاع مساء الخميس. ولكنه كان يقتصر على التنافس بين مدارس القاهرة. وكانت هذه هي السنة الأولى التي تقرر فيها أن يكون التنافس بين مدارس القطر المصري، بمُعدل مدرسة واحدة من كل مُديرية (محافظة فيما بعد). ومن مجموعة مدارس الوجه البحري، تبارينا مع طنطا ودمياط ودمنهور. وكانت المدرسة التي تخسر تخرج فوراً من المُسابقة، حتى التصفيات النهائية. وطبعاً كانت الدقهلية كلها تتابع هذا الدوري، كما يتابعون دوري كرة القدم هذه الأيام. ومع فوزنا المُتكرر إلى النهائي، أصبحنا أبطالاً في المنصورة والدقهلية.. فأسماؤنا تتكرر، وصورنا تظهر في صحف الحائط، والمدرسة تغدق علينا في رحلاتها حيث تقام تلك المُباريات. وكان فريقنا يتكون من طالبين من القسم الأدبي (أنا و**محمد عزمي البكري** الذي أصبح مُستشاراً في القضاء فيما بعد) وطالبين من القسم العلمي (**فاروق عبد اللطيف**، أستاذ في طب المنصورة فيما بعد، **وحلمي شريف**، عالم طبيعة نووية في كندا حالياً)، ولأن البرنامج كان يحتوي دائماً على أسئلة موسيقية، فقد كان معنا زميل خامس (**محمد شحتة**) كان ذلك هو تخصصه، فلم يكن أي من الأربعة الآخرين ضالعاً في معرفة ومُتابعة أغاني ذلك الزمان. عقدت مُباراة واحدة في المنصورة (مع طنطا) ولكن الثلاث مُباريات الأخرى كانت خارج المنصورة (دمياط وبنها والقاهرة) وكان يذهب معنا فريق من المُشجعين من المدرسة، كما يحدث في المُباريات الرياضية تماماً. وكانت تلك الرحلات مُتعة في حد ذاتها، فقد كانت بالقطار، وكنا نذهب يوماً قبل المُباراة نفسها، وكان معنا مُشرف أو اثنان. وكنا نقوم بكثير من البروفات في القطار والفندق، وخاصة في الموسيقى، التي كان عدد من المُشجعين يجيدون لعبها على الأوكارديون، الذي نستعيره من غرفة الموسيقى بالمدرسة. وكانت المُباراة النهائية مع المدرسة "التوفيقية" بالقاهرة، والتي كسبتها تلك المدرسة بنصف درجة. ومع ذلك استقبلنا عند العودة في محطة المنصورة استقبال الأبطال، لإحساس جمهور المنصورة أن الحكّام كانوا مُتحيزين للقاهرة، فقد كانوا جميعاً من القاهرة!

في ذلك العام الدراسي أيضاً، استحدثت حكومة الثورة تقليداً جديداً، بموجبه يزور كل طلاب المدارس الثانوية الأقصر وأسوان لمدة أسبوع. وكان لذلك هدف مزدوج، أن "**نعرف بلادنا**" وأن **ننشط السياحة الداخلية**، التي تدهورت في جانبها الداخلي بعد الثورة. وكانت هذه بدورها مُتعة عظيمة، خاصة وأن أحد المُشرفين (الأستاذ **إبراهيم دراز**، مُدرس الجغرافيا) كان أحد أساتذتي المُفضلين. أي أن هذا العام الذي قصدت ونويت في بدايته أن أكون أكثر استقراراً واستذكاراً، انتهى به الأمر أن يكون أكثرها أسفاراً. هذا بالإضافة إلى أسبوع مُسابقة فلسفة الثورة للسنة الثانية على التوالي، والذي فزت فيه أيضاً بالمركز الأول، ولكننا لم نقابل **عبد الناصر**، الذي أصبح مع ذلك الوقت أكثر نجومية واستئثاراً بالسُلطة وأكثر انشغالاً.

لذلك حينما جاءت امتحانات نهاية العام، الثانوية العامة، كان كل أملي أن أجتازها بشكل مُشرّف يسمح لي باختيار الكلية التي أرغبها والتخصص الذي أريده فيها. وجاءت وانتهت الامتحانات، وعدنا إلى قرانا لعدة أسابيع، نعمل على المُساعدة في حقول القطن. إلى أن آن موعد ظهور النتيجة، والتي كانت في تلك السنوات تنشر في الجرائد بأرقام الجلوس. وذهبت إلى المنصورة في اليوم الموعود، وبمُجرد دخولي المدرسة قوبلت بعاصفة من التصفيق في باحة المدرسة بين البوابة ومبنى الإدارة. ونظرت خلفي للتأكد لمن يُصفقون، حين انهالت عليّ عبارات المُباركة، فقد كنت السادس على القسم الأدبي في عموم الجمهورية. وكان زميلي في أوائل الطلبة **حلمي شريف** السابع على القسم العلمي. ولم تكن مدرستنا قد حازت بهذا الشرف من قبل (أي اثنان من العشرة الأوائل من نفس المدرسة). وكان فرحاً مُتصلاً من غرفة الناظر في مدرسة الملك الكامل إلى منزلنا في بدين. فمع عودتي كانت الأخبار قد سبقتني، وسمعت الزغاريد وفرحة أمي، والتي تذكرت خالها **إسماعيل بك**، ناظر الخاصة الملكية، الذي كان قد توفاه الله مع ذلك الوقت! حتى الوالد الوقور النادر الانفعال، قبلني واحتضنني طويلاً، ولا أذكر أنه فعل ذلك من سنين. كذلك الشقيق الأكبر **إبراهيم**، الذي "لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب"، وجدته سعيداً مَبهوراً. وفي عصر اليوم كانت الفراندة مملوءة بالأعيان، وكانت التهنئة هي حديث اليوم، وكنت محل اهتمامهم، وسألني بعضهم مُجدداً عن مُقابلتي **لعبد الناصر**، وكيف كان سلامه وحديثه ونظراتنا.

أحسست في نهاية اليوم المُثير أن مرحلة من حياتي، سنوات الصبا في المنصورة قد انتهت بتوفيق لم أحلم به، وأنني على وشك دخول مرحلة أخرى لا يعلم غيبها إلا الله.

مرحلة الشباب

كانت السنوات التسع في المنصورة (٤ للابتدائية+٥ في الملك الكامل) هي المرحلة الوسيطة بين طفولتي في القرية، ومرحلة الشباب المُمتدة في القاهرة ثم الولايات المتحدة، إلى أن عملت وتزوجت، ومارست كل مسؤوليات الرجولة.

سحبت استمارة نجاحي في الثانوية العامة وبقية أوراقي من الملك الكامل تمهيداً لتقديمها في مكتب التنسيق يوم ١٩٥٦/٧/٢٧. على الرغم من أن ترتيبي كان السادس على الجمهورية، إلا أن مجموعي لم يتجاوز الـ ٨٨ في المئة. وحتى الأول لم يتجاوز الـ ٩٢ في المئة. أقول ذلك وأنا أكتب هذه المذكرات في نفس موسم الثانوية العامة عام ٢٠٠٠، وأقرأ عن ١٥.٠٠٠ طالب تجاوزوا الـ ٩٥ في المئة، منهم ألف حازوا على مئة في المئة فأكثر (بعد إضافة مواد تخصص فوق المقرر)!

أصر شقيقي الأكبر **إبراهيم** أن يُصاحبني إلى القاهرة للتقديم في مكتب التنسيق، وهو ما كنت قادراً وراغباً أن أفعله وحدي. واعتقدت في البداية أنه كان حريصاً على التعبير عن حبه وفخره بإنجاز أخيه الأصغر. وقد كان بالقطع هناك شيء من هذا وذاك. ولكن اتضح لي بعد عدة أسابيع، أنه خائف عليّ من المدينة الكبيرة، التي يُمكن أن تفسد هذه "الجوهرة المكنونة"، التي هي شقيقه الأصغر **سعد الدين**، وهو مُصمم على حمايتها من الإفساد!.

المهم طوال الطريق إلى القاهرة بالقطار، ثم إلى منزل صهره الأعزب **إسماعيل العلامي** (شقيق زوجته **أنوار**) وكان مُديراً **لمسرح الجمهورية**، لم تتقطع نصائح الشقيق **إبراهيم**، عن كيفية حماية "طهارتي"، والمُحافظة على تفوقي. والمُفارقة في كل ذلك أنه لم يُحافظ هو نفسه على مُجرد النجاح، ناهيك عن التفوق حينما كان في مدرسة المنصورة في الثلاثينيات. ومع ذلك كنت أهز رأسي مُوافقاً، وبين الحين والآخر أفاجئه بسؤال مُحرج، عن "**طهارته**" هو شخصياً، ويحاول أن يلتف حول السؤال أو يغير الموضوع، أو يُبرر لسلوك أو حدوتة أكون قد سمعتها عنه، وسألته عنها. لقد كان ذكياً "كلمنجياً" من الطراز الأول. وقد كنت أهابه وأخافه لسنوات طويلة، إلى أن وضح تفوقي الذي لا يُنازع في السنوات الثلاث الأخيرة، فبدأت أراجعه في كثير من الأمور بأدب ومُداعبة. واستقبلنا صهره بحفاوة، وكان قد علم بأخباري، وقدم لنا الغداء، وتجمع عديد من الأصدقاء والبلديات في شقته بالدقي للسلام والمُباركة، وفي المساء استأذن منا للذهاب إلى عمله في المسرح الذي كان بطبيعته مسائياً. واقترح شقيقي **إبراهيم** أن نخرج للتريّض في منطقة الدقي، التي كانت هادئة نسبياً

ومليئة بالفيلات والأشجار وارفة الظلال. كان اليوم هو ٢٦ يوليو، وانتهى بنا المطاف في **كبابجي الدقي**، حيث أراد أخي أن يُبالغ بالاحتفاء بي بوجبة من الكباب الفاخر. وكانت الساعة حوالي التاسعة، وكان **جمال عبد الناصر** يخطب في مؤتمر جماهيري بالإسكندرية بمناسبة أعياد الثورة. وكان يوم ٢٦ يوليو بالذات محجوزا دائماً للإسكندرية، حيث ذكرى رحيل الملك **فاروق** من هناك في مثل هذا اليوم من أربع سنوات، والذي كنت شاهد عيان عليه (من بعيد طبعاً)، كما ذكرت في موضع سابق من هذه المُذكرات. وكنت أستمع إلى الراديو بنصف انتباه أثناء تناول السلطات التي تسبق الكباب عادة... ثم فجأة ضج المطعم المزدحم بالتهليل وقام أخي **إبراهيم**، غير المُسيّس في نظري، بالهتاف الله أكبر .. الله أكبر وتحيا مصر. لقد كانت لحظة إعلان **عبد الناصر لتأميم قناة السويس**... وحينما خرجنا من المطعم، رأينا ازدحاماً هائلاً لم نكن لحظناه عند دخول المطعم، وكانت الساعة قد قاربت على الحادية عشرة. لقد تحولت الليلة إلى فرح مُمتد. ولم ننم ليلتها إلا في الثانية صباحاً مع عودة مُضيفنا **إسماعيل** من المسرح. لقد كان أسبوعاً مُثيراً، اختلطت فيه فرحة نجاحي بتفوق مع الفرحة القومية بتأميم قناة السويس. وهكذا ستمضي حياتي، يختلط فيها الشأن الشخصي بالشأن المصري العام، والشأن العربي الأعم. لقد كان المشهد في كبابجي الدقي وبجوار صيدلية دالي، الذي أظن أنه ما زال موجوداً، تجسيماً دراميا لهذا التدخل بين الشخصي والعام.

في صباح اليوم التالي ١٩٥٦/٧/٢٧، ظهرت الصحف بالعناوين المُثيرة عن التأميم، وردود الفعل العالمية، وتأييد هذا الإجراء المصري الثوري من الهند وباكستان وإندونيسيا، ومجموعة باندونج عموماً، بما في ذلك الصين الشعبية، والاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية، وبالطبع في الوطن العربي كله وكنت أكثر حرصاً وشوقاً لمُتابعة أخبار التأميم عن الذهاب لمكتب التنسيق في مبنى قسم الجغرافيا بشارع الجيزة. ولكنني فعلت وسحبت استمارات التقديم، ودونت رغباتي: آداب، حقوق، تجارة في كل الجامعات، فقد كان ذلك هو كل المُتاح للقسم الأدبي. ولم تكن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قد أنشئت، والتي ربما لو كانت موجودة لتقدمت لها. وكان على شقيقي **إبراهيم** أن يعود إلى المنصورة وبدين، فتركنا في نهاية اليوم الثاني، وأوصى صهره **إسماعيل** بي خيراً. وقضيت ليلتين إضافيتين عند **إسماعيل**، الذي اكتشفت أن شقته في الدقي هي المحل المُختار لأجمل داعرات الدقي، في الهزيع الأخير من الليل، وبعد أن يكن قد انتهين من نشاطهن الليلي. وكن في العادة يتصلن به في المسرح في مُنتصف الليل للتأكد من أن البيت أمان، أي لا يوجد لديه ضيوف من القرية. ويبدو أن

إسماعيل الذي كان في أواخر العشرينيات من العُمر لم يُشارك شقيقي **إبراهيم** في أنني "**جوهرة مكنونة**" تستحق الحماية. واتضح لي أن **إسماعيل العلامي** (الذي سُمي أيضاً على اسم **إسماعيل** بك فخر عائلة **العلامي**) كان **زير نساء**، دون رغبة أو قدرة في الإنفاق على ملذاته. فكان يقدم لعدد مُختار من الداعرات المأوى والحماية، مُقابل معاشرتهن كيفما وحينما يُريد. ولأنه كان وسيما، لبقاً، حلو اللسان، فقد كان جذاباً بالنسبة لمُعظمهن. ولما كان لا يستطيع مُعاشرة ثلاثة منهن في وقت واحد، فقد كانت هناك في الليلتين التي قضيتهما في ضيافته داعرة واحدة على الأقل زيادة. كنت بالنسبة لهن قروياً خاماً يستحق "**التأهيل**"... وكان الأمر بالنسبة لهن خليطاً من المُداعبة والتحدي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتعامل فيها مع "داعرات"، وإن لم تكن المرة الأولى للتعامل مع نساء في جماع كامل. فقد كانت ورائي خبرة عطلات الصيف في حقول القطن!.

كنت أتطلع لحياة من الحرية والانطلاق والحياة الجامعية، بمُفردي وباستقلالية... ولم أكن أدري أن شقيقي **إبراهيم** لديه أفكار أخرى تماماً. فقد أقنع والدي – حرصاً على مُستقبلي في **القاهرة** – أن أقيم مع خالة لي كانت تقيم مع زوجها الموظف بوزارة الداخلية، بدون أولاد، في شقة كبيرة من أربع غرف في السيدة عائشة. وراقت الفكرة لوالدتي تماماً، حيث سأؤنس وحدة شقيقتها الصُغرى (**شاهدة**) التي حُرمت من الإنجاب. وتصادف أنها وزوجها (**سعيد أفندي**) كانا يقضيان إجازتهما الصيفية في بدين في منزل جدي لأمي الحاج **سعيد عبد الله**، وجدتي الحاجة **سيدة العلامي**. ووافق الجميع على أنها فكرة رائعة. وكانت خالتي **شاهدة** بالفعل عزيزة على الجميع. وكنت أيضاً من المُغرمين بها. ولكن ليس إلى حد أن أسكن معها هي وزوجها، وأفقد حُريتي. ورغم الاحتجاج على الفكرة، والتذرع ببعد المسافة بين السيدة عائشة وجامعة القاهرة، إلا أن **السعيد أفندي** الذي كان بدوره شخصية محبوبة ومرحة والأكثر تحمساً للفكرة، تطوع بأن يستخرج لي اشتراكاً خاصاً بحكم عمله في وزارة الداخلية، يمكنني من ركوب كل المواصلات العامة مجاناً (تروموای وأتوبيس). وأحسست بأني مُحاصر، ونقمت على شقيقي الأكبر **إبراهيم** صاحب الفكرة، والذي سينطبق عليه القول المأثور "ومن الحب ما قتل".

بداية الجامعة، والعدوان الثلاثي (١٩٥٦)

طبعاً، قبلت في أول رغبة سجلتها في مكتب التنسيق وهي آداب القاهرة، حيث كان مجموعي وترتيبي يسمح. ولكن كانت هناك حيرة حقيقية في أي

الأقسام العديدة لهذه الكلية العتيدة أدرس. كان لقسم اللغة العربية تراث واسم ـ **طه حسين وأحمد أمين وسُهير القلماوي**، وكان لقسم التاريخ أسماء ـ **شفيق غربال وسليم حسن ومحمد أنيس**، وكان لقسم الفلسفة أسماء ـ **عثمان أمين وزكي نجيب محمود وإبراهيم بيومي مدكور**. وكانت هناك أقسام جديدة وواعدة مثل الاجتماع والصحافة واللغات الشرقية. وكان لكل منها ميزاته النسبية. وقد تجولت بين هذه الأقسام جميعاً خلال الشهر الأول للدراسة، بل وعبرت الحرم الجامعي إلى كلية الحقوق، وانتظمت في بعض المُحاضرات مع زميل الملك الكامل وأوائل الطلبة **محمد عزمي البكري**، الذي كانت كلية الحقوق رغبته ورغبة والده منذ البداية، لكي يكون "وكيل نيابة"، وهي وظيفة مرموقة في المجتمع عموماً وفي الريف خصوصاً. والواقع أنه مع الحيرة كان هنالك شيء من الاستمتاع بالتجوال بين أقسام الآداب، والحقوق والتجارة. وكانت هذه الأخيرة تجتذبني لأن بها قسم العلوم السياسية، ولكنه كان تخصصاً في السنتين الأخيرتين ودون دراسة سنتين من المُحاسبة وإدارة الأعمال. ثم هداني تفكيري للنظر لا في مُقررات السنة الأولى فقط، ولكن في مُقررات السنوات الأربع جميعاً. وحين فعلت ذلك، وجدت **قسم الاجتماع بكلية الآداب** هو الأقرب لتلبية نزعاتي الموسوعية. فقد كان هناك علم اجتماع لكل شيء في الحياة ـ من الأسرة إلى الدين إلى الاقتصاد، إلى السياسة، إلى الصناعة، إلى الجريمة. وفي اليوم الذي قررت فيه الإعلان عن هذا الاختيار، وهو اختيار كان قد أوصى به الأستاذ **محمد عوض** مُدرس الفلسفة وعلم الاجتماع في الملك الكامل الثانوية مُبكراً على أي حال، وقع العدوان الثلاثي، وتعطلت الدراسة إلى أجل غير مُسمى. وأعلنت الجامعة فتح باب التطوع، لمن كانوا قد تلقوا تدريباً عسكرياً في المرحلة الثانوية. وقد كنت أحد هؤلاء. وفعلاً تم إعادة تدريبنا على عجل لمدة أسبوع، وأصبحنا جزءاً من لواء الجامعات. وتحدد للكتيبة التي كنت في عدادها أن تعسكر بأسلحتها الخفيفة وقنابلها اليدوية قرب **مدينة المنزلة**، على شاطئ البُحيرة نفسها، والتي كانت بورسعيد على جانبها الآخر، ومن ثم كان وارداً مُحاولة الانتشار من بورسعيد التي كانت مُستهدفة كرأس جسر من خلال البُحيرة إلى نقاط أخرى في الداخل المصري. كان الحماس الشعبي على أشده، وكانت كتيبتنا تشعر أنها هي التي ستصد العدوان وتقوض خططه. وشاهدنا من مواقعنا الطائرات المُغيرة، وعمليات الإنزال الجوي بالبراشوتات، على بُعد عدة كيلومترات فوق مدينة بورسعيد. وكنا نتابع باهتمام أخبار المُقاومة الشعبية للإنزال الأنجلو/فرنسي، ثم لقوات الاحتلال، التي لم تستطع التقدم خارج بورسعيد باتجاه الإسماعيلية. كذلك كنا نتابع من أجهزة الراديو الصغيرة التي انتشرت في أيدينا،

ردود الفعل العالمية للعدوان. وحين أعلن بولجامين إنذاره للمُعتدين، ارتفعت روحنا المعنوية أكثر وأكثر. وحين صوتت الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفييتي ومُعظم دول العالم في إدانة العدوان ومُطالبة المُعتدين بوقف إطلاق النار، والانسحاب فوراً، شعرنا كما لو كنا قد انتصرنا بالفعل، على الأقل سياسياً لقد استغرق ذلك كله ثلاثة أسابيع، في أعقابها تم صرفنا من الميدان. لم نطلق طلقة واحدة على الأعداء من حيث كنا مُعسكرين، وإن كنا قد أطلقنا مئات الطلقات في التدريبات اليومية، على الأقل لكسر هيبة الاشتباكات المُحتملة، والتي لم تحدث. ومع ذلك عُدنا إلى منازلنا، كما لو كنا عائدين من معركة حقيقية. لقد كانت أياماً لا تُنسى من حيث وقعها، وحماسها، وأناشيدها وأغانيها.

حينما عُدنا إلى الدراسة، لم يكن قد بقي على نهاية الفصل الدراسي الأول سوى ٤٥ يوماً. وهي الفترة التي كان عليّ الاستعداد فيها لامتحانات التخصص الذي أعلنته وهو علم الاجتماع. وكانت الدفعة في السنة الأولى كبيرة تتعدى الألف طالب. كذلك اكتشفت أن هذه الدفعة تضم اثنين آخرين من العشرة الأوائل في الثانوية العامة لعام ١٩٥٦ . الرابع (**عبد الحميد** من ميت غمر) والثامن (**فاروق عفيفي** من السعيدية). وكان ذلك يعني أن التنافس سيكون على أشده. وقد كان بالفعل، لا فقط بين هؤلاء الثلاثة (الرابع والسادس والثامن)، ولكن اتضح أن هناك على الأقل عشرة آخرين من أصحاب المجموعات العالية (٨٠%)، ورغم أدائي الجيد، في ذلك الفصل، والفصل الثاني، إلا أنني لم أحصل على تقدير جيد جداً، ولم أكن أول الدفعة. لذلك لم يكن عامي الجامعي الأول موفقاً من هذه الناحية. وأصابني ذلك باكتئاب شديد، لم يشعر به في الأسرة غيري. فبالنسبة لهم كنت ناجحاً وبتقدير مُحترم، قياساً مثلاً بشقيقي **حامد**، الذي كان ينجح بالكاد في بداية سنواته الجامعية، إلى أن أصبح بين المُتفوقين في السنتين الأخيرتين، بسبب قصة حب، يبدو أنها ألهمته وشجّعته.

وخطر ببالي أن عدم رضائي عن الإقامة مع خالتي كان أحد أسباب هذا الأداء المُتوسط. وأنني رغم مسؤولياتي عن أخوة صغار في المنصورة، إلا أن هامش الحُرية والانطلاق كان يُتيح لي دائماً الإبداع والتفوق. ومع المزيد من التفكير والتمحيص لهذا الخاطر، أصبحت أكثر اقتناعاً به. لذلك قررت الإعلان عن خطة بديلة، دون أن أجرح شعور خالتي أو والدتي أو جدتي، وهي أن أحوّل لكل من كنت أرعاهم في المنصورة في العام قبل الماضي (٥٥/٥٦) على مدارس في الجيزة. ورحب **أحمد وآمال وسمير** بالفكرة، فالانتقال إلى القاهرة بالنسبة لهم كانت نقلة كيفية كُبرى، حيث لن يُضطَروا إلى الانتهاء من الثانوية العامة لِيروا العاصمة . وبدأت التعبئة، وقبيل بداية العام الدراسي الجديد

(٥٨/٥٧) بحوالي شهر ونصف الشهر طرحت الفكرة على الوالدة، ثم على الوالد، ثم أخيراً على الشقيق الأكبر **إبراهيم**. ولدهشتي فإنه لم يُعارض، ما دام ابنه البكري **سمير**، سيكون معنا في القاهرة، خاصة وأن أداءه في السنة التي غبت عنهم فيها لم يكن جيداً بالمرة.

وقمت بسحب أوراق الثلاثة الصغار، وتوجهت إلى القاهرة، حيث أمّنت لهم أماكن في مدارس الجيزة. كذلك بحثت عن سكن مُناسب، حيث وجدت شقة من ثلاث غرف في الدور السادس في أحد مباني شارع الجيزة، وتطل غرفة واحدة منها على النيل. وكان إيجارها عشرة جنيهات شهرياً، انخفض إلى ثمانية في مُنتصف العام. وأتى الجميع إلى القاهرة وكان عاماً موفقاً للغاية وعلى كل المُستويات. وفي الواقع أحسست في ذلك العام الثاني بمعنى وحلاوة الحياة الجامعية لأول مرة. طبعاً حرصت على زيارة خالتي **شاهدة** دورياً، ولحسن الحظ فقد سارع ابن خالتي **عبد السلام**، وطلب أن يحل محلي في السكن معها، وقد أسعدها ذلك، لحب كل الخالات له بشكل خاص منذ فقد أباه في الصغر (**خالي النادي**).

كان قسم الاجتماع في السنوات التي قضيتها كطالب (١٩٥٦/١٩٦٠) مُثيراً. فقد كان أكبر الأقسام من حيث العدد. ورغم أن هيئة التدريس المُتخصصة لم تزد على أربعة (**د.عبد العزيز عزت، د.مصطفى الخشاب، د.أحمد الخشاب، د.طلعت عيسى**)، إلا أنه كان يعتمد على عدد كبير من أساتذة الأقسام الشقيقة (كعلم النفس والفلسفة واللغة الإنجليزية) في الكلية أو من أساتذة من خارج الكلية (الحقوق والتجارة)، أو من خارج جامعة القاهرة (مثل **حسن سعفان** من آداب عين شمس، و**علي فؤاد** من وزارة الشؤون الاجتماعية). وكان هذا الخليط، ربما من حيث لم يقصد أساتذة القسم، يُعطي طلابه فرصة لدراسة "الآداب الحرة Liberal Arts" بالمعنى الحقيقي الموجود في الغرب. فقد درست أنا مثلا، كورسين في علم النفس (الاجتماعي والصناعي) وكورسين في الفلسفة (المُقدمة، ثم الفلسفة الحديثة) وكورس قانون (تشريعات اجتماعية) وكورس علاقات دولية، وكورس إحصاء، وثلاثة كورسات خدمة اجتماعية، هذا إلى جانب ١٢ كورساً أو مادة في علم الاجتماع وفروعه، وكورسين في علم الإنسان، وكورس في فلسفة التاريخ، صحيح أن ما كان يُقدم في بعضها كان هزيلاً من حيث الكم والكيف، ولكن أغلبها كان غنياً وفاتحاً للذهن ولآفاق أوسع لمن يُريد.

كانت ميزة الأقسام الأخرى العدد الكبير، الذي انطوى على كثافة إنسانية، وتنوع اجتماعي، وسمح بالعديد من الأنشطة، من حفلات داخل الكلية إلى

رحلات خارج الكلية، إلى أعمال ميدانية عديدة. وكان ضمن هذا التنوع مجموعة من الطالبات الجميلات الأنيقات الأرستقراطيات. وتعلق قلبي بإحداهن من السنة الأولى إلى أن افترقنا في السنة الرابعة. وكان اسمها **سامية سالم**، والتي كان يُحيط بها دائماً عدد من الزميلات الأقل جمالاً وأناقة، وكنت اسميهن بالوصيفات حول تلك "الأميرة"، التي كان والدها أستاذاً جامعياً في كلية الزراعة. مثل **وحيدة** في بدّين، **وروكسان** في المنصورة، كانت **سامية** في سنواتي الجامعية بالقاهرة مصدر إلهام وإثارة. وكما في بدّين والمنصورة، كانت هناك علاقات أخرى بالجنس الآخر على هوامش كل من هذه المراكز الرومانسية الرئيسية!

جاءت نتائج الفصل الدراسي الأول للعام ٥٨/٥٧ قاطعة ناصعة، مثلها مثل الفترة الثانية في السنة الأولى الابتدائية قبل عشر سنوات (٤٨/٤٧)، حيث جاء ترتيبي الأول على الدفعة، وبقي كذلك بلا استثناء إلى أن تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٦٠. لم أذهل هذه المرة، كما ذُهلت وأنا صبي في التاسعة. فمع هذا الوقت، أصبحت المُعادلة واضحة: المثابرة والتصميم، وهامش من الحُرية. كانت كل تقديراتي "جيد جداً" و"مُمتاز". ومع استمرار ذلك الفصل الدراسي الثاني، أصبح مُحققاً أنني، ومن ينجح غيري، بتقدير عام "جيد جداً"، سنحظى بشرف ما كان يُسمى في كليتي الآداب والعلوم بقسم "الامتياز". ويعني في السنتين الثالثة والرابعة دراسة مادتين إضافيتين كل عام. ويؤهل اجتيازهما للحصول عند التخرج بدرجة "الليسانس المُمتازة مع مرتبة الشرف". وتبلور هدفي المرحلي في بقية سنوات الدراسة في المُحافظة على ترتيبي كأول الدفعة، والليسانس المُمتاز، والتعيين في نفس الكلية كمُعيد، والحصول على بعثة دراسية إلى الخارج لاستكمال دراسة الماجستير والدكتوراه.

وفي سبيل تكريس هذا الهدف منذ العام الدراسي الثاني، بدأت أتردد على مكتبتي وزارة الشؤون (في مبنى المُجمع) والمركز الأمريكي (بالقرب منها). وكنت أحرص على تمييز إجاباتي في الامتحانات بالعديد من الاقتباسات باللغتين الإنجليزية والفرنسية، بحيث لا تخطئ عين الأستاذ المُصحح ورقة إجابتي منذ الصفحة الأولى. فقد كنا نسمع مع ذلك الوقت، أن الأساتذة مع الأعداد الكبيرة لا يقرؤون أوراق الامتحانات بدقة، فيفرون ورقة الإجابة، وقد يقرؤون فقرة من إجابة كل سؤال، ثم يُعطون تقدير "مقبول" أو "جيد"، وهذا هو الغالب، أو تقدير "جيد جداً" أو "ضعيف" وهو الاستثناء، أو "ممتاز" أو"ضعيف جداً" وهو استثناء الاستثناء. لذلك كان جزءاً مهماً من تكتيك الأداء في الامتحانات هو جذب اهتمام الأستاذ المُصحح ليقرأ أكثر من فقرة في ورقة

الإجابة. وكان حظي الجيد، واقتباساتي لمراجع أجنبية منذ الصفحة الأولى هما وسيلة هذا الجذب. كانت السنة الثانية في كليتي الآداب والعلوم هي عُنق الزجاجة. فما لم يحصل الطالب على تقدير جيد جداً على الأقل في هذه السنة فإنه لا يدخل "قسم الامتياز". وحمدت الله أنها لم تكن السنة الأولى. وحمدته أكثر حينما حققت المطلوب مع نهاية السنة الثانية. صعد معي كمُرشحين لقسم الامتياز زميلان آخران لم أكن أعرفهما جيداً في دفعة كبيرة من ألف طالب هما **محمد الجوهري** (الثاني) و**فاروق العادلي** (الثالث). أما أوائل الثانوية العامة (الرابع **عبد الحميد**) والثامن (**فاروق عفيفي**) فإنهما لم يوفقا في سنة عنق الزجاجة، وبالتالي حُرما من درجة الليسانس المُمتازة فيما بعد.

كذلك كان العام جيداً بالنسبة للصغار الذين أتوا من المنصورة. وتكيفوا بسرعة مع أجواء القاهرة. كان الشقيق **حامد** قد أنهى دراسته الجامعية وحصل على بكالوريوس تجارة بدرجة جيد، ثم دخل الجيش لقضاء السنة المقررة للخدمة العسكرية، وكان مُعسكره قرب القاهرة، وتزامن ذلك مع وجودنا جميعاً في الجيزة مما سهّل عليه التردد علينا في الإجازات. ورغم أنه كان في قصة حب مع إحدى زميلات الدراسة (**فتحية**) إلا أن ذلك لم يمنعه من علاقات حريمية جسدية على الهامش، ولم يستطع التخلص من هذه الهامشيات بسهولة حتى بعد أن ترك الإسكندرية لدخول الجيش. فقد طاردته إحداهن (**زوبة**)، التي كانت قد حملت منه، أثناء سكنه عندها في البانسيون الذي كانت تديره، والذي زرته فيه في العام السابق.. وكانت هذه المُطاردة إحدى منغصات ذلك العام. فقد كنت تعاطفت إنسانياً مع تلك السيدة الحامل، ولكن لم يكن هناك ما أستطيع عمله غير حُسن استقبالها إذا أتت تبحث عنه عندي في القاهرة. وفي النهاية حلت المشكلة بزواج وطلاق واعتراف ببنوة الجنين.

كانت علاقات الصداقة **بفاروق عفيفي وعبد الحميد** (أوائل التوجيهية) قد بدأت في السنة الأولى، واستمرت في السنوات التالية، رغم عدم توفيقهما في اجتياز عُنق الزجاجة في السنة الثانية. وقد جاءا وزاراني في العطلة الصيفية في بدّين. وكان ذلك بالنسبة لأبناء الحضر، مثلهما مُتعة خاصة. وكانت والدتي دائماً تحسن وفادة أصدقائي، وخاصة من المدينة أو من قرى أخرى. وكانت تعد لهما من الأطباق الشهية، ما لا يتوقفان عن ذكره وتذكره واستحسانه طوال العام. وكان العديد من القرويين الشباب أيضاً يسعدون بلقاء شباب البندر الذين يأتون لزيارتي، بل ويتوقعونهم بالاسم كل عام. ابتداء من الصيف التالي سيُضاف إلى قائمة الزائرين من البندر زميلاي في قسم الامتياز، **محمد الجوهري** و**فاروق العادلي**.

في العام الدراسي الثالث ١٩٥٩/١٩٥٨، اخترت منطقة الهرم للسكن، وفي القاهرة كما كان في المنصورة كان تغيير السكن دورياً مسألة سهلة، فقد كان المعروض من المساكن ما زال أكبر من الطلب على أوائل الستينيات. ولا أتذكر تحديداً لماذا اخترت منطقة الهرم في ذلك العام، سوى ربما رخص الإيجار. فبنفس إيجار شارع الجيزة في العام السابق (عشرة ثم ثمانية جنيهات) كان مُمكناً الحصول على ضعف المساحة. وهو ما أغرى أحد الأقرباء (طالب الهندسة **عفت**) بأن يطلب المُشاركة في نفس السكن. ولأنني قد نجحت منذ العام الأسبق في الحصول على مبلغ شهري مقطوع لإعالة أسرة القاهرة (أنا و**أحمد وآمال وسمير**)، فقد كانت أي مُساهمة خارجية في الإيجار وتوابعه، شيئاً مُرحباً به. كذلك أتذكر كم كانت سهلة المواصلات العامة، لدرجة أن الأمر لم يفرق كثيراً بين شارعي الهرم (الطالبية) وشارع الجيزة، والتي أعتقد أنها تساوي على الأقل نصف ساعة اليوم (٢٠٠٠) بينما لم تتجاوز خمس عشرة دقيقة إلى جامعة القاهرة في ذلك الوقت. وأظن أن أحد عوامل جاذبية المنطقة كان هدوءها، حيث لم تكن على شارع الهرم مُباشرة، ولكن مُتفرعة منه.

كان ذلك العام هو عام أنشطة ثقافية وترويجية عديدة، ومع ذلك الوقت كنت قد أصبحت معروفاً للكافة في قسم الاجتماع وكلية الآداب، ولمُعظم الطلبة النشطين في جامعة القاهرة. وكان قد مر على اتفاقية الوحدة المصرية - السورية (فبراير ٥٨) عدة شهور، فتوسع نشاطي ليشمل دوائر الطلبة العرب وأنديتهم. وانتشرت في القاهرة المطاعم الشامية، ومحلات الكبدة والشاورما. وكنت أرتادها، كجزء من التجربة ولحماسي الشديد للوحدة العربية. وطالما كسبت مُسابقات ثقافية على هذا الموضوع أثناء الدراسة الثانوية في فصول الصيف (غير مُسابقتي فلسفة الثورة عامي ١٩٥٥و ١٩٥٦). وتعرفت في فصول التقوية في اللغة الإنجليزية في العام السابق (٥٨/٥٧) بزميل يكبرني بحوالي عشرين سنة، ويقرض الشعر، وكان يُدعى لمؤتمرات نصرة الثورة الجزائرية، ليلقي فيها قصائده الشعرية المتوهجة. وكان الرجل فارع الطول، عريض المنكبين، اسمر اللون، نصف أصلع، فكان يبدو وهو يُلقي هذه القصائد كمارد يُحطم سلاسله. إنه الشاعر **محمد التهامي**، والذي كان يعمل سكرتيرا أول في جامعة الدول العربية، في مبناها القديم قرب ميدان باب اللوق. وكان أحد أسباب هذه الصداقة المتنامية، إعجابه بطالبة من قسم اللغة الفرنسية، وحاجته إلى حُجة للتردد على كلية الآداب، بدعوى رؤية صديقه **سعد الدين إبراهيم**. كان **التهامي** في منتصف الثلاثينيات يبحث عن عروس. وقد غادرت مصر بعد ذلك التاريخ بأربع سنوات وكان ما زال يبحث عن عروس. وحينما دعوته إلى الولايات

المتحدة مع مجموعة من الشعراء والمُفكرين في صيف ١٩٦٦، كان ما يزال يبحث عن عروس!

كانت **سامية أحمد سالم** ما تزال هي مُلهمتي ومحل إعجابي الشديد. ولكنني لم أكن أتبادل معها أكثر من التحيات والابتسامات، وأشعر بخجل شديد في تجاوز ذلك إلى أي حديث رومانسي اجتماعي. وقد كان ذلك مصدر تندر قلة من الأصدقاء والصديقات الذين كانوا يعرفون حقيقة مشاعري، ويرون في نفس الوقت ترددي وخجلي في مواجهتها. هذا علماً بأن قدراتي على الخطاب المفوهة كانت قد أصبحت معروفة.

وبمُناسبة الخطابة، فقد رشحت نفسي لعضوية اتحاد كلية الآداب، رغم تحفظ العميد **د.عز الدين فريد**، تحفظاً شديداً على ذلك، بدعوى أن عضوية الاتحادات في تلك السنوات كانت حكراً للطلبة البلطجية والمُخضرمين (أي مُتكرري الرسوب)، وكان العميد يربأ بي أن أضيع وقتي في هذه الأنشطة ومع هذه النوعية من الطلاب. وكانت وجهة نظري المُخالفة هو أنه ينبغي على الطلبة النابهين والمُتفوقين أن ينشطوا في الاتحادات ويرتفعوا بنوعية أنشطتها. وقد كان فقد اكتسحت الانتخابات مع مجموعة مُتميزة من المُرشحين، وأصبحت وكيلاً للاتحاد.

أتاح لنا قسم الامتياز فرصة الاقتراب الشديد من أساتذتنا. فقد كان الترتيب أن يتلقى ثلاثتنا (أنا و**محمد الجوهري وفاروق العادلي**) منهجاً خاصاً مع أحد الأساتذة الأربعة في القسم، إلى جانب الكورسات العادية. لقد كنا في سنة ثالثة امتياز - اجتماع. وكان هناك سنة رابعة امتياز - اجتماع، وفيها أربعة طلاب، أو بالأحرى طالبة اسمها **إلهامة رشاد** وثلاثة طلاب آخرون. ورأى القائمون على شؤون القسم في الفصل الثاني أن يُدمجوا طلاب السنتين الثالثة والرابعة (أي سبعة طلاب، بدلاً من ثلاثة + أربعة) معاً. لنقص في هيئة التدريس. ورحّبنا جميعاً بذلك، فقد كنا في السنة الثالثة تواقين للتعرف على زملائنا في السنة الرابعة. وكانت فلسفة هذه المواد هي القراءة المُستقلة وإعداد أوراق قصيرة لعرضها ومُناقشتها بواسطة الأستاذ وبقية الطلبة. وفي ذلك الفصل الدراسي المُشترك فكر الأستاذ المسؤول أن يُذكي المُنافسة بين فرقتي السنة الثالثة والسنة الرابعة، فطلب من أول الدفعتين أن يقرأ عن موضوع تحسين النسل (Eugenics) أي التدخل البشري لتحسين الصفات الوراثية. وكانت الأولى على دفعة السنة الرابعة **إلهامة رشاد**، وكانت محظية كل الأساتذة والعميد، لأنها كانت تنجح بامتياز منذ السنة الأولى. كذلك كانت جميلة بالمقاييس المصرية. تركية أو من أصل تركي بيضاء البشرة، ملونة العينين. وفي اللقاء الأسبوعي

التالي، جئت مُستعداً لما أصبح يُشبه المُناظرة بين أول الدفعتين. وقد تحدثت **إلهامة** أولاً. فاكتشفت أثناء عرضها أنها تقرأ من الأوراق التي أعددتها إعداداً جيداً. فلما جاء دوري عرضت وجهة نظري دون القراءة من أوراق، وكنت أنظر للمُستمعين السبعة أثناء العرض. فلما جاءت المُناقشة كانت مُعظم الأسئلة والتعليقات على عرضي، الذي لم يكن بالضرورة أفضل من عرض **إلهامة** من حيث المُحتوى، ولكن من حيث الأسلوب والتشويق. وفي الأسبوع التالي علمنا أن الفريقين سينفصلان مرة أخرى، لإصرار **إلهامة** على هذا الانفصال، وتأييد العميد لرغبتها. واستنتجنا أنه كان بسبب هذه المُناظرة، التي لم تشعر بالراحة لها. الشيء الذي لم أدركه أن هذه الواقعة، كانت بداية إعجاب ثم حب مجنون من طرف واحد، سيستمر إلى سنوات، وينتهي نهاية شبه تراجيدية.

في السنة الثالثة الجامعية، وبسبب الاقتراب الشديد من الأساتذة، بدأت ألمس الصراعات الخفيفة بينهم. فكان الأخوان **مصطفى وأحمد الخشاب** يُمثلان جبهة، وكان رئيس القسم، **عبد العزيز عزت**، وأحدث أعضاء هيئة التدريس **طلعت عيسى** يُمثلان جبهة أخرى. كانت الجبهة الأولى (الخشابين) هي الأقوى علمياً ومهنياً. ولم يكن **عبد العزيز عزت** قد أنجب رغم اقترابه من سن المعاش، وكان أيضاً الأكثر ثراء، وكان قصير القامة ومن ذوي الشخصيات المرحة والمهزوزة في نفس الوقت. وكان **طلعت عيسى**، رفيق جبهته، طويلاً وسيماً قوي الشخصية، واستطاع أن يوحي لرئيس القسم بأنه مثل ابنه وسيكون ذراعه الأيمن. واقتنع **عبد العزيز عزت** بذلك، أو ربما لأنه كان في حاجة إلى ذلك (حليف). كان **طلعت عيسى** مُطلّقاً، وشاع أنه مُعجب **بإلهامة**، المُعيدة القادمة.

انتهى العام الدراسي الثالث بالنتائج التي رغبتها وتوقعتها. وبدأ ثلاثي الامتياز يقضي أجزاء من الإجازة الصيفية معاً في الإسكندرية، أو رأس البر أو بدّين. كان **الجوهري** هو الأكثر جدية، و**فاروق** الأكثر سطحية. ولكنهما كانا يتساويان في خفة الظل. كان **فاروق** الأكثر انطلاقاً وتهريجاً خارج منزله. وكان ضخم الجثة، وفي منزله، وفي حضرة والده، الأستاذ **العادلي** خريج دار العلوم ومُدرس اللغة العربية، كان مثل الطفل المُسالم البريء. لم أر في حياتي وإلى تاريخه ذاك التناقض الشديد بين شخصية زميلنا **فاروق العادلي** داخل وخارج منزله. لم يكن له ولع خاص بالمعرفة أو بعلم الاجتماع. ولكنه كان يحفظ المُقررات عن ظهر قلب، ويحصل على درجات مُتقدمة أتاحت له أن يكون بيننا . نحن الثلاثة . في قسم الاجتماع. وكان اسم المُداعبة الذي أطلقه عليه زميلنا **محمد الجوهري** "فاروق تدبيس". فقد لاحظ **محمد** على بعض كتب **فاروق** الجامعية كثرة تدبيس بعض الفصول أو الصفحات. اتضح أنه بمُجرد أن يُعلن

أستاذ المادة أن أجزاء من الكتاب المُقررة لهذه المادة قد أُلغي، فإن **فاروق** كان يقوم بتدبيسها على الفور، حتى لا "يُخطئ"، ويقرأ صفحة أو عدة صفحات غير مُقررة!

حينما بدأنا عامنا الجامعي الرابع والأخير ١٩٥٩/١٩٦٠ كان لدينا جميعاً في الدفعة، دفعة ٦٠، شعور بأن تلك بالفعل كانت سنوات ذهبية... وهو شعور قيل أن الخريجين يشعرون به بعد التخرج بعدة سنوات، أي شعور الحنين إلى سنوات الجامعة، وقبل أن تتراكم المسؤوليات المهنية والعائلية. بالنسبة لثلاثي الامتياز، كانت حدة المُنافسة الدراسية قد خفت، واستقر الوضع النسبي التراتبي. وكان الخطر التنافسي مع ذلك قائماً من خارج مجموعة الامتياز. فيما أن تقدير سنة التخرج في تلك السنوات هو الذي يُحدد فرص العمل، فقد كان وارداً أن يقفز أي من السبعمئة زميل (كنا ألف في السنة الأولى) إلى المُقدمة. صحيح أن شهادته لن تسمى "الليسانس المُمتازة"، ولكن يُمكنه أو يُمكنها مع ذلك أن يحصل على تقديرات أعلى ويكون أول الدفعة.

اخترت السكن ذلك العام في الدقي، قرب شارع نوال. وكانت ما تزال منطقة هادئة ومُشجرة. وكانت شقة كبيرة في الدور الأرضي. وكان عمي **عبد الوهاب** مُهندس الكهرباء قد استقر به المطاف في القاهرة، وكان يسكن في نفس المنطقة. وبالتالي كنا نتزاور. ولكنني كنت حذراً بسبب ما كان يُردده الأقارب في بدين، وخاصة العمة العزيزة **شفيقة**، من أمنيات اقتراني بكُبرى بناته... ولم أكن مُتحمساً لزواج الأقارب، خاصة بعد الدراسة التي قمت بها عن تحسين النسل (Eugenics) لقسم الامتياز في العام السابق. كذلك كان مشروعاً مُشابهاً بالنسبة لشقيقي **حامد** وبنت الخال مثار توتر، قبل أن ينتهي على خير.

في ذلك العام التحق بنا في السكن قريب آخر لوالدتي اسمه **السيد الحسيني**، وكانت أمنية والده المقتدر أن يكون ابنه الأوحد (مع ثلاث بنات) مثل **سعد الدين إبراهيم**، وأصر أن يسكن ابنه معنا، ويكون جزءاً من أسرتي في القاهرة. وقد كان سكن **السيد الحسيني** مع طالب الهندسة **عفت فرج الله** في نفس الغرفة في شقتنا الجديدة المُتسعة. ولو لبّيت رغبة كل من أرادوا السكن معنا من قرية بدين لوصلت القائمة إلى عشرات. وكانت قصة تفوقي الدراسي، تُحكى في القرية بأشكال مُبالغ فيها، حتى أصبحت شبه أسطورة. فسمى كثير من أهل القرية أطفالهم على اسمي (**سعد الدين**) تيمناً. واعتقد بعض أولياء الأمور أن سكن أبنائهم معي سينتج عنه بالضرورة تفوقهم في الدراسة كما حدث مع الشيخ **محمد الحسيني**، وابنه **السيد**. والذي في الواقع حدث، وأصبح فيما بعد من أساتذة علم الاجتماع المرموقين، إلى أن اختطفه

الموت وهو في قمة عطائه في أواخر التسعينيات. وزيادة في تعقيد أو تبسيط هذا الوضع المعيشي السكني، عرض أحد أبناء بدّين وزوجته، وكانا يعيشان في القاهرة بالفعل منذ عدة سنوات ويعملان كمُساعدي طباخ، أن ينتقلا معنا، ويقومان بخدمتنا وتولي الطبيخ لهذا العدد المُتزايد (ستة طُلاب!). وكان شقيقي الأكبر **إبراهيم** وراء هذه الفكرة، ولم أكن مُتأكداً تماماً من كل مقاصده. المهم أن **حسن** وزوجته انتقلا معنا، وخصصنا لهما غرفة من غرف الشقة الأربع: كانت لي غرفة مُستقلة، وكان **عفت والسيد الحسيني** لهما غرفة مُجاورة، وكان **أحمد وآمال وسمير** لهم غرفة ثالثة. وواقع الأمر أن حياتنا الجماعية تلك، لم تكن سيئة على الإطلاق. فقد كان أداء الجميع في مدارسهم وكلياتهم جيداً. حتى **عفت** طالب الهندسة الذي كان يتعثر كثيراً من قبل، فتح الله عليه في السنتين الأخيرتين، وكان ينجح بلا ملاحق أو إعادة، وهو ما دعّم أسطورة عدوى النجاح لمن يسكن معي!.

عشت هذا العام الأخير طولاً وعرضاً وعمقاً: فكرياً ودراسياً ونشاطاً وجنساً، وسياسة. فعلت فيه كل ما أردت وما أمكنني عمله. ومع الفصل الثاني، بدأنا نتحسس فرص المُستقبل ونستعد لها. كانت **إلهامة رشاد** قد عُينت مُعيدة، فقد كانت الأولى على دفعتها في السنوات الأربع بلا مُنازع. وفي هذا الصدد فقد كانت أفضل مني، لأن المرتبة الأولى أفلتت مني في السنة الأولى. وكانت **إلهامة** تحضر اجتماعات مجلس القسم. وبدأت تتقرب مني بشدة، رغم أنني مازلت طالباً. وشعرت بالفعل باندفاعها العاطفي نحوي، ولم أصدّها، رغم أن مشاعري كانت كلها في اتجاه آخر (**سامية سالم**). وهي التي أخبرتني أن القسم لم يطلب درجات لمُعيدين في العام التالي. وهو الأمر الذي جعلني أنشط فوراً ومُباشرة مع العميد (**عز الدين فريد**) ووكيل الكلية (**صقر خفاجة**) وكانا مُعجبين بي كثيراً لتنوع أنشطتي مع استمرار تفوقي، وهي مسألة كان يشك فيها العميد قبل سنين. وبدأت الشكوك تساور ثلاثي الامتياز، الذين وعدهم **طلعت عيسى** المُسيطر على رئيس القسم بأن دورهم كمُعيدين آت لا ريب فيه! وفعلاً تأكد لنا أن **طلعت عيسى** الأكثر شباباً بدأ يحس بالغيرة من ثلاثي الامتياز . أو على الأقل مني ومن **الجوهري**، لتميزنا الواضح ولقربنا علمياً من **مصطفى وأحمد الخشّاب**. ثم أصبح لديه سبب إضافي لعدم الارتياح نحوي، بسبب اعتذار **إلهامة** عن قبول الاقتران به، بحجة أنها تريد الدكتوراه أولاً! بينما لاحظ كغيره من الأساتذة والطلبة، إعجابها الواضح بي. وبالتالي أوعز لرئيس القسم أن القسم لا يحتاج إلى مُعيدين في هذه المرحلة ولكن إلى مُدربين ميدانيين في الخدمة الاجتماعية، التي كان هو أستاذها، والدراسات التطبيقية، وأن هؤلاء لهم

مواصفات، خاصة غير المُعيدين (الأكاديميين)! وصدق رئيس القسم، فحتى عندما عرض علي القسم درجتي مُعيد في مجلس الكلية، قال **د.عزت** رئيس القسم، لا نريد، من يرغب من الأقسام الأخرى فيهما فليتفضل. ولكن ذلك جعل، كما علمت فيما بعد، وكيل الكلية يتشكك في أن شيئاً غير عادي وراء هذا الكرم والتنازل عن درجتين لمُعيدين فالعادة أن الأقسام تتكالب عليها. لذلك حينما سارعت إلى العميد والوكيل أكدا لي أن القسم لم يطلب، وتنازل عن الدرجتين. وغمز لي **صقر خفاجة** بإحدى عينيه. وفيما بعد طمأنني أن الكلية لم تتصرف في الدرجتين، بل أضافت لهم درجة ثالثة لمُعيد في قسم الاجتماع فرع الخرطوم. وأنه في الوقت المُناسب ستعلن الكلية عن كل هذه الدرجات معاً، وستكون مفاجأة لبعض أساتذتي. سمعت، شكرت، ومضيت، وتمنيت أن يصدق الرجل فيما قال.

أعلنت النتيجة. وكان كما توقعناها. وسعد الثلاثي بما أنجز، وقررنا أن نتوجه إلى الإسكندرية لمدة أسبوع للاحتفال بإنجازنا. ولكن كانت هناك دائماً ضرورة إقناع الأستاذ **العادلي** بأن يسمح **لفاروق** بالسفر معنا. كان في الأستاذ **العادلي** شيئ مُشابه لما في شقيقي الأكبر **إبراهيم** الرغبة شبه المرضية في التحكم والسيطرة... طبعاً باسم الحب والحرص على مصلحة وسلامة من يرغبون في السيطرة عليهم. وقد تخلصت أنا من هذه النزعة عند الشقيق منذ أول سنتين بالجامعة، وقد كانتا الأسوأ في السنوات الأربع بسبب تدخله في كيف وأين أعيش. ولكن الوضع مع **فاروق** كان أكثر حدة، وكانت الأسرة كلها هنا في القاهرة. وأصبحت هواية وتحدياً لدى الثلاثي أن نتحايل على الأستاذ **العادلي** في كل مرة نخرج **فاروق** فيها من المنزل ونحرره لعدة ساعات من براثن هذا الأب "الدرعمي" المُهيب، والذي يقف أمامه **فاروق** دائماً يرتعش، خوفاً ورُعباً. الطريف أن الأستاذ **العادلي** كان يُعاملني و**محمد الجوهري** كما لو كُنا أنداداً له. فيناقشنا فيما نفعل، أو يسألنا عن خططنا، ثم يوصينا بألا ننسى **فاروق** فهو أخونا "الأصغر" (**فاروق** كان يزن مثلي و**محمد الجوهري** مُجتمعين). وكانت الحيلة في هذه المرة تزوير تلغراف من **د.عبد العزيز عزت**، يهنئنا فيه بالنجاح، ويطلب أن نتوجه لرؤيته في الإسكندرية للتخطيط للمُستقبل. وانفرجت أسارير الأستاذ الكبير، وقال "على خيرة الله، ما دمتما ستحرصان أنت يا **سعد** ويا **محمد** على سلامة أخيكما الأصغر **فاروق**.." وتظاهر **فاروق** أنه سيُسافر معنا على مضض، وإذا كان في ذلك ضرورة قصوى. فنهره أبوه، نعم، ألم تقرأ التلغراف يا غبي؟ وانطلقنا إلى الإسكندرية!

في أثناء الإجازة الصيفية اقترحت على الأسرة أن يعود الإخوة إلى المنصورة للالتحاق بمدارسها، حيث إنني لست مُتأكداً من مستقبلي بعد التخرج. فتعييني كمُعيد ليس مؤكداً، وحتى إذا حدث فإن ذلك لن يكون قبل بضعة شهور. وبدت هذه حجة مُقنعة. ولكن واقع الأمر أيضاً أنني أردت أن أتخفف من الأعباء، ولو إلى حين. وعاد **أحمد وآمال وسمير** إلى مدارسهم في المنصورة بعد ثلاث سنوات في القاهرة... وقد شعرت بالذنب بعد ذلك، لأن شقيقي **أحمد** والذي كان مُتفوقاً في السعيدية، لم يستمر على تفوقه في المنصورة، ولم يحصل في الثانوية العامة على المجموع الذي يتناسب مع قدراته، لدخول هندسة القاهرة مثلاً، وانتهى به الأمر إلى هندسة المنصورة.

أثناء نفس الإجازة كنت كغيري من الخريجين نتابع الصحف من أجل فرص العمل. وبالفعل صادفت إعلاناً من وزارة الصناعة، وكانت وزارة جديدة وواحدة من الوزارات التي استحدثتها الثورة قبل أربع سنوات (١٩٥٦)، تطلب فيها خريجين في علم الاجتماع وعلم النفس للعمل في مشروع الخطة الخمسية الجديدة (١٩٦٠-١٩٦٥)، وتقدمت، وفي خلال شهر، كنت أحد المُرشحين للمُقابلة الشخصية، التي هي آخر خطوة قبل التعيين. ومن العشرات الذين تقدموا وقع الاختيار عليّ وعلى زميلي **عبد الحميد دسوقي** (الذي كان الرابع على التوجيهية ولم يُحالفه الحظ لدخول قسم الامتياز). وكان مقر العمل، الذي تسلمناه في أول أكتوبر، في مبنى أنيق في حي جاردن سيتي الأرستقراطي، في "الهيئة العامة لتنفيذ خطة السنوات الخمس". ومن الواضح من اليوم الأول أنها كانت هيئة مُتميزة في مُرتباتها وظروف العمل فيها. فلم تكن مثل المصالح والهيئات الحكومية الأخرى التي عهدتها، والتي كان المبنى المجمع في التحرير يُرمز لها بشكل سلبي درامي. وقد استقبلت استقبالاً طيباً من الخبراء في القسم والذي عُينت فيه، وهو قسم الأفراد، وكان توصيف وظيفتي أن أكون مُساعد خبير "عِلم اجتماع – وعلم نفس صناعي". ولم يكن لدى الخبراء في القسم أدنى فكرة عن علم النفس أو علم الاجتماع الصناعي. ولكنهم، وكانوا من خريجي الهندسة والتجارة، كانوا على استعداد للتعلم والفهم، رغم أنهم كانوا يكبرونني بعشر سنوات على الأقل. إذ إن روح الثورة والحماس للخطة الخمسية كانتا في أوجهما. وبالفعل زودت اثنين من الخبراء بكتابي علم الاجتماع وعلم النفس الصناعي اللذين كنت قد درستهما في السنة الثالثة (بعد أن أعدت قراءتهما جيداً). وكان ذلك بالنسبة لهما فتحاً عظيماً، ففي النهاية أصبح في استطاعتهما أن يُحددا مضموناً جديداً لقسم الأفراد. ضمن ذلك كان الخبراء لا يستحون من توجيه الأسئلة، في حلقات نقاش يومية، فيما بين الثانية عشرة والثانية، وحيث

كان العمل في هذه الهيئة يستمر إلى الثالثة والنصف. وكان ضمن من يحضرون هذه المُناقشات اليومية مدير القسم ومُساعدته. وفي الأيام التي يكون فيها المُدير مشغولاً، كانت المُساعدة تحضر، وتساهم في المُناقشات، وتوجه العديد من الأسئلة.

وقبل نهاية الشهر الأول، كنت قد أصبحت معروفاً في الهيئة كلها (حوالي ٢٥٠ شخصاً). والأهم من ذلك أن مُساعدة المُدير الرشيقة الذكية وخفيفة الظل كانت قد أصبحت متيمة، وبشكل اقتحامي جديد تماماً عليّ. أصرت يوماً على توصيلي للمنزل بعد العمل في سيارتها الفيات الصغيرة. وقبلت شاكراً. وكررت نفس الشيء في اليوم الثاني. وفي المسافة من جاردن سيتي إلى منطقة شارع نوال بالدقي كانت تسألني عن حياتي وأموري الشخصية. وعرفت أنني أسكن وحدي، فطلبت أن ترى شقتي. وهنا بدأت أشعر أن الإعجاب يتطور كيفياً بشكل مُتسارع. ورغم تنبهي إلى أن شقتي مُتواضعة للغاية، وكانت بالفعل كذلك، إلا أن ذلك لم يعن شيئاً على الإطلاق فبمجرد فتح باب الشقة، ودخولها وإقفال الباب من ورائي، ارتدت كما لو كانت تريد الخروج وباغتتني بعناق حميم مُتصل. كل هذا وظهري ما زال ملامساً لباب الشقة. كانت **عائشة** "عذراء"، ولكنها كانت في عنفوان تفجرها الجنسي. واستمرت العلاقة الغريبة عدة شهور إلى أن تركت الهيئة. الغريب أنها لم تفاتحني أبداً في الزواج، ولا حتى في الحب... واختفت من حياتي في اللحظة التي أحست فيها أن رغبتي الجسدية فيها قد تضاءلت. لقد كانت مثل النسمة الخاطفة في هبوبها وفي خفوتها.

في ديسمبر ١٩٦٠ أعلنت كلية الآداب عن وظائف المُعيدين بها، وكان ضمنها وظيفتان في القاهرة والثالثة في الخرطوم. وسعد الثلاثي المرح، وتقدمنا جميعاً، وكان هناك تفاهم ضمني أن الاختيار الأول هو لي والثاني **لمحمد الجوهري**، والثالث **لفاروق العادلي**. وفهمنا أن الإعلان كان مفاجأة غير سارة لرئيس القسم وحليفه الشاب، الذي كان قد تزوج مع هذا الوقت من طالبة لبنانية في قسم الاجتماع. وسعد الفريق الآخر **مصطفى** و**أحمد الخشاب**، للمفاجأة. ومع حب واحترام ثلاثي الامتياز للأخوين الخشاب، إلا أننا تعلمنا ألا نعول عليهما كثيراً في أي مواجهة أو معركة.

في ديسمبر أيضاً كان عيد العلم الذي أقيمت احتفالاته في القاعة الكُبرى بجامعة القاهرة. والتي تسلم فيها **العقاد** الجائزة التقديرية، وتسلم فيها أوائل الجامعات في التخصصات المُختلفة شهاداتهم من الرئيس **جمال عبد الناصر**. وقد فوجئت وأنا أتقدم نحوه لاستلام شهادتي بابتسامة عريضة على وجهه مع مُصافحة أطول من المُعتاد، وسؤالي عن نفسي وعن ابن قريتي (بدين)...

طمأنته وشكرته، وكنت في الواقع قد نسيت موضوع **عبد الحميد حسنين** الذي اتهم زوراً بعضوية الإخوان المسلمين وعُذب إلى أن أصابه الجنون. سألني كثيرون عما دار بيني وبين الرئيس. ولم أستطع أن أحكي القصة. قلت فقط إن الرئيس تذكرني من لقاء سابق.

مع شهر فبراير ١٩٦١، كانت إجراءات التعيين كمُعيد في كلية الآداب قد اكتملت، قدمت استقالتي لوزارة الصناعة، وودعني القسم (الأفراد) بحفل رقيق حضره مدير القسم ومُساعدته وكل الخبراء. ورأيت دمعة حبيسة في عيون المُساعدة الحسناء وأنا أسلم السلام الأخير.

استقبل مُعظم من نعرفهم في كلية الآداب عودتنا كمُعيدين بترحاب وسرور. وكان لذلك أسباب عامة وخاصة. من الأسباب العامة جو النشاط والاستنفار الذي أحدثناه في القسم في السنة الأخيرة، والذي ما زال يذكره طلاب السنوات السابقة... كان **لمحمد الجوهري** صديقته، طالبة الامتياز الصاعدة **علياء** وحاشيتها. وكانت المُعيدة **إلهامة** في انتظاري. وكان الأخوان **مصطفى وأحمد الخشاب**، يتطلعان إلى وجودنا في القسم... ولم نخيب الآمال والتوقعات. وشرعنا في عدد من الأنشطة، وكذلك المُساعدة في تدريس بعض المواد مع أساتذتها الأصليين. تظاهر رئيس القسم **د.عبد العزيز عزت** و**د.طلعت** بالسعادة لتعييننا مُعيدين، وكأنهما أصحاب الفضل في ذلك. وقد جاريناهما في هذا الاعتقاد. حقيقة الأمر أن لا أحد في قسم الاجتماع كان صاحب فضل على الإطلاق في هذا التعيين الذي جاء من خارج القسم وعلى الرغم عن رئيسه إذا كان هناك صاحب فضل على الإطلاق فلوكيل الطلبة، **د.صقر خفاجة** أستاذ اللاتينية، في المقام الأول، ولعميد الكلية، **د.عز الدين فريد** أستاذ الجُغرافيا في المقام الثاني.

ساعدنا بعد ذلك في كنترول امتحانات الفصل الدراسي الثاني. ومع إعلان القرارات الاشتراكية، ومنها تخصيص نسبة ٢٠ في المئة من الأرباح للعُمال، وتحديد ساعات العمل، مما نتج عنه بالضرورة زيادة أوقات الفراغ، نشأت مُشكلة بحثية للإجابة عن السؤال، ماذا عسى عُمال الصناعة المصرية أن يفعلوا بمزيد من الدخل وبمزيد من وقت الفراغ؟ وطلب المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية من **د.عبد العزيز عزت** و**د.طلعت عيسى** أن يقودا فريقاً بحثياً للإجابة عن هذا السؤال، وما يتصل به ويتفرع عنه من ظواهر. وطلب منا الأستاذان أن ننضم إلى فريق البحث، وهو ما رحّبنا به على الفور. أولاً لاكتساب خبرة ميدانية، وثانياً للاقتراب من زملائنا في المركز القومي الذي كان يحظى بسُمعة علمية ومهنية مُمتازة، وثالثاً للدخل الإضافي، وأخيراً لتخفيف حدة الازدراء لدى

طلعت عيسى نحونا. فمع ذلك الوقت أصبحنا مُتأكدين من طيبة قلب **د.عبد العزيز عزت** رئيس القسم، ربما إلى درجة السذاجة، وهو ما استغله المُدرس الطموح **طلعت عيسى** أبشع استغلال. كان فريق بحث "أوقات الفراغ لعمال الصناعة" يضم باحثين من المركز هما **ناهد صالح وصلاح عبد المتعال، والجوهري** وأنا، والأستاذين **عزت وطلعت عيسى**. وكانت خبرة مُفيدة حققت الفوائد الثلاث المرجوة ولم تحقق الفائدة الرابعة (تخفيف حدة كراهية **د.طلعت عيسى**). انطوى المشروع على دراسات مكتبية منهجية ومضمونية، وكذلك على العديد من الزيارات الميدانية في العديد من مُحافظات مصر. ولاحظنا أن **د.طلعت** كان يحرص على الزيارات فقط في فصل الصيف، في المُحافظات الساحلية!

مع اقتراب العام الدراسي ١٩٦١/١٩٦٢ حدث الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة، وكان وقعه عليّ وعلى معظم المصريين والعرب شديد الوطأة. فقد كنت قومياً عربياً حتى النخاع. أسهم في تأجيج الشعور بالحزن والخيبة ما كان ينقله زميلي في السكن في تلك الفترة، **حلمي شعراوي**، الذي كان يكبرني بسنتين، وتخرج من نفس القسم، وكان صديقاً أقرب **لمحمد الجوهري**، وهو الذي عرّفني عليه وزكّاه للسكن معي، حيث كنت أعيش بمُفردي في منطقة راقية بالدقي. وفهمت أن **حلمي شعراوي** قد عُين في مكتب إفريقيا برئاسة الجمهورية، ويرغب في الاستقلال بسكن، بعيداً عن أسرته، وفي منطقة راقية. وقد كان. وبصفته في مطبخ الأحداث في رئاسة الجمهورية نقل إلى **حلمي** تفاصيل عن الأوضاع التي سبقت الانفصال، وسوء إدارة المُشير **عبد الحكيم عامر**، الذي كان نائب رئيس الجمهورية والمسؤول عن الملف السوري، والتي سهلت مهمة من قاموا بالانقلاب الانفصالي.

مع بداية العام الدراسي كان موسم الجامعات وهيئات الدولة في التخطيط لبعثاتها الدراسية في الخارج. وعبثاً حاولنا إقناع رئيس القسم بطلب بعثتين للخارج. ولكن من محاسن الثورة في هذا الصدد أنه يُصرف النظر عن الجهة التي توفد بعثات إلى الخارج، فإن التقدم لهذه البعثات كان مفتوحاً لمن تنطبق عليهم الشروط. لم تطلب جامعة القاهرة أي بعثات للعام الدراسي ٦٢/٦٣، ولكن ثلاث جهات أخرى طلبت مُرشحين لبعثات في علم الاجتماع. وكان في إمكان من تنطبق عليه الشروط أن يُقدم لأكثر من بعثة. وكانت أفضل بعثة مُعلن عنها في علم الاجتماع هي تلك الخاصة بكلية البنات جامعة عين شمس إلى فرنسا. أما البعثتان الأُخريان فلم تكونا من جهات جامعية، ولم تكونا على هواي. لذلك تقدمت كرغبة أولى لبعثة فرنسا، وتقدم زميلي **الجوهري** لبعثة دراسة الفولكلور في

ألمانيا، وزميلي **فاروق** لبعثة دراسة الأنثربولوجيا في بريطانيا. وتمت الترشيحات والاختبارات، وخطابات الترشيح والاستعداد للسفر خلال شهور. وبدأت دروساً خاصة في الفرنسية، وجاءني خطاب قبول مبدئي من السوربون. وكانت المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع هي المهيمنة في مصر عموماً، وفي آداب القاهرة خصوصاً.

ثم حدث شيء اعتبرته مأساوياً في البداية. تدهورت العلاقات المصرية . الفرنسية في ربيع ذلك العام (١٩٦٢) لدرجة أدت إلى إلغاء البعثات إلى فرنسا، وتحويلها إلى "بعثات داخلية" . أي أن يتفرغ الطالب للدراسة فقط مع صرف مُرتب مُحترم له، حتى يُنهي الدرجة العلمية المطلوبة. أسقط في يدي وشعرت أن القدر يقف لي بالمرصاد. في نفس الوقت الذي تهيأ فيه الثاني والثالث للسفر إلى ألمانيا وبريطانيا. ثم سافرا فعلاً. وقبلت على مضض... وتوجهت إلى كلية البنات لعمل الترتيبات العملية "للبعثة الداخلية" التي لم أكن مُقتنعاً بها على الإطلاق، والتي فكرت جدياً في التنازل عنها والانتظار لفرصة أخرى. لقد كان السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه حلماً يُداعب خيال أي مُعيد. طلبت مُقابلة العميدة لتقديم نفسي والاستماع إلى توجيهاتها. استقبلتني العميدة بمودة ظاهرة، واعتبرت أن تخليّ عن موقع مُعيد في جامعة القاهرة للتدريس في كلية البنات مؤشر على "شجاعتي وتضحيتي"... ثم سألتني متى تسافر إلى مقر بعثتك. فقلت لها بحُزن وأسى وسخرية ظاهرة: "أنا الآن في مقر بعثتي... فقد تقرر تحويلها من فرنسا إلى بعثة داخلية" فقامت **د.فتحية سليمان** مُنتفضة من على مكتبها وهي تردد "نعم .. نعم . بأمر من؟ بأمر من؟ نحن طلبنا إيفاد بعثة إلى الخارج، ونحن الذين كنا سننفق عليها... كيف يتم التغيير بدون الرجوع إلينا؟" ورغم سعادتي بثورة العميدة، إلا أنني حاولت التهدئة بقولي "إن القرار اتخذ لأسباب سياسية بسبب تدهور الأوضاع في الجزائر". قالت: "ولو ليس شرطاً أن تذهب إلى فرنسا... هل لديك مانع للدراسة في أمريكا؟" سمعت أمريكا، وسال لُعابي... فسألت ببراءة "وهل هذا مُمكن؟ والله إذا كان فلا مانع لديّ، خاصة وأن الفرع الذي أريد دراسته أكثر تقدماً في أمريكا". أدارت العميدة قرص التليفون، وسمعتها تصيح بلهجة حادة ما معناه "ما هذا يا **عبد العزيز**؟ كيف تغير إدارة بعثاتك شروط ما نطلبه من بعثات لكليتنا دون الرجوع إلينا؟"... لم اسمع الإجابة... ولم أدرِ من هو **عبد العزيز**... ولكن رأيت ابتسامة ترتسم على وجه العميدة. وضعت سماعة التليفون، وأعلنت بفخر وانتصار، استعد للسفر لأمريكا. لم أصدق ما سمعته. وللتأكد سألت أليس هذا أمراً تقرره إدارة البعثات. وأليس الوقت متأخراً، فقد بدأ العام الدراسي؟ ردت العميدة على أسئلتي وزيادة.

لقد كانت تتحدث في التليفون إلى الدكتور **عبد العزيز السيد** وزير التعليم العالي، الذي اكتشفت أنه زوجها. وقد هدأ من ثورتها بالموافقة مُباشرة على كل طلباتها، وأخبرها أنه سيُعطي تعليماته لمُدير إدارة البعثات على الفور. كان هذا اليوم من أسعد أيام حياتي. بدأته في الصباح يائساً حزيناً... وخرجت من عند العميدة ظهراً وأنا سعيد ومتفائل. طلبت مني العميدة أن أتردد عليها مرتين أو ثلاثة قبل السفر في ديسمبر، وكنا في أكتوبر. فهمت منها أن القبول والدراسة في الجامعات الأمريكية يمكن أن يحدث في نصف العام.

احتفلت بعيد ميلادي على غير العادة احتفالاً كبيراً مع أصدقائي القاهريين في ٣ ديسمبر ١٩٦٢. وغادرت القاهرة في طريقي إلى لندن، وكوبنهاجن يوم ٧ ديسمبر ١٩٦٢. وصلت إلى نيويورك وبوسطن يوم ٩ ديسمبر، وإلى واشنطن يوم ١١ ديسمبر.

الرحلة الأمريكية

تضمن الاستعداد للرحلة الأمريكية، إرسال أوراق لمكتبنا الثقافي في واشنطن، للقيام بإجراءات تقديمها نيابة عني لعدد مُختار من الجامعات الأمريكية، في مُقدمتها جامعة كاليفورنيا، حيث كان يوجد أستاذان مرموقان للاجتماع السياسي هما ليبست وبندكس. كما كانت العميدة **فتحية سليمان** أيضاً مُجندة لإحدى جامعات الساحل الغربي، حيث الطقس أجمل وأدفأ وأقرب إلى المناخ المصري المتوسطي. وكان واضحاً لي أنها تتحدث عن خبرة، حيث درست هي أيضاً في الولايات المتحدة. وفعلاً قبل السفر بأسبوعين، عرفت من قسم أمريكا في البعثات (الأستاذ **البحطيطي**) بقبولي في جامعة كاليفورنيا، وحيث تبدأ الدراسة للفصل الثاني في منتصف يناير ١٩٦٣، وأنه يمكنني السفر خلال شهر قبل الدراسة. ثم رجاني المسؤول عن قسم أمريكا بصفة شخصية، أن تصاحبني عروس مصرية، تزوجت بالمُراسلة من أحد المبعوثين المصريين في الولايات المتحدة، وتريد الالتحاق بعريسها في بوسطن، وليس لها سابق خبرة بالسفر. فأعلمته أنني أيضاً ليس لي خبرة بالسفر، ولكن بالطبع لا مانع عندي من السفر سوياً.

كان السفر إلى مقر البعثة ينطوي على استخدام خطوط الجوية العربية المتحدة – مصر للطيران سابقاً ولاحقاً – إلى أبعد نقطة مُمكنة تطير إليها، ثم الاستعانة بأي خطوط أجنبية مُكملة، في حدود الميزانية المُقررة من إدارة البعثات. مع ذلك الوقت، أواخر ١٩٦٢، كانت الإجراءات الاشتراكية قد قيدت حُرية السفر، وتحويل أموالي إلى الخارج... وكانت شركات الطيران العالمية التي

لها مكاتب في مصر تتنافس مُنافسة جادة على أي مُسافرين من القاهرة... وكان مندوبو هذه الشركات دائماً في إدارة البعثات يتشممون أخبار المرشحين للسفر فيما بعد آخر محطة تصلها مصر للطيران. وكنت واحداً من هؤلاء، فانهالت عليّ العروض، والتي كان أفضلها عرض الخطوط الاسكندنافية . حيث شمل التكفل بالمبيت ليلتين في لندن، وليلة في كوبنهاجن على حساب الشركة، قبل الطيران من الأخيرة إلى نيويورك وبقية الرحلة في الولايات المتحدة. وقد كان ... وقام الأستاذ **البحطيطي** ومندوب شركة ساس بتحرير بطاقة السفر والفاوتشرز (كوبونات الفنادق).

من الطقوس الطريفة في تلك الأيام نصائح المُخضرمين بما ينبغي أن تأخذه معك من ملابس وأطعمة لبلاد الغربة، وما ينبغي أن تأخذه أيضاً من قواميس ومراجع سياسية، وهدايا من خان الخليلي للمُضيفين والأصدقاء الجُدد في بلاد الغربة هذه. ثم كانت هناك نصيحة هامة من الأساتذة الجادين، هو أن تتجنب بقدر الإمكان ولمدة سنة أو ستة شهور على الأقل الاختلاط المُكثف بالطلبة المصريين والعرب في البداية، حتى تتقن اللغة، وتتعود على طريقة الدراسة والحياة في البيئة الجديدة.

ليلة سفري وصل والدي وأشقائي، وقضوا الليلة معي في حديث عائلي مُمتد، وطلبت مني الوالدة الحبيبة أن أعدها بألا أتزوج من أمريكية، خوفاً عليّ من الخواجات، أو البقاء في أمريكا. كان والدي كعادته قليل الكلام، ولكن نظراته الحانية لم تفارق وجهه. وفي الصباح المُبكر ليوم السفر استيقظنا جميعاً، وشددنا الرحال إلى مطار القاهرة، لرحلة العربية المتحدة إلى لندن. وودعت الجميع بالقبلات والأحضان... وكان هناك عدد من الأصدقاء والرفاق والزملاء أيضاً في توديعي. ثم حدثت مُفاجأة كادت تصيب الجميع، وخاصة والدتي بالسكتة القلبية. فقد رأى الجميع موكباً تتوسطه عروس، ومعه الأستاذ **البحطيطي** رئيس قسم أمريكا بإدارة البعثات، يتقدم مني ويعرفني على العروس، التي كنت وافقت على أن تصحبني إلى عريسها في الولايات المتحدة. وكنت قد نسيت تماماً، وبالتالي لم أمهّد لأهلي أو أصدقائي للمشهد الذي رأوه. وسمعت صرخة من والدتي وسؤالاً استنكارياً عما عسى أن أكون قد فعلته من وراء ظهورهم؟ ولحسن الحظ، سارع بعض من أهل العروس إلى حيث كان يقف أهلي وأصدقائي وشرحوا لهم حقيقة الأمر... فرأيت ابتسامة تحل محل تعبير الفزع على وجه أمي، ثم سمعت زغرودة منها إلى العروس. وكان هذا الظن سيتكرر أكثر من مرة أثناء الرحلة الطويلة، التي استغرقت ثلاث ليالٍ: اثنتين في لندن، وليلة في كوبنهاجن.

عاملنا مضيفو الطائرة من القاهرة إلى لندن كأننا عروسين: فكان هناك اهتمام فوق العادة. وكانت العروس **إيناس**، خريجة كلية العلوم، وبنت المدينة، أكثر جرأة ومرحاً مما تصورت. ومع اعتذاري لثالث مرة عن ظن البعض الخاطئ بأننا عريس وعروس، ضربتني ضربة تلقائية على يدي في المقعد المجاور على الطائرة... ونهرتني أن أكف عن الاعتذار، مُستنكرة بسؤال: "يعني إيه أنا مش أد المقام يعني ولا إيه؟" واستغربت هذه الجرأة، باعتذار أخير معناه أنني لا أقصد ذلك على الإطلاق، فقالت بشقاوة شديدة "أنني أعرف... فقط أنني أردت التأكد أنني لست دون المُستوى!" فسارعت بتعليق يبدو أنه أعجب **إيناس**: "طيب ما دمت زي البربند بهذا الشكل، لماذا كان أهلك خائفين عليك؟" فقالت: "وماذا أفعل في سذاجتهم؟" بعد ذلك سألتها عن نفسها وعن عريسها **عادل**... وعرفت عن قصة حب كلاسيكية بين مُعيد، وإحدى طالباته. واستقامت بقية الرحلة في أحاديث وقفشات وتعليقات ذكية من **إيناس**.

وصلنا لندن بعد الظهر بقليل، واستقبلنا مندوب من شركة ساس التي كانت ستتولى مسؤولية بقية الرحلة. وأخذنا المندوب إلى فندق كمبرلاند، قرب المربك آرش، حيث سنمضي ليلتين، وسلمنا كوبونات الوجبات، وترك رقم تليفونه، وتواعدنا أن يمر علينا في صباح بعد الغد ليأخذنا مرة أخرى إلى المطار لرحلة كوبنهاجن، وذهب كل منا إلى غرفته. وسألتني إيناس ماذا سأفعل، فأخبرتها أنني على موعد مع اثنين من زملائي المُعيدين في كلية الآداب اللذان يدرسان في جامعة لندن... فسارعت بلسانها الحاد "وتتركني زي الكلبة هنا وحدي!؟" فاستدركت بقولي "على الرحب والسعة يمكن أن تأتي معنا". فقالت "لا، شكراً... فقط كنت أريد التأكد عما إذا كنت ما تزال مستعراً مني!" مع ذلك الوقت كنت قد تعودت على أسلوبها الساخر المراوغ... فقلت لها "شوية!" فضربتني على يدي، وقالت إن لديها قائمة مشتريات، وإنها ستمضي وحدها وتراني في اليوم التالي، وأسرعت إلى غرفتها.

وافاني الزميل **السيد الناصري**، الذي كان مُعيداً في قسم اللاتيني، ثم بعد ذلك **محمود ربيع** الذي كان مُعيداً في قسم التاريخ. وكانا قد سبقاني إلى مقر بعثتيهما بأربعة شهور (مثل **الجوهري** في ألمانيا). وكان **الناصري** هو الأقرب إليّ، وكان الأكثر مرحاً وتهريجاً... وأمضينا ثلاث ساعات معاً، نتجول في شوارع لندن، وقطاراتها تحت الأرض، وأنا مُنبهر بكل جديد من خلالهما، مع إحساسي بأني أعرف لندن، من كثرة ما قرأت عنها في الأدب والتاريخ والصحافة، أكثر منهما. بعد الساعات الثلاث قام **الناصري** بتذكير **ربيع** أنه آن أوان عودته إلى مسكنه، حتى لا تفتقده زوجته! ولم أكن أعلم أن **ربيع** قد تزوج

إلا في تلك اللحظة. وفعلاً ودعني الزميل **ربيع** وداعاً حاراً وأصر على أن نتعشى عنده الليلة التالية. وبمُجرد مُغادرته، انبرى **الناصري** في سخرية على الزميل الذي تركنا منذ دقيقة.. وحكي كيف أنه تزوج على عجل قبل السفر بأسبوع بإحدى قريباته من واحة سيوة، والتي لم تكن قد رأت القاهرة إلا ليلة الزواج... وبالتالي فإنها طبقاً **للناصري** ما زالت في حالة الصدمة الأولى وهي رؤية الترام في القاهرة... وأكد لي **الناصري** ذو اللسان السليط أنه مع حصولنا جميعاً على الدكتوراه بعد أربع أو خمس سنوات، ستكون زوجة **ربيع** قد تعاملت بالكاد مع الصدمة الحضارية لمدينة لندن. لم يكف **الناصري** عن تعليقاته اللاذعة لثلاث ساعات أخرى، إلى أن عاد بي إلى فندق كمبرلاند... وفي بهو الفندق وجدت **إيناس** تنتظر، فعرفتها بعد تردد شديد على **الناصري**، مع هواجسي، أننا لن نسلم من لسانه الحاد، وهو يحكي حكاية العروسة التي صاحبت **سعد الدين**. لحسن الحظ حينما جلسنا الثلاثة معاً، لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق حتى اللسان المبرد الآخر... وعرض عليها أن يُساعدها في اليوم التالي لاستكمال مشترياتها. وقد دهشت من كمية العملة الصعبة مع رفيقة سفري **إيناس**. فقد كان المُقرر لكل منا رسمياً خمسين جنيهاً مصرياً، وكانت في ذلك الوقت تعادل مئة وأربعين دولاراً أمريكياً. وذلك طبعاً إلى أن نصل إلى مقر البعثة ونصرف المرتبات والبدلات المُعتمدة. أظن أنني اشتريت معطف صوف فقط في لندن كانت قيمته حوالي عشرة جنيهات إسترلينية.

قضيت اليوم الثاني في لندن أشاهد معالمها التاريخية في واحدة من تلك الرحلات الإرشادية في الأتوبيس ذي الطابقين، والذي كنت اسمع عنه وأراه لأول مرة في هذه الرحلة. وفي المساء توجهنا إلى منزل **ربيع** حيث أتحفتنا زوجته بوجبة شهية من "الحوت" (السمك)، وكانت **إيناس** قد اعتذرت لعدم معرفتها بالمضيفين. فتركناها تستكمل جولاتها الحُرة. حينما عدت إلى الفندق مساءً، وجدت **إيناس** تنتظر في بهو الفندق للحديث والدردشة لمدة ساعة تقريباً، ثم ذهبنا إلى غرفنا للنوم، والاستعداد في اليوم التالي للرحيل. أيقظتني **إيناس** في السادسة صباحاً، مُعلنة أنها جائعة وتريد النزول للإفطار بأسرع ما يمكن. وفعلاً في خلال نصف ساعة كنا في المطعم مع الفطور الإنجليزي الشهير، ثم صعدنا إلى غرفنا لحزم الحقائب وانتظار مندوب ساس (الخطوط الاسكندنافية) إلى المطار... وفي الطائرة إلى كوبنهاجن، تحدثنا أكثر... وكانت الكلفة قد زالت تماماً بيني وبين **إيناس**، وأخبرتني أنها لم تنم جيداً في الليلة السابقة... وكانت على وشك الاتصال بي تليفونياً في غرفتي للدردشة، ولكنها استحت... وبتلقائية لا شعورية، وجدت يدي تمتد وتلامس يدها، التي كانت مُستجيبة تماماً...

وصمتنا... لم أجد كلمات أقولها... ويبدو أنها لم تجد ما تقوله، إلى أن قطعت المُضيفة هذا الصمت بتقديم وجبة الغداء... وكانت العادة في تلك الأيام تقديم السجائر في علبة صغيرة مع الوجبة. وكنت أدخن... وقالت **إيناس** هل يمكن أن أشعل لها سيجارة. ودخنت بشراهة طوال الرحلة... واختفى الكثير من مرحها... وكانت أقرب إلى الصمت والتأمل. وشعرت كما لو أن خطراً عاطفياً يوشك أن يُهاجم هذه الصحبة التي ظلت بريئة طوال ٤٨ ساعة. وقررت في أعماقي أن أحافظ على الأمانة، وأن أحارب أي إغراء من جانبي أو من جانبها. ونجحت في شغلها بقصص وحكايات عن نفسي وعن الآخرين، وتبادلنا النكات...ثم وصلنا كوبنهاجن، ولم يكن لي فيها أصدقاء، وكانت هي قد أنفقت معظمْ نقودها... فمشينا حول الفندق، وفي حدائق كوبنهاجن الشهيرة، والتي كانت أوراق شجرها قد تساقطت... كان الجو بارداً للغاية... فعدنا للفندق بعد ساعتين... وتحدثنا على العشاء كثيراً، ثم ودعتها إلى غرفتها بقبلة على يدها.

غادرنا كوبنهاجن ظهر اليوم التالي، ووصلنا نيويورك ظهر نفس اليوم، ثم بوسطن مساء نفس اليوم. وكان ذلك أول عهدي بالسفر عبر المحليات، وبين مناطق زمنية مُختلفة. في الاستراحة والانتظار بين نيويورك وبوسطن، استبدلت **إيناس** ملابسها العادية بملابس الفرح استعداداً لاستقبال عريسها **(عادل)** لها في مطار بوسطن. وكانت قد خلعت تلك الملابس بعد الإقلاع من مطار القاهرة بقليل. وحينما وصلنا إلى مطار بوسطن، وقبل فتح باب الطائرة فاجأتني بقبلة على خدي، وقالت أنها تشعر أنها قد عرفتني في تلك الأيام الثلاثة أكثر مما عرفت عريسها في ثلاث سنوات وهو مُعيد عليها! ورأيت دمعة تفر من عينيها. وحينما فتح باب الطائرة، شجّعتها على أن تخرج وحدها مُنفردة، حتى يكون مشهد لقائها بعريسها خاصاً، وبدون شوشرات خلفية. وكان **عادل** وحشد كبير من أصدقائه وزملائه المصريين والعرب في استقبال العروس. وأطلقت النساء منهن الزغاريد، بين دهشة المُسافرين الأمريكيين لمنظر هذه الزفة الشرقية. شكرني العريس، وودعت العريس والعروس في المطار، ومضيت مع زميلين من المستقبلين، من معارفي السابقين: **عبد المنعم** معيد اللاتيني، وزميلي السابق في كلية الآداب، **ورفعت الرميسي**، مُعيد الاقتصاد، وزميلي من أيام الملك الكامل في المنصورة. ومن خلالهما تعرفت في خلال اليوم والليلة التي قضيتها في بوسطن على زملاء آخرين يدرسون في هاردفارد والـ MIT، الذي اكتشفت أنه أعظم جامعة تكنولوجية في العالم. فكلمة معهد ماساشوستيس للتكنولوجيا لا تدل في السياق الأمريكي أنه أقل من الكلية أو الجامعة . كما درجنا نحن في مصر على هذه التسميات. تعلمت أكثر عن الجامعات الأمريكية. واكتشفت في

كمبريدج أن الجامعة التي سأدخلها في كاليفورنيا، ليست هي الجامعة التي قصدتها. فحينما رأي الزملاء خطاب القبول، أدركوا وأدركت معهم للمرة الأولى أن جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) التي قبلتني هي غير جامعة كاليفورنيا في بركلي (USA) التي كانت في ذهني، والتي يوجد فيها الأستاذان **ليبست ويندكس**... ومع ذلك فقد شجّعني أحد من تعرفت عليهم من خلال **رفعت الرميسي**، وهو أكبر وأنضج وأطول من الجميع، وكان اسمه **سلطان أبو علي**، على ألا أضيع الوقت في مُحاولة التحويل من جامعة إلى أخرى في هذه المرحلة... وأن أحاول UCLA في البداية، فإذا لم تعجبني فيمكن التحويل إلى أي واحدة من الجامعات الست في كاليفورنيا التي تحمل نفس الاسم، إلا الكلمة الأخيرة التي تشير إلى موقع المدينة (دافيز، سانتا باربارا، أرفين،، سان ديجو... إلخ). في اليوم التالي توجهت إلى واشنطن العاصمة.

وصلت العاصمة ظهراً، وتوجهت فوراً إلى فندق كان المكتب الثقافي قد زودنا بعنوانه، وعلى مقربة منه ومن سفارة الجمهورية العربية المتحدة (مصر). وبعد وضع حقائبي في الغرفة، ذهبت إلى المكتب الثقافي الذي كان يقع في طريق كالوراما. وهناك رحب بي الملحق الثقافي المسؤول عن غرب الولايات المتحدة، وهو الدكتور **مصطفى الشكعة**. وناقشني في خططي الدراسية، وأسدى لي بعض النصائح، واتصل من مكتبه بمكتب الطلبة الأجانب في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، لإخبارهم بقدومي إلى مدينتهم في اليوم التالي. ثم زودني باسم فندق في قرية وست وود، حيث تقع الجامعة، وباسم مسؤول الطلبة الأجانب الدكتور **ماكغادين**. وشرح نظام المرتبات الشهرية، وبدلات الكتب والملابس السنوية، وصرف لي مُرتب شهري ديسمبر ويناير وبدل الكتب والملابس، على أن أزود المكتب بعنوان سكني أو صندوق بريدي بالجامعة في أقرب فرصة لإرسال المرتب عليه من الشهر التالي فصاعداً... كان المرتب الشهري مئتي دولار، وبدلات الكتب والملابس السنوية أربعمئة دولار. وهكذا خرجت من المكتب الثقافي ومعي ثمنمئة دولار، وهو أكبر مبلغ حملته نقداً في حياتي إلى تاريخه. تجولت قليلاً في شوارع العاصمة، ولاحظت هدوء شوارعها، وخلوها من المباني الشاهقة. ثم عدت إلى الفندق، كتبت أول خطاب إلى أسرتي في مصر لأطمئنهم، وخطاباً آخر لأصدقائي في الكلية، وخطاباً ثالثاً **لمنيب**، آخر رفاق سكني في الدقي. في ذلك الوقت من العام (١٠ ديسمبر) كانت واشنطن، شأن بوسطن، ومن قبلهما كوبنهاجن ولندن مزدانة بزينات أعياد الميلاد. ولكن الفندق كان هادئاً وكئيباً، وشعرت لأول مرة منذ تركت القاهرة

بالوحشة... فقد كانت **إيناس والناصري وربيع والرميسي وعبد المنعم** وزفة بوسطن ونسة دائمة افتقدتها فجأة في هذا اليوم الخامس.

كانت الرحلة من واشنطن إلى لوس أنجلوس طويلة، توقفنا خلالها وغيرنا الطائرة في سانت لويس. ورغم طول الرحلة إلا أنني كنت ألاحظ وأراقب مشاهد مُتنوعة من المجتمع الأمريكي، وطريقة حياته، واختلاف لهجاته. وضمن هذه المُلاحظات تزايد الابتسام والبشاشة كلما اتجهنا غرباً. وصلت إلى لوس أنجلوس في الرابعة مساء. وكانت المدينة أكثر تسطحاً وامتداداً حتى عن واشنطن. وقد لاحظت أن معظم المباني لا تتجاوز طابقين أو ثلاثة في الطريق من المطار إلى فندق "وستوود إن"... ولكن المظاهر الاحتفالية بعيد الميلاد كانت أكثر بهاء ورونقاً من واشنطن وبوسطن. واستقبلتني سيدة الفندق المتوسطة العُمر والأنيقة بترحاب شديد. وأخبرتني أن هذا الفندق هو المفضل من مكتبنا الثقافي، وأنها استقبلت طُلاباً مصريين عديدين من قبل، وأرشدتني إلى غرفتي، مع ساعٍ لحمل حقائبي. وطلبت من بعد أن آخذ حماماً وأستريح قليلاً، أن أحضر إلى الاستقبال حتى ترشدني إلى المطعم للعشاء. ونفذت تعليمات مُضيفة استقبال الفندق، وشعرت بالراحة والأمان.

في اليوم التالي استيقظت مُبكراً، وتناولت الفطور في نفس المطعم الذي تناولت فيه العشاء في الليلة السابقة. ثم أعطتني مُضيفة الفندق خريطة للمدينة ولمنطقة وستوود، وخريطة أخرى للجامعة، ورسمت أسهماً على الأخيرة توصلني إلى مكتب الطلبة الأجانب. وبإنجليزيتي المكسرة سألتها كيف عرفت أنني أريد مكتب الطلبة الأجانب؟ فضحكت وقالت اعتقدت أنك مثل الطلبة الجُدد الذين يأتون هنا... أما إذا أردت تعليمات لمكتب عُمدة المدينة فسأعطيك خريطة أخرى... ولم أشعر أن إنجليزيتي تسمح بذلك، فشكرتها، وتوجهت إلى مكتب الطلبة الأجانب في الجامعة. وهناك، قدمت نفسي، واستقبلني الجميع بابتسامات الترحيب. ولم يكن المكتب غرفة واحدة بالمعنى الحرفي الذي يوحي به الاسم، وإنما هو أشبه بشقة كبيرة، أو بالأحرى دور كامل في مبنى من ثلاثة طوابق. وداخله توجد غرفة كبيرة لمديره **د.ماكغادين**، وغُرف أصغر لمجموعة المُساعدين تتحلق حول قاعة استقبال بها مقاعد مُريحة للانتظار، وتغطي الجدران صور ومُلصقات من بلدان العالم المُختلفة، ومنضدة عليها حامل أعلام لحوالي ستين دولة، استنتجت أن منها طُلاباً في جامعة كاليفورنيا. وحينما أعلمت المُستقبلة **د.ماكغادين** بوجودي، خرج الرجل ليستقبلني أمام باب مكتبه، ثم اصطحبني إلى غرفته، التي كانت توجد في ركن منها مائدة صغيرة عليها إناء قهوة، وإناء شاي، وإناء عصير برتقال، وسألني قبل أن أجلس ماذا أريد أن أشرب؟ شكرته... فقال

مُبتسماً "شكراً... نعم، أم شكراً لا..."، فقلت بارتباك "شكراً لا..."، فقال أما أنا فأريد بعض القهوة..." وصب لنفسه فنجاناً. ثم سألني عن الرحلة من واشنطن، وعن الفندق، وعمّا أنويه للسكن؟... وكانت إجاباتي مُقتضبة بحكم محدودية لغتي الإنجليزية، والتي اعتذرت عنها مرتين أثناء الحديث... ولكنه شجعني مرة بأن "إنجليزيتي" أفضل كثيراً من "عربيته"، ومرة أخرى بأن إنجليزيتي معقولة ولا ينبغي الاعتذار، ثم اصطحبني، في جولة لتقديمي لمُساعدته، وتوقفنا عند مسز **إستون** التي ستساعدني في أمور السكن، وتركني معها، وعاد إلى مكتبه بعد أن أكد أن أتصل في أي وقت إذا احتجت أي شيء، وأعطاني بطاقته (كارت) عليها أرقام تليفونات المكتب والمنزل.

في مكتب مسز **إستون**، سيدة في الخمسينات أنيقة وبشوشة يختلط في رأسها الشعر الأشقر الذهبي ببعض الشعر الأبيض. وبدورها سألتني عن الرحلة، ومن أي مكان في مصر، وأخرجت خريطة مُتوسطة الحجم لمصر. فلما ذكرت المنصورة، قالت في دعابة واضحة، حيث توجد النساء الجميلات من تأثير الفرنسيين... وحينما بدوت مُستغرباً، سارعت بالتوضيح أنها تستقي هذه المعلومات من تعليقات الطلبة المصريين والعرب وهم يُداعبون بعضهم البعض. ثم عرضت بدورها ما إذا كنت أشرب معها فنجاناً من الشاي أو القهوة أو العصير... وفي هذه المرة لم أتردد واخترت كوباً من عصير البرتقال. بعد ذلك تحدثت عن أنواع السكن المتاح للطلبة. سكن الجامعة (المدينة الجامعية)، سكن أندية الأخوة (Fraternity)، والسكن الخاص بمُفردي أو مع زميل أو زميلين آخرين، أو مع أسرة مُضيفة (Host Family). كان تفضيلي الأول هو سكن الجامعة، ولكنها في نصف السنة وكان هذا السكن مشغولاً كله، على الأقل لمدة شهر آخر لاحتمال تخرج البعض بعد الفصل الدراسي الأول الذي لم يكن قد انتهى بعد (ينتهي في نصف يناير). ثم اقترحت هي أن أسكن مع زميل آخر من العالم العربي. فبادرتها بكلمة "لا" قاطعة، استغربت لها مسز **إستون**... فنظرت في تعاطف وبحب استطلاع مُخلص سألت "هل لي أن أعرف الأسباب؟". فشرحت لها أنني حريص على تحسين إنجليزيتي، وإذا سكنت مع مصري أو عربي فإننا سنتحدث العربية معظم الوقت... هزت السيدة رأسها... وقالت إن هناك طالباً أجنبياً يتحدث الإنجليزية أفضل منها، ويحتاج إلى زميل يسكن معه، فهل لديك مانع من مُقابلته والتعرف عليه، ورؤية شقته، ثم اتخاذ قرار... فوافقت... فأجرت مُكالمة تليفونية لشخص يُدعى "**فيرناندو**"...، وأعطتني صحيفة الجامعة اليومية للتسلية إلى أن يصل "**فيرناندو**"... ووصل هذا الأخير. شاب في مطلع العشرينات رشيق ووسيم، طويل أملس الشعر

الأسود... وعرفتني عليه السيدة **إستون**، وصافحني بحرارة... وسألني نفس الأسئلة عن رحلتي ومتى وصلت، ثم طلب مني أن نتحرك... وودعنا مسز **إستون** بابتسامة من يُبارك المشروع.

أخذني **فيرناندو** في سيارته الديسوتو المستخدمة، إلى حيث يسكن. وكان يتولى الشرح والتعريف بالأحياء والشوارع، التي نمر بها بلغة إنجليزية سلسة. واعتقدت في البداية أنه من أحد بلدان البحر المتوسط (إيطاليا/ أسبانيا/ البرتغال) أو أمريكا اللاتينية. ولكنني بدأت أصدق مُلاحظة مسز **إستون** أن إنجليزيته أفضل من إنجليزيتها . على الأقل من حيث الطلاقة والوضوح. فقد فهمت معظم ما قاله. وحيث لم أفهم، كان يُعيد بلغة أسهل. وصلنا إلى المبنى الذي يسكن في طابقه الأرضي، في شقة صغيرة تتكون من غرفة نوم واحدة، وصالة يفتح من أحد دواليبها سرير ينزل على الأرض، وسط الصالة للاستخدام ليلاً، ويعاد إلى مكانه في الحائط ويقفل عليه الدولاب نهاراً. وعرض **فيرناندو** أنه إذا وافقت على السكن معه، فهو سيتخلى عن غرفة النوم لي، وينام هو في الصالة على ذلك السرير السري أو السحري الذي يخرج من الدولاب وقت اللزوم. لم أكن مُتحمساً للشقة الصغيرة، أو لفكرة أن أحرم هذا الشاب من غرفة نومه، أو أنام أنا على هذا السرير المخفي... ولا بد أن **فيرناندو** لاحظ ما يدور في رأسي من تردد. فقال بصراحة أنا أحتاج إلى شريك في السكن، وإلا فسأموت جوعاً، لأنني لا أستطيع إنفاق كل دخلي الشهري على الإيجار، ومسز **إستون** تعرف ظروفي كطالب أجنبي توقفت أسرته عن إرسال أي مُساعدة مالية له نتيجة ظروف سياسية، فأرجو أن توافق على مُشاركتي في السكن. وتأثرت بلهجة الرجاء والألم في صوته، رغم وجهه وشخصيته المُعتدة بنفسها. فقلت بلا مزيد من التفكير باللغة العربية "خلاص" فابتسم ابتسامة عريضة، وتنفس الصعداء... وشكرني... فبادرته لماذا تشكرني فقال على الموافقة... فسألته وكيف عرفت. قال ألم تقل "خلاص" ... وسألته وهل تعرف العربية قال بلهجة شامية "معلوم"... أنا من سوريا!.

انضح لي أن **فيرناندو** هو "**بشير ميبر**" ويدرس الدراما والمسرح في الجامعة ويأمل أن يكون مُمثلاً في هوليوود. ولهذا السبب اجتهد في إجادة الإنجليزية باللكنة الأمريكية، حتى أصبح مثل أهلها تماماً. ثم غيّر اسمه الأول ليصبح "**فيرناندو**" وأبقى على اسمه العائلي وهو **ميبر**، والذي يمكن للمُستمع الغربي أن يخطأه كاسم غربي (Fernando Mibar) وهو اسم موسيقي رومانسي في وقت كانت فيه الأسماء اللاتينية في عالم الدراما شديدة الجاذبية، وخاصة بعد النجاح الساحق لمسرحية ثم فيلم "قصة الحي الغربي West Side story.

واكتشفت فيما بعد أن شقة الزميل العزيز تقع في أغلى حي، ليس فقط في لوس أنجلوس ولكن في العالم، ذلكم هو حي بيفرلي هيلز (Beverly Hills). أما لماذا اختار **فيرناندو** ذلك الحي الذي لا يسكنه طلاب جامعيون؟ فكانت الإجابة: لكي يكتشفه أحد المُخرجين أو المُنتجين أو الوكلاء السينمائيين الذين يسكنون هذا الحي ويعملون في الحي المجاور له مُباشرة، وهو "هوليوود". أما كيف ساءت حالته المالية، فهنا يتداخل الخاص مع العام . كما حدث لي وسيحدث لي ولعديد من أبناء جيلي . فبعد انفصال الإقليم السوري، وكانت أسرته، وخاصة شقيقه الأكبر، معروفين بناصريتهم الشديدة، فقد وقعوا ضحية للإجراءات الأمنية للنظام الانفصالي قبل سنة وثلاثة شهور، وطلبت منه الأسرة العودة، إلا أنه رفض وبدأ يعمل للإنفاق على تعليمه وسكنه الغالي جداً . كما اتضح فيما بعد. بهذه المعلومات حاولت أن أتحدث مع **بشير** أو **فيرناندو** باللغة العربية. ولكنه كان يرد دائماً باللغة الإنجليزية، ويشجعني على استخدامها. وبعد شهرين، وكنا قد أصبحنا أكثر تآلفاً وانسجاماً، أقنعته لتغيير السكن، إلى منطقة وستوود (حي الجامعة)، حيث سكنا في شقة فاخرة بها غرفتا نوم وصالة استقبال كبيرة، وبنصف إيجار شقة شارع دوهيني في بيفرلي هيلز!

قضيت في لوس أنجلوس عشرة شهور فقط، انطوت على فصلين دراسيين في جامعة كاليفورنيا، انتهت بضغوط من الدوائر الصهيونية في الجامعة والمدينة، وبنصائح من المكتب الثقافي بالتحويل إلى جامعة أخرى، وبعرض من أستاذ اجتماع شهير في جامعة واشنطن بسياتل للانتقال إلى جامعته.

خلال الشهر الذي سبق الانتظام في الدراسة بجامعة كاليفورنيا، نجح زميلي في السكن **فيرناندو** في تقديمي للعديد من الأنشطة ومجموعات الأصدقاء الأمريكيين والمسلمين والعرب . وبهذا الترتيب (كان العرب آخر مجموعة). من ذلك تقديمي على مجموعة من نجوم الصف الثاني في هوليوود وخاصة من المُمثلات، التي كنا نراهن في أفلام آخر الليل. كذلك قدمني للمركز الإسلامي في لوس أنجلوس. وكانا عالمين مُختلفين ومُتناقضين ولكن هكذا سأكتشف في هذه المدينة الصاخبة. ومن كلا العالمين المُتناقضين، وخلال ذلك الشهر نشأت صداقات نسائية حميمة مع من يكبرني سناً بعشرة أعوام على الأقل. وكان الاستثناء لذلك فتاة في العشرين من أب مسلم وأم أمريكية، هجرهما الأب وعاد إلى بلده (السودان)... وكانت الفتاة تواقة للبحث عن جذورها، فكانت تتردد على المركز الإسلامي بحثاً عن أي انتماء.

حينما بدأت الدراسة في مُنتصف يناير كنت في حالة تأهب شديد. وبدأت بثلاث مواد، وكورس تقوية في اللغة الإنجليزية. وكان الاستذكار يستغرق مني

ما بين ١٢ و١٤ ساعة. فقد كنت بطيء القراءة في اللغة الإنجليزية، وألجأ إلى القاموس كثيراً، وأصر على فهم من حرص على حفظ كل شيء. كنت أجلس في الصف الأول، وأصغي للأساتذة بعناية شديدة، وأسجل كثيراً من المُلاحظات. وكان الكورس المُفضل والذي أتيت للتخصص فيه هو علم الاجتماع السياسي، وكان يدرسه أستاذ جذّاب شكلاً وموضوعاً اسمه **ويندل بيل** (Windel Bile) وكان الكتاب المُقرر هو "الرجل السياسي" (Political Man) من تأليف **سيمور ليبست**، الذي كنت أعتقد وأنا في مصر أني قادم للدراسة معه، قبل أن أعلم أنه في فرع آخر من فروع جامعة كاليفورنيا (بيركلي). استرعى انتباهي أن الأساتذة لا يدرسون كتبهم، ولكن كتب أساتذة آخرين. كذلك استرعى انتباهي، أو قل صُدمت حينما سألت الدكتور **بيل** سؤالاً في المُحاضرة... فأجابني أنه لا يعرف الإجابة، وطلب مني أن أسعى من خلال الأيام التالية لمُحاولة الإجابة! وهذا لا يمكن أن يحدث في مصر . أي أستاذ لا يعرف الإجابة. حينما حكيت هذه الواقعة **لفيرناندو** لم تبدُ عليه علامات الدهشة... وكان مما قاله، وهو يصغرني بثلاث سنوات، لا أحد يعرف كل شيء، ولا حتى الأساتذة العظام مثل **ويندل بيل**. والفرق بيننا وبينهم هو الاعتراف بمحدودية معرفتهم، ولكن السعي الدائب لطرح أسئلة ومُحاولة الإجابة عليها... ومع كل إجابة تتولد أسئلة جديدة... هذه ألف باء فلسفة المعرفة والعلوم.

مع الأسبوع الثالث، وبعد شعوري النسبي بالأمان الدراسي، بدأت أتردد على الكافيتريا في مبنى اتحاد الطلبة الجديد. وهناك بدأت ألتقي بالطلبة العرب، الذين كان لهم ركن خاص يتجمعون فيه في فترة الغداء من ١٢ إلى ٢ ظهراً... وكان اللحن المُميز للفيلم الجديد "لورانس العرب" (Lawrence of Arabia) هو الأكثر شعبية في الكافيتريا، حيث يطلب المُستمعون بوضع عشرة سنتات في جهاز الموسيقى بالكافيتريا. وكان يُحيط بالطلبة العرب دائماً مجموعة من الطالبات الأمريكيات اللائي يستهويهن الشرق وألف ليلة وليلة. وجاء فيلم لورانس العرب، وتألق النجم المصري **عُمر الشريف** فيه ليُضاعف من هذه الرومانسية لدى البنات الأمريكيات، وهو الأمر الذي استغله الطلبة العرب أسوأ استغلال!.

كان الفلسطينيون والسوريون والعراقيون هم الأكثر تسييساً بين الطلبة العرب. وكان المصريون والسعوديون أكثر عدداً وأقل تسييساً. وكان هناك دائماً جدل صاخب بين الطلبة العرب في أمور السياسة التي تجري في الوطن الأم. كما كان هناك تنافس بين البعثيين والقوميين العرب والشيوعيين والإخوان المسلمين. وفي البداية كنت اسمع أكثر مما أتكلم... إلى أن كانت مُناسبة زيارة

القنصل المصري في سان فرانسيسكو، **تحسين بشير**، وبعد إلقاء مُحاضرة عامة بالإنجليزية، ثم أخرى بالعربية للطلبة العرب فقط، سألته سؤالين، يبدو أنهما جذبا انتباه بقية الطلبة العرب. وبعدها بدؤوا يُقحمونني في مُناقشاتهم التي لا تنتهي. وما هي إلا شهر ونصف، إلا وحلت انتخابات منظمة الطلبة العرب في الجامعة. وكان التنافس حاداً للغاية بين مُرشح بعثي سوري ومُرشح قومي عراقي، وكاد الصراع أن يشق صفوف الطلبة العرب في الجامعة. فاقترح الرائد الأمريكي للنادي، وهو **د.مالكوم كير** (الذي أصبح بعد ذلك رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت واغتيل هناك في مُنتصف الثمانينيات)، البحث عن مُرشح ثالث يكون أقل خلافية. فاقترح أحدهم اسمي، ولم أكن موجوداً في الاجتماع، فبحثوا عني لحضور الاجتماع، وحينما دخلت القاعة، قوبلت بالتصفيق، وعرفت أنني أصبحت الرئيس الجديد للنادي لمدة سنة! وبقدر ما سعدت بهذه الثقة بقدر ما شعرت بتهيب شديد. فأنا لا أعرف البلد بعد، وإنجليزيتي ما تزال دون المُستوى المطلوب لمثل هذا الدور القيادي. وأثبتت الأسابيع والشهور التالية صدق تهيبي ومخاوفي.

معركة بين العرب واليهود في الجامعة

كان الحدث الكبير الذي يُعد له الطلبة العرب في الربيع هو الاحتفال بيوم فلسطين في الخامس عشر من مايو، يوم "النكبة". وبما أن ذلك كان أول نشاط للنادي تحت قيادتي، فقد فكرت في احتفال مُبتكر بالمُناسبة يدوم أسبوعاً كاملاً، تتخلله مُحاضرات ومعارض وليالٍ عربية، وينتهي باستقبال كبير في القاعة الرئيسية لمبنى اتحاد الطلبة الجديد. وحشدنا عدداً لا بأس به من المُحاضرين المُمتازين - منهم المرحوم **فايز صايغ**، والسفير الأمريكي السابق المُتعاطف مع العرب **روبرتماينور** والقنصل **تحسين بشير** (مرة أخرى).

اكتشفت في كل الأنشطة العربية بالجامعة والمفتوحة للجمهور، أن ما بين ثلث ونصف من يحضرون هم من أولاد وبنات العم - أي الطلبة اليهود الأمريكيين والإسرائيليين - وذلك لعرض وجهات نظرهم في نفس القضايا. وكان ذلك شيئاً يُثير غيظي في البداية، حيث إنني ككل عربي وافد من الوطن لم أتصور أن لليهود أي حقوق بالمرة في فلسطين. وكنت في البداية أعجب كيف ولماذا يسمح الطلبة العرب للطلبة اليهود بحضور هذه الأنشطة. وتعلمت تدريجياً أن أي نشاط عام في الجامعة هو نشاط مفتوح لكل مجتمع هذه الجامعة من طلاب وهيئة تدريس وإداريين. وأنه لا يمكن أن نقف عند الباب، ونمنع البعض على أساس الدين أو اللون أو الجنس. وتعلمت كذلك أننا كعرب لنا نفس هذا

الحق نظرياً . أي الذهاب والمُشاركة في أي نشاط عام يُقيمه الطلبة اليهود أو الإسرائيليون بالجامعة، وعرض وجهة النظر العربية.

لذلك فخلال أسبوع (وليس يوم) فلسطين ذلك العام (١٩٦٣) كان يحضر الندوات والمُحاضرات عشرات الطلبة اليهود والإسرائيليين إلى جانب الأمريكيين "الأنجلوسكسونيين"، أو ما كنا نسميهم ويسمون أنفسهم "بالدبابير" (WMSP) وهي باختصار للبيض الأنجلوسكسونيين البروتستانتيين، والطلبة المسلمين غير العرب، والأمريكيين الزنوج. وكان الأسبوع ناجحاً بكل المقاييس إلى آخر نشاط في آخر يوم فيه، والذي كان حفل استقبال كبير لمن أعدوا وشاركوا في الأسبوع. وخلال حفل الاستقبال كان طالب عراقي (اسمه **نزار**) يشرح لزوج أمريكي بعض جوانب القضية الفلسطينية، وبعض قرارات الأمم المتحدة بشأنها والتي ضربت بها إسرائيل عرض الحائط. وكان الزوج الأمريكي يُبدي دهشته واستنكاره، ويعبّر عن تعاطفه الشديد مع الحق العربي الفلسطيني. وعلى مقربة من **نزار** والأمريكيين كان يقف طالب إسرائيلي يستمع ويُراقب هذا التعاطف، ويبدو أنه كان جديداً ولا يُجيد الإنجليزية، لذلك لم يتدخل في النقاش بعرض وجهة نظر كاملة. كل ما تدخل به هو عبارة "إن هذا العربي (يقصد **نزار**) يكذب"، وردّدها مرتين. فما كان من الزميل العراقي إلا أن استأذن من ضيوفه الأمريكيين، وسحب الطالب الإسرائيلي من يده، بدعوى أنه يُريد أن يتحدث معه على حده خارج القاعة. وبعد أقل من دقيقة اندفع الطالب الإسرائيلي إلى القاعة من جديد والدماء تسيل من وجهه، وهو يصيح بالإنجليزية "العرب يقتلونني... العرب يقتلونني..." وفي ثوانٍ تحوّل الاستقبال الجميل مع خلفية موسيقى **رانوي كورساكوف** "ألف ليلة وليلة" وموسيقى **موريس جار** "لورانس العرب"... إلى معركة حامية الوطيس بين اليهود والإسرائيليين من ناحية والعرب وأنصارهم من ناحية أخرى. وجاء حرس الجامعة على عجل، ثم بوليس المدينة لوقف المعركة والقبض على العشرات من الجانبين والإسراع بالمُصابين إلى مُستشفى الجامعة التي كانت على مقربة من مبنى اتحاد الطلبة الجديد. وكنت بالطبع أحد الذين تم استدعاؤهم للتحقيق من شرطة المدينة وسلطات الجامعة، بصفتي رئيس النادي العربي، والمُتعاقد مع إدارة مبنى اتحاد الطلبة على إقامة حفل الاستقبال. وخرجت صحيفة الجامعة في اليوم التالي (Daily Bruin) بعنوان مثير حول "**عرب ينقلون القتال إلى الجامعة**"، وفيه وصف لما حدث ولكن بلهجة إدانة واضحة، فحواها أن العرب نقلوا كراهيتهم لليهود واضطهادهم من الشرق الأوسط إلى قلب لوس أنجلوس، ولم يحترموا قدسية الجامعة، أو فلسفتها في أنها بيت العقلانية الذي يُناقش فيه كل شيء بالحجة والحجة المُضادة... وقررت الجامعة

تجميد نشاط النادي العربي لمُدة فصل دراسي، ومطالبته بتعويض مبنى الاتحاد عما وقع من أضرار، وترك الشق الجنائي لما حدث لسلطات التحقيق في مدينة لوس أنجلوس. ولم تتوقف صحيفة الجامعة وبعض صُحف المدينة طوال ما بقي من العام الدراسي عن مُناقشة الحدث، مع ميل واضح للجانب الآخر. وكان يُطلق على جامعتنا أحياناً (JEWCLA) أي جامعة كاليفورنيا اليهودية لارتفاع نسبة اليهود فيها طلاباً وأساتذة. ولأني كنت رئيس النادي، فقد كنت في قلب الأحداث والتحقيقات، وهجوم الطلاب والمُعلقين الصهاينة طوال الشهرين التاليين. وفاجأني رائد النادي **د.مالكوم كير** باحتياجي لمُحامي للوقوف بجانبي في التحقيقات... وسألني إذا كان لدي مُحام بالفعل، فلما أجبته سلباً... أخبرني أن مُحامياً اتصل به ويعرض عليّ خدماته مجاناً. فقلت له على الفور. Ok. قال مهلاً، لا بد أن تعرف أن هذا المُحامي "يهودي" افتكرت للحظة... ودارت في رأسي المُرهقة كل خواطر "**نظرية المؤامرة**"... لماذا يتطوع مُحامٍ يهودي للدفاع عن عربي في مواجهة يهود آخرين؟ لا بد أنه سيزيد من توريطي وتوريط الطلبة العرب... ولا بد أن **د.كير**، بصفته خبيراً في الشؤون العربية، خمّن ما يدور في رأسي... فقال بلهجته الساخرة "حيلة... فخ... أليس كذلك؟" فرددت الكرة في ملعبه: وماذا تظن أنت... وبماذا تنصح... أنت مُستشارنا؟ فقال أنصحك بالقبول، فالمُحامون اليهود عادة شُطّار، وثانياً، أي مُحامٍ آخر سيكلفك مبالغ مالية طائلة فهم هنا يعملون بالساعة، وثالثاً، رغم تطوعه بالدفاع عنكم مجاناً إلا أنه سيكسب دعاية كبيرة جداً (مُحامٍ يهودي يتطوع للدفاع عن العرب)، ورابعاً، يمكن أن يقول أي شيء في الدفاع عنكم دون أن يتهمه أحد "بمُعاداة السامية" (Anti. Semitism)، وهو البعبع الذي درج اليهود على استخدامه ضد خصومهم منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية والكشف عن أبعاد المحرقة النازية لليهود.

ووافقت على اقتراح **د.كير**. واتضح أن أسبابه الأربعة لقبول عرض المُحامي اليهودي كلها صائبة. كان دفاع المُحامي بسيطاً جداً ولكنه في غاية التأثير. فقد عرف من **نزار عبد القادر** تفاصيل ما حدث. والزوج الأمريكي الذي كان يستمع **لنزار**. أثبت من واقع قرارات الأمم المتحدة أن **نزار** كان يقول الصدق. طلب من أحد أساتذة الأنثربولوجيا بالجامعة (**د.كاسدان**) أن يشخص وقع الاتهام بالكذب حينما يكون المرء صادقاً في الثقافة العربية التقليدية... وكانت إجابة **د.كاسدان** (وهو أيضاً يهودي) "أن ذلك يدخل في جرائم الشرف" (Honor Crimes) التي لا تغسل إلا بالدم أو الدية. وخرجنا براءة من القضية.

كنت قد سجّلت للفصل الصيفي الذي يبدأ في مُنتصف يونيو إلى مُنتصف أغسطس وكان أحد أساتذتي هو **د.كاسدان**، وهو يهودي جاء أستاذاً زائراً من

جامعة ميتشيجان، وكان يدرس مادة عن علم اجتماع الشرق الأوسط. وقد توجست في البداية من يهودية هذا الأستاذ، وخاصة في ضوء الإعلام الصاخب الذي أحاط بي وبالنادي العربي في الجامعة في نهاية فصل الربيع، والذي كان ما يزال مُستمراً طوال شهر يونيو. ولكن لجوء المُحامي **(دافيد)** للاستعانة بشهادة **كاسدان** عن جرائم الشرف في الثقافة العربية، ثم كسب القضية، هدأ من هواجسي. وفي الواقع من المادتين التي درستهما في ذلك الصيف، كانت مادة **د.كاسدان** هي التي حصلت فيها على تقدير امتياز (A)، بينما المادة الثانية عن علم اجتماع الطبقات، لأستاذ **دبور** (WASP) هو **د.تيرنر (Turner)**، حصلت فيها على تقدير جيد جداً. وكان ذلك درساً مُبكراً في التعامل مع اليهود في الولايات المتحدة . وهو أنهم ليسوا جميعاً صهاينة، وأنهم ليسوا جميعاً مُتحيزين ضد العرب أو المسلمين. وقد تأكد ذلك أيضاً على المُستوى النسائي. فقد كانت أوفى صديقاتي في أثناء أزمة النادي العربي، زميلة يهودية اسمها **ستيفاني**.. والتي شككت أنها "جاسوسة" في البداية... إلى أن رأيت كتاباتها النارية في صحيفة الجامعة دفاعاً عن الطلبة العرب وعن وجهة النظر العربية. وكان لديها الشجاعة لبدء مقالتها بـ"إنني يهودية... ولكن..." وفي أثناء المعركة توطدت العلاقة وتحولت إلى علاقة حميمة جداً.

علاقة مع يابانية في الخمسين

بمُناسبة العلاقات الحميمة، كانت إحداها في الشهر الأول في الجامعة مع زميلة يابانية في مادة اللغة الإنجليزية. وكان واضحاً منذ الأسبوع الأول أنني أكثر تميزاً من مُعظم الطلبة الأجانب في نفس الفصل (أو الصف) كما يقول الأخوة العرب. أتضح أنني أعرف كلمات إنجليزية كثيرة، ولكن كانت مُشكلتي هي سرعة المُحادثة وسرعة القراءة. وقد استطعت التغلب عليها بسرعة معقولة خلال الشهر الأول، لدرجة أن أستاذ الإنجليزية **(هربرت)** قال لي بعد الشهر الأول، أنني لم أعد في حاجة للاستمرار، لأن مُستواي تجاوز الحد المُستهدف من هذا الكورس. وفعلاً بدأت أحضر ساعتين للمُحادثة أسبوعياً، ولا أحضر الساعات الثلاث الأخرى. وفي تدريبات المُحادثة كان هناك دائماً رفيق (أو رفيقة) لتبادل الحديث طبقاً للكتاب، مع مُراقب للتصحيح الفوري. وفي أحد هذه التدريبات كانت رفيقتي يابانية حسناء، ذكرتني ببطلة فيلم "سايونارا". وبعد انتهاء المُحاضرة، دعوتها لفنجان قهوة في كافيتريا الجامعة، قبلت الدعوة بسعادة واضحة، وقالت، وهكذا نواصل تدريبات المُحادثة، ولكن بدون الكتاب. فقلت لها نعم... وفي أثناء الحديث على القهوة فهمت أنها أرملة، وقد أتت حديثاً للولايات

المتحدة لتحصل على شهادة عُليا في التمريض... وطوال الحديث لم تكف عن شكري لدعوتها للقهوة... موضحةً أن تلك كانت أول دعوة تلقتها من رجل منذ وصلت أمريكا قبل شهر. وفي اليوم التالي، وبعد المُحاضرة، سارعت هي بدعوتي على القهوة، وقبلت... وكانت سعيدة، وكنا قرب نهاية الأسبوع، فسألتها عما ستفعله في "الويك إند"، فأجابت لا شيء... سألتها إذا كانت ترغب في العشاء معي مساء السبت، فرحّبت على الفور... وأعددنا عشاء فاخراً في منزلنا الجديد أنا **وفرناندو**، ودعا هو الآخر إحدى صديقاته... وبعد العشاء، استأذن هو وصديقته، وتركني معي صديقتي اليابانية **(هايوكارا)**. وعلى أضواء الشموع بدأت العلاقة الرومانسية الحميمية... واستمرت لعدة أسابيع، إلى أن كنا نتحدث في شيء استدعى ذكر عُمر كل منا. لقد كنت قد أكملت الرابعة والعشرين منذ شهرين. وفوجئت بأن هذه الحسناء اليابانية في الخمسين من عُمرها... وكانت صدمة لم أستطع الإفاقة منها "كيف أدخل في مثل هذه العلاقة الحميمة مع سيدة في عُمر أمي... صحيح في علاقات سابقة وفي نفس هذه المدينة تعاملت رومانسياً مع نساء يكبرنني بعشر سنوات أو أكثر قليلاً. أما أن تكون ضعف عمري فهذا شيء آخر. تماسكت... ولحسن الحظ كنا قد أنهينا الجزء الحميم في اللقاء... وأخذتها إلى سكنها، وقبّلتها قبلة الوداع الأخيرة... وتوقفت عن فصل اللغة الإنجليزية الذي لم أعد "في حاجة إليه"... ولم تعلم **هايوكارا** لماذا فقدت اهتمامي بها فجأة... فقط "انشغالي الشديد"! وكثيراً ما أتذكر **هايوكارا** وأتعجب لما يحدث داخل المخ البشري. فإلى أن دخلت معلومة عُمرها مُخي، كانت **هايوكارا** مُثيرة شكلاً وجسماً وموضوعاً... وكانت العلاقة الحميمية في غاية المُتعة والإشباع. وفجأة مع معلومة السن، انطفأ كل شيء فجأة!.

من العلاقات الحميمية الأخرى خلال تلك الشهور العشرة علاقة قصيرة مع زميلة من أولئك الهائمين بالطلبة العرب، فكانت تنتظر القادمين الجُدد منهم كل فصل دراسي، وتتولى تهيئته اجتماعياً وجنسياً للعالم الأمريكي الجديد. كان ذلك هو تخصص "**نولا**": الأسبوع الأول للطلبة الجُدد. ومع ذلك كان الكل يعزّها ويحتفي بها. وبمعنى من المعاني كانت نولا هي الكاشفة لكل عوراتنا وعيوبنا ونقائصنا. لم تكن **نولا** جميلة، ولكن معقولة، وبيضاء الجسد، وبالنسبة لطالب عربي جديد، ومتشوق للحم الأبيض، فقد كانت أكثر من كافية. العلاقة الحميمية الأخرى كانت مع أمريكية زنجية فاتنة، كانت تشتغل "موديلاً"... وكانت مُطلقة وفي أواخر العشرينات. وقررت أن تكون "مسلمة" وتتزوج "عربياً مسلماً" تحت تأثير فيلم رودلف فالينتينو "العربي". دامت هذه العلاقة عدة أسابيع، ولكنها

كانت في غاية الإرهاق والاستنزاف... حيث لم أكن قد صادفت جسماً في قوة جسم **نولا**، ولا نهما مثل نهمها!

مع نهاية الفصل الصيفي في الجامعة كانت قصة ما حدث لفرع منظمة الطلبة العرب (النادي) في جامعة كاليفورنيا- لوس انجلوس قد انتشر. وكان المكتب الثقافي المصري في واشنطون مهموماً بهذه القضية وخائفاً عليّ من أعمال انتقامية قد يقوم بها بعض الصهاينة، وخاصة بعد البراءة، لذلك كان من رأي المُلحق الثقافي، أن أبحث عن جامعة أخرى أحوّل إليها، خاصة وأنا ما زلت في السنة الأولى للدكتوراه. وكنت نصف مُقتنع بهذه النصيحة. وكان عدم الاقتناع الكامل مرجعه أولاً أننا كسبنا القضية، وأننا كسبناها بمُساعدة يهود شُرفاء (**المُحامي دافيد، ود.كاسدان، وصديقتي ستيفاني**). ومع ذلك بدأت خميرة التحويل إلى جامعة أخرى تنمو في رأسي. وتصادف أن المؤتمر السنوي للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع كان سينعقد في الأسبوع الثالث من أغسطس في لوس أنجلوس. وهذه دائماً مُناسبة مثالية لطلبة الدراسات العُليا في علم الاجتماع للحضور والاستفادة ومُشاهدة كبار الأساتذة ومشاهير علم الاجتماع من أمريكا والعالم. وشاركت شأني شأن مئات طلبة الدراسات العُليا. ومثل هذه المؤتمرات يحضرها آلاف المُشتغلين في المجال، وستكون مثل سوق عكاظ، كلٌ يعرض بضاعته في عشرات الجلسات، والموائد المُستديرة، ومجموعات النقاش الصغيرة، ناهيك عن معارض كتب الناشرين، ومكاتب التشغيل للخريجين الجُدد. وضمن جدول المؤتمر لفت الدكتور **ستيوارت دود** (S. Dodd) وكان من الأساتذة ذائعي الصيت هو وزميله **جورج لندبرج** (G. Lindberg) لمُحاولتهما الدؤوبة لتحويل علم الاجتماع إلى علم "كمي". فذهبت إلى تلك الجلسة، التي كانت في اليوم الثاني للمؤتمر... واستمعت إلى **د.دود** بشغف شديد، فهو أحد هؤلاء الموهوبين الذين يُفسرون أصعب المفاهيم، من خلال ما درجنا على تسميته بالسهل المُمتنع. وبعد عرضه الشيق، سألته كيف يُعمم من دراسته لبلد عربي واحد، وغير نمطي، وهو لبنان، إلى عالم عربي واسع ومُتنوع، وأمله هو ما يُشبه لبنان. أخذ الأستاذ الكبير بالسؤال، أو هكذا تظاهر بشكل استعراضي... وأطرق قليلاً، وطلب مني أن أعيد قراءة عنوان مُحاضرته... فقلت... وبادرني هو بالسؤال "هل قلت في المجتمع العربي، أم فقط في مجتمع عربي... وهل لبنان مجتمع عربي أم غير عربي"... ثم قال وفي كل الأحوال يبدو من لهجتك أنك من ذلك الجزء من العالم... فلماذا لا تنتظر بعد المُحاضرة، لمزيد من المُناقشة؟. وقد كان ... انتظرت الأستاذ الكبير... الذي بادرني بالعربية "شو اسم الكريم؟" انفرجت أساريري، سحبني هو من يدي في أبوة

ظاهرة، ودعاني للغداء، الذي كان وقته قد حان. وعلى الغداء أقنعني بأن أحوّل إلى جامعته التي هي جامعة واشنطن ـ سياتل، حيث سأجد مزيداً من المواد عن العالم العربي، ومزيداً من المواد في علم الاجتماع السياسي، ومزيداً من المطر! وتساءلت أليس الوقت متأخراً لمثل هذا التحويل؟ أترك هذا "لأبو **بطرس**"، ويعني به نفسه، حيث كان ولده الأكبر يُسمى "**بيتر**" (أي **بطرس** باللغة العربية). واتضح من الحديث على الغداء أن **د.ستيوارت دود** يعني حوالي عشرين عاماً في التدريس بالجامعة الأمريكية ببيروت... وأنه سليل واحدة من هذه الأسر التبشيرية التي ارتبطت بالمشرق العربي طوال القرن الأخير. ومن هذه الناحية فقد كان مثل **د.مالكوم كير** الأستاذ المُساعد للعلوم السياسية ورائد نادينا في جامعة كاليفورنيا. وحينما سألته هل يعرفه... قال "معلوم، لقد تربى مع ابني **بطرس**... الذي أوشك على الحصول على الدكتوراه من جامعة "هارفارد". قمت بإعداد نسخة من أوراقي، وأعطيتها لأبي **بطرس**... وخلال عشرة أيام وصلني القبول من جامعة واشنطن ـ سياتل. وهكذا كان مع كل عقدة في الطريق، يكتب الله لي أن أصادف من يُساعد على حلها: من أولى ابتدائي في مواجهة **أبو زيد الجهلان**، إلى **صقر خفاجة** في كلية الآداب، إلى **فتحية سليمان** في كلية البنات.

في الأسبوع الأخير من أغسطس كل عام، ومنها بالطبع عام ١٩٦٣، كان ينعقد مؤتمر الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وكانت للطلبة العرب منذ عام ١٩٥٢، منظمة تحمل ذات الاسم، ولها مقر عام في مدينة نيويورك، وأكثر من مئة فرع في كل الجامعات والمُدن الرئيسية الأمريكية والكندية، ومنها الفرع الذي كنت أرأسه في جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس U.C.L.A. واستعد عدد من رؤساء الفروع والنشطين بين الطلبة العرب في كاليفورنيا لحضور المؤتمر، خاصة وأنه كان سيُعقد في ولاية قريبة نسبياً ـ في مدينة فورت كولينز بولاية كولولادو. وتوجه خمسة منا في سيارة زميل مصري من فرع الجامعة في دافيز، وهو **صلاح الجوهري**، الذي كان يدرس الزراعة. واستغرقت الرحلة يومين، توقفنا خلالهما "بالأخدود العظيم" الذي يُسمى جراند كانيون (Grand Canyon) في ولاية أريزونا، وبمدينة "لاس فيجاس"، عاصمة القمار والطلاق في أمريكا، كذلك توقفنا في مدينة "سولت ليك سيتي" عاصمة ولاية يوتا، معقل طائفة المورمون المسيحيين. وكان المكتب الثقافي المصري قد أوصى من يستطيع من الطلبة المصريين حضور المؤتمر. وحينما وصلنا أدركت لماذا كان هذا التشجيع. فقد اتضح أن المؤتمر هو أكبر مُناسبة عربية عامة تعقد في أمريكا. فلا الجامعة العربية، ولا أي دولة أو سفارة عربية كانت بقادرة على تنظيم مثل هذا المؤتمر

الذي يحضره عادة ما بين ألف وألف وخمسمئة طالب عربي، يدرس مُعظمهم دراسات عُليا، ويُمثلون كل البُلدان العربية من المُحيط إلى الخليج. لذلك كان يحرص كل الملوك والرؤساء العرب على إرسال رسائل خاصة للمؤتمر، تقرأ في الجلسة الافتتاحية بواسطة سفرائهم في واشنطن أو نيويورك، أو حتى يطير بها وزير أو مبعوث خاص للملك أو الرئيس من بلده. كذلك يحضر هذا المؤتمر عادة حاكم الولاية الأمريكي أو عُمدة المدينة، وربما أعضاء مجلس الشيوخ والنواب من الولاية التي تستضيف المؤتمر. لقد أدركت في فورت كولينز الطاقة الهائلة للإعلام واقتصاديات السوق. إن وجود ألف وخمسمئة مُشارك، ومع بعضهم زوجاتهم لمُدة خمسة أيام، يعني رواجاً اقتصادياً لهذه المُدن الصغيرة أو مُتوسطة الحجم. كما أن وجود عدد كبير من السفراء والوزراء الأجانب، وبعضهم بالزى الوطني لبُلدانهم، كان في ذلك الوقت شيئاً ما يزال جديداً ومُثيراً للأمريكيين وللإعلام المحلي. وما كان ذلك ليخفى عليهم من حاكم الولاية وعُمدة المدينة وأعضاء الشيوخ والنواب. وضمن من وجدوهم في المؤتمر السفير المصري (**د.مصطفى كامل**) والمُستشار الثقافي (**د.مصطفى طلبة**) وواحد على الأقل من المُلتحقين الثقافيين الأربعة الذي كان مسؤولاً عن الإقليم الغربي (**د.مصطفى الشكعة**). وكان الحفل الافتتاحي يتم على مأدبة عشاء فاخرة، تلقى فيها كلمة الترحيب من رئيس المُنظمة (**زياد الحسامي**، من لبنان)، ثم كلمات ترحيب قصيرة من رئيس الجامعة المُضيفة ومن كبار المسؤولين في الولاية، ثم كلمات بعض الرؤساء العرب (وتقرأ بقية كلمات الرؤساء العرب في اليوم الثاني في إحدى الجلسات العامة). بعد حفل الافتتاح مرّر أحد المصريين (مُهندس **أحمد النجار**) الذي كان يدرس في واشنطن العاصمة، رسالة إلى رؤساء فروع المنظمة المصريين بأن هناك اجتماعاً مُغلقاً في غرفته في الساعة العاشرة والنصف مساء.

في غرفة **أحمد النجار** وجدنا المُستشار الثقافي **د.طلبة**، ورؤساء الفروع المصريين الذين لم يتجاوز عددهم العشرين (من مجموع ١١٠ أفرع في ذلك الوقت). واتضح بسرعة أن هذا اجتماع تخطيطي للتأكد من إصدار قرارات مؤيدة للخط السياسي المصري الناصري، أو على الأقل منع أي قرار يُحرج أو يُسيء إلى مصر، ثم الاستعداد للانتخابات، التي تعقد عادة في مساء اليوم قبل الأخير، تمهيداً للحفل الختامي في اليوم التالي والذي يتضمن مراسم تسليم السُلطة. وتكلم **د.طلبة** بلغة حاسمة، ظهرت فيها قدراته السياسية وتحليله العميق للأوضاع الراهنة، رغم أنه كما علمت فيما بعد، أستاذ للعلوم.. وتحدث الزميل **أحمد النجار** الذي كنت أقابله لأول مرة بنفس الحسم والحماس، ونعى أن عدد

رؤساء الفروع المصريين قليل بالنسبة لوزن وعدد الطلبة المصريين في أمريكا الذين يزيدون على ثلاثة آلاف، نصفهم أعضاء بعثات والنصف يدرسون على حسابهم أو لديهم منح، وأن هذا العدد إذا حسن تنظيمه وتعبئته جدير بأن يُهيمن على مُنظمة الطلبة العرب، ويرسم سياستها بما يتفق مع أهداف الجمهورية العربية المتحدة وقيادتها. إذن فهذا هو الهدف من اجتماع آخر الليل. تحرك مصري مُنظم للسيطرة على مقاليد مُنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. كان ذلك هو أول اجتماع أحضره لمجموعة مصرية محضة في أمريكا بمُناسبة مؤتمر عربي عام هو الأول أيضاً بالنسبة لي. لذلك آثرت الانتظار قبل أن أدلي بدلوي. في الواقع حينما طلب **د.طلبة** مُتطوعاً لتسجيل وقائع الاجتماع، ولم يتطوع أحد، تطوعت أنا. وأتاح ذلك لي فرصة التلخيص والصياغة ومعرفة أسماء الحاضرين (زعماء المصريين) من ناحية، وأعفاني من الحديث من ناحية أخرى.

مصر تسعى للسيطرة على مُنظمة الطلبة العرب

اتضح لي مع نهاية اليوم الثاني، أن مُعظم رؤساء الفروع المصريين (المُفترض أنهم قيادات) تنقصهم المهارات التنظيمية، كما ينقصهم الوعي السياسي. فالذين تحدثوا منهم في جلسات العمل لمُناقشة مشروعات القرارات لم يكونوا مُتحدثين أقوياء، ولم يستطيعوا إقناع غالبية الطلبة العرب الآخرين بوجهة نظرهم. كما أن بقية الطلبة المصريين، من غير رؤساء الفروع، وكان عددهم حوالي المائتين لم يكونوا مُلتزمين بحضور الجلسات، وكان الذين يحضرون منهم يصوّتون كل على هواه. وحينما أبديت هذه المُلاحظات في اجتماع مُنتصف الليل... وافق الجميع على التشخيص. ولكن جاء السؤال من **د.طلبة:** وما العمل، ماذا تقترح؟ وكان اقتراحي مُحدداً: لن نستطيع رفع الوعي السياسي لمُعظم زملائنا المصريين ولا قدراتهم الاتصالية الإقناعية خلال اليومين القادمين. هذا يحتاج إلى برنامج آخر بعد المؤتمر. ولكن المُمكن هو "**التصويت التكتلي**" (Bloc Voting) وهو مُمارسة قرأت عنها في علم الاجتماع السياسي. ووافق الحاضرون. وأصبح كل رئيس فرع مسؤول عمن أتوا معه من نفس الفروع أو فروع قريبة من المصريين، ومن يستطيع جذبهم من العرب، ليصوّتوا طبقاً لما يدعو له، ويقترحه الزميل **أحمد النجار**... ونجحنا في عدم إصدار قرار آخر يُحيي موقف مصر في دعم ثورة اليمن والوقوف إلى جانب شعبها في النضال ضد الرجعية في الجزيرة العربية... كانت قرارات "الشجب" و"التأييد" مُهمة جداً

بالنسبة للطلبة العرب في ذلك الوقت. كما لو كان مصير العرب والعالم يتوقف عليها، ويتحدد بها!.

كان الشق الثاني الاجتماعي نصف الليل للمجموعة المصرية (الكوكس المصريين جرياً على التسميات الأمريكية لهذا النوع من المُمارسات التنظيمية) هو اقتناص رئاسة المُنظمة من البعثيين والتأكد من وجود أغلبية مؤيدة للخط المصري الناصري (تسمية جديدة بالنسبة لي). وفي ذلك وجدنا حُلفاء من القوميين العرب (الذين كان **د.جورج حبش** يتزعمهم في ذلك الوقت، قبل أن يصبحوا الجبهة الشعبية). ونجحنا في انتخاب ثلاثة مصريين من مجموع سبعة، بما في ذلك رئيس المُنظمة "**نبيل شعث**" الذي كان مبعوثاً مصرياً من كلية تجارة الإسكندرية، وهو نفسه القيادي الفلسطيني المعروف بعد ذلك. انتهى المؤتمر وشعرنا بإنجاز لا بأس به ... وعاد كل منا أدراجه.

عدت مع المجموعة التي كنت أتيت معها (**صلاح الجوهري، وصرح بحيري، وأحمد النجار، ويوسف فايد**). وفي إحدى الرحلات الجانبية بعد المؤتمر كدنا نفقد حياتنا جميعاً على طريق جبلي شاهق، لولا ستر الله على آخر متر. وكانت معنا زوجة **أحمد النجار**، فأطلقت صرخة هزتنا أكثر من احتمال الحادث نفسه.

من لوس أنجلوس إلى سياتل وظهور إلهامة

عدت إلى لوس أنجلوس وحزمت حقائبي وأوراقي، وأوصلني رفيق سكني وصديقي **بشير (فرناندو)** إلى محطة الأتوبيس الجراي هاوند (Gray hound)، وودعني وهو يبكي دموعاً صادقة... فقد جعلتنا الشهور العشرة التي عشناها معاً أصدقاء وأشقاء... ولا أذكر خلال هذه الشهور أننا تشاجرنا أو أنني غضبت منه مرة واحدة. استغرقت الرحلة من لوس أنجلوس إلى سياتل، حوالي ١٨ ساعة، توقف فيها الأتوبيس المُريح والمُكيف ثماني مرات على الأقل... وكانت فرصة لرؤية بقية الغرب الأمريكي، الذي يزداد خضرة وجمالاً كلما اتجهنا شمالاً... حتى أنه يُطلق على ولاية واشنطن في أقصى شمال غرب الولايات المتحدة، "الولاية الدائمة الخضرة" (The Evergreen State) فحتى في الخريف والشتاء، حيث تتساقط أوراق الكثير من الشجر، تظل أشجار أخرى مُحتفظة بأوراقها الخضراء.

كان لجامعة واشنطن بيت ضيافة يُقيم فيه الوافدون الجُدد لعدة أيام إلى أن يُرتبوا أمور سكنهم الدائم... وكان ذلك ضمن حزمة المعلومات التي ترسلها الجامعة إلى الطلبة الجُدد. توجهت إلى بيت الضيافة، حيث استقبلني رجل

بشوش، وخيّرني بين عدة بدائل للغرف، اخترت إحداها... ثم حلقت ذقني وأخذت حماماً طويلاً، وغيّرت ملابسي، وتوجهت إلى الجامعة لمكتب الطلبة الأجانب الجُدد، الذي كان سيبدأ بعد يومين... أي بعد الويك إند (حيث كنت قد وصلت صباح الجمعة). لم أكن أحتاج إلى برنامج التوجيه الذي ينصب على تعريف الطلبة الأجانب على الجوانب الأساسية لأسلوب الحياة الأمريكي، فقد كنت قد فعلت ذلك في كاليفورنيا. ولكني مع ذلك وجدتها مُناسبة للتعرف على الطلبة الأجانب، وعلى معالم مدينة سياتل الساحرة. وفعلاً تعرفت على أربعة طلاب أو خمسة طلاب. وظلوا أصدقاء قريبين طوال دراستهم في جامعة واشنطن: طالبان من يوغسلافيا، وطالب وطالبة من جنوب إفريقيا، وطالبة من السويد. كذلك قمت بزيارة قسم الاجتماع بمبنى جثري (Guthry Home)، وقابلت **د.ستيوارت دود** مُجدداً، الذي قام معي بجولة في أرجاء القسم، وعرّفني على كبار الأساتذة الذين كانوا موجودين في مكاتبهم في ذلك الوقت، والذي كان أشهرهم جميعاً **د.جورج لندبرج**.

برزت بصورة ملحوظة أثناء البرنامج التوجيهي. لا لشيء إلا لأنني كنت أعرف أكثر، وكانت لغتي الإنجليزية أفضل من مُعظم الوافدين الأجانب. خلال الأسبوع التوجيهي نجحت في العثور على شقة صغيرة قرب الجامعة لأنتقل إليها بعد الأسبوع التوجيهي وبعد أسبوع أقضيه مع أسرة مُضيفة (Host Family). وكانت هذه الأخيرة هي أسرة **د.روبرت جونسون**، مُدير الصحة العامة في ولاية واشنطن. كانت الزوجة ربة منزل وذات نشاط اجتماعي في المدينة، ولديهما فتاتان صغيرتان. ورغم طيبتهما وكرمهما، إلا أنني شعرت بالملل، وتطلعت بشدة إلى نهاية الأسبوع.

بدأت الدراسة في أوائل الأسبوع الثالث من سبتمبر، وفوجئت بخبر في القسم أن طالبة مصرية جديدة قد التحقت لتوها ببرنامج الدراسات العُليا. ولم تكن هذه الطالبة الوافدة الجديدة إلا المُعيدة **إلهامة رشاد** من كلية آداب القاهرة. كانت مُفاجأة، وتعجبت كيف من حوالي أربعمئة جامعة أمريكية ينتهي بي وبها المطاف إلى نفس الجامعة ونفس القسم، وكأن القدر يُريد لنا شيئاً مكتوبا. لم أرها في أول أيام الدراسة، ولكنني رأيتها في اليوم الثاني آتية بصُحبة شاب طويل ووسيم من الجهة الأخرى للممر الطويل الذي توجد غُرف الأساتذة على جانبيه... تقدمت نحوها ببشاشة واضحة، وحييتها تحية حارة، وصافحت مُرافقها الشاب، الذي سارعت بتقديمه كشقيقها الدكتور **رأفت رشاد**، الذي يدرس للدكتوراه في الطب في جامعة واشنطن منذ عامين. ودعوتهما على فنجان قهوة في كافيتريات المبنى... وتبادلنا أخبار مصر وأخباري منذ تركت الوطن قبل عشرة

شهور. أما هي فقد طلب لها القسم بعثة إلى الولايات المتحدة، واختارت لها الأسرة، أو بالأحرى والدها، جامعة واشنطن لتكون مع شقيقها وفي حمايته في الغُربة... وانتهى اللقاء على وعد أننا سنرى بعضنا البعض فيما بعد. ولكن راعني أثناء القهوة، كم هي محدودة في عقليتها وأفقها، وكيف أن ذلك هو نتاج الحماية الزائدة والرقابة الشديدة من أسرتها. وفي نفس الوقت شعرت بفرحتها الشديدة لرؤيتي. وتوجست قليلاً من احتمالات توقعاتها الوجدانية نحوي، والتي كنت أعرف بذورها الجنينية منذ السنة الثالثة كطالب في كلية الآداب.

في الفصل الأول أبليت بلاء حسناً في المواد التي أخذتها، وكان أهمها بناء النظرية وفلسفة العلوم، التي أفادني فيها كثيراً معرفتي بعلم الاجتماع الأوروبي عموماً والفرنسي خصوصاً، والذي مكّنني من إعداد ورقة حازت إعجاب أستاذ المادة **د.كلارنس شراج (C. Shragg)** والذي تحدث عنها إشادةً مع أساتذة وطلاب دراسات عُليا آخرين. ثم دعّم من ذلك حصولي على تقدير امتياز في المواد الأربع في الفصل الدراسي الأول. وقد صنع ذلك سُمعتي كطالب نجم (Student Star) في القسم، وهي السمعة التي عشت عليها طوال السنوات الأربع التالية إلى أن حصلت على الدكتوراه عام ١٩٦٨، حتى عندما كان أدائي في بعض الفصول وفي بعض المواد لا يُبرر ولا يستحق هذه السُمعة المرموقة. وكان جزءاً من استغلال قوة الدفع التي خلقتها هذه السُمعة هو دخول امتحان الماجستير (نظرية ومناهج)، ثم الانتهاء من رسالة الماجستير خلال سنة ونصف من بدء دراستي في جامعة واشنطن، والتي كان موضوعها "**السُكان والتنمية في مصر: اختبار نموذجين نظريين**". وكانت النظريتان اللتان اخترتهما في الرسالة هما نظرية التحول السكاني(Theory of Demographic Transition)، ونظرية **والت روستو** عن مراحل النمو الاقتصادي Theory of stages of Economic growth.

ولم يكن معهوداً لطُلاب قسم الاجتماع أن يخوضوا بعمق في النظريات الاقتصادية. لذلك أضافت الرسالة بموضوعها وسرعة إنجازها للسُمعة المرموقة التي أسهم **د.كلارنس شراج** في بنائها منذ الفصل الدراسي الأول، والتي أسعدت بالطبع **د.ستيوارت دود**، الذي كان يُردد أنه هو الذي أحضرني إلى جامعة واشنطن.

رحيل الوالد وإلحاح العودة

ولكن هناك سبب مُلح وطارئ في إسراعي بالانتهاء من رسالة الماجستير. فقد وصلني خبر وفاة والدي في مُنتصف سبتمبر ١٩٦٤. وحزنت حزناً عميقاً،

لا فقط لفقده، وإنما لأن الوفاة كانت مُفاجِئة بلا مُقدمات مرض، ولأن الأسرة لم تكن هي التي أخبرتني بها، وإنما برقيات وخطابات العزاء، التي بدأت تصلني من الأصدقاء والمعارف بعد الوفاة بعدة أيام، بعد قراءة نعي الوفاة في الصحف المصرية، التي لم تكن تصلنا في سياتل. لذلك اختلط حزني العميق بغضب شديد من الأسرة التي لم تُعلمني في حينه، وبالتالي لم أعد إلى مصر لحضور الجنازة ومراسم العزاء. عند معرفة الخبر في سياتل، تجمع زملائي المصريون والعرب في مقر سكني الجديد الذي كنت أعيش فيه مع زميلين مصريين آخرين يدرسان العمارة، المبنى من طابقين، وحيث كان الطابق الأول به غرفة استقبال واسعة، فأقاموا بها مراسم "عزاء في الغربة"، بقراءة القرآن الكريم، ومواساتي طوال عصر ومساء اليوم الذي وصلنا فيه الخبر. وكانت البرقية الأولى للعزاء التي وصلتني هي من السفارة والمكتب الثقافي في واشنطن. وكانت رسالة العزاء الأولى التي وصلتني من مصر من الأستاذ **محمد العادلي**، والد زميلي وصديقي **فاروق العادلي**، من ثلاثي الامتياز بقسم الاجتماع بكلية الآداب، تحدثت تليفونياً مع **شقيقي حامد**، حيث كان الوحيد في ذلك الوقت الذي لديه خط تليفون، وعبّرت عن غضبي أكثر مما عبّرت عن حزني... واستمع الشقيق وبكى، وامتص ثورة غضبي، ووعدني أن يكتب لي بدلاً من الحديث التليفوني... وفعلاً تسلمت منه رسالة شرح فيها ظروف الوفاة، والتي حدثت بين يديه في ثوان معدودة في أحد مُستشفيات الإسكندرية (المواساة) حيث كان والدي سيُجري جراحة فتاق بسيطة، وأسلم الروح في الدقيقة الأولى من جرعة التخدير (البنج)، وقبل أن يلمسه مشرط الجراح. وأن شقيقي **حامد** نفسه ظل في حالة ذهول مما حدث لعدة أيام... وكان في نصف وعيه وشريط الأحداث يتدافع من حوله، وأن الزملاء في العمل والأصدقاء والأقارب في الإسكندرية هم الذين قاموا بالقسط الأكبر من إجراءات شهادة الوفاة، وإخبار الأسرة في بدين والعم **عبد الوهاب** في القاهرة، ونقل الجثمان إلى القرية، حيث تمت مراسم الصلاة والدفن والعزاء. وأنه لم يكن لا هو ولا بقية الأسرة في حالة تسمح بترك كل شيء لإرسال برقية لعنواني الذي لم يكن مُتوفراً لهم بسهولة، أو البحث عن رقم تليفوني، والانتظار ساعات في أحد السنترالات العامة لإجراء مُكالمة إلى أمريكا، وهو ما كانت عليه الأحوال في تلك الأيام. كان خطاب الشقيق مُقنعاً وصادقاً... وحينما تجاوزت أحزاني وغضبي، أدركت فعلاً أنني في أحسن الأحوال وأسرعها. حتى لو كنت قد عرفت خبر الوفاة في حينها، فقد كنت سأصل إلى قريتي بعد ٤٨ ساعة... ولم يكن الدفن أو العزاء لينتظرا كل هذا الوقت طبعاً للعادات والأعراف الإسلامية، وفي وقت صيف (أواخر أغسطس ١٩٦٤/٨/٢٧)، حيث يصعب

الاحتفاظ بالجثمان لأكثر من ٢٤ ساعة دون أن يصيبه التعفن في غياب مُبردات خاصة... ترحّمت على أبي مُجدداً، وبكيت وحدي وأنا أتذكر أحضانه وقبلاته النادرة لي، ومنها يوم ظهرت نتيجة الثانوية العامة وكنت من العشرة الأوائل... ومنها صباح ذلك اليوم من ديسمبر ١٩٦٤ وأنا أغادر الوطن من مطار القاهرة... وقد اكتشفت في تلك المُناسبة كم يكون الحزن مُضاعفاً حين يكون الإنسان وحيداً وبعيداً عن الوطن والأهل. ولد أبي عام ١٨٩٦، ورحل وهو في الثامنة والستين. رحمه الله رحمة واسعة.

حياتي في سياتل

كان عام ١٩٦٣/١٩٦٤ حافلاً في أكثر من وجه ومعنى. فقد كان عامي الدراسي الأول في جامعة جديدة (واشنطن) ومدينة جديدة (سياتل). وكان عام تألقي الدراسي، الذي عشت سُمعته بالحق أو بالباطل السنوات الأربع التالية. ولكنه كان أيضاً عام تألقي كزعيم للطلبة المصريين في الولايات المتحدة. فكما ذكرت سالفاً، حضرت مؤتمر الطلبة العرب السنوي في أواخر أغسطس ١٩٦٣ (أي قبل رحيل والدي بسنة كاملة)... ورغم مُحدودية دوري في المؤتمر، إلا أنني كنت قد تطوعت بالقيام بسكرتارية اجتماعات رؤساء فروع مُنظمة الطلبة العرب المصريين... وبعد انفضاض مؤتمر الطلبة العرب وعودة كل منا إلى مقر دراسته اتصل بي في مُنتصف سبتمبر مُستشارنا الثقافي في واشنطن، **د.مصطفى كمال طلبة**، لأرسل له محاضر الاجتماعات التي عقدناها أثناء ذلك المؤتمر في فورت كولينز، كما أرسل نسخة منها إلى المسؤولين في القاهرة. ويبدو أن توقيعي على وثيقة المُحضر والتوصيات قد أعطى انطباعاً لكثيرين أنني كنت الدينامو المحرك لتلك الاجتماعات التنظيمية للمصريين، والتي أسفرت عن فوزهم بقيادة مُنظمة الطلبة العرب لأول مرة منذ عشر سنوات. كان **تحسين بشير** آخر مصري يتولى رئاسة المُنظمة عام ١٩٥٤. هذا رغم أن دوري كان محدوداً بحُكم حداثة عهدي وخبرتي بالنشاط الطلابي العربي في أمريكا. على أي الأحوال، حصل **د.مصطفى كمال طلبة** على تفويض من النظام المصري بأن يُبادر بتنظيم يكون بمثابة فرع أو امتداد للاتحاد الاشتراكي العربي في الولايات المتحدة وكندا. وكان **د.طلبة** شخصية قوية وحركية من الطراز الأول. فبادر الرجل بهمة مشهودة من شهر أكتوبر ١٩٦٣، حيث استدعى نفس المجموعة الصغيرة التي كان قد اجتمع بها في فورت كولينز إلى واشنطن ليُعلن لهم رغبة النظام في بدء تنظيم سياسي للطلبة المصريين في القارة الأمريكية. وبعد مُناقشات إضافية، تم الاتفاق على أن تعرض الفكرة على

تجمعات المصريين، فإذا راقت لهم، تنتخب كل مجموعة مندوباً يُمثلهم، ثم يجتمع هؤلاء المندوبون في أقاليم الولايات المتحدة السبعة، وينتخبون مندوباً إقليمياً يُمثلهم في مجلس إدارة التنظيم الجديد. وقد كان. وتم انتخابي عن جامعة واشنطن، ثم عن الساحل الغربي، ثم رئيساً للتنظيم في القارة الأمريكية كلها. وممن كانوا معي في مجلس إدارة التنظيم، وأصبحوا معروفين بعد ذلك، **د.كمال الجنزوري** (الذي أصبح رئيساً لوزراء مصر في منتصف التسعينيات)، **د.محمد عبد الهادي** عالم الفضاء والاستشعار عن بُعد، و**د.محمد الضو** عميد كلية الصيدلة في جامعة طنطا... وحينما ذاعت أخبار التنظيم المصري ثارت خلافات وسجالات واسعة بين الطلبة العرب، وكانت هناك هواجس حقيقية، أن يكون هذا التنظيم بداية انشقاق الطلبة المصريين وانعزالهم عن الطلبة العرب. وقضينا جزءاً من نشاط التنظيم في تبديد هذه الهواجس. وكان ذلك في حد ذاته تدريباً مُبكراً للكوادر المصرية على السجال والمواجهات العامة، والتي وصلت ذروتها في المؤتمر السنوي للطلبة العرب في **بتسبرج**، والذي أعطاني فيه رئيس مُنظمة الطلبة العرب، المصري الفلسطيني **نبيل شعث** عدة فرص للحديث في الجلسات العامة للرد على الهواجس والمخاوف التي ردّدها بعض الطلبة العرب عن إخلاص، وردّدها بعضهم الآخر عن خُبث ودهاء لمكاسب حزبية ضيقة . مثل البعثيين الذين كانوا قد أصبحوا القوة المناوئة الرئيسية رغم اتفاقنا الأيديولوجي معهم في تسعين في المئة من القضايا العامة. وانتهى المؤتمر بانتصارنا، لا فقط في إصدار القرارات التي أردناها، ولكن أيضاً في انتخاب قائمة كاملة بكل من أردناه، بما في ذلك رئيس جديد للمُنظمة هو **أسامة الباز**، الذي كان يدرس القانون الدولي في جامعة هارفارد، والذي كانت علاقتنا به قد توثقت كثيراً طوال العام. بعد مؤتمر الطلبة العرب، مكث الطلبة المصريين يوماً إضافياً، في بتسبرج لانتخاب رئيس جديد يُخلفني في قيادة التنظيم المصري، وقد تم بالفعل انتخاب الزميل **على أبو زيد**، الذي كان ضابطاً مُهندساً يعد الدكتوراه في جامعة كولومبيا. كان ذلك في يوم ٢٧ أغسطس ١٩٦٤، اليوم الذي رحل فيه والدي دون أن أدري إلا بعدها أيام.

الجنزوري والباز وهيكل

خلال رئاستي لتنظيم الطلبة المصريين في العام الدراسي ١٩٦٤/٦٣، سافرت كثيراً في أرجاء الولايات المتحدة، حيث كنت أتعمد أن يُعقد الاجتماع الشهري لمجلس إدارة التنظيم في ولاية وجامعة مُختلفة كل مرة. وعلى هامش كل اجتماع كنا نعقد ندوة فكرية سياسية للطلبة المصريين في هذه الولاية، كوسيلة

للتثقيف والتعارف. وكان من الذين توثقت علاقاتي بهم خلال ذلك العام إلى جانب **أسامة الباز**، مجموعة جامعة مينسوتا . **فوزي هيكل وأحمد صقر ومحمد وهبة** . ومجموعة بيركلي، **محمد عامر ونعيم الشربيني وصبري الشبراوي وفوزي كشك وحسن سلطان**، ومجموعة ميتشجان . **كمال الإبراشي وإبراهيم كامل وإبراهيم حسين**. هذا عدا زملائي في مجلس إدارة التنظيم. الطريف أن **كمال الجنزوري** الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء مصر كان أقل أعضاء المجلس مُشاركة في الجدل والمُناقشات الحامية التي كانت تنشب بيننا باستمرار. كان أكبر منا بثلاث أو أربع سنوات، هادئ ومُبتسم ولا رأي له في أي قضية خلافية، وكان يعرض دائماً أن يقوم بتبييض مُحاضر الاجتماعات، بخطه الجيد وتنسيقه البديع، لذلك حينما أصبح وزيراً للتخطيط في مُنتصف الثمانينات، فإن ذلك هو كل ما تذكرته عنه!

وخمن بعض الخبثاء من زملاء تلك الفترة، أنه كان يقوم بإرسال نسخة من هذه المُحاضر إلى المُخابرات في مصر. وأنه كوفئ على ذلك بتعيينه مُحافظاً، ثم وزيراً، ثم رئيساً للوزراء.

بعد العودة من عالم الطلبة العرب الصاخب، وعالم الطلبة المصريين الأقل صخباً في بتسبرج، وبعد معرفتي برحيل الوالد وتجاوز الحدث الأليم، صممت على أن أنتهي من رسالة الماجستير قبل نهاية عام ١٩٦٤، وأعود إلى مصر في زيارة للعائلة. وقد كان، وساعدني مُساعدة جمة في هذا الصدد صديقة جديدة وافدة من ولاية مونتانا الجبلية، ولا تتجاوز العشرين من عُمرها، وكانت بطلة تزحلق على الجليد. ولست مُتأكداً من سر جاذبيتي لها. فلم أكن رياضياً، ولا من هواة التزحلق على الجليد. وقد تعرفت بها كسكرتيرة بعض الوقت في مكتب الدراسات السكانية، الذي كان يُديره **د.كالفن شميدت**، المُشرف على رسالتي للدكتوراه، والذي عرض عليّ أن أعمل باحثاً مُساعداً في المكتب أثناء إعداد الرسالة في خريف ١٩٦٤. وعرضت **ماري ديرز** (Mary Deers) أيضاً أن تساعدني في كتابة مسودات الرسالة على الآلة الكاتبة... كانت تُريد أن تكون قريبة مني بأي عذر ولأي سبب... كان فيها براءة وطيبة وجمال أطفال الجبل أو الريف. ولمدة طويلة كنت أعاملها كأخت صغيرة، إلى أن ثارت في وجهي في إحدى الليالي وطلبت مني أن أعاملها كامرأة. ورضخت لطلبها بصعوبة نفسية شديدة!

حدس الأم

عدت إلى مصر في النصف الثاني من ديسمبر وغادرتها في نصف يناير التالي، وهي فترة إجازات عيد الميلاد ورأس السنة، كما كانت وقفة طبيعية بين

رسالة الماجستير، والبدء في برنامج الدكتوراه. لم أخبر العائلة بأنني قادم... ولكنني كنت أعرف من المُراسلات أن والدتي كانت في الإسكندرية عند شقيقي **حامد**، الذي كان قد تزوج من حبه الجامعي **(فتحية)** واشتغل بالمصانع الحربية، واستقر في الإسكندرية، لذلك توجهت من المطار في القاهرة إلى الإسكندرية فوراً. وحين طرقت باب شقة حامد، سمعت صوت والدتي المغرّد تقول "هذا هو سعد، افتحوا الباب بسرعة..." حدس مدهش... قلب الأم. وكان اللقاء عاطفياً اختلطت فيه الأحضان بالدموع بذكريات رحيل الوالد الحبيب. قضيت في الإسكندرية عدة أيام، ثم عدت بوالدتي إلى المنصورة وبدّين لزيارة بقية الأخوة والأخوات... كان الشقيق **أحمد** قد تخرج مُهندساً، وعرف والدي النتيجة قبل وفاته بيوم واحد... وقد أسعدني ذلك... كانت **آمال** الشقيقة الصغرى ما زالت تدرس في آداب الإسكندرية، وقد عادت لبدين معي أنا والوالدة، حيث كانت إجازة نصف العام بالنسبة لها. كانت الشقيقة الكُبرى **روحية** وأسرتها قد استقروا في المنصورة، وكذلك الشقيقة التالية **شفيقة** وأسرتها. لم يكن في بدّين إلا الشقيق الأكبر **إبراهيم** وأسرته، وطبعاً بقية العشيرة المُمتدة. بمُجرد وصولنا في تاكسي من الإسكندرية، ووضع حقائبنا في بيت الأسرة الكبير، توجهت فوراً إلى المقابر لزيارة قبر والدي وقراءة الفاتحة على روحه. تجمع حولي كثيرون، أفراد العشيرة وآخرون من أهل بدّين وأنا في طريق الذهاب إلى ثم العودة من المقابر... وخلال الأيام التي قضيتها في بدين وفد العشرات لتقديم واجب العزاء لي مُجدداً... قضيت عدة أيام مع شقيقتي في المنصورة، ثم أسبوعاً في القاهرة لزيارة الزملاء والأصدقاء والأساتذة في كلية الآداب، وكذلك عمي **عبد الوهاب** وخالتي **شاهدة**... ولم يعدم أولاد الحلال من ترتيب زيارات لبعض الأسر المرموقة لمشروعات زواج، لم يكن أي منها واعداً... ولكن وجودي في أمريكا كان يعني "عريس لقطة". حسمت بشكل مُهذب مشروع بنت عمي **سلوى** الذي كان قد تقدم لها بالفعل أحد زملاء ابن عمي... فباركت الخطوة، حيث أنه ما زال أمامي أربع سنوات على الأقل! سُئلت كثيراً في الكلية عن زميلتي **إلهامة**، وقد كانت في نظر الكثيرين مشروع زواج واعد. وحقيقة الأمر أنه كلما عرفتها أكثر كلما تضاءل تفكيري في احتمال أي اقتران بها... ولكن ذلك لم يمنعني من زيارة أسرتها، التي كانت تسكن قريبا من سكن صديقي **فاروق عفيفي** (الثامن على الثانوية، والذي كان الآن أخصائياً اجتماعياً في وزارة الشؤون الاجتماعية) وأثلج صدري أن والدها التركي المتغطرس كان يعتبرني فلاحاً لا أرقى إلى مُستواهم... وتحدث بفخر شديد عن أطفاله الثلاثة الذين كانوا دائماً أوائل دفعاتهم في الهندسة والطب والاجتماع... وأنهم جميعاً في الولايات المتحدة للحصول على

الدكتوراه، أولاً، ثم العودة إلى مصر للزواج والاستقرار. وعلى سبيل الدُعابة المقصودة، سألته "أفهم ذلك بالنسبة للولدين... ماذا عن الآنسة **إلهامة** لو تقدم لها عريس في الولايات المتحدة... فانتفض الأب، الذي كان قد تقاعد من وزارة التعليم مؤخراً، وقال "مُستحيل... أن تتزوج ابنتي وهي في الخارج، قبل الحصول على الدكتوراه والعودة". وإمعاناً في التأكد قلت "حتى لو كان مصرياً مسلماً ويدرس للدكتوراه أيضاً؟" وتصاعد الدم أكثر لوجه الرجل الأحمر أصلاً... وقال "حتى لو كان هذا مليونيراً... لا يمكن أن أوافق". وتنفست الصعداء... وأحسست أنه بعد حسم مشروع بنت عمي، فإن موضوع **إلهامة** قد حسم أيضاً. ففي السنة الأخيرة في سياتل كانت **إلهامة** قد أصبحت عبئاً نفسياً عليّ. ففي أمريكا لم تتحفظ على البوح لي بحبها... وأملها في الزواج... وكنت أحاول صرفها عن الفكرة بأدب، وبدون المساس بكبريائها. والآن وقد سمعت حُكم والدها في الموضوع، فقد أصبح الجانب الأدبي الكبريائي (ماء الوجه) مضموناً.

عُدت إلى الولايات المتحدة في مُنتصف يناير ١٩٦٥ بعد زيارة مُفعمة بالمشاعر والأحاسيس. وصلت إلى سياتل بعد بدء الدراسة بعدة أيام... استأنفت حياتي بجد وانشراح... وكانت **ماري ديرز** في انتظاري بشوق شديد، وكذلك **إلهامة**، التي عرفت أنني زرت أسرتها، فقد أحضرت لها ولشقيقها بعض الخطابات والرسائل... وكان الجزء الثاني من العام الدراسي ٦٤/٦٥ مكرّساً للعلم أكثر منه للنشاط الطلابي المصري أو العربي... كان برنامج الدكتوراه ينطوي على دراسة ثماني مواد إضافية لما تمت دراسته في الماجستير في مواد التخصص مع أربعة ميادين: نظرية ومناهج، وأي ميدانين آخرين في حوالي عشرة ميادين في علم الاجتماع في جامعة واشنطن في ذلك الوقت. وكانت الجامعة تتبع نظام الفصول الدراسية الأربعة المُتساوية والمتوازنة مع فصول السنة. لذلك قررت أن أنتهي من المواد الاثنى عشر المطلوبة للدكتوراه في الفصول الثلاثة التي بدأت في يناير (الشتاء)، ثم الربيع (أبريل/ مايو/ يونيه) ثم الصيف (يوليو/ أغسطس)، وذلك بمعدل أربع مواد في كل فصل... ولتسهيل العبء كنت أتعمد أن تكون إحدى المواد الأربعة قراءة حُرة في أحد الموضوعات ذات الاهتمام المُشترك لي وللأستاذ، وفي نفس الوقت تكون باتجاه امتحان الدكتوراه الشامل الذي يسبق الرسالة. وانتظمت حياتي بعزم وجدية طوال الشهور الثمانية التالية. وانتهيت من فصلي الشتاء والربيع طبقاً للخطة بنجاح... وكان لا بد **لماري ديرز** أن تعود لمونتانا لأسباب عائلية... فودعتها بانفعال شديد. في بعض الوجوه كانت **ماري** تذكرني **بعيشة** التي صادقتها أثناء عملي في مشروع السنوات الخمس بوزارة الصناعة في خريف ١٩٦٠: رشاقة وخفة ظل وذكاء

حاد، ولا تُريد شيئاً على الإطلاق إلا الصحبة والعلاقة الحميمية. كانت **عيشة** سمراء وكانت **ماري** شقراء.

من ماري ديرز إلى تريزا باترسالي

في الفصل الدراسي الصيفي، كانت إحدى مواد القراءة الحرة هي "الإعلام الجماهيري والعُنف". وكانت هذه المادة واعدة بالإثارة لما كانت تمر به الولايات المتحدة من أحداث عاصفة: اغتيال **كيندي**، الحرب في فيتنام، الاضطرابات العنصرية، وثورة الشباب. ولم نكن نملك كطلبة أجانب ندرس في الولايات المتحدة، أن ننعزل عن هذه الأحداث، خاصة بالنسبة لدارسي العلوم الاجتماعية. وقد وجدت ترحيباً شديداً من أحد الأساتذة المشهود لهم بالسبق في هذه الموضوعات، وهو الدكتور "**أوتو لارسن**" (Otto Larson). أما المادة الثانية فقد كانت مع أستاذ اقتصاد ذائع الصيت، وحصل على جائزة نوبل فيما بعد، وكان زائراً، وهو "**دوجلاس نورث**" (Douglas North). وكانت المادة الثالثة مع أستاذ زائر آخر من جامعة هارفارد في "نظرية التبادل" (Exchange Theory) بالمعنى الاجتماعي، وليس بالمعنى الاقتصادي. وكانت المادة الرابعة في دراسات شرق أوسطية مع أستاذ جديد "**نيقولاس هير**" (Nicholas Hear). كان الفصل الدراسي الصيفي مليئاً بالقرارات، ولكنها كانت مُمتعة. وزاد في مُتعة المادة الأولى عن الرأي العام والعنف أن **د.لارسن** نفسه كان شخصية طريفة ومُداعبة. وبعد ثلاثة أيام من بدء الفصل الدراسي، استأذنني أن تلتحق بنا طالبة تحتاج لملء جدولها بمادة إضافية في الدراسات العُليا بقسم الاجتماع. فلم أعارض، وانضمت فتاة وقورة تبدو في أواخر العشرينات من عُمرها. ومضى الصيف، وكانت مادة القراءة الحُرة تقتضي الاجتماع أسبوعياً في مكتب **د.لارسن** لمُناقشة قراءات الأسبوع. استرعى انتباهي أن الزميلة الجديدة من النوع الخجول، الذي لا يتحدث كثيراً، ولا يتحدث بثقة... وقد خفف ذلك عليّ من عبء المُنافسة المُحتملة... ولكن مُشاغبات **لارسن** أخرجت هذه الزميلة، **تريزا باترسالي** (Theresa Patrisally) تدريجياً من حيائها وخجلها. ومع نهاية الصيف، أصبحت **تريزا** صديقة، ثم صديقة حميمة، عوضتني عن افتقاد **ماري ديرز** . رغم الاختلاف الشديد بين الشخصيتين. كانت **تريزا** ابنة أشهر جراح للقلب في الساحل الغربي في ذلك الوقت. وكان شديد الفخر بأنه خريج جامعة هارفارد، وبأنه من أصل إيطالي، وسليل الحضارة الرومانية، والتي لا تعلوها حضارة أخرى في التاريخ إلا الحضارة المصرية الفرعونية... لذلك لم يُمانع أن تُصادق ابنته مصرياً! بعد عدة شهور، حينما تأكد

من جدية الصداقة وافق على أن يدعوني إلى قصره... وأحسن استقبالي، وسألني كثيراً عن الحضارة المصرية. وكانت **تريزا** قد نبّهتني لكل ذلك، فذاكرت جيداً، لا فقط عن الحضارة المصرية، ولكن أيضاً عن الحضارتين اليونانية (الإغريقية) والرومانية. وانبهر الدكتور **ألفرد باترسالي**، بصديق ابنته الصغرى، وأظن أنه تمنى أن نقترن.

رئاسة الطلبة العرب

مع نهاية الصيف، كانت استعدادات الطلبة المصريين والعرب على قدم وساق للمؤتمر السنوي الكبير، والذي كان سيُعقد في شامبين - أربانا، بجامعة إلينوي. وعلى غير السُنة التي كنت قد بدأتها أثناء رئاستي للتنظيم المصري بعقد مؤتمر المصريين بعد مؤتمر الطلبة العرب، قرر خليفتي في رئاسة التنظيم، المُهندس **علي أبو زيد** أن يفعل العكس. وأظن أنه كان مُحقاً في ذلك لأسباب تكتيكية تتصل ببحث القضايا ومشروعات القرارات المُحتمل عرضها في مؤتمر الطلبة العرب، وأيضاً الاتفاق على قائمة المُرشحين لعضوية مجلس إدارة مُنظمة الطلبة العرب، وخاصة الرئيس. وكان دستور المُنظمة يُحدد الرئاسة بسنة واحدة، غير قابلة للتجديد. وكان ذلك إمعاناً من الطلبة العرب في إرساء ديمقراطية فيما بينهم هم محرومين منها في بلادهم. اتفقت مع مجموعة مينسوتا على أن أمر عليهم بالسيارة من سياتل، ونواصل الرحلة في قافلة مُشتركة إلى إلينوي. كانت الرحلة تستغرق يوماً كاملاً من سياتل إلى مينسوتا، ويوم آخر من هذه الأخيرة إلى إلينوي. ولكن بما أننا كنا في نهاية العطلة الصيفية فقد بدأت مُبكراً، وقضيت يوماً وليلة مع الأصدقاء والزملاء في مينسوتا، قبل مواصلة الرحلة... وهناك التقيت مُجدداً بزميل من كلية الآداب هو **عزت عبد الموجود**، الذي كان يُعد الدكتوراه في التربية. وكانت مدينة مينابولوس المليئة بالبحيرات في أجمل صورها... غادرنا، وركب معي في سيارتي الزملاء **فوزي هيكل وأحمد صقر ومحمود وهبة**... وكانوا من أكثر الطُلاب المصريين تسييسا ويسارية في ذلك الوقت (أصبح **محمود وهبة** فيما بعد من كبار رجال الأعمال)! لذلك كان الحديث مُثيراً ومُشوقاً طوال الاثنتي عشرة ساعة إلى شامبين - أربانا. وصلنا في الثامنة مساء، ووجدنا في انتظارنا مجموعة من الزملاء الذين كانوا قد وصلوا قبلنا بعدة ساعات... ولم نكد نفرغ من السلام عليهم، إلا وفاجأني المُهندس **علي أبو زيد** رئيس التنظيم المصري بأن أستعد للترشيح كرئيس لمُنظمة الطلبة العرب... وهلل لذلك زملاء الرحلة الذين كانوا معي في السيارة.

اتضح أن مجلس إدارة التنظيم كان قد اجتمع في الصباح، واتخذ عدة توصيات للعرض على الجمعية العمومية في اليوم التالي، ومنها التوصية بترشيحي رئيساً للطلبة العرب... لم أسعد بالمُفاجأة... وإن كنت قد شعرت بالتشريف والثقة... لم أسعد لأنني أدركت أن قبولي وانتخابي سيعني تأخر جدولي وحصولي على الدكتوراه سنة كاملة على الأقل، إن لم يكن سنتين. وأظن أن **علي أبو زيد**، ومن بعده **أسامة الباز** رئيس مُنظمة الطلبة العرب لاحظا وجومي... فظناه في البداية تحفظاً ووقاراً (أو باللغة الدارجة تقل). ورغم إرهاق الرحلة، إلا أن الزملاء قرروا وضع حقائبهم في غرفهم والاستحمام واللقاء سوياً بعد ساعة "أي حوالي التاسعة والنصف". وبعد أن أخذت دشاً بارداً، وغيّرت ملابسي، وكانت التاسعة، فقد استلقيت على سريري إلى أن تحين التاسعة والنصف. ويبدو أني كنت مُجهداً للغاية. فقد استغرقت في نوم عميق. وفي العاشرة سمعت طرقاً على باب غرفتي، حيث استغيبني الزملاء... فالتحقت بهم وأنا ما زلت نصف نائم من إرهاق السفر، ونصف واجم من خبر ترشيحي. ومع الحادية عشرة مساء كنت قد استعدت نشاطي ولياقتي الذهنية... فصارحت القيادات الطلابية المصرية بأنني سأعتذر عن الترشيح، وأرجو أن يكون مجلس الإدارة قد أعد بدائل. ووجّه إعلاني هذا بعاصفة من الرفض والاحتجاج، وأدرك **علي أبو زيد وأسامة الباز** أنني جاد في الرفض، وأن ذلك كان سبب وجومي حينما باغتوني بالخبر. وشرحت الأسباب. وقفل **أسامة** النقاش بطريقته التي أصبحت مُعتادة لي، بقوله "الصباح رباح... نقفل الموضوع الآن، فسعد مُرهق... ويحتاج الأمر إلى إعادة نظر من الجميع... وأرجو من كل منكم أن يستعد بمُرشح بديل لاجتماع الجمعية العامة المصرية غداً... علماً بأنني لن أحضرها شخصياً منعاً للقيل والقال وأنا رئيس الطلبة العرب، وهناك شُبهة تعارض مصالح (conflict of Interests).

انفض الجمع كل إلى غرفته في مُنتصف الليل. ولكن **أسامة** تبعني إلى غرفتي... وقال بلهجته القاطعة "هل تعتقد أن وقتك أهم من وقتي... وأنا أكبر منك بعشر سنوات... ومع ذلك لبّيت نداء الواجب، وقبلت ترشيحك أنت والزملاء لي في مثل هذا الوقت في العام الماضي؟.. وتأخر حصولي على الدكتوراه، ووزارة الخارجية التي أعمل فيها تُلح عليّ للعودة؟ ثم من في هذه المجموعة التي معنا يصلح لقيادة المُنظمة؟ طبعاً نحن الآن لدينا التنظيم والعدد الكافي والحُلفاء العرب لانتخاب أي مصري نُرشحه رئيساً... ولكنا نُريد ترشيح مصري يحترمه بقية الطلاب العرب، ويستطيع أن يكون نداً أيديولوجياً للبعثيين والماركسيين والإخوان المسلمين... بالله عليك قل من في المجموعة التي كانت معنا الليلة

يصلح لذلك؟" فقلت له بصراحة هناك من يصلح، وذكرت أسماء **فوزي هيكل وأحمد صقر ومحمود وهبة**... فرد نعم يصلحون، ولكن بعد سنة أو سنتين، بعد أن يكونوا قد قادوا فروع جامعاتهم، أو التنظيم المصري، ويصبحون معروفين... تصبح على خير يا ريس" وتركني إلى غُرفته. كان ولا يزال **لأسامة الباز** قدرة فائقة على الإقناع. فقد نمت الليلة وأنا مُقتنع، وإن على مضض.

في اليوم التالي كان مُستشارنا الثقافي الجديد الدكتور **أحمد كمال أبوالمجد** قد وصل إلى مقر المؤتمر... كذلك عدد كبير من الطلبة العرب والمسؤولين العرب. كانت معرفتي بالمُستشار الثقافي السابق، **مصطفى كمال طلبة**، قد توثقت خلال الأعوام الثلاثة السابقة. كذلك كانت السُمعة التي سبقت المُستشار الجديد بكونه من الإخوان المسلمين. لذلك كان لقائي الأول معه مُتحفظاً، بعكسه تماماً، فقد كان مُتدفقاً في الحديث بتلقائية.

السيرة الشخصية

١٩٦٧ . ١٩٧٥

إعادة التكوين

التدريس، الحب، الزواج، الإنجاب

١٩٧٣
ميلاد راندا ـ منى سعد الدين إبراهيم

كان أهم أحداث عام ١٩٧٣، على المُستوى الشخصي والعائلي هو مولد طفلتنا الأولى **راندا – منى**، وظهور كتابي الأول باللغة العربية وهو سوسيولوجية الصراع العربي الإسرائيلي. أما على المُستوى العام، فقد كانت أهم الأحداث على الإطلاق هي حرب أكتوبر وكانت هذه الأحداث مصدر بهجة شديدة.

كنا نتوقع وصول مولودنا الأول في أوائل أبريل ١٩٧٣... وكان الطبيب الذي يتابع حمل **باربارا** وحالتها الصحية العامة، هو أستاذ مُتخصص في كلية الطب بالجامعة الأمريكية في بيروت، هو **د.توفيق سويدان**، وكانت تقاريره مُطمئنة، لذلك خططنا حياتنا على أساس الأسبوع الأول من أبريل، من ذلك بيّتنا للسفر ضمن رحلة للجامعة إلى الاتحاد السوفيتي في الأسبوع الثالث من مارس، وكذلك وقبل ذلك رحلة عطلة نهاية أسبوع إلى دمشق مع عائلة مصرية جاءت إلى بيروت في إجازة دراسية ـ وهي عائلة الزميل **د.صلاح عبد المتعال**، الباحث بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة، والذي كنا قد عملنا سوياً في بحث عن "**أوقات الفراغ بين عمال الصناعة**" في أوائل الستينيات. وكان وأسرته (زوجته **عواطف**، وابنته **عزة**، وابنه **ياسر**) لا يعرفون أحداً في بيروت أو لبنان حينما وصلوا غيرنا... لذلك كنا نتزاور كثيراً، وكان ينضم إلينا من المصريين في بيروت **د.حامد عمّار** وأسرته، و**د.عمرو محي الدين** وأسرته، والأستاذ **ميشيل كامل** وزوجته **مارسيل**، وابنهما المتخلف عقلياً (**ميشر**)... كذلك جاء لزيارتنا صديقة لشقيقتي **آمال**، هي السيدة **سعادة محمود...**، وعرضت أن تظل معنا كمُربية للطفل القادم، وهو الأمر الذي راق **لباربارا**، التي كان لديها هواجس من دور "الأم" لأول مرة، وخاصة في ضوء أدوارها الأخرى كزوجة، ومشرفة على طالبات كليات البحيرات العُظمى، وكطالبة دراسات عُليا.

خططنا لرحلة دمشقية تبدأ في الثامنة صباح السبت ١٩٧٣/٣/١٧، على أن نعود في مساء اليوم التالي... واتفقنا مع مكتب السفريات الذي كنا نتعامل معه منذ صيف ١٩٧٢ على توفير نفس اللموزين الذي يتسع لثمانية ركاب...

وغادرنا منزلنا في الموعد المحدد، ومعنا أسرة **صلاح عبد المتعال**، وضيفتنا السيدة/ **سعادة محمود**... ولكن ما هي إلا ساعة على الطريق، إلا وبدأت **باربارا** تشكو من تقلصات شديدة اضطررنا معها أن نعود إلى بيروت، ونتوجه مباشرة إلى مستشفى الجامعة... وألححت على آل **عبد المتعال**، و**سعادة** أن يمضوا في برنامج الرحلة كما كان مُخططاً، على أن نلحق بهم إذا اتضح أن هذه التقلصات هي مجرد "طلق زائف"، وهو ما رجحناه، في ضوء المعلومات السابقة، وهي أن الولادة ستكون في الأسبوع الأول من أبريل - أي بعد أسبوعين من تاريخه. وكان سبب إصراري على أن يواصل الآخرون الرحلة هو أن ابنيّ **عبد المتعال (عزة وياسر)** وكذلك الضيفة **(سعادة)** كانوا يتطلعون بشوق شديد إلى الرحلة الدمشقية. هذا فضلاً عن أن تكاليف الرحلة (الليموزين والفندق) دفعت مقدماً، وبالتالي كان إلغاء الرحلة يعني خسارة ما دفع بالفعل... ومضوا مستأنفين رحلتهم إلى دمشق... أما نحن فقد انتظرنا في جناح الولادة بالمستشفى حتى يصل **د.سويدان**... وفي أثناء الانتظار أجريت كشوف وفحوص أولية، قام بها المتدربون من أطباء الامتياز والمُمرضات.

وجاء **د.سويدان** في حوالي العاشرة والنصف... وأجرى بدوره فحصاً **لباربارا**... ثم أتى إلى الخارج في غرفة الانتظار ليفاجئني بأن **باربارا** ستضع مولودها خلال أربع ساعات على الأكثر! كيف ذلك يا دكتور وقد أخبرتنا أن الوضع سيكون أول أبريل؟ استغرب **د.سويدان** من سذاجة سؤالي... وقال بلهجة سلطوية : ألا يحدث، أو لم تسمع بوضع مبكر... خلال سبعة شهور مثلاً؟ ثم تركني الرجل، ومضى ليباشر عمله، داخل وخارج المُستشفى... نعم كنت زميلاً له - كأستاذ في الجامعة - ولكن لم يكن **سويدان** من النوع الذي يأخذ ويُعطي في الحديث، أو يشرح الأشياء لمرضاه وعملائه... بالطريقة التي تعودت عليها في الولايات المتحدة... ولذلك حينما اقترحت أن أحضر عملية الوضع، وكانت مُمارسة مُستحدثة في السنوات الأخيرة في الولايات المُتحدة... زمجر الرجل، وهدد إن أنا أصررت على هذا الطلب الغريب، أن أبحث عن "طبيب أمريكاني" على ذوقي... فسحبت الطلب على الفور!.

قضيت حوالي ساعتين في صحبة **باربارا**، ونحن غير مصدقين أن الوضع سيتم بالفعل، رغم أن آلام الطلق كانت تتصاعد... وكان **سويدان** على اتصال دائم بالتليفون مع مُساعديه ومُساعداته لمُتابعة الحالة... وقبل أن تمضي ثلاث ساعات، عاد **سويدان**، وجرت حركة دؤوبة... مُتسارعة... ثم نقلوا **باربارا** إلى غرفة الولادة... ومُنعت أنا من الدخول... ومع ذلك لم أكن أصدق أن الوضع سيتم بهذه السُرعة... وكما يحدث في الأفلام، بدأت أذرع الممر الطويل خارج عنبر الولادة، جيئة وذهاباً، وأنا أدخن بشراهة، متقمصاً دور الزوج القلق.

في حوالي الساعة الثانية خرجت أحد المُمرضات لتزف بُشرى مجيء "بنت"، وأنها وأمها في صحة جيدة... وسيُسمح لي بالدخول خلال عشرين دقيقة... وكان وصول مولودة "بنتاً" هي المفاجأة الثانية، حيث لأسباب عديدة كنا نظن أن المولود سيكون "ولداً"... ولكنها لم تكن مفاجأة غير سارة... فقط مفاجأة في يوم مليء بالمفاجآت... سمعت بكاء المولودة... وسرت في جسدي قشعريرة غريبة!.

سُمح لي فعلاً بعد عشرين دقيقة بزيارة **باربارا** والمولودة في غرفتهما التي انتقلا إليها من غرفة عمليات الولادة... كانت **باربارا** ما تزال تحت تأثير البنج الذي أخذته في المرحلة الأخيرة من الطلق... قبّلتها على جبينها... أمسكت بيدي، وقبّلتها... وقالت "آسفة"... وظننت للوهلة الأولى أنها تتأسف لأن المولودة جاءت بنتاً... فقلت لها على الفور، وأنا أنظر للمولودة، الذين لفوها ووضعوها في كريب بجانب **باربارا**... وكانت نائمة... **فقلت لباربارا** بصوت حاسم "آسفة على ماذا؟" فقالت بصوت يغلب عليه الإعياء "البنت يديها مشوهتان، فبكل منهما ستة أصابع!"... كانت أحد الحكيمات في الغرفة... وسمعت هذا الحديث، فأشارت لي بيدها ما يعني أن ما تقوله زوجتي غير صحيح... ومع ذلك كشفت برفق اللفة من حول الوليدة... وفحصت يديها، وعددت أصابعهما... ولفت انتباهي أثناء هذا الفحص كم جميلة أصابعها... وكم أسود وكثيف شعرها... وكم طويلة رموشها رغم أن أعينها مقفلة... ابتسمت... وكانت **باربارا** تراقبني بنصف وعي... فعدت إليها بابتسامة عريضة... وقبلتها مرة أخرى وطمأنتها على أصابع الوليدة وجمالها... فأغلقت عينيها واستغرقت في نوم عميق... وأشارت الحكيمة... أن أغادر، وألا أعود لرؤيتهما إلا بعد أربع ساعات.

كانت المُستشفى في الجانب الجنوبي الشرقي من الحرم الجامعي، وفي أقصى الشمال ـ الغربي من نفس الحرم كانت العمارة السكنية التي نسكن فيها والمُطلة على البحر الأبيض المتوسط ـ الأولى على ربوة عالية، والثانية في أسفل الحرم الجامعي، على مُستوى سطح البحر... وكانت هناك مئة وعشرون سلّمة أو درجة ينزلهما أو يصعدهما المتردد بين النقطتين الأكثر تباعداً على الحرم الجامعي... لذلك قررت ألا أعود إلى المسكن ـ ربما كسلاً، أو قلقاً، أو مللاً... لم يكن في المسكن من أجالسه وأتحدث إليه وأشاركه أخبار الوضع والمولودة الجديدة... وكانت منطقة "**الحمراء**" وشارعها الأشهر في بيروت، على بعد خمس دقائق من وإلى جنوب المُستشفى... ووجدت نفسي بلا قرار واع، أخرج من المستشفى، وبدلاً من الاتجاه إلى المنزل، أو حتى إلى مكتبي في قاعة

(Nicely Hall) أتجه إلى شارع الحمرا... الذي قطعته جيئة وذهاباً مرتين... قبل أن أدرك أنني جائع وأن الساعة تجاوزت الثانية والنصف... توقفت عند أحد باعة ساندوتشات "الشاورما" اللبنانية، ولم أكن قد تحولت إلى نباتي بعد، وطلبت ساندوتشين وزجاجة كولا، ووقفت أتناولهما في الشارع، كأي طالب مُتسكع... وهو ما لم أكن قد فعلته من سنوات... كانت تساورني مشاعر عديدة ومختلطة حول الحدث، الذي كان عائماً على سطح الوعي، ولم يستقر في وسطه أو قاعه بعد... ثم جلست على مقهى "**موكا**" الشهير في شارع الحمرا، واحتسيت فنجاناً من القهوة الكابتشينو، ولاحظت عبر الشارع، داراً من دور السينما العديدة، في شارع الحمرا، وأمامه جمهور غفير يتهيأ للدخول... نظرت إلى الإعلان (الأكشن) الضخم في مواجهة الدار، الذي كان إعلاناً عن الفيلم المعروض، الذي كان عنوانه "**خللي بالك من زوزو**" نعم اسم ومُلصق ضخم لبطلة الفيلم "**سعاد حُسني**" التي كنت اسمع عنها لأول مرة، بل إنني لم أدخل سينما لمُشاهدة فيلم عربي منذ عشر سنوات... ووجدت نفسي واقفاً في الطابور وأشتري تذكرة لأشاهد الفيلم، الذي ربما كان اسمه، وتفكيري نصف الواعي حول المولودة الابنة، التي سيكون علي أن أرعاها و"أخللي بالي منها" بقية حياتي... وإن كانت هي التي سترعاني بعد الستين! وربما كان الذي جذبني هو صورة البطلة التي كانت تمتلئ حيوية وجمالاً وشقاوة... وربما كانت أمنيتي أن تشب ابنتي وأن تصبح بنفس الجمال... ولم أكن أدري أنها ستصبح أكثر جمالاً ورشاقة من **سعاد حُسني** في عز شبابها... دخلت الفيلم... ولم أركز كثيراً في موضوعه أو قصته... وساعد على تشتت ذهني أن الفيلم كان استعراضياً... وحينما انتهى العرض، وجدت ازدحاماً في بهو السينما... حيث كانت **سعاد حُسني** موجودة لحضور حفل الافتتاح في كل الدور اللبنانية التي تعرض فيلمها... ولم أهتم كثيراً بالتزاحم والتدافع لمُصافحتها كما كان مُعظم من حضروا العرض... وإن التقت عيوني بعيونها في نظرة عابرة... ابتسمت، كما تبتسم لكل من يُصافحها... ولكني لم أنتظر أو أسعَ لمُصافحتها، رغم أن الازدحام من حولها كان قد تناقص... وخرجت من السينما... ونظرت في ساعتي... وكان ما يزال على موعد إيقاظ الأم والزيارة حوالي الساعة والنصف... فمشيت في نفس شارع الحمرا، الذي لا يُمل... ثم سمعت صوتاً أنثوياً ينادي "**د.إبراهيم... د.إبراهيم...** التفت إلى يميني حيث مصدر النداء، وكانت إحدى تلميذاتي اللبنانيات من الفصل الدراسي الأول، واسمها **عايدة حجّار** تجلس على مقهى "**الهورس شو**" (Horse Shoe) الشهير في شارع الحمرا... كانت تجلس معها سيدة أكبر اتضح أنها والدتها... توجهت إليهما وصافحتهما، وأصرتا على أن أجالسهما على

فنجان قهوة... ووافقت... وكان المقهى في ذلك الوقت هو المكان المُفضل لالتقاء كبار الكتاب والشعراء في بيروت... واتضح لي بسرعة أن مدام **حجّار** الأم من هواة الالتقاء وصُحبة المشاهير... تحدثنا في أشياء صغيرة... وكلما هممت بمُغادرة المكان توسلت المرأتان الجميلتان، بأن أظل في صحبتهما لدقائق إضافية. إلى أن صارحتهما بأنني على موعد رؤية زوجتي وابنتي... فسرى فيهما نفس شعور الإثارة وتعبيرات البهجة... وأصرتا على أخذ تفاصيل المُستشفى والغرفة... ثم أصرتا على لقاء للعشاء في منزلهما بعد أن أفرغ من الزيارة، أو أطرد من المستشفى!.

عدت إلى **باربارا**... فوجدتها في كامل زينتها، وإن كانت ما تزال بملابس المستشفى، وبعض الإعياء... ولكنها كانت في وعيها... وما هي إلا دقائق، حتى سمعت بكاء خافتاً، فنظرت إليّ **باربارا** وقالت بمُداعبة "مرحباً بك في دور جديد... هذا هو صوت الموسيقى... صوت ابنتك"... وداعبتها وأنا أنهض لرؤيتها على الجانب الآخر من الفراش "ابنتي ذات الأصابع الستة؟"... ضحكت **باربارا**، واعتذرت عن هذيانها السابق... وما هي إلا دقائق حتى حضر أول بوكيه ورد، ونظرت إلي **باربارا** في تأثر وعرفان، وكأنني الذي طلبت أو أرسلت الورد!، وحين نفيت بشيء من الخجل والشعور بالذنب، حيث لم أفكر في الورد... طلبت أن أفض البطاقة المُصاحبة لباقة الزهور، فإذا بها من مدام **حجّار** وابنتها **عايدة**... وسألت **باربارا** من أولئك الناس؟ وشرحت لها بالتفصيل ما فعلته خلال الساعات الأربع السابقة... تأثرت هي أكثر بهذه اللفتة الكريمة من آل **حجّار**، الذين لا تعرفهم... ولكنهم سينضمون من ذلك الوقت وطوال العقود الثلاثة التالية إلى دائرة المعارف والأصدقاء... وستصبح **عايدة** صديقة قريبة، ثم مُساعدة لي في عمّان بعد ذلك بخمسة عشر عاماً.

عاد آل **عبد المتعال وسعادة** من دمشق في اليوم التالي... وطبعاً كانت نصف مفاجأة لهم.

سبوع ريفي تقليدي

عادت **باربارا** وطفلتنا بعد ثلاثة أيام من ميلادها، أي يوم ٢٠ مارس ١٩٧٣، إلى شقتنا على كورنيش بيروت... وكان اليوم التالي هو عيد ميلاد **باربارا** (٣/٢١) الذي هو أيضاً أول أيام فصل الربيع، وهو اليوم الذي تحتفل فيه مصر بعيد الأم وكنت مع **باربارا** قد تداولنا على اختيار اسم المولودة... ولم نستقر على اسم بعينه، وإن كنا قد قررنا قبل الوضع أن يخلو الاسم من أي حروف يصعب نطقها بواسطة غير مُتحدثي العربية ــ مثل حروف الحاء،

والخاء، والضاد، والعين، والغين... وكنا قد حصرنا عدة أسماء لذكور، وأخرى لإناث تنطبق عليها هذه الشروط... ولكن اختلفنا في التفضيل والأولويات... وتذكرت طقساً ريفياً طريفاً من قريتي وطفولتي، وهو تسمية المولود في اليوم السابع، فيما يُعرف في مصر والفولكلور الشعبي بالسبوع... دور السبوع هو المُعتقد الديني بأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون في سبعة أيام... وقد أعجبت **باربارا** بفكرة اختيار الاسم بأطول الشموع عمراً، مثلما حدث معي... وكان استمرار الشمعة الفائزة هي رمز الصمود وطول البقاء... وكان لدى **سعادة**، ضيفتنا من القاهرة، فكرة عن التقليد المصري للسبوع وعن تنويعته القروية البدينية (نسبة لقريتي بدين)...

واحتفلنا يوم ٢٣/٣ بكل من عيد ميلاد **باربارا** وسبوع **راندا**... وكان طلبة وطالبات كليات البُحيرات العُظمى، **وسعادة**، وجيراننا في العمارة، وبعض أصدقائنا المصريين والعرب، هم ضيوف الاحتفال، وشاركو بحماس شديد في طقوس السبوع المصري ـ الريفي ـ البدّيني.

صمدت شمعتان من الشموع السبع إلى النهاية معاً. كانت إحداهما تسمى **راندا** (نسبة إلى السيدة/ **راندا الفتال**، زوجة السفير السوري لدى الأمم المتحدة وشقيقة **د.وليد الخالدي**، وكانت قد أعجبت بأدائها في أحد المؤتمرات العربية ـ الأمريكية في بوسطن)، و**منى** (نسبة إلى **د.منى سراج الدين**، وهي أيضاً سيدة مصرية مُتميزة كانت طالبة ثم أستاذة للتخطيط العمراني في جامعة هارفارد)... ومن ثم كان القرار أن يكون اسم ابنتنا مزدوجاً، وهو **راندا منى سعد الدين**... ويترك لها هي تفضيل أحد الاسمين.

كان من أهم أحداث بقية ربيع ١٩٧٣، هو زيارة والدتي وشقيقتي **آمال** وابنتها **إيمان** لنا في بيروت بعد ميلاد **راندا** بحوالي ثلاثة أسابيع وكانت هذه أول مرة تركب فيها والدتي الطائرة. فقد كان سفرها السابق قبل عشرين عاماً تقريباً إلى الأراضي الحجازية، لإداء فريضة الحج، بالباخرة مع والدي رحمه الله... كان وصولهم إلى بيروت حدثاً عائلياً بهيجاً... وقضوا معنا أسبوعين... زارا فيها **راندا** وأمها وأباها... وكذلك معالم بيروت ولبنان... وقد غادروا جميعاً، بما فيهم **سعادة** في مُنتصف أبريل... وبقي ثلاثتنا معاً لأول مرة!.

راندا تبدأ حياتها بمسيرة من أجل السلام

في الأسبوع الخامس من ميلاد **راندا** شاركنا في حدث كنا قد رغبنا والتزمنا بالمُشاركة فيه، وهو مسيرة السلام من بيروت إلى الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية ـ الإسرائيلية... وكانت المسيرة احتجاجية على الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة

على الجنوب اللبناني، وعلى مُخيمات الفلسطينيين في لبنان... وشارك في المسيرة التي بدأت من ميدان البرج وسط بيروت، مشياً على الأقدام، بمُحاذاة الطريق الساحلي إلى مدينة صور... في أقصى الجنوب، على بُعد كيلومترات من الحدود. حوالي المئة من عرب وأمريكيين وأوربيين وجنسيات أخرى من الذين يعيشون في بيروت، أو أتوا خصيصاً من الخارج لهذا الغرض... وقد كانت المسيرة هي أول مبادرة عربية – دولية تنادي بالسلام والعدالة لكل شعوب المنطقة... وكانت المسيرة تستغرق يومين، تقطع فيها حوالي مئة كيلو متر. وكانت المسيرة تحمل لافتات، وكُتيبات، ومنشورات تدعو للسلام في المنطقة، وتطالب بوقف العنف والحرب.

كانت مُعضلة مُشاركتنا هو وجود **راندا**... وفكّرت في البداية أن أشارك وحدي، على أن تبقى **باربارا وراندا** في مسكننا في بيروت إلى أن أعود من المسيرة، ولكن **باربارا** أصرت على المشاركة... على أن نتبادل حمل **راندا - منى** على ظهرينا في حافظة يجرى تثبيتها على الظهر أو الصدر... وهو الأمر الذي كُنا قد تعودنا عليه فعلاً في الأسبوعين السابقين على المسيرة... وتركنا المسألة مفتوحة، على أن تعود **باربارا وراندا** إلى بيروت بسيارة خاصة لو شعرنا بالإرهاق أو الإعياء... وبدأت المسيرة وسط اهتمام إعلامي واسع، ومن حيث لم ندرِ أو نقصد استأثرت **راندا** باهتمام كل وسائل الإعلام هي والأستاذ **كيندي**، أكبر المشاركين في المسيرة سناً... حيث كانت هي الأصغر سناً. وفي اليوم الثاني والأيام التالية للمسيرة ظهرت صورة **راندا** محمولة على ظهري أو على صدر أمها في كل الصحف اللبنانية ووسائل الإعلام الدولية... وهكذا تم تدشين أو تعميد مسيرة **راندا** في العمل العام دون أن يؤخذ رأيها... ويبدو أن ذلك سيصبح قدرها، فيما يأتي من سنوات.

توترت الأوضاع في لبنان بعد مسيرة السلام بحوالي ثلاثة أسابيع... وأخذ التوتر شكل اشتباكات بالمدفعية بمختلف أنواعها، لا بين المُقاومة الفلسطينية وإسرائيل، ولا بين هذه الأخيرة والجيش اللبناني، ولكن بينه وبين بعض فصائل المقاومة الفلسطينية... وحدث كالعادة استقطاب في الرأي العام اللبناني، حيث أيّد الشارع الماروني - المسيحي - الكتائبي الجيش اللبناني في مواجهته للمقاومة الفلسطينية، التي اتهمت بتجاوز أصول الضيافة على الأرض اللبنانية. وأيد الشارع السُني – الدرزي – الإسلامي المقاومة الفلسطينية، بدعوى أن اليمين اللبناني هو الذي يستفز الفلسطينيين في مُخيماتهم... ورغم تعاطفي القلبي والعلني مع المقاومة، إلا أنني لم أستبعد أن تكون فعلاً قد ارتكبت تجاوزات فاض بها كيل بعض اللبنانيين... فقد رأيت مثل هذه التجاوزات الفلسطينية في

الأردن قبل ثلاث سنوات... خرجت مُظاهرات عارمة في غرب بيروت تأييداً للمقاومة الفلسطينية... وقد شاركت فيها... وكان من شأنها احتواء الموقف، وتراجع الجيش اللبناني بعيداً عن المُخيمات... ولكن ما حدث خلق لديّ هواجس حقيقية بأن التهدئة، ستكون مؤقتة، وأن الموقف مشحون وقابل للانفجار، في سياق أكثر تعقيداً بكثير من الساحة الأردنية. وهو بالفعل ما حدث بعد سنتين (ربيع ١٩٧٥) فيما عُرف بالحرب الأهلية اللبنانية، التي ستستمر إلى أكثر من عشر سنوات... ومثلما حدث في الأردن، لم تواتِني الشجاعة الأدبية لنقد المقاومة الفلسطينية، والتنبيه إلى ما ترتكبه من أخطاء، هي أول من يدفع ثمنها!

كان العام الدراسي يقترب من نهايته... وكنا نعد العدة للعودة إلى الولايات المتحدة. ولكني كنت أشعر بالتثاقل في العودة، وأحاول تأخيرها بقدر ما أستطيع... كنت أتمنى أن تعرض الجامعة الأمريكية في بيروت أن أبقى فيها عاماً آخر أو أكثر... رغم أنني كنت مُلتزماً أدبياً وقانونياً بأن أعود إلى جامعتي سنة واحدة على الأقل، مُقابل السنة التي قضيتها بعيداً عنها (أي في بيروت)... خلال عام ببيروت كانت خيوط ارتباطي بالوطن العربي تتكاثر وتتقاطع وتتشعب. كانت **مؤسسة الدراسات الفلسطينية**، ودار **الطليعة للنشر**، و**مركز الأبحاث الفلسطينية**، و**مركز التخطيط الفلسطيني**، ومجموعتنا المُلتفة حول **أنطوان زحلان**، نقاط ارتكاز وانطلاق في هذه الشبكة الكثيفة. ونشرت كتابي سوسيولوجية الصراع العربي الإسرائيلي، وأعددت فصلاً **للكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عن الأحزاب والانتخابات الإسرائيلية**. وبدأت مع **زحلان** ومجموعة من العلماء العرب مشروعاً استشرافياً عن **مستقبل الوطن العربي سنة ٢٠٠٠**. وكان المشروع رداً على مُبادرة إسرائيلية لاستشراف مُستقبل الشرق الأوسط، والذي تنبأ أنه مع سنة ٢٠٠٠ **ستكون إسرائيل قد عقدت مُعاهدات صلح مع الدول العربية المُجاورة**، وستعود الخطوط الحديدية والبرية التي تربط المشرق والمغرب من خلال إسرائيل، التي **ستصبح هي نفسها القوة المُهيمنة تكنولوجياً وعسكرياً واقتصادياً**. كانت التنبؤات الإسرائيلية مُستفزة، رغم أن أصحابها من العُلماء الإسرائيليين قد شرحوا افتراضاتهم ومناهجهم في البداية... وقد استعنت في الفصل الخاص بي في المشروع العربي عن "**السُكان والتحضير**" بمكتبة الجامعة، وكذلك بمكتب الأمم المتحدة (UNESOB)... وقد فتح ذلك قناة مع منظمة الأمم المتحدة ستستمر في السنوات العشر التالية.

نحو انتصار أكتوبر

عدنا إلى الولايات المتحدة نحن الثلاثة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي نطير فيها مع ابنتنا **راندا**، التي لم تتجاوز أربعة شهور، كانت كافية لتبلور ملامحها... كانت عيونها جميلة، وأهدابها طويلة... كما كانت أصابع يديها وقدميها طويلة، رقيقة من النوع الذي يعجبني في الأنثى، ولم يكن كله متوفراً حتى في والدتها... كنا في الشهر الأخير في بيروت قد بدأنا نستدرجها للابتسام والضحك، واكتشفنا أنها تحب الماء، والاستحمام في البانيو، وهو ما كنت أفعله معها كل ليلة، قبل أن نضعها في الفراش ونغني لها حتى تنام. وهو ما استمررت في فعله طوال السنتين التاليتين في الولايات المتحدة، والعراق.

قضينا الأسبوعين الأولين بعد العودة مع أسرة **باربارا** في بلاتاين (شيكاغو)، ثم مع أسرتها المُمتدة في اجتماعهم السنوي في ميسوري، حيث تم تدشين **راندا** كأحدث إضافة لهذه الأسرة المُمتدة... وقد قوبلت **راندا وأم راندا** بحفاوة شديدة... وكانت أول حفيدة لآل **ليثم**.

عدنا إلى جرين كاسل وجامعة ديبوا في مُنتصف الصيف، حيث عرض علينا... من استأجروا منزلنا أن يشتروه... ورغم ارتباطي العاطفي به، إلا أنني لم أمانع... فقد كنا نحتاج إلى مسكن أوسع مع مولودتنا الجديدة... وفي نفس الوقت لم أكن أريد الاستثمار في شراء منزل أكبر، حيث كان قلبي قد استقر على العودة إلى الوطن العربي الكبير، إن لم يكن إلى وطني الأصغر مصر. وبالفعل تم بيع المنزل، واستئجار أحد مساكن الجامعة للمتزوجين أصحاب العائلات، وكان ثلاثة مُستويات، كانت غرف النوم في المُستوى الأعلى، ومكتب ومخازن في المُستوى الأسفل، بينما كان المطبخ وغرفة الطعام وغرف المعيشة والاستقبال في الطابق الأوسط، على مُستوى الشارع وتحيط به مساحات خضراء في فناء خارجي أمام المدخل الأمامي، وفناء خلفي وراء مدخل خلفي ثاني للمسكن، وقمنا بنقل الأثاث الخاص بنا، (والذي كان مخزوناً عند بعض الأصدقاء) وإعادة فرشه في المسكن الجديد... وأصبح **لراندا** غرفتها الخاصة.

أيضاً قمنا باستبدال سيارتنا الأولى ـ كاديت بسيارة ستيشن واجن، بها مساحة كبيرة في الجزء الخلفي، تكفي لوضع قفص كبير، يكفي لحماية **راندا**، وهي تحبو، أو حتى تقف، بشكل آمن. وهكذا بدأت واستمرت حياتنا عام ١٩٧٣ تتشكل إلى حد كبير وتدور حول طفلتنا **راندا**، وفيما بعد شقيقها **أمير**.

بدأ العام الدراسي في أوائل سبتمبر، وكانت له فرحته المُعتادة، مُضافاً إليها بهجة رؤية بعض طلابي الذين اشتدت وحشتي إليهم بعد غياب سنة ونصف

تقريباً. كذلك كان حوالي عشرة من الطلبة الذين قضوا العام معنا في بيروت قد سبقونا إلى أصدقائهم وزملائهم بالقصص والنوادر... وكان هؤلاء بالطبع يشعرون برابطة خاصة بي وبزوجتي وابنتي - التي حضروا حفل سبوعها أو ما أطلقوا هم عليه حفل التسمية ... وكان ذلك سبب إضافي للإقبال على المفاهيم التي أقوم بتدريسها، والازدحام الشديد في قاعات التدريس الخاصة بي. واستمتعت بتجدد شعبيتي بالجامعة.

كانت أسرة زوجتي متعلقة للغاية بالمولود والحفيدة... وكان الأكثر شغفاً **براندا** هو جدها **والتر**، فأغرقوها بالهدايا والملابس والألعاب... ولم يكونوا يطيقون البعد عنها لأكثر من أسبوعين... فإذا لم تذهب إليهم، فإنهم يأتون إلينا - سواء كنا مُستعدين لاستقبالهم أم لا. كانت فلسفتهم أنهم لا يأتوا لرؤيتنا ولكن لرؤية **راندا**. وبالتالي يمكننا أن نمضي في برنامجنا، وهم يقومون بدور "الجليس" (Baby sitters)، وبدأت أتذكر أهم مأثورات أقوالنا الشعبية، على علاقة الجدود بالأحفاد، وأهمها "**أعز الولد، هو ولد الولد**". وإشفاقاً عليهم وعلينا، كُنا نتبادل الزيارات مرة عندهم، ومرة عندنا كل أسبوعين. كانت الرحلة من جرين كاسل إلى بلاتين من ضواحي شيكاغو، تستغرق أكثر قليلاً من ثلاث ساعات. وفي المرات التي كُنا نذهب نحن فيها، كنا عادة نبدأ الرحلة إما بعد ظهر الجمعة، أو صباح السبت ـ بحيث نصل إما في موعد العشاء (مساء الجمعة) أو موعد الغداء (ظهر السبت).

كانت **باربارا** تقود السيارة، و**راندا** نائمة في قفصها، وأنا أقرأ صحيفة ونستمع إلى موسيقى من الراديو، وكنا في مُنتصف الطريق، صباح ٦ أكتوبر بين مدينة لافييت حيث جامعة بردو (Purdu) ومدينة شيكاغو، حينما توقفت الموسيقى، وأعلن المُذيع نبأ انفجار ما يبدو أنه **حرب عربية - إسرائيلية جديدة...**

صحت بأعلى صوتي "**الله أكبر...**" وكانت بهجتي العارمة محل دهشة زوجتي... كما أن نبرة صوتي العالية أيقظت ابنتنا **راندا**... استغربت **باربارا** أن أبتهج لانفجار حرب، أي حرب، وأنا من دعاة السلام ومُناهضي الحروب... ألم نحمل طفلتنا **راندا** على ظهرينا في مسيرة سلام من بيروت إلى صور، منذ أربعة شهور فقط؟

قلت لها بصوت حاسم، "**ولكن هذه حرب مختلفة، كنا ننتظرها منذ ست سنوات...**" ردت "إنني لم أفهم..." قلقت لها "من الصعب أن تفهمي... **فقط لو كنت عربية لكنت قد فهمت**" صمتت، كما لو كنت قد أهنتها... وهو ما لم أقصده طبعاً... ظلت هي صامتة... وظللت أنا أتنقل بين محطات إذاعات تذيع أخبارها عند مُنتصف الساعة.

كان فرق التوقيت ثماني ساعات... وقد سمعت خبر انفجار الحرب في العاشرة صباحاً بتوقيت الوسط العربي، أي أن الساعة كانت في مصر السادسة مساءً، وهو موعد الإفطار، حيث كنا في العاشر من رمضان... استرعى انتباهي استخدام وكالات الأنباء لكلمة "حرب"، وليس "القتال"، أو الاشتباكات"، وهو ما كانت توصف به الهجمات المُعتادة عبر القناة. كذلك استرعى انتباهي أن نفس الأنباء كانت تتحدث عن عبور القوات المصرية لقناة السويس، وأن مصدر الأنباء كانت إسرائيل... وكانت التقارير من مصر وسوريا قليلة ومتحفظة، وتفيد أن هجوماً إسرائيلياً قد بدأ، وأن القوات المصرية، تتولى الرد عليه...

وصلنا إلى بلاتاين في الثانية عشر ظهراً، صافحت العائلة على عجل، وصعدت فوراً إلى غرفة **باربارا**، التي كنا عادة نقيم بها أثناء زيارتنا لأسرة **صهري**... كان بالغرفة تليفزيون، فأدرته، على الفور، وجاءت أخبار موجزة في الثانية ظهراً، وأكثر تفصيلاً من الخامسة إلى السابعة، على الشبكات الثلاث الرئيسية (ABC/NBC/CBS) بالتتالي... وكانت التقارير الميدانية المُصورة مع هذا الوقت قد وصلت وتم بثها... وكلها تؤكد ما كنت قد سمعت على الراديو، وهو ما أثلج صدري، وجعلني، أنزل إلى حيث الأسرة كانت مجتمعة تنتظرني على عشاء مُتأخر، وبالنسبة لي إفطار رمضاني مُتأخر كثيراً...

لم تكن أسرة **ليثم**، كما لم تكن **باربارا** نفسها، متأكدة من رد الفعل المُناسب الذي لا يجرح شعور زوج ابنتهم!

حينما وجدوني مُبتهجاً... تشجعوا لسؤالي عدة أسئلة عما حدث، وعن سر اغتباطي، مع أن الحرب هي في يومها الأول... وأنه رغم نجاح الهجوم المصري ـ السوري المفاجئ، إلا أن نفس التقارير الإخبارية تتوقع هجوماً إسرائيلياً مُضاداً خلال اليوم أو الأيام القليلة التالية.

قلت لهم أن هزيمة ١٩٦٧ تركت فينا نحن العرب جرحاً عميقاً، لا لأننا خسرنا الحرب، أو لأن أراضي عربية شاسعة احتلت، ولكن لأنها كانت هزيمة مُهينة، حيث لم تتح فيها فرصة لقتال أو معارك حقيقية لذلك فمُجرد المُبادرة... وحدوث معركة أو معارك حقيقية، بصرف النظر عن نتائج الحرب، ينطوي في حد ذاته على رد اعتبار وطني مصري، وغسيل لعار عربي قومي.

استمعت الأسرة بتعاطف... وذهبت **إلين**، حماتي، كالعادة لدائرة المعارف، حيث قضت الليلة تقرأ عن فلسطين، وإسرائيل، والصراع، العربي ـ الإسرائيلي... واستيقظ **والتر** مُبكراً، حيث أحضر كل الصحف الصباحية... أما أنا فقد قضيت بقية المساء، وفي الصباح الباكر أتابع الأنباء، ساعة... ساعة... كانت أولى

ضحايا أكتوبر هي طفلتي **راندا**، التي لم ألعب معها، ولم أستحم معها في البانيو كالعادة... كان عُمرها سبعة شهور، ولم يكن مُمكناً أن تستوعب سبب انشغالي عنها، أو استغراقي الشديد بغيرها...

وهكذا قضيت الأسبوعين التاليين في متابعة الحرب، حتى بعد عودتي إلى جرين كاسل واستئناف عملي ومُحاضراتي... طلب اتحاد طلبة الجامعة محاضرة مني عن الحرب من وجهة نظر مصرية ـ عربية، وامتلأت القاعة الكبرى عن آخرها... وكانت وجهة نظري أن ما يحدث هو **حرب تحرير وطنية ضد احتلال أجنبي لأراضي عربية**، صدر بشأن الجلاء عنها قرارات دولية... أهمها قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧... وها نحن بعد ست سنوات كاملة من مُحاولة إقناع إسرائيل بالامتثال والتنفيذ السلمي للقرار، اضطررنا اضطراراً – كعرب – لحمل السلاح لوضع حد للتعنت الإسرائيلي... فنحن نحارب احتلالاً أجنبياً لأراضي عربية... ولم أثر في هذه المحاضرة موضوع القضية الفلسطينية إلا بشكل ثانوي، وفي الإجابة على بعض ما تلقيته من أسئلة من المُستمعين... لم تكن لهجة المُحاضرة عنترية أو استفزازية... رغم أن الأخبار إلى تاريخه كانت تشير إلى أداء عسكري عربي مُبهر.

طلب أستاذ فلسفة أمريكي ـ يهودي، اسمه **هوارد سايمون** أن يُناظرني حول نفس الموضوع... وهو ما كان في الأسبوع الثالث للحرب... وكانت الأمور على الجبهة السورية قد ساءت، حيث نجح هجوم إسرائيلي مُعتاد في إجبار القوات السورية على التراجع عما كانت قد أحرزته في الأيام الأولى للحرب، بل واحتلت أراضي سورية جديدة بمُحاذاة الجولان، جعلتها أقرب إلى دمشق... **واستنجدت سوريا بالعراق والأردن والمغرب**، حيث أرسلت كل منها قوات، ساعدت على وقف مزيد من التدهور على الجبهة السورية كذلك نجحت إسرائيل لا فقط في وقف تقدم القوات المصرية على جبهة سيناء خارج المضايق التي كانت تحاول استعادتها والسيطرة عليها، فهي بحق مفاتيح سيناء كُلها... **بل نجحت إسرائيل أيضاً في استغلال فجوة بين الجيش الثاني والثالث، في الشريط الذي حررته مصر شرق القناة**... وهو بعرض ثلاثين كيلو متراً، وعبرت بعض قواتها إلى غرب قناة السويس وكرّست وجوداً لها، فيما سُمي "**بالثغرة**"... وبذلك أصبح هناك اختراق مُتبادل للخطوط الإسرائيلية (شرق القناة) والخطوط المصرية (غرب القناة)... وكان واضحاً مع موعد المُساجلة أن الموقف العسكري قد استقر على حالة يُمكن وصفها بلا غالب ولا مغلوب... لذلك جاءت المُساجلة بعد أن ذهبت بهجة الانتصارات الأولية فركّزت عرض وجهة نظري على مُستقبل السلام في المنطقة والعالم... وكان سهلاً نسبياً عليّ أن أنقل المُناظرة في هذا الاتجاه،

خاصة مع تطورين هامين قبيل المُناظرة مُباشرة. الأول هو تسرب أخبار **التأهب النووي الأمريكي لمواجهة مع الاتحاد السوفيتي** الذي كان يُدعم الجانب العربي بالسلاح بواسطة جسر جدي، بينما كانت الولايات المتحدة تفعل نفس الشيء لإسرائيل، وهو ما أشعر الأمريكيين بالخطر.

خطاب تاريخي عن مُستقبل المنطقة مع غالي وشرابي

قرب عطلة عيد الشكر من كل عام منذ عام ١٩٦٨. كانت **المُنظمة العربية لخريجي الجامعات الأمريكية** تعقد مؤتمرها السنوي. ولم أكن أشارك في هذه المؤتمرات بانتظام. من ذلك أنني شاركت في واحد منها فقط في بوسطن عام ١٩٧١، وكان ذلك بعد زواجي مُباشرة، وحضرت معي **باربارا**، وكانت تلك أول مُناسبة تشهد فيها هذا الجمع الكبير من المُثقفين العرب، والتقت ضمن من التقت بهم في تلك المُناسبة شخصية نسائية عربية بهرتها وهي السيدة **راندا الفتال**، زوجة السفير السوري في الأمم المتحدة، وشقيقة المُفكر الفلسطيني المعروف **د.وليد الخالدي**، وكان ذلك سبب اختيار اسم. **راندا** ضمن الأسماء السبعة التي رشحت لتسمية طفلتنا. الوليدة بعد ذلك بعامين...

لم أكن كقاعدة أذهب إلى أحد هذه المؤتمرات الكبيرة، بعد أن أصبحت أستاذاً وزوجاً وأباً، إلا إذا كُنت سأشارك بورقة أو تعقيب على ورقة لأحد الزملاء ومع ذلك كنت مُستعداً للذهاب إلى المؤتمر السنوي للـ AAUG هذا العام (١٩٧٣)، لأنه أول تجمع عربي في الولايات المُتحدة يلتئم بعد حرب أكتوبر المجيدة، والتي أصبح يطلق عليها الإعلام المصري والعربي هذه التسمية... وبلا تخطيط مُسبق بالطبع، وقعت الحرب، ووجد المُنظمون للمؤتمر أنه من الضروري تخصيص جلسة عامة من جلسات المؤتمر لمُناقشة تداعيات حرب أكتوبر على المنطقة والعالم ... واتصلت بي اللجنة المنظمة للمؤتمر، ورجتني أن أحضر، وأن أعدّ مُداخلة لمدة نصف ساعة، في جلسة المؤتمر العامة على الغداء، ولانه سيُشارك معي فيها كل من **د.هشام شرابي**، ود.**بطرس بطرس غالي**، الذي أتى خصيصاً من مصر للمُشاركة في المؤتمر وبينما كنت أعرف **شرابي جيداً**، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها مع **بُطرس غالي**، وإن كنت قد سمعت باسمه كأستاذ للعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ورئيس تحرير **الأهرام الاقتصادي**، ومجلة **السياسة الدولية** ... دارت مُداخلتي حول صور الآخر النمطية في الصراع العربي الإسرائيلي وضرورة مُراجعتها وتفصيلاتها توطئة لإدارة رشيدة للصراع. فلا ينفي التهوين أو التهويل من صورة الآخر الإسرائيلي، والتعامل معه بنفس الندية والواقعية التي تعاملنا معه بها ما

بين حربي الاستنزاف وحرب أكتوبر. وفقط "**صراع الأنداد**" هو الذي يؤدي إلى "**سلام الشجعان**". وكانت هذه العبارة هي نهاية مُداخلتي، وقوبلت بتصفيق حاد. وكان **شرابي** قد تحدث قبلي، وحينما تحدث **غالي** بعدي ركز على عبارة "**سلام الشجعان**"، وشروط ذلك السلام.

بدأ وزير الخارجية الأمريكي ومُستشار الأمن القومي **هنري كيسنجر** يرمي بثقله في الأزمة... ونجح هو وزميله السوفيتي **أندريه جروميكو** في وقف إطلاق النار واستصدار قرار آخر من مجلس الأمن رقم ٣٣٨، الذي جاء مُكملاً للقرار ٢٤٢، وكان فحواهما هو الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة مقابل السلام معها وقام فعلاً برحلات مكوكية إلى موسكو، ثم القاهرة، ودمشق، وتل أبيب... وكان احتفاء الرئيس **السادات بكيسنجر** مثار اندهاش... وتحول الاندهاش إلى هواجس من اندفاع **السادات** إلى تبني ما يقترحه **كيسنجر**... ووصفه له "بالصديق **هنري**"... ومن المُصادفات أنني كنت قد بدأت تأليف كتاب عن هذا الداعية... قبل نشوب الحرب بشهرين. ثم جاءت الحرب وانغماس **كيسنجر** في مُحاولة إدارة الصراع حافزاً لي على تكثيف العمل لإنجاز الكتاب.

أما التطور الثاني فقد كان **الحظر الجزئي على تصدير البترول** إلى الدول الغربية المؤيدة لإسرائيل، وتخفيض الإنتاج النفطي في مجموعة أقطار منظمة الأوبيك، ومُضاعفة أسعار النفط. وقد أدى ذلك فوراً إلى الشعور بالهلع... وقد بدأت عرض وجهة نظري بوضع هذين التطورين في سياق الصراع الدائر، والذي ينفجر دورياً كل سبع إلى عشر سنوات، وكل مرة أخطر من سابقها، ومع تداعيات أوسع داخلياً على مزيد من أقاليم العالم، حتى البعيدة جداً عن بؤرة الصراع في الشرق الأوسط... بدليل الطوابير الطويلة، التي بدأنا نراها، في محطات البنزين... وهكذا مضيت في عرض ما يحدث في الشرق الأوسط، وكأنه مشكلة أمريكية ـ لا فقط للحكومة ولكن أيضاً لكل أسرة وبيت أمريكي... **ومن ثم فإن "من لا يُساهم منهم في حل المشكلة، فإنه يصبح عملياً جزءاً من المشكلة"** if you are not part of the solution, then you become part of the problem وقد كانت هذه العبارة التي أنهيت بها تقديم وجهة نظري ولاقت قبولاً واسعاً، عكسه التصفيق الحاد من الجمهور... وكانت أول مُداخلة من أستاذ يهودي آخر (**هربرت لافين**) بادر بتأييد وجهة نظري مئة وعشرين في المئة... وقوبلت مُداخلته بتصفيق أيضاً، لمعرفة الجميع بيهوديته. وقد أسقط في يد الدكتور **سايمون** الذي يُناظرني... فانضم إلينا في التعبير عن رغبته وتأييده للبحث عن تسوية سلمية عادلة للصراع، تراعي حقوق كل شعوب المنطقة...

وتحولت المُناظرة إلى ما يُشبه المائدة المُستديرة أو الندوة... وكان ذلك إنجاز كبير لي، استمر بعد ذلك على صفحات صحيفة الجامعة.

مائدة مُستديرة في ميلواكي حول حرب أكتوبر

كان المؤتمر السنوي لرابطة دراسات الشرق الأوسط (MESA) مقرراً أن يُعقد في جامعة وسكنسون، بمدينة ميلواكي القريبة من شيكاغو... في عطلة نهاية الأسبوع السابق لاحتفالات عيد الميلاد، ومثل المنظمة العربية لخريجي الجامعات الأمريكية (AAUG)، لم يكن منظمو المؤتمر قد توقعوا حرب أكتوبر، ومن ثم لم يكن هناك جلسة مُخططة لهذا الموضوع في برنامج المؤتمر... ولكن سكرتير الرابطة **د.نيكولاس هويكنز** N. Hopkins، ورئيسها **روبرت زارتمان** R. Zartman، اتصلا بي في جرين كاسل قبل المؤتمر بأسبوعين، راجيان موافقتي على المُشاركة في مائدة مُستديرة حول "تداعيات حرب أكتوبر بالنسبة للمنطقة والعالم ودراسات الشرق الأوسط". ولما كنت قد فعلت شيئاً مُشابهاً قبل ثلاثة أسابيع في واشنطن، فقد وافقت. وقمت بصياغة وتعديل ما كنت قد ألقيته في واشنطن. وشارك معي في المائدة المُستديرة الأمريكي؟؟؟ والإسرائيلي **هاركابي** (رئيس مُخابراتهم السابق)...

وكالعادة كان الدفع الجيد لكلمتي مصدراً لتحريك عدد من المُعجبات الأمريكيات والعربيات... ولكن كانت **منى** أستاذة الأدب المقارن أكثرهن اقتحامية وجاذبية. كذلك أتاح المؤتمر فرصة تجديد الصداقة بزميلي **د.نعيم الشربيني**، الذي كان يعمل أستاذا للاقتصاد بجامعة وسكنسون، والتعرف على زميله أستاذ السياسة **مارك تيسلر** (M.Tessler)، **ونيكولاس هويكنز** أستاذ الأنثربولوجيا في جامعة نيويورك، والذي سألتقي به مُجدداً كزميل في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بعد سنين، ولتستمر الزمالة والصداقة على امتداد رُبع القرن الثاني.

مصر والسودان

من ناحية أخرى اشتد شوقي لزيارة المنطقة... وانتهزت فرصة طلب فيها **الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية** المشاركة ضمن مجموعة من الخبراء العرب، التي كانت قد تكوّنت في أعقاب مؤتمر بلودان عام ١٩٧١، لدراسة **الاختناقات التي تعوق تنمية السودان**، الغني جداً بموارد الطبيعة، ومع ذلك الفقير جداً من حيث الدخل القومي والفردي. وكان يرأس هذه المجموعة كل من الأستاذين **توماس ساعاتي وأنطوان زحلان**. كان الأول أستاذ للرياضيات وبحوث العمليات في **جامعة بنسلفانيا**، والثاني أستاذ للفيزياء في **الجامعة**

الأمريكيـة فـي بيـروت... وكانـت معرفتـي بـالأخير وثيقـة، حيث عملنـا معـاً فـي عمّان سنة ١٩٧٠.

جاءت الفرصـة للسفر إلـى السودان فـي ينـاير ١٩٧٤... وخططت للتوقف فـي مصـر لمدة أسبوع... ولم أهتم كثيراً **بعواقب عودتي إلى الوطن رغم عدم تسوية مُشكلة الحراسة والعزل السياسي القائمة منذ عام ١٩٦٦**. وكان شهر ينـاير يؤخذ كلـه إجـازة دراسية في جامعـة ديبوا، حيث يعد الطـلاب مشروعات ميدانية خاصـة باهتماماتهم، لذلك لم يكن مطلوباً منـي التدريس فـي هذا الشـهر، والـذي تسبقه عـادة عطلـة أعيـاد المـيلاد. وقضـيت هـذه الأخيـرة كالعـادة مـع أسرة زوجتـي فـي بلاتـاين... ومنهـا توجهت مُباشـرة إلـى الخرطـوم عـن طريـق فيلادالفيا، التي كان يوجد بها مكتب المجموعة الاستشارية المسؤولة عن مشروع تنميـة السـودان، والتـي كـان يُطلـق عليهـا اسـم "**المشـروعات العربيـة للتنميـة**" Arab Projecter for Development (APD). وهنـاك التقيت ببعض الزملاء المصريين والعرب الذين كانوا سيعملون معي في نفس المشروع. وفي الخرطـوم التـي وصـلناها عـن طريـق لنـدن، التقينـا بـزملاء آخـرين، أتـوا مـن الكويـت، مـن الصـندوق الممـول للمشـروع، وهـم الكـويتي **خالـد الفيصـل**، والمصـريان **د.محمد تيمور** و **د.إكرام يوسف**.

كانـت هـذه هـي المرة الأولـى التـي أزور فيهـا السـودان، وبهـذا يكـون البلـد العربـي الثـامن الـذي أزوره أو تطؤه قدمي غيـر مصـر (المغرب، الجزائر، لبنـان، سـوريا، الأردن، فلسـطين، ليبيـا). كـان وصـولنا لـيلاً، وراعنـي بدائيـة مطـار الخرطـوم، ودفء الأخـوة السـودانيين الـذين كـانوا فـي اسـتقبالنا، ومُعظمهـم مـن مُهندسـي وزارات الـري والصـناعة والمواصـلات... وكـان مـن بيـنهم بعـض مـن تعرّف عليّ من أيام الدراسة في جامعة واشنطن. كانت الإقامة في فندق "جراند أوتيل" المبني على الطراز الكولونيالي الإنجليزي. سقوف عالية تتوسطها مراوح، وغرف كبيرة، وردهات طويلة واسعة.

وكانت مُعظم الغرف والفرندات تطل على النيل... لفت انتباهي في صباح اليوم التـالي فـي مطعم الفندق، الذي علمت أنـه أحد ثـلاث فنـادق خمسة نجوم، العدد القليـل مـن النـزلاء، وتأكـد ذلـك فـي وجبتـي الغداء والعشـاء ـ لقد كانـت مجموعتنا (سبعة خبراء) هي الأكثر عدداً وضوضاء في الفندق الكبير المهيب.

كـان دوري فـي مشروع الدراسـة هو التعرف علـى **الأبعاد الاجتماعيـة التـي تعوق تنميـة السودان**. وكـان من الواضـح لكل من يعرف السودان، حتـى بدون مزيـد مـن الدراسـة المُتخصصـة، هـو **أن الحـرب الأهليـة المُمتـدة بـين الجنـوب والشمال**، هي التي تستنزف الموارد المالية لهذا البلد الفقير أصـلاً. هذا بالإضافة

إلى الأسباب المعتادة في كل بلدان العالم الثالث مثل الأمية، والأمراض، والنمو السكاني غير المخطط، وغياب البنية الأساسية المادية والسياسية اللازمة للانطلاق الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ السياسي. ولكن كان هناك خصوصيات سودانية أخرى تعرقل تنمية هذا البلد "العربي ـ الإفريقي". إن هذه الخصوصيات هي **التنوع والتعددية الكثيفة لسُكانه** ـ فإلى جانب الإسلام (٧٠%) هناك المسيحية (٢٠%). هذا فضلاً عن التنوع اللغوي الذي لا يقل عن أربعين لغة ولهجة قبلية محلية... طبعاً كانت هناك مجموعات سكانية كبيرة مُتجانسة نسبياً. أهمها السودانيون العرب المسلمون السنة (٥٠%)، ولكن كان هناك أيضاً مسلمون غير عرب في شرق وغرب وجنوب السودان (٢٠%). كما كان الجنوب نفسه يضم تكوينات قبلية كبرى مُتجانسة مثل الدينكا، والشلوك، والنوير. وكان أحد أسباب سوء إدارة هذا التنوع البشري الكثيف **عدم وجود سوق** نشط يُغطي أرجاء السودان المترامية (أكبر بلد في أفريقيا مساحة)، **وعدم وجود شبكة طرق ومواصلات واتصالات، وعدم وجود نظام تعليمي موحد**. فهذه الأشياء الثلاثة هي التي تخلق مجتمعاً وطنياً (National society) ودولة قومية (National state) حتى مع التنوع الذي أشرنا إليه.

كنت أعرف الكثير عن السودان قبل زيارته ـ بحكم اهتمامي بوحدة وادي النيل، والوحدة العربية، والأقليات. وحرصت خلال هذه الزيارة الأولى أن أقضي مُعظمها في الميدان، وفي الجنوب خصوصاً، وهو الذي كان البريطانيون إبّان استعمارهم (١٨٨٨ـ ١٩٥٤) قد عزلوه سكانياً وثقافياً عن الشمال. وكان ذهاب المصريين والعرب إلى جنوب السودان أيضاً شيئاً نادراً وصعباً. ثم بعد الاستقلال (١٩٥٦/١/١) انفجرت الحرب الأهلية الأولى (١٩٥٦ـ ١٩٧٣) وهي التي جعلت عُزلة الجنوب تستمر لستة عشر عاماً أخرى. وكان توقيع اتفاقية سلام بين الجنوب والشمال من ناحية بوساطة أثيوبية، وهو ما عُرف باسم **"اتفاقية أديس أبابا"** (١٩٧٢)، **والطفرة النفطية** بعد حرب أكتوبر (١٩٧٣) من ناحية أخرى، عاملَين تضافرا على تحفيز الكويت للمبادرة بمساعدة السودان لتكريس اتفاقية أديس أبابا، من خلال تنمية الجنوب الذي كان الأكثر تخلفاً وفقراً... وهكذا جئنا نحن كمجموعة من الاستشاريين والخبراء العرب ذوي التوجه القومي.

كانت الطرق المرصوفة في السودان كله (٣ مليون كم٢) لا تتجاوز مائتي كيلو متر طولي، حول مدينتي الخرطوم وبورسودان. وكان أطول هذه الطُرق هو ذلك الذي يربط بين العاصمة الخرطوم، ومدينة مدني، على بعد ٦٠كم تقريباً. زرت مُديريات الجنوب الثلاث (جوبا وملكال وبحر الغزال)، والتي كانت تربطها

بالخرطوم خط جوي داخلي، يستخدم طائرات مروحية (من طراز فوكر) وكان يسود الجنوب مناخ من التفاؤل حول المُستقبل... وكان المتعلمون منهم يتطلعون إلى مُساعدات عربية أسوة بما تفعله الكويت، حيث كان ممثل الصندوق الكويتي **فيصل الخالد**، هو ربما أول عربي، بحطّة وعقال، تطأ أقدامه أرض جنوب السودان منذ **تجار العبيد، قبل مائتي سنة!**

تجولت في المناطق الشمالية قرب نهاية إقامتي بالسودان... ولأن معظم الطرق غير مرصوفة أو حتى مُمهدة كنت مع مُرافق سوداني من وزارة التخطيط، نستخدم سيارة لاند روفر، في تنقلاتنا... وكان معظم بقية أفراد فريق الخبراء غير ميالين إلى السفر خارج الخرطوم... حيث كانوا يُفضلون زيارة المسؤولين السودانيين في مكاتبهم أو في الفندق... ولكنهم كانوا يستمعون إلى التقارير والحكايات الشفوية التي أنقلها لهم عن زياراتي ومُلاحظاتي الميدانية، والتي جعلت أحدهم، وهو **د.إكرام يوسف** خبير الإدارة، يتحمس للالتحاق بي في أحد هذه الزيارات الميدانية. وفي طريق العودة... وبعد أن ركبنا اللاند روفر، وقبل التحرك من أحد المواقع ، هم بإغلاق باب السيارة دون أن ينظر بانتباه إلى كف يدي اليمنى الذي كان مُشرعة خارج الباب، وهو ما أدى إلى إصابة أصابعي بكسور نزفت منها الدماء بغزارة، ولم نتبين درجة خطورتها من عدمه، إلا بعد ساعتين، حيث أقرب مُستشفى. أسقط في يد **إكرام يوسف** والمُرافق السوداني والسائق، وخلع الرجل قميصه واستخدمه كضمادة مؤقتة لوقف النزيف إلى أن وصلنا إلى غرفة العمليات بين أسفه ودموعه. اهتم الأطباء السودانيون اهتماماً شديداً... وأجروا الإسعافات والفحوص والإشاعات والجراحات اللازمة بكفاءة مُبهرة... واستبقوني في المستشفى ليلة واحدة... اتضح أن عقلة إصبع واحد (الوسط في اليد اليمنى هي التي كسرت) أما بقية اليد فقد كانت جروحها سطحية... وخلال ثلاثة أيام كنت قد استعدت صحتي... إلا من ضمادة على الكف الأيمن استمرت أسبوعاً، ثم ضمادة وتجبيرة على الإصبع المكسور، استمرت شهراً، ولم تفك إلا في الولايات المتحدة... وظل **إكرام يوسف** يشعر بالأسف ويُكرر الاعتذار، رغم أن الأمر كله كان حادثاً عارضاً، غير مقصود... ولم يمنع ذلك أحد زملاؤنا في الفريق، وهو **د.عاطف عبيد** (الذي أصبح رئيساً لوزراء مصر فيما بعد) من التندر عليه بإطلاق اسم "**إجرام**" بدلاً من "**إكرام** **يوسف**... وظل هذا الاسم - أي **إجرام يوسف** لصيقاً به لسنوات طويلة!

حينما توقفت في القاهرة... في طريق العودة إلى الولايات المتحدة، كان قلبي يدق بشدة مع هبوط الطائرة... كانت مظاهر الحرب وحديثها ما يزال في كل مكان، وعلى كل لسان... ورغم أن شهوراً ثلاثة كانت قد مرت على وقف

إطلاق النار، إلا أن آثار الحدث كانت ما تزال طازجة. توجهت من المطار بحقيبتي مُباشرة إلى **قريتي بدين**... كان وصولي مُفاجأة لأسرتي وقريتي... لماذا لم أتوقف في القاهرة أو حتى المنصورة في طريقي إلى القرية؟ لا أدري لماذا، لأنني لم أخطط لذلك... لقد كان شوقاً لرؤية أمي وقريتي... فقط فيما بعد أدركت أنه **في ظروف الانفعال الوجداني بأحداث كبرى يجد المرء نفسه تلقائياً مُندفعاً إلى جذوره**... ولم يكن في قلبي وعقلي حدث أكثر درامية من حرب أكتوبر... طبعاً في خلال يوم واحد من وصولي إلى القرية كان أفراد أسرتي في المنصورة والقاهرة والإسكندرية قد علموا... وتوافدوا إلى البيت الكبير، وسط فرحة وبهجة طاغية لدى الجميع، وفي مُقدمتهم بالطبع الوالدة العزيزة... كانت أسئلتهم الأولى عما حدث ليدي... وأسئلتهم التالية عن زواجي و**بركة وراندا**. علمت بأخبار الشهداء من الأهل والأقارب في القرية... وكان عددهم سبعة - منهم نجل ابن عمي **مصطفى أبو على (إبراهيم رزق)**... **طفت بمنازل أسر الشهداء جميعاً**، وسمعت ما تيسر من قصص كل منهم. استشهد اثنان فقط في معركة العبور في الأسبوع الأول للحرب، بينما استشهد الخمسة الآخرون في الأسبوع الأخير في محاولة القضاء على الثغرة...

توقفت في القاهرة لمدة يومين فقط، زرت فيها **معرضاً في أرض الجزيرة للأسلحة والغنائم** التي استولى عليها الجيش المصري من القوات الإسرائيلية، وكانت كثيرة ومتنوعة - دبابات ومدافع، ورشاشات، ومُدرعات وأنظمة رادار من كل نوع ولون، ومُعظمها أمريكي. ورغم أن المعرض كان في أسبوعه الثالث، إلا أنه كان مايزال مُزدحماً... وكانت مُتعتي في مُراقبة زوار المعرض من مصريين وعرب، أكثر مما كانت في مُشاهدة أو فحص الأسلحة. كنت أرى الفرح والابتهاج والفخر على الوجوه... **وكنت أعود بذاكرتي إلى أيام ١٩٦٧... وأجد نفسي حامداً، شاكراً الله، ومُضطراً للإعجاب بالرئيس السادات!**

لم أحاول، ولم تكن لديّ الرغبة أو الوقت، لمُقابلة مسؤولين حتى من الأصدقاء القدامى - مثل **د.أبو المجد، وأسامة الباز**... ومع ذلك فقد سمع بعضهم بوجودي في مصر... وعاتبوني فيما بعد اعتقاداً منهم أنني كنت أتحاشاهم. وحقيقة الأمر أنني فقط كنت أريد رؤية أسرتي وقريتي ومصر.

اليوم الثاني توقفت فيه بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، حيث زرت قسم الاجتماع... والذي كان أساتذته ما يزالون في إجازة نصف العام ولكن التقيت السكرتيرات، اللاتي تذكر بعضهن زيارتي السابقة في صيف ١٩٧١، والمُراسلات التي كانت تتم بيني وبين رئيسة القسم **د.سنثيا نلسون**... التي تركت لها رسالة تحية مكتوبة.

كان أخواي **أحمد وحامد** يُرافقاني معظم الوقت... وكان **أحمد** ما يزال ضابطاً (ملازم أول مهندس) في سلاح الدفاع الجوي... وكان لدى كل منهما قصصاً وتفاصيل عن الحرب... وكان **حامد** مُديراً في أحد المصانع الحربية ولذلك كانت قصصهما أكثر واقعية وأقل مُبالغة مما سمعته من مواطنين مصريين لم يكونوا بذلك القرب من المجهود الحربي.

عدت إلى الولايات المُتحدة... في الأيام الأخيرة من يناير ١٩٧٤... كانت **باربارا ورائدا** تنتظراني في مطار إنديانابوليس... فجعت **باربارا** حينما رأت يدي اليمنى مضمدة... أخذت عدة دقائق لأطمئنها مع نظرات **راندا** المستغربة... قبلتهما بشوق... وقضينا الرحلة من المطار إلى منزلنا في جرين كاسل أحدثها عن "مُغامراتي" في السودان، وزياراتي إلى مصر. استغلت **باربارا** غيابي هذا الشهر في إحداث دفعة لدراساتها العُليا في جامعة إنديانا بمدينة بلومنجتن القريبة من جرين كاسل.

بدأ الفصل الدراسي الثاني كالمُعتاد في جامعة دييوا... ولكن الجديد كان قيامي بالتدريس في جامعة "إنديانا- بردو" بمدينة إنديانابوليس... وكانت تجربة جديدة للجامعتين، ولي أيضاً فالجامعتان هما أكبر جامعات الولاية، وهما حكوميتان ومع ذلك بدأنا - كمُعظم الجامعات الأمريكية - في مدن صغيرة نسبياً (هما بولومنتجن ولافييت)، وظلت أكبر مدن الولاية وعاصمتها - إنديانابوليس محرومة من جامعة خاصة بها. وقاومت الجامعتان الكبيرتان إنشاء جامعة حكومية ثالثة في عاصمة الولاية وأكبر مدنها، وعلى مقربة من برلمان الولاية وحكومتها، مما يرجح استئثارهما بميزانية أكبر وامتيازات أكثر، فلما اشتدت ضغوط أهل المدينة لإنشاء جامعة بها، توفيراً على أبنائهم "مشقة" السفر ساعة كاملة، شرقاً إلى بلومنتجن أو غرباً إلى لافيت، سارعنا رغم التنافس التاريخي بينهما إلى اقتراح أن يقوما معاً بإنشاء جامعة مُشتركة، تحمل اسميهما معاً، وتم ذلك فعلاً، ولكن دون توفير القدر الكافي من أعضاء هيئة التدريس، وهو ما اضطر الجامعة المشتركة الجديدة إلى البحث عن أعضاء هيئة تدريس بعض الوقت، وبمكافآت ومُميزات مُغرية. ومن هنا استجبت لرجاء قسم الاجتماع فيها **(د.هارين)**، الذي جاء خصيصاً إلى جرين كاسل، بتوصية من صديق. كذلك لأنه كان أمريكي أسود، فقد تعاطفت مع حرصه على النجاح في دور جديد كرئيس للقسم. كان القسم كله مصدر إثارة وتعلم لي - حيث اختلطت السياسة، بالأكاديمية، بالعرقية.

ورغم ما بدى على السطح من أن التدريس الإضافي سيكون مُرهقاً، إلا أنه كان، أو تحول بسرعة إلى مُتعة. فمن ناحية كانت نوعية الطلاب مختلفة طبقياً

وعرقياً بين جامعة ديبوا الأرستقراطية البيضاء. وهنا في أنديانا - بردو. كانت الأعداد كبيرة في قاعة المُحاضرات، وكان ثلثهم على الأقل من الملونين، ومن طبقات أدنى من تلك التي تعودت عليها في السنوات السبع السابقة في ديبوا. أصبح ذلك في حد ذاته مصدراً غنياً للمراقبة والمقارنة والتأمل.

ولكن المُتعة الحقيقية هو اختياري ليوم في التدريس تكون فيه **باربارا**، في بولومنتجن، حيث تذهب هي في الصباح مع صديقة لها **(شيلا كوير)**... وأمر أنا عليها في بولومنتجن، بعد الظهر، وتذهب سوياً إلى الجامعة المشتركة، حيث نتناول عشاء خفيفاً في مطعم الجامعة، ثم أذهب أنا لمحاضراتي، وتذهب هي إلى المكتبة، ثم نعود سوياً إلى جرين كاسل... كانت مُتعة القيادة سوياً من بلومنتجن، إلى إنديانابوليس، ثم إلى جرين كاسل تعطينا فرصة لحديث في شتى الأمور بتركيز وتخصيص... وفي الغالب الأعم كنا نجد أن **راندا** في هذا اليوم قد ذهبت إلى فراشها، مع جليستها (Baby sitter) استمر هذا الروتين ثلاثة فصول دراسية متتالية.

زيارة منزلية مُفاجئة من المباحث الفيدرالية

في عطلة نهاية الأسبوع في شهر مارس، وبينما كنت أعمل في مكتبي ببدروم المسكن، نزلت إليّ **باربارا** وهي مُضطربة ومُتجهمة، وقالت لدينا زائران... نظرت في ساعتي، كانت حوالي الثالثة بعد الظهر، ولم أتذكر أنني ارتبطت بأي مواعيد، سألتها من هم؟ قالت بصوت مرتعد الـ F.B.I (مكتب المباحث الفيدرالية)... قلت لها أن تجلس معهما لدقائق حالما أفرغ من كتابة فقرة في ورقة بحثية هامة كنت... سألقيها في بيروت بعد أسابيع قليلة... كررت **باربارا**: هل سمعت ما قلته لك؟ قلت نعم...نعم... الـ F.B.I استغربت قلة اهتمامي بالأمر، وعادت إلى غرفة الاستقبال... حيث وجدت ضابطي المباحث يُلاعبان **راندا**... وهو ما جعلها تسترخي قليلاً، وتسألهما إن كانا يودان فنجاناً من القهوة أو الشاي، لحين فراغي من شيء أكتبه، يستغرق عدة دقائق... شكراها، واستمرا في مُداعبة **راندا**، وسط دهشتها من المشهد كله... فهي لم ترَ أبداً ضابط الـ F.B.I إلا في الأفلام والمسلسلات التليفزيونية... ويرتبط دخولهم أو اقتحامهم لأي منزل أو مبنى باحتمالات القبض على مُتهم أو مُشتبه فيه... لذلك استغربت عدم اكتراثي من ناحية، وتبسُّط مندوبي الجهاز المُرعب مع طفلتنا **راندا**، ذات العامين... من ناحية أخرى.

رحبت بالرجلين اللذين وقفا في حالة انتباه لدى دخولي غرفة الاستقبال، وهما يشرحا أن رحلة الرئيس **نيكسون** القادمة إلى مصر هي التي دفعت الجهاز

لتكليفهما بهذه المُهمة، وهما على يقين أن الكرم العربي المعهود سيجعلني أغفر لهما المجيء بلا سابق موعد... وظلا على هذه الحالة من الاعتذارية والتوقير، التي أدهشتني، ولكنها أيضاً أدهشت **باربارا**، التي وصفتهما فيما بعد بأنهما تلميذان يرتعدان أمام أستاذهما. حاولت التبسط معهما حتى يسترخيا وهو ما حدث في النهاية، حين طلبت منهما الجلوس، والدخول في الموضوع... كان الهدف من الزيارة هو تقديري لوقع زيارة **نيسكون** في مصر والوطن العربي، وكذلك ردود الفعل المُتوقعة من الفصائل المُختلفة للرأي العام المصري والعربي. أما الهدف الثاني والأهم هو التعرف على احتمالات المخاطر على حياة **نيكسون** أثناء الزيارة. وقد علقت وأعطيت وجهة نظري ورؤيتي... وكان الرجلان يدونان المُلاحظات بسرعة وتفصيل ... وفي نهاية ساعة ونصف من اللقاء... سألتهما لماذا أتيا لي أنا بالذات ؟ قال التلميذان: علمنا بأنك **وثيق الصلة بالفلسطينيين**... وأن لك كتاباً ظهر حديثاً عن **كيسنجر وصراع الشرق الأوسط**... واسبتشرت، وودعت الرجلين، اللذين ظلا يعتذران، إلى أن اختفيا عن الأنظار! سألتني **باربارا** كيف تعاملت معهما بهذه الطريقة الأبوية؟ سألتها هل كان هناك طريقة أخرى أفضل؟ قالت بعد أن فكرت لحظة: "لا أظن...".

رغم الانشغال بالتدريس الإضافي، إلا أن قلبي وعقلي كانا مشغولين بالمنطقة، وما يدور فيها ـ مصر، السودان، لبنان، فلسطين. ذهب جزء من وقتي في إعداد تقرير عن دراستي في السودان، والذي أوصيت فيه لتكريس السلم الأهلي، كشرط عام للتنمية المُتواصلة، والتركيز على البنية الأساسية والتعليمية التي تربط الجنوب ببعضه وبالشمال وكان الذي أثار انتباه السودانيين وصناديق التنمية هو **اهتمام عالم اجتماع بشبكة النقل والمواصلات، والاعتماد على النيل وفروعه في هذا الصدد كشرايين ملاحية، إلى أن تبنى الطُرق والسكك الحديدية**... وقد قمت برحلة ثانية لمدة أسبوعين إلى السودان في إجازة الربيع لعرض التقرير، والرد على مُلاحظات المسؤولين في الحكومة والصندوق... وحضر هذا العرض كل من الرئيس السوداني **جعفر نميري**، ومدير عام الصندوق الكويتي **عبد اللطيف الحمد**. ورغم بساطة الرئيس السوداني ـ على الأقل معي وزملائي في الفريق ـ إلا أنه كان واضحاً من تعليقاته ومُداخلاته أن كل همه هو معرفة حجم المُساعدة المالية التي سيحصل عليها (هو أو السودان) من الصندوق الكويتي... كذلك كان احتفاؤه واضحاً إلى حد المُبالغة مع مُدير الصندوق **عبد اللطيف الحمد** ـ وذلك على غير عادة السودانيين الذي يتصرفون مع بعضهم البعض ومع غير السودانيين بتلقائية وروح من المساواة، وهو ما يحبب الناس فيهم. من ذلك أن الجميع تقريباً كانوا يُخاطبونني باسمي الأول

مُجرداً من أي ألقاب. ولاحظت أن القلة التي تلقبني "بالدكتور" هم الذين تلقوا تعليمهم في مصر، أو في جامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم.

كان اشتراكنا في مشروع تنمية السودان أول تجربة ميدانية تطبيقية عملية لوضع الأفكار والنظريات، التي تعلمتها، ثم قمت بوضعها موضع الاختبار... كذلك كانت فرصة للتعرف على بلد عربي ـ إفريقي عن كثب، وعلى قدرتي للعمل ضمن فريق، وعلى صياغة استخلاصاتي وتقديم مُقترحاتي بلغة واضحة مفهومة، وبالقابلية للتنفيذ.

إبريل ١٩٧٤: إلغاء الحراسة

كانت رحلتي إلى السودان ومصر في يناير ١٩٧٤ فاتحة خير عليّ طوال العام. ففي أوائل أبريل، بعد رحلتي الثانية إلى السودان بلغتني الأخبار من الأسرة، وفي رسالة طويلة من **أسامة الباز**، الذي كان أحد مُستشاري الرئيس **السادات**، أن كل الإجراءات التي اتخذت ضدي في **سبتمبر ١٩٦٦**، أي منذ ثماني سنوات تقريباً، قد تم إلغائها. استعادت الأسرة الأفدنة القليلة التي تخصني من ميراث والدي. **كذلك تم إلغاء إجراء "العزل السياسي"** الذي كان يحظر عليّ تولي المناصب العامة، أو الترشيح لعضوية المجالس المنتخبة... وكذلك كل ما كان مُتصلاً بتعليق الجنسية. ولكن لم يصلني أي مكتوب رسمي يُفيد ذلك. فقط تلقت الأسرة، كما رأيت بعد ذلك، رسالة من وزارة الإصلاح الزراعي يفيد أن إجراء الحراسة الذي كان مفروضاً على الأطيان الواقعة بزمام قرية بدين، بحوض الشيخ، والمُسجلة باسم **سعد الدين محمد إبراهيم رزق**، لم يعد قائماً، وأن جهاز الحراسة لم يعد مسؤولاً!

كانت المُفارقة هي أن هذا الخبر الذي سعدت له كثيراً جاء بعد ثلاثة شهور، منذ بدء إجراءات منحي الجنسية الأمريكية، وهي الإجراءات التي بدأت فيها بعد أن أصدرت مصر تشريعاً يسمح للمواطنين المصريين اكتساب جنسية أخرى مع احتفاظهم بجنسيتهم المصرية. ورغم أن حصولي على الجنسية الأمريكية كان مُمكناً منذ عام ١٩٦٦، إلا أنني لم أفكر في ذلك جدياً إلا بعد صدور التشريع المصري وبعد ميلاد **راندا**...

كتبت إلى قسم الاجتماع في جامعات القاهرة، وعين شمس، والأمريكية، أستفسر عن وجود وظائف فيها يمكن أن أشغلها... وبالطبع ذكرت للأمانة، انتهاء مشكلتي الحراسة والعزل السياسي، كما أرفقت نسخاً من سيرتي الذاتية (C.V) وعينة من مؤلفاتي. ردت علي الأمريكية على الفور مرحبة، ولكن بعد عاما. أما القاهرة وعين شمس، فقد أرسلت ردوداً نمطية مغزاها أنه حينما تتوفر

لديهم وظائف شاغرة، فسيُعلن عنها في الصحف، وعلي أن أترقب ذلك، وأتقدم في حينه!.

في مواجهة الواقع العربي

كانت تجربة مشروع الدراسة في السودان ناجحة للغاية... وكان لهذا النجاح ثمراته ومُشكلاته. من الثمرات أن سُمعة مجموعة الـ APD بدأت تشيع في أوساط التنمية الإقليمية والدولية... ومثلما يقول المثل "**إن النجاح له ألف أب... أما الفشل فهو يتيم**" وهذا ما حدث للمجموعة، حيث نشب صراع بين رئيسها **توماس ساعاتي**، ونائبه **أنطوان زحلان**... وكان لا بد أن يختار كل عضو في المجموعة الجانب الذي ينحاز إليه، بعد أن استنفذت كل وسائل التوفيق. ورغم حُبي واحترامي للأستاذين الكبيرين، فقد أخذت أنا، وفيما بعد تبعني مُعظم أعضاء المجموعة جانب **أنطوان زحلان**. وكانت مُبرراتي الموضوعية هي أنه الأقرب إلى أرض الواقع، فهو مقيم في الوطن العربي، بينما **توماس ساعاتي** مُقيم مثلنا بعيداً في الولايات المتحدة، ومجال عمل المجموعة كما يدل اسمها هو الوطن العربي، كان المُبرر الثاني هو قوة الانتماء. كان **زحلان** فلسطينياً عروبياً فخوراً بهويته، بينما كان **ساعاتي قد** قضى معظم حياته في الولايات المتحدة، ولا يعرف عن الوطن العربي غير بلده الأصلي **العراق**، الذي لم يعد إليه منذ قيام الثورة العراقية ١٩٥٨، وفي الواقع، لم يبدأ في إعلان هويته العربية أو يفخر بها إلا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣. وكان ذلك مصدر نقد زوجته **آن** له مُعظم الوقت. وفي هذا كله كان **ساعاتي** على طرف نقيض - حزنت لهذا الانقسام، الذي جاء بعد تجربة ناجحة، والذي ذكرني بخبرات مصرية وعربية مُماثلة على المُستوى الرسمي، وأيضاً منذ سنوات العمل الطلابي.

كانت المجموعة التي انحازت **لزحلان** هي الأغلبية، سواء مُقيمون في العالم العربي أو الولايات المتحدة. وفي أواخر الربيع دعاني المكتب الإقليمي للأمم المتحدة في بيروت (UNESO) للمُشاركة في الندوة أو المؤتمر **الإقليمي للسكان، توطئة للمؤتمر الدولي الأول للسكان**، الذي كان مُقرراً انعقاده في بوخارست (رومانيا) في سبتمبر من نفس العام. وكانت الورقة التي شاركت بها هي بعنوان "**زيادة التحضر ونقص الحضرية في العالم العربي**" (over- urbanization and under-urbanism). وكانت صيغة مُحسنة من ورقة **بلودان** قبل ثلاث سنوات... وقد لاقت استحساناً أدهشني، ولكنه بالطبع أرضى غروري - خاصة مع رد فعل **الصحافة اللبنانية، وحسناوات المؤتمر**، اللاتي انتهزت اثنتان منهن (أمريكية ولبنانية) وجودي وحدي بدون **باربارا**، فاستخدمتا

كل وسائل الإغراء الممكنة من أجل علاقة حميمة... ورغم عرضية التجربة... إلا أنها كانت المرة الأولى بعد زواجي... وقد تملكتني مشاعر متضاربة من جرائها. ورغم أن صاحبتي التجربة لم تكونا تعرفان بعضهما، إلا أن كل منهما كانت مُصممة، وبشكل مستقل، على إثبات أنهما لم تكونا مُجرد "تجربة الليلة الواحدة". فستظل كل منهما تعود للظهور في حياتي، في مدن مُختلفة، وأقطار مُختلفة، وقارات مُختلفة خلال العقدين التاليين، دون أن تطلب أي منهما، أي شيء إلا الصحبة!.

خلال الأيام الخمسة التي قضيتها في بيروت، فاتحني د.**أنطوان زحلان** في إعادة تشكيل المجموعة الاستشارية (المشروعات العربية والتنمية APD) وانضمام د.**رمزي دلول** ود.**جورج عبد** إليها كبدائل لمن خرجوا منها (**توماس ساعاتي** و**سعيد عاشور**). كذلك أخبرني بعرض مليون دينار (٣ مليون دولار) من العراق لمُساعدته في تخطيط وتنمية الطاقة البشرية العُليا، وما إذا كان لدي الاستعداد للمشاركة في المشروع في حالة توقيع عقد مع الحكومة العراقية بهذا المعنى... وأعطاني نسخة من المُقترح الأولي للمشروع، لإبداء الرأي فيه، وخاصة المهام التي يمكن أن أقوم بها... وفهمت أن **رمزي دلول**، وهو زميل من سنوات الدراسة في الولايات المتحدة، حيث كان نائباً لرئيس مُنظمة الطلبة العرب، أثناء رئاسة **أسامة الباز**، قبل رئاستي للمُنظمة مُباشرة... كان **رمزي دلول** أحد قيادات حركة القوميين العرب الطلابية في ذلك الوقت، والتي كانت حليفة لنا كناصريين، والأشد مناوئة لحزب البعث لذلك استغربت قليلاً أن يكون هو همزة الوصل مع نظام البعث الحاكم في بغداد. وحينما أبديت هذا الخاطر **لأنطوان زحلان**، فاجأني بفلسفته التكنوقراطية الملتزمة فقط بتنمية أي بلد عربي يطلب استخدام الخبرة العلمية العربية... وذكّرني بأننا ساعدنا نظاماً ملكياً في الأردن، ونظاماً جمهورياً في السودان... فلماذا نتردد عن ذلك مع نظام البعث العراقي... وأن هذا الأخير يُريد مُسابقة الزمن في التنمية، خاصة بعد الطفرة المالية النفطية... بعد مُناقشة طويلة، وافقت من حيث المبدأ. وقبل أن أودعه في طريقي للمطار، أخبرني **زحلان** بشكل عارض بأنه و**آن** اتفقا على الطلاق، وأنهما بالفعل مُنفصلان الآن، في انتظار إتمام إجراءات الطلاق! وقد فسر ذلك لي اندفاع **آن** نحوي أثناء مؤتمر الأمم المتحدة الذي كانت تقوم فيه بدور مساعد المقرر، بحكم تخصصها في اللغة الإنجليزية.

عدت إلى الولايات المُتحدة، واستأنفت عملي في التدريس، وكذلك مُراجعة والتعليق على مُقترح مشروع دراسة الطاقة البشرية العُليا في العراق. وجرت مُراسلات بيني وبين الفريق المُرشح الذي كان يُنسق اتصالاته **أنطوان زحلان**

من بيروت. وفي نفس الوقت قمت باستكشاف إمكانية الحصول على إجازة دراسية من جامعة ديبوا في فصل الخريف... بمُقاومة في البداية... وبعد أن تم توقيع العقد مع الحكومة العراقية، تقدمت بطلب رسمي للحصول على إجازة دراسية لفصل الخريف، وتمت الموافقة عليها... وكانت **باربارا** بالطبع شريكة أساسية في اتخاذ القرار، وكانت مُتحمسة، حيث أصبحت مُتيمة بالمعيشة والدراسة والعمل في الوطن العربي... كما كانت في المرحلة الأخيرة من كتابة رسالة الماجستير... ولذلك كانت العودة لبيروت أو الذهاب إلى بغداد حافزاً إضافياً في اتخاذ القرار.

تبلور التفكير، على أن نقضي الشهر الأول من الصيف في بيروت، ثم بقية الصيف وكل فصل الخريف في بغداد، ثم أعود إلى الولايات المُتحدة للتدريس للفصل الدراسي الثاني (فبراير ـ مايو)، ثم الذهاب إلى العراق في صيف ١٩٧٥ لاستكمال العمل في المشروع، ومضت الخطة فعلاً في التنفيذ. فبعد الانتهاء من الامتحانات والتصحيح وقضاء أسبوع مع أسرة **باربارا**، غادرت أنا إلى بيروت، ثم بغداد، وتركتها مع أسرتها لأسبوعين إضافيين.

ذهبت إلى بيروت، ومنها إلى بغداد بالطائرة، حيث كان بعض أعضاء الفريق هناك بالفعل، كانت تنتابني مشاعر مُختلطة، حينما وصلت الطائرة إلى بغداد كانت رؤية هذا البلد العربي مصدراً للإثارة. ولكن كان لدي هواجس من **السُمعة الدموية لنظام البعث**، الذي كان يرأسه الفريق **أحمد حسن البكر**، ونائبه الفريق **صدام حسين التكريتي**، ابن شقيقته. المهم، أنني وجدت مندوباً من وزارة التخطيط العراقية، و**د.جورج عيد** المُدير التنفيذي للمشروع، وهو أيضاً من مُخضرمي الحركة الطلابية في الستينات من جامعة بيركلي/كاليفورنيا، وكان يعمل بصندوق النقد الدولي، الذي أخذ منه إجازة لمدة سنتين للتفرغ لإدارة المشروع من بغداد. وكان واضحاً منذ وصولي مدى الاهتمام الرسمي بالمشروع. أقمت لمدة أسبوعين في **فندق الرشيد**، وهو أكبر فنادق بغداد في ذلك الوقت.

وضعت تحت إمرتي سيارة وسائق من وزارة التخطيط خلال الأسبوعين على ذمة المشروع، الذي خصصت له بناية مُستقلة في وسط بغداد، على مسافة عشر دقائق مشياً على الأقدام من فندق الرشيد. لكن أغلب الظن أن تخصيص سيارة وسائق كانا **جزءاً من المُراقبة والسيطرة بواسطة الاستخبارات العراقية على أعضاء الفريق**، الذين كانوا جميعاً عرباً، ولكن غير عراقيين.

كانت صورة بغداد في خيالي منذ الطفولة مُستمدة من قصص **ألف ليلة وليلة** المُصورة في الكتب المدرسية والروايات والأفلام المصرية والأجنبية... كنت أتوقع مباني وقصورا ومساجد ذات قباب وأسوارا وعقودا وقلاعا... لذلك

رغم وجود السيارة والسائق، كنت أفضل المشي، وكنت أسعى **لأحياء بغداد القديمة**، التي لم تعد موجودة، هذا إن كانت وُجِدت أصلاً، إلا في الكتب والأفلام... كانت بغداد التي وجدتها مُزدحمة، وذات خليط مُتنافر من المعمار، الذي لا يتجاوز أقدمه مئة عام... كانت بعض المباني المؤسسية الجديدة تحاول تقليد ما كان يُعتقد أنه معمار عربي - إسلامي أصيل... ولكن كمية الإسمنت المُسلح والخرسانات كانت تكشف زيف المُحاولة.

كان الاستثناء لخيبة أملي في بغداد كمدينة، هو **نهر دجلة الساحر وخاصة في المساء**. وكثيراً ما كنت أهرب إلى شواطئه، كمثل كثير من أهل المدينة، في صيف بغداد الحار جداً. وكانت مطاعم السمك النهري تقدم نوعاً شهياً يُسمى "**المسقوف**". وفي أول ليلة ذهبت إلى أحد هذه المطاعم، طافت بي الذكريات... من شواطئ النيل إلى شواطئ الأطلسي في طنجة والدار البيضاء... إلى الخرطوم حيث الأبيض والأزرق... **وهكذا في السنوات الثلاث الأخيرة خبرت الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه... الطريف أن الأقرب إلى صورة بغداد في خيالي كان في الأندلس والمدن الغربية القديمة.**

خططت لتفصيلات المهام التي سأقوم بها في المشروع، كما قمت بمُقابلات لعدد من الخريجين العراقيين الذين يُمكن الاستعانة بهم، واستقر رأيي واختياري على عشرة منهم، من بين حوالي خمسين تقدموا لوظائف باحثين من مُختلف التخصصات في الاقتصاد والاجتماع والجغرافيا والسياسة وكذلك تفقدت مساكن الزملاء الذين سبقوني في المشروع إلى بغداد، وكانوا يُقيمون جميعاً في فيلات **بضاحية المنصور**، وهي أشبه مكان في بغداد لضاحية **المعادي** القاهرية. كانت مُعظم هذه الفيلات مملوكة لمسؤولين أو أقارب مسؤولين، تخصصوا في تأجيرها للأجانب الخبراء، ذوي الأجور والمُرتبات العالية، ويتقاضون إيجارها **بالعملة الصعبة، تحت المائدة**، أو تحول لحسابهم في الخارج... وكان ذلك اكتشافا مُبكرا لنفس **آفات الاقتصاد المركزي المُخطط، مثلما لاحظت في الجزائر قبل سنوات...**

خُرافة البعث. ثورة على الحدود المُصطنعة!!

عدت إلى بيروت لاستقبال **باربارا وراندا**... وقضينا سوياً أسبوعاً رأينا فيه عدداً من الأصدقاء. وقررنا أن نسافر من بيروت إلى بغداد بالسيارة عبر سوريا... وقيل لنا أن الرحلة ستستغرق حوالي اثنتى عشرة إلى أربع عشرة ساعة... وحيث كان الوقت ضيقاً، فقد تركنا بيروت حوالي الرابعة بعد الظهر، على أمل الوصول إلى بغداد صباح اليوم التالي ما بين الرابعة والسادسة صباح

اليوم التالي... وكانت هناك سيارة ليموزين مُكيفة مخصوصة، وسائق خاص. عبرنا سهل البقاع اللبناني، ثم الأراضي السورية بشكل سهل نسبيا، رغم أننا استغرقنا مدة أقصر على الجانب اللبناني منه على الجانب السوري... مع وجود لافتة كبيرة على الجانب السوري من الحدود تقرأ "مرحباً بكم في سوريا: **قلب العروبة النابض**"... وتحتها لافتة أكبر، ترى من بعد مئة متر مكتوب عليها "**البعث، ثورة على الحدود المصطنعة**"... قطعنا بادية الشام في حوالي ست ساعات إلى الحدود السورية العراقية ... ورغم شدة الحرارة في هذا الفصل من السنة (يوليو)، إلا أن نسيم الصحراء بعد غروب الشمس كان رقيقاً ومُنعشاً، حينما توقفنا للراحة... وهو ما أغرانا في بقية الرحلة بوقف تكييف السيارة، وفتح نافذة السيارة الوسطى... ونامت **راندا وياربارا** نوماً عميقاً... ونمت أنا نوماً متقطعاً... إلى أن وصلنا إلى الحدود "**البعث ثورة على الحدود المصطنعة**..." وكانت هذه المرة نفس الكلمات على **جانبي الحدود في بلدين يحكمهما نفس حزب البعث العربي الاشتراكي**... ورغم ذلك أخذت إجراءات الخروج من سورية **أكثر من ساعة** (مُقارنة بعشرين دقيقة من لبنان، وثلاثين دقيقة لدخول سورية)، أما على الجانب العراقي فقد أخذت الإجراءات **أربع ساعات كاملة**... وكان يمكن أن تطول المدة إلى ثماني ساعات، لولا **ثورتي على موظفي الحدود، وهو سلوك، كنت أدرك رعونته مع البيروقراطية العربية، التي يمكن أن تمعن في إذلال أي مواطن عربي، وخاصة من بني وطنها، دون أن يجرؤ على الشكوى، ناهيك عن الثورة**... ولكن سبب ثورتي هو أن زوجتي وابنتي لم تكن لديهما مُشكلة وقت في الإجراءات، حيث أن **جواز سفرهما أمريكي**... **أما جواز سفري المصري، الجديد بعد إلغاء الحراسة، فقد كان معناه أن أنتظر مع عشرات العرب الآخرين إلى صباح اليوم التالي.** وحيث كنا في مُنتصف الليل فقد كان معنى ذلك ثماني ساعات أخرى... وحاولت في البداية إقناع عريف الشرطة أو حرس الحدود، بأننا أسرة واحدة، وأن معنا طفلة... تعاطف في البداية، ثم حاول التعطيل لأسباب بيروقراطية شكلية، وهي **عدم وجود "العراق" ضمن البلدان التي يسمح لي جواز سفري المصري بالسفر إليها.** فأوضحت له أن أول شيء مدون في البلدان المسموح لي بالسفر إليها هي "**الدول العربية**"، **وبلدان أوربية وأمريكية أخرى**... حاولت إقناع الرجل أن العراق هو أحد الدول العربية، ولكنه تمسك بضرورة النص صراحة على العراق - حيث أن فرنسا والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة وكندا، قد ذكرت صراحة. سألت الرجل من أين أتيت ؟ فقال سورية... قلت له وأين سورية في جواز سفري؟ وخيل إلي أنني أفحمت الرجل، ولكنه رد بأن مراكز الحدود في سورية فوضى!... سألته عن معنى اللافتة

المعلقة فوق رأسه بأن "البعث ثورة على الحدود المُصطنعة" رد الرجل بأنه **لا يتحدث في السياسة**، ولا يحب أن أستدرجه للحديث في السياسة! قلت للرجل الذي بدا لي موظفاً متواضعاً، نصف جاهل، أنني أريد مُقابلة رئيسه... حاول التسويف أو التعطيل... وترك مكتبه ليبلغ رئيسه برغبتي - وعاد بعد نصف ساعة يُبلغني أن رئيسه مشغول، وسيأتي إلى الموقع بمُجرد إنهاء "المُعاملات" العاجلة في يديه... مرت ساعتان ولم يأت "النقيب"، أي الضابط المسؤول... ألححت مرة أخرى لاستعجاله... وحاول التسويف... وهنا رفعت صوتي، وبدأت في تحميله مسؤولية تأخرى عن موعد هام مع أحد المسؤولين الكبار في بغداد اقترب الرجل مني **وهمس في أذني بما يشبه الرجاء ألا أضعه في موقف مُحرج، فهو العبد المأمور. واتضح بعد مناقشة ودية أن العقيد مخمور، وأن الأوامر لمساعديه ألا يوقظه أو يضايقه أحد من مرؤسيه قبل الثامنة صباحاً!**... ثم سألني ذلك العريف هامساً "**لماذا لم تحصل يا أستاذ على الجنسية الأمريكية مثل زوجتك وابنتك، كانت معاملتك لتنتهي منذ ساعات**" آلمتني المُلاحظة والسؤال... وقلت للرجل ما معناه أنني كنت وما زلت حريصاً على ألا أتخلى عن جنسيتي العربية المصرية. قال الرجل ساخراً "**إذن ادفع ثمن هذا الحرص واصبر للثامنة صباحاً**". عند هذه النقطة من الحديث كان الرجل قد أصبح ودوداً، وطلب أن يجرب السجائر "**المارلبورو الأمريكية**" التي كنت أدخنها فأعطيته علبة كاملة... طلب الرجل جوازات السفر الأمريكية مرة أخرى ومعها جواز سفري المصري، واختفى في غرفة النقيب... وعاد بالنقيب يترنح وهو نصف نائم... وسألني الضابط عن المسؤول العراقي الذي سأقابله في العاشرة صباحاً... فذكرت له اسم وزير التخطيط العراقي **(د.هاشم جواد)**... فتحامل على نفسه، وختم جواز سفري بخاتم الدخول... شكرته، وانطلقنا إلى بغداد التي وصلناها في حوالي العاشرة والنصف صباحاً... وندمت على أنني سافرت بالطريق البري ومعي الأسرة... وحزنت للمشهد كله حيث **لا كرامة لجواز سفر عربي** في بلد عربي يدّعي أنه وحدوي، وأنه ضد الحدود المصطنعة ويُعادي الأمريكيين إعلامياً، بينما يوقر ويحترم جوازات السفر الأمريكية مئة مرة أكثر من جوازات السفر العربية... وكانت هذه تجربة لا تنسى، لا فقط **للحرج الشديد أمام زوجتي الأمريكية**، ولكن لأنها ستتكرر في بلدان عربية أخرى تمر عبرها هي بجواز سفرها الأمريكي... وأُحجز أنا لدقائق أو ساعات قبل أن يُسمح لي بالدخول ... **وربما كان ذلك أحد أهم أسباب قبولي لحمل الجنسية الأمريكية حينما عرضت علي بعد سنة، من ذلك التاريخ!.**

توجهنا فوراً إلى فندق الرشيد، حيث اغتسلنا، وتناولنا طعام الإفطار، واسترحنا لعدة ساعات إلى أن التحق بنا بعض الزملاء العاملين في المشروع في العصيرة، رحبوا **باربارا**، وسعد اثنان منهما خاصة بقدومها وهما **د.جورج عيد** مدير المشروع، و**د.أسامة دوماني** (أنثربولوجي فلسطيني من بيركلي - كاليفورنيا) فقد كانا متزوجين من أمريكيتين، وشعرا بقدوم **باربارا**، أن ثلاثتهن سيؤنسن بعضهن. كان **جورج عيد** وزوجته **آن** الأكبر سناً، لديهما ثلاثة أولاد، بينما كان **أسامة وسوزان** الأصغر سناً وبلا أطفال.

البحث عن سعدون حمادي و"بيركلي" في بغداد

بحثت عن **د.سعدون حمادي**، أحد القيادات البعثية العراقية الذي كنت قد دعوته لمؤتمر الطلبة العرب عام ١٩٦٦، بصفته رئيساً سابقاً للمُنظمة (عام ١٩٥٤/١٩٥٥). ثم بادر الرجل بالكتابة إلي من منفاه في دمشق في أعقاب هزيمة ١٩٦٧... وتراسلنا بكثافة خلال السنوات الثلاث التالية حول سؤال **"ما العمل؟"**.

ثم عاد البعث للحكم في بغداد، وعاد **سعدون حمادي** إلى السلطة أيضاً مع زملائه العائدين. وانقطعت المُراسلات... وقدرت أن ذلك كان لانشغال الرجل في مهامه الوزارية المُتعاقبة... كذلك انشغلت أنا أيضاً في التدريس والزواج والأسرة.

ولكن حين جئت لبغداد، اتصلت بالرجل، ودعاني لزيارته في مكتبه بوزارة الخارجية (وقبلها كان وزيراً للإصلاح الزراعي، ثم التخطيط، ثم الصناعة)، كان الرجل مُهذباً بلا مودة أو دفء كما كنت أتوقع. شرحت له أسباب وجودي في بغداد، والمشروع الذي أشارك فيه، واتضح لي أن لديه فكرة... تحدثنا قليلاً عن مشروعنا الآخر وهو إنشاء مركز دراسات عربية مستقل عن الحكومات، ويلتزم بالموضوعية في فهم الواقع العربي. ظهر عليه الحماس لدقائق... وقال أنه يتمنى أن تظهر الفكرة إلى النور قريباً، وأن هناك خطوات جادة قد اتخذت في هذا الصدد وأنه شخصياً يتمنى أن يلتحق بهذا المركز حين يتم تأسيسه!.

ودّعني الرجل دون أن يدعوني لتكرار الزيارة، أو يسألني عما إذا كنت أحتاج إلى أي شيء. تصادف أن لقيت نفس الرجل بعد ذلك عدة مرات خارج العراق، لأجده بشوشاً دافئاً... كما لو كان شخصاً آخر تماماً... إذن هي العراق.

وجئنا - **باربارا** وأنا - كزوجين، بين العاملين في المشروع، لنكون الأوسط سناً، وأسرةً، ومزاجاً. فقد كان **جورج** الاقتصادي، كعادة كل الدارسين والمُمارسين للاقتصاد، أكثر مُحافظة ورزانة بينما كان **أسامة** الأنثربولوجي من بيركلي، الأكثر تمرداً، ويتصرف هو وزوجته في بغداد، المُحافظة اجتماعياً، كما لو كانا

في شمال كاليفورنيا، الأكثر تحرراً في العالم، وهكذا اكتشفت أنا و**باربارا** في أول يوم، بل في أول لقاء أن هناك توتراً مهذباً بين الزوجين، وتبارى كل منهما في الاحتفاء بنا، فيما بدا أنه مُنافسة لكسبنا إلى جانب كل منهما. من ذلك تسابقهما في العرض على **باربارا** ليرافقاها للتعرف على الفرص المتاحة للسكن والتسوق في بغداد... وبينما كان **جورج** وأسرته قد فضّلوا واستقروا في فيلا في ضاحية المنصور، قاوم **أسامة وسوزان** ذلك، على أساس أنه سلوك "**برجوازي**"... وظلا لمدة شهر يبحثان عن سكن "**بروليتاري**" يتسق مع مُعتقداتهما "**الثورية**" التي أتيا بها طازجة من مدينة **بيركلي**، التي كانت معقلاً لقيادة الحركة الطلابية الأمريكية في الستينيات. طبعاً، اتضح لهما أن أحياء الطبقة العاملة العراقية لا تقارن أبداً بأحياء الطبقة العاملة الأمريكية، فالفرق بينهما فكرياً ومادياً هو مئة سنة على الأقل. كذلك اكتشفا أنه لا توجد أحياء، أو حتى شارع يمشي فيه المثقفون والفنانون . مثل الحي اللاتيني في باريس، أو شارع هيت أشبري في بيركلي، أو قرية جيرنيتش في نيويورك... وهكذا عاش **أسامة وسوزان** يبحثان عن "بيركلي" في بغداد، إلى أن غادرنا نحن العراق بعد سبعة أشهر... وكانت تجربة التعايش مع الخبراء العرب الوافدين من الغرب للعمل في مشروع **تنمية الطاقة البشرية** في العراق، هي في حد ذاتها دراسة مُكملة لي ضمن المُهمة الأكبر التي كنت مُكلفاً بها في المشروع... وهكذا في المُناقشات الفكرية البحتة كنت أنا و**باربارا** أقرب إلى **أسامه وسوزان**، ولكن في ترتيبات وأسلوب الحياة العملية كنا أقرب إلى **جورج وآن**!.

وجدنا فيلا صغيرة بحديقة كبيرة في حي المنصور، استأجرناها مفروشة لمدة ستة شهور... وأتت صديقة الأسرة **سعادة محمود** لتقوم بالعمل كمُربية وهي نفس السيدة التي كانت قد أقامت معنا مدة في بيروت، وشهدت ميلاد **راندا**... وقد أتاح ذلك **لباربارا** وقتاً لاستكمال رسالة الماجستير التي كانت قد بدأتها في الجامعة الأمريكية في بيروت قبل عامين... وكذلك تلقت دروساً في اللغة العربية في فصول مسائية كانت تقدمها جامعة بغداد. بعد شهرين تقريباً، اكتشفت **باربارا** أنها حامل... وبدأت تتردد على طبيبة نساء عراقية، تلقت تعليمها في القاهرة ولندن، وقيل لنا أن الوضع متوقع في شهر أبريل ١٩٧٥... وهكذا بدا أن طفلها الثاني، مثل **راندا**، كتب له أن يبدأ "نطفة" في بلد عربي. فإذا كان ذلك قد حدث في حالة **راندا** في أقصى المغرب العربي، فإنه في حالة الطفل الثاني سيكون في أقصى المشرق العربي!

كانت مُهمتي تحديداً هي التعرف على ما ينقص العراق من كوادر الطاقة، البشرية العُليا، والطرق والوسائل الكفيلة بسد هذا النقص، في الأجلين، القصير

(ثلاث سنوات) والمتوسط (خمس سنوات). ومرت بلورة هذا الجزء ـ مثل بقية أجزاء المشروع ـ بمراحل مُتتالية. كان أولها تحديد إجرائي صارم لمفهومي "الطاقة البشرية العليا"، و"النقص في كوادر هذه الطاقة" . بعد مُراجعة الوثائق والإحصاءات العراقية والحزب المبدئي مع مسؤولين في كل أجهزة الدولة تقريباً، بما فيها قيادات القوات المُسلحة، والقطاع العام والوزراء، تم تعريف الطاقة البشرية العُليا أنها التخصصات العلمية والتقنية التي ينبغي لأصحابها أن يكونوا قد حصلوا على تعليم في مُستوى الماجستير والدكتوراه، أو ما يُعادلهما. كما تم تحديد مفهوم "النقص" بمعيارين ـ الأول هو ما يتم تقديره بواسطة المؤسسات العراقية نفسها، من واقع احتياجاتها خلال ثلاث، وخمس، وعشر سنوات، أما المعيار الثاني ففي ضوء مُعدل توفر هذه الكوادر بالنسبة لعدد السكان في البلدان المتقدمة، مثل عدد المهندسين، أو الأطباء، أو عُلماء الطبيعة أو الكيمياء لكل مليون من السكان. ثم مقارنة المعدل في هذه البلدان بمثيله في العراق، وحساب العجز (Deficit). وهكذا، مثلاً، يمكن معرفة العجز أو الفجوة بين العراق، وإيطاليا أو إسرائيل أو بريطانيا في المُعدل في كل تخصص من فئات الطاقة البشرية العليا ـ مهندسين، أطباء، عُلماء... إلخ. وكانت مُهمة الدراسة تقديم موازنة تقديرية بهذه العجوزات لصانع القرار، لكي نجتاز المُستوى الذي نريد للعراق أن يصله في مدى زمني مُعين (مُستوى فرنسا أو إسرائيل، مثلاً)، وفي ضوء ذلك يتم وضع خطة مُبرمجة لسد هذا العجز . سواء من خلال إرسال الطلاب العراقيين النابهين في بعثات دراسية إلى أرقى المعاهد العلمية المُتخصصة في الخارج، أو جذب خبرات عراقية وعربية من الخارج إلى العراق.

وقد انطوى هذا التصميم البحثي على مُقابلات مُتعمقة وزيارات مُختلفة لمؤسسات القطاعين العام والخاص، وكذلك لعينات احتمالية لطلاب وخريجين وكوادر فنية عراقية في الداخل والخارج، بهدف التعرف على حالة الرضا الحالية، ومُستويات الطموح والخطط المُستقبلية الفردية، وقياس النزعة أو التهيؤ للبناء في العراق أو الهجرة منه إلى الخارج (العربي أو الأجنبي)، وأسباب ومُعاملات ارتباط هذا وذاك.

وقد استغرق جمع البيانات الميدانية، وتبويبها، والتحليل المبدئي لها، الشهور الستة التي أقمتها في العراق (يوليو ـ ديسمبر ١٩٧٤)... وساعدني في هذا الصدد حوالي خمسين باحثاً عراقياً، مُعظمهم من شباب الخريجين، الذين كان العقد مع وزارة التخطيط العراقية، ينص على القيام بتدريبهم لمواصلة العمل في مجال تنمية الطاقة البشرية. وكانت وزارة التخطيط العراقية هي التي تتابع معي ومع بقية أعضاء فريق الخبراء العرب تنفيذ بنود العقد كذلك كان هناك

مكتب اتصال عراقي خاص لتسهيل مهام وتلبية احتياجات فريقنا. وكانت مُعاملتنا في هذه المرحلة راقية مُهذبة. وكان تعاملي وتدريبي للشباب العراقيين مُمتعاً. فبعد تهيب أولي من جانبهم، بدؤوا يسترخون ويتشجعون على توجيه الأسئلة والمُبادرة بالأفكار والمُقترحات. وأدركت في سياق ذلك سطحية وظلم التصورات النمطية عن الشخصية العراقية فهي شخصية يبدو مظهرها قاسياً عبوساً... ولكن الحفر قليلاً تحت هذا السطح، يكشف عن الجوانب الرقيقة والكريمة لهذه الشخصية. وقد خلصت من ذلك بعد عدة شهور من التعامل المكثف، أن القشرة الخارجية الصارمة هي إحدى الآليات الدفاعية لحماية الجوهر الداخلي الموغل في الحلاوة والرقة، وكان ضمن الخمسين الذين عملوا معي حوالي عشر فتيات ونساء من الطبقتين الوسطى والعُليا العراقية. واكتشفت مُبكراً أنه كان هناك تهافت من عدد كبير من العراقيين للعمل في مشروع تنمية الطاقة البشرية. كان أحد أسباب هذا التهافت ربما مادية، ولكن مُعظمها كان أدبياً ومعنوياً... وذلك لاكتساب خبرات ومهارات جديدة، وللمُعاملة الطيبة التي كانوا يلقونها من أعضاء فريقنا.

كان رئيس مؤسسة المشروعات العربية والتنمية (APD) **أنطوان زحلان** يتردد علينا من بيروت دورياً لتنفيذ سير العمل والتشاور مع أعضاء الفريق ومع المسؤولين العراقيين، كما كان نائبه **رمزي دلول** يفعل نفس الشيء، وإن كان أقل انغماساً في الجانب المضموني للمشروع، كما كُنا أعضاء فريق العمل المُقيمين في بغداد نتردد على بيروت أو الكويت دورياً - للتسوق وتغيير المناخ الطبيعي والاجتماعي. كانت بغداد مُقارنة ببيروت والكويت تبدو أكثر انغلاقا وجدباً، ثقافياً وفكرياً وترويحياً - لسبب أساسي واحد، وهو **غياب "الحُرية"**، لا لغياب المال أو الثروة أو المُبدعين.

في إحدى زياراتي للكويت في أكتوبر، اشتريت **سيارة بيجو**، كان مسموحاً لكل منا باقتناء سيارة خاصة للانتقالات الأسرية، غير السيارة المُخصصة للعمل... وكانت مُناسبة لرؤية بلد عربي إضافي، وكان الأول بالنسبة لي في منطقة الخليج. وهناك التقيت ببعض الأصدقاء والزملاء من سنوات الدراسة في الولايات المتحدة (**عمرو التميمي وحسن الإبراهيم**) أو الذين كنت قد التقيت بهم في بيروت (**عبد الله النفيسي**). كانت زيارتي للكويت في رمضان وكانت مُلاحظتي لا فقط الانفتاح والحُرية والثراء والتنوع والوفرة في الكويت، ولكن أيضاً **نسبة الصائمين الكويتيين العالية، بعكس العراق، الذي نادراً ما صادفت فيه صائماً**، وهو أمر بدا لي شديد الغرابة في بلد عربي مسلم في أغلبيته. ففي المبنى الذي كان مُخصصاً للمشروع وكان به أكثر من مئة وخمسين عراقياً، لم

يكن يصوم منهم غير اثنين أو ثلاثة من الفراشين والسُعاة لدرجة أنني لما فكرت في دعوة المُساعدين العراقيين للإفطار في أحد أيام رمضان اعتذروا جميعاً (خمسين) لأنهم لا يصومون... وكان أن اقترحت عليهم أن يصوموا في ذلك اليوم وهو ما استجاب له نصفهم.

مكنتنا السيارة الخاصة أن أقوم والأسرة بالعديد من الرحلات الداخلية للمدن والمعالم الأثرية والتاريخية في العراق، خلال عطلات نهاية الأسبوع وخلال شهري نوفمبر وديسمبر ـ من كربلاء والنجف والبصرة جنوباً إلى الموصل شمالاً... وكذلك المناطق والمدن الكردية في أقصى الشمال ـ أربيل والسليمانية ودهوك. وفي الثلث الأخير من ديسمبر، حزمنا حقائبنا، وعدنا إلى بيروت، بالطريق البري أيضاً، ورغم أنني كنت قد أقسمت ألا أفعل ذلك بعد خبرة الدخول من سوريا إلى العراق... ومع ذلك مضت الرحلة بشكل أفضل... وصلنا بيروت وقضينا هناك سوياً ليلتين، توجهت بعدهما **باربارا ورانـدا** إلى الولايات المتحدة لقضاء أعياد الميلاد مع آل **ليثم** في بلاتين بالولايات المتحدة... في هذين اليومين قدمت **باربارا** وناقشت رسالة الماجستير في الجامعة الأمريكية في بيروت، وعادت **سعادة** إلى القاهرة، بينما مكثت أنا عشرة أيام إضافية، انتهيت فيها من مُراجعة البروفات النهائية لكتابي الجديد "**كيسنجر وصراع الشرق الأوسط**" والذي كنت قد بدأته في الولايات المتحدة في أعقاب حرب أكتوبر، وانتهيت منه في بغداد... قضيت أعياد الميلاد ورأس السنة مع أسرة **آل حجار**، **وأنطوان زحلان** وأصدقاء آخرين من الذين كنت قد تعرفت عليهم في السنوات الثلاث السابقة.

زواج شقيقي أحمد

تزوج **شقيقي أحمد** في أواخر ديسمبر، وكان قد أحاطني علماً بموعد عُرسه في مصر... وحيث لم أتمكن من حضوره؛ دعوته لقضاء جزء من شهر العسل في بيروت ولبنان، حيث سأكون هناك لعدة أيام، يمكن أن نلتقي فيها، وأتعرف بعروسه "**أميرة**"، وأقدمه لمعارف وأصدقاء لبنانيين، ليهتموا برعايته بعد مُغادرتي للولايات المتحدة... وهو ما كان... وحجزت للعروسين شقة مفروشة في منطقة الروشة... وعرّفتهما على عائلة **حجار**... وتركت له السيارة البيجو، التي أتيت بها من بغداد، لاستخدامها في تنقلاتهما في لبنان، ثم شحنها معهما إلى الإسكندرية... كانت زيارتهما إلى لبنان والسيارة هي هديتي إلى العروسين... كان **شقيقي أحمد** هو الأقرب إلي بين الأشقاء، ربما لأنه يصغرني بأربع سنوات، وعاش معي سنوات أطول... وكنت مُتعاطفاً معه بشكل خاص بسبب

سنوات الخدمة العسكرية الطويلة ـ من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤ ـ فقد كان ضمن المُهندسين الذين جُندوا ضبّاطاً، وكان هو ضمن المجموعة الأولى التي أصبحت نواة سلاح الدفاع الجوي... وهم الذين أبلوا بلاء حسناً، خلال حربي الاستنزاف وأكتوبر. وكانت هذه هي السيارة الثانية التي أقدمها له... كانت الأولى فولكس فاجن، مُستعملة أرسلتها له من جبل طارق عام ١٩٦٨... كانت السلع المُعمرة، وخاصة السيارات ضمن أحلام الطبقة المتوسطة المصرية في الستينيات، وكان شقيقي الأكبر **حامد** من هواة اقتناء السيارات المرسيدس المُستعملة وفي زيارتين لي في عمان (١٩٧٠)، وبيروت (١٩٧٤)، اشترى وشحن في كل مرة سيارة... وكنت سعيداً بالإسهام في تحقيق أحلامهما الاستهلاكية التي كنت أنا قد تجاوزتها منذ سنوات بحكم الإقامة في مجتمع الوفرة الأمريكي الرأسمالي وليس في مجتمع الحرب والندرة والاشتراكية المصري.

١٩٧٥: استقبال أمير سعد الدين إبراهيم مع ثورة طُلابية

عدت إلى الولايات المتحدة في مُنتصف يناير، ومعي جزء كبير من المادة المعلوماتية لمشروع الطاقة البشرية العُليا، للقيام بتحليلها واستخدام حاسوب (كمبيوتر) جامعة ديبوا... وكان مقرراً أن أعود إلى العراق في أوائل صيف ١٩٧٥، لاستكمال مُهمتي في المشروع. قضيت عدة أيام مع أسرة زوجتي في بلاتين... ثم توجهنا معاً إلى جرين كاسل، استعداداً للفصل الدراسي الثاني الذي يبدأ، أول فبراير.

راجعت **باربارا** الدكتور/ **جونسون**، حيث رحلت طبيبتها **د.آن نيكولز**، وكان **جونسون** طبيباً دمث الخلق وممارس عاماً حسن السمعة... وأكد لها أن كل شيء على ما يُرام... وبدأ العد التنازلي، على وضع وليدنا المُرتقب.

في نفس الوقت استأنفت **باربارا** دراساتها العُليا في جامعة إنديانا لاستكمال المناهج المُقررة قبل دخول امتحانات الدكتوراه التحريرية... واتبعت نفس الروتين الذي اعتادت عليه قبل سفرنا إلى بغداد وهو تناوب قيادة السيارة مع زميلة أخرى، هي **شيلا كوير**، التي كانت تدرس الدكتوراه أيضاً ولكن في التاريخ.

كان أحد أسباب الاعتذار عن الاستمرار في بغداد مع مجموعة المشاريع العربية والتنمية إلى نهاية مهامي دفعة واحدة، هو إلحاح أحد زملائي في قسم الاجتماع بجامعة ديبوا، وهو **د.روبرت فورنارو** (R.Fornaro) الذي تقدّم للترقية من أستاذ مُساعد إلى أستاذ مُشارك، وكذلك للتثبيت (Tenure) وقد توجس شراً من بعض زملائه في القسم، في فرع تخصصه وهو الأنثروبولوجيا، حيث لم يكن سراً أنهم لا يُحبونه ويغارون منه. وتصور هو أنني الوحيد الذي يمكن أن

يتصدى لهم ولإدارة الجامعة التي لا تبادله وداً أو إعجاباً. هذا رغم شعبيته الطاغية بين الطلاب كمدرس، ورغم سجله في النشر الأكاديمي حيث كان يبز زملاءه في فرع تخصصه. المهم أن اللجنة الأكاديمية للترقيات، والتي كنت أنا عضواً فيها، أجمعت على التوصية بترقيته. ولكن كان لا بد أن يوافق مجلس القسم، ثم إدارة الجامعة. وفي مجلس القسم، كما توجس **د.فورنارو**، رفض اثنان من الزملاء توصية اللجنة الأكاديمية التي فحصت إنتاجه وسجل خدمته في الجامعة. ولكن خمسة من الزملاء - أي أغلبية الثلثين - أيّدوا توصية اللجنة... ورفع الأمر إلى الإدارة. وتوقعنا أن توافق الإدارة في ضوء توصية المستويين السابقين. صحيح أن أحدهما لم يكن بالإجماع، ولكن ذلك مُعتاد، وخاصة أن موافقة مجلس القسم كانت بأغلبية مُريحة (الثلثين)... ولكن لدهشتنا، رفضت إدارة الجامعة الأخذ بتوصيتي المستويين. وطلب القسم رسمياً في خطاب شديد اللهجة، قمت أنا بصياغة مسودته، التي أقرتها نفس الأغلبية، ورفضتها نفس الأقلية: إعادة النظر في قرارها. وفي مُحاولة لامتصاص غضب أساتذة القسم وطلابه، وعدت الإدارة بعمل اللازم، ووافقت على استقبال وفد من القسم ليعرض على إدارة الجامعة الأسباب التي تبرر تغيير القرار. وبالفعل تكوّن وفد برئاستي، وكان **د.فورنارو** ضمن الوفد للرد على أي مُبررات قد تسوقها الإدارة... واستقبلنا رئيس الجامعة **د.كيرسنستر**، والعميد **فارير**، ورئيس مجلس شيوخ الجامعة بحفاوة. عرضنا سبب اعتراضنا على قرار إدارة الجامعة الذي جاء رافضاً لرأي اللجنة الأكاديمية المختصة ومجلس القسم. تحدث العميد، وأشار إلى أن الإدارة لديها من الأسباب والشكاوي ضد **د.فورنارو** ما جعلها ترفض ترقيته وتثبيته، ولكن الإدارة لم ترغب في تسجيل ذلك كتابة حرصاً على صورة وسُمعة **د.فورنارو**. سألت العميد، حيث أننا في غرفة مُقفلة ومعنا صاحب الشأن، فهل هناك مانع من اطلاعنا على بعض إن لم يكن كل الأسباب والشكاوى. وأصر **د.فورنارو** نفسه على ما طلبته أنا في تحد واضح. قال العميد، وهو يفتح ملفاً سميكاً، لدي ما لا يقل عن عشرين شكوى من أولياء أمور طلاب حول استخدام **د.فورنارو** ألفاظاً نابية تخدش الحياء... فقاطعه **د.فورنارو** وبعبارة نابية تخدش الحياء هي "This is a fucking lie". أسقط في يدنا لوهلة، ولكني كابرت ورددت على العميد، بأن **د.فورنارو** وكل أعضاء هيئة التدريس يقومون بتعليم الطلاب وليس أولياء الأمور... وقد اختار الطلاب **د.فورنارو** كأكثر أعضاء هيئة التدريس شعبية في العام الماضي... فهل لدى الإدارة شكاوى من الطلاب؟ ولحسن الحظ لم يكن في الملف شكاوى من الطلاب أنفسهم. وقد تعلق الوفد بهذه الحقيقة أو هذه القشة ولكن إدارة الجامعة أصرت على التمسك بقرارها.

واقترحت الاحتكام إلى طلاب وأساتذة الجامعة، بعد عرض القضية عليهم: أي طرح مُبرر الجامعة لرفض ترقية **د.فورنارو** للترقية، وذلك في استفتاء علني أو سري. وهنا تدخل رئيس الجامعة لأول مرة بالحديث، حينما رأى العميد في حيرة من أمره تجاه الاقتراح. قال رئيس الجامعة "أن فحوى اقتراحي هو **سحب سُلطات إدارة الجامعة ومنحها للطلبة، وهذه سابقة خطيرة. وحيث أن إدارة الجامعة ليست هيئة منتخبة من الطلبة، أو حتى الأساتذة، فإن الاقتراح مرفوض**"، وقف الرئيس في إشارة بروتوكولية واضحة لانتهاء المقابلة. فخرجنا نجر أذيال الهزيمة... على الأقل في تلك اللحظة... وكنا في نهاية آخر يوم عمل في الأسبوع... فقررنا التشاور خلال عطلة نهاية الأسبوع عما ينبغي عمله.

سيطرت على أعضاء الوفد المهزوم فكرة استفتاء الطلاب... فليس لدينا ما نخسره، ما دامت الإدارة تصر على رأيها، وما دام **د.فورنارو** سيفقد منصبه الأكاديمي في جامعة ديبوا في كل الأحوال... لذلك قررنا مع بداية الأسبوع أن يحكي كل منا قصة اللقاء مع إدارة الجامعة على طلابنا، كل في محاضرته... ثم نعقب ذلك باستفتاء مُصغر، كل في مُحاضرته. فإذا كان هناك إجماع أو أغلبية طلابية رافضة، فليدعو إلى مؤتمر طلابي عام في فناء الجامعة أمام المكتبة للتضامن مع **د.فورنارو**، وإرسال رسالة قوية للإدارة، ومجلس أمناء الجامعة، وأولياء الأمور. وهو ما كان.

تقرر اليوم المؤتمر الطلابي التضامني الحادية عشرة من صباح يوم ١٩٧٥/٤/٩ فقد كانت هذه ساعة حرة لا مُحاضرات فيها... وتقرر أن أكون أنا المتحدث الرئيسي... وتم الإعلان عن المؤتمر داخل الجامعة وخارجها... كانت مثل هذه اللقاءات الطلابية الحاشدة، مُعتادة في الستينات، وكان آخرها في ربيع ١٩٧٠ بمُناسبة أحداث جامعة كِنت (Kent State University)، ضد الحرب في فيتنام. أي أن الطلاب الموجودون في الجامعة في ذلك الوقت (ربيع ١٩٧٥) ليس لديهم خبرة وليس في ذاكرتهم الجماعية كثيراً عن ثورة الطلاب في الستينات، وإن كانوا بالطبع قد سمعوا بها، ومُعظمهم يندم أنه لم يُعاصر التجربة... لذلك كان هناك جو من الحماس والترقب من الطلبة والأساتذة، وكثير من التوجس والقلق من إدارة الجامعة.

في السابعة من صباح اليوم الموعود، استيقظت، لا استعداداً للحدث ولكن على تأوَهات **باربارا** المكتومة... التي حاولت ألا توقظني من قبل ذلك بساعتين، ولكن اشتداد الألم تغلب على قدرتها على كتمانه... اتصلت بالدكتور **جونسون**، الذي أتى مُسرعاً، وطلب على الفور أن ننتقل **بباربارا** إلى المُستشفى. اتصلت

بالجيران لرعاية **راندا**، واتصلت **بوالتر والين**، وأخبرتها بأن اليوم قد يكون هو يوم استقبال المولود الجديد.

في مُستشفى مُقاطعة بوتنام بمدينة جرين كاسل، على بعد ثلاث دقائق بالسيارة من منزلي، تم الاستعداد، وبدأت عملية القلق، وقدر د.**جونسون** أن الوضع سيكون خلال الساعات الثلاثة أو الأربعة القادمة... كنت إلى جانب **باربارا** في المُستشفى... كان الوضع مُتأخراً حوالي أسبوع عما كان مُقدراً له، وذلك بعكس **راندا** التي جاءت مُبكرة بحوالي أسبوعين. وكان الاتفاق أن أحضر عملية الولادة، بل وأساعد الطبيب، وهو ما كان قد رفضه الدكتور **سويدان** في بيروت. في حوالي العاشرة والنصف صباحاً ارتدى د.**جونسون** زي العمليات الأخضر اللون، وأعطتني المُمرضة زياً مُشابهاً... وجرى تعقيمي كلياً، وخاصة اليدين... وبدأت حركة طوارئ مثل تلك التي نراها عادة في الأفلام... وبدأت عملية الوضع، الذي جاء سريعاً وسهلاً نسبياً... وحينما أعلن الدكتور **جونسون** "**أنه ولد**..." (It is a boy) نسيت مُهمتي كمُساعد في عملية الولادة وصفقت في فرحة تلقائية!

كانت **باربارا** نصف مُخدرة، نصف واعية... أخذوا الوليد، وخلال عشرة دقائق كان قد تم تنظيفه، ولفه لفاً مُحكماً... وعادوا به يبكي... كان حجمه كبيراً، ولكنه أصلع، وأذناه كبيرتين، ولكنه مفتوح العينين... وضعوه على صدر **باربارا**، التي بدأت تفيق... قبلتها، وحمدت الله على أن مولودها الثاني جاء ولداً... وهو ما كنت أرجوه أنا أيضاً، رغم أنني لم أعبر عن ذلك لها أو لغيرها علانية... المهم أن **باربارا** تذكرت أنه من المفروض أن أكون في الجامعة لإلقاء كلمتي في المؤتمر... نظرت في ساعتي، وكانت بالفعل الحادية عشرة وخمس دقائق... قلت لها لا بأس من الاعتذار عن المؤتمر كُلية... ولكنها حثتني أن أغادر وأعود بعد ساعة، حيث هي تريد أن تنام وتستريح قليلاً...!.

كان قلق **فورنارو** قد دفعه إلى المرور على منزلي، وعرف من الجليسة أننا في المُستشفى، وفي الحادية عشرة بدأ المؤتمر فعلاً... وأعلنت لجنة المؤتمر أنني مُتغيب حيث زوجتي **باربارا** تضع الآن في المُستشفى... وبالفعل تحدث زميل آخر نيابة عني... لذلك حينما ظهرت في الحادية عشرة وعشرين دقيقة ضج الحشد بالتصفيق الحاد المتواصل، إلى أن هدّأت الطلاب... ثم بدأت الحديث بصوت يفيض تأثراً وانفعالاً... حكيت قصة الصراع مع الإدارة... وتطوره وهو ما كان قد أصبح معروفاً، ولا جديد فيه، سوى صيحتي "**إنكم أيها الطلاب أنتم أصحاب المصلحة الحقيقية في هذه المعركة... وإن الأمر لم يعد مسألة فورنارو، ترقيته أو تثبيته... ولكنها أصبحت معركة إرادة، إرادة الطلبة**

الـذين اختـاروا **فورنـارو**!" وضـج المـؤتمر بالتصـفيق، وترديـد اسـم فورنـارو... فورنارو... وأنهيت المؤتمر في الثانية عشرة، على أن تكون هناك غرفة عمليات مُشتركة من الأساتذة والطُلاب.

وساد هرج ومرج في القسم وفي الجامعة، فقد خلفت استقالات أربعة، وإنهاء خدمة خامس (**فورنارو**) فراغاً هائلاً في قسم الاجتماع، واهتزت الإدارة، ولم تدر كيـف تتعامـل أو تـدير هـذه الأزمـة الطارئـة... وبـدأت المقـالات فـي صـحيفة الجامعة من الأساتذة والطـلاب تنتقد الإدارة وتطالبها بالتراجع عن قرارها بالنسبة للدكتورة **فورنـارو**، من ناحيـة، وتطالعنـا نحـن المستقيلين بـالتراجع عن استقالاتنا من ناحية أخرى... ولكن الأمور كانت تتطور بسرعة.

عـدت بعـد المـؤتمر مُباشـرة إلـى المُستشـفى... وجـدت أن **باربـارا** مـا زالـت مُستغرقة في نومها... توجهت إلى الحضّانات الزجاجية التي يرقد فيها المواليد الجُدد وكانوا لجميعهم أسماء، أولاداً وبناتاً، ما عدا ابننا الذي رفضنا إعطاءه اسماً في حينه... عملاً بتقليد تسميته في "السبوع". لذلك كانت تحته لافتة عليها "**طفل سعد الدين وباربارا إبراهيم**" (Baby Ibrahim). أمعنت النظر إليه بحنان وتـأثر... واسـترجعت مـا فعلـت فـي المـؤتمر الطلابـي، مـن إعـلان اسـتقالتي... وكيف فعلت ذلك بعفوية وتلقائية، دون تفكير مُسبق ودون مُشاورة زوجتي، وأم طفليّ... وكانت لحظات تأملي لابني الوليد مُناسبة لتأملي لذاتي. هذه التلقائية التي تتداخل مع الرعونة، لم تكن الأولى، وربما لن تكون الأخيرة في حياتي... تذكرت مواجهتي الصبيانة مع **عبد الناصر** عام ١٩٥٥، ومواجهتي الشبابية مع **الملك فيصل** عام ١٩٦٦، وتطوعي للكفاح المُسلح مع المُقاومة الفلسطينية عام ١٩٧٠... وتساءلت في حواري الداخلي وأنا أنظر لمولودي يا ترى هل أظل تلقائياً / أرعن، حتى وصول الطفل الثاني؟ أفقت من خواطري على تعليق بعض زوار المُستشفى وهم يُشيرون إلى ابني "هذا الطفل الغريب أو المضحك" (Have you seen this strange – looking baby? Have you seen this funny creature? Come look at this interesting one!)، كنت أبتسم... ولم أغضب أو تأخذني العزة بالإثم... وفي نظري، طبعاً، كان ابني يبدو جميلاً وقوراً (ربما بسبب صلعه)، وتذكرت المثل الدارج في مصر "**القرد في عين أمه غزال**".

قطعـت أحـد المُمرضـات حبـل خـواطري، حينمـا أخبرتنـي أن زوجتـي قـد استيقظت وسألت عني وعن وليدها... دخلت إلى حيث كانت ترقد... قبّلتها، وجلست إلى جانبها... سألتني عن ابنتنا **راندا**، التي كنت قد أخذتها معي إلى المؤتمر، وأعدتها إلى المنزل للجليسة (Baby– Sitter)... وعما إذا كنت قد رأيت ابني. أجبت على أسئلتها... ثم سألتني عن المؤتمر، وهل لحقت به، وماذا تم

فيه؟ أجبت على هذه الأسئلة، ولكني ترددت في إخبارها بإعلان استقالتي من الجامعة.

كنت ما زلت مع **باربارا** حينما وصل **والتر وايلين**... كانت الساعة حوالي الرابعة مساء. رحبت بهما، وتركتهما مع **باربارا** والوليد، وعدت للمنزل لكي أكون مع **راندا**، التي كان عُمرها قد تجاوز السنتين بأقل من شهر... لعبت معها... إلى أن وصل جدّها وجدّتها، ومعهما لعب كثيرة لها... وكذلك ملابس وأشياء للمولود الجديد... وكانت **باربارا** تتصل بنا كل ساعتين، بين نوبات الرضاعة... وتحدثت مرتين مع **راندا**... التي لم تعِ تماماً ما يحدث... وإن كنا قد حاولنا إعدادها تدريجياً، دون أن يكون لدينا وسيلة لمعرفة ما إذا كانت قد استوعبت شيئا على الإطلاق... ولكن من المؤكد أنها أدركت أن هناك شيئاً على هيئة لعبة الـ baby أو العروسة التي تلعب بها... وكانت شركات لعب الأطفال قد أنتجت مع هذا الوقت أنواعاً من الدمى التي يمكن أن "تبكي" و"تضحك" وحتى "تتبول" مثل "الرضيع" وقد أحضر **والتر وايلين** مثل هذه اللعب الطريفة، والتي اندمجت **راندا** معها طوال اليومين اللذين غابت فيهما أمها عن المنزل.

حينما عادت **باربارا**، قابلتها **راندا** بشيء من البرود، أو عدم الاكتراث... إلى أن أوهمتها أمها أنها أحضرت لها لعبة "**أخ**"... واهتمت **راندا** لعدة دقائق ثم انصرفت للعب الحقيقية، ونسيت اللعبة الحية الجديدة التي أطلقنا عليها "الأخ الرضيع" (Baby- Brother)... كنت أنا و**باربارا**، بناء على معرفتنا العلمية في علم الاجتماع والنفس، على دراية باحتمالية أن يكون رد فعل **راندا** تجاه الوافد الجديد أكثر عدوانية ورفضاً مما حدث بالفعل، وأرجعنا ذلك لاستمرار الاهتمام بها وجعلها في بؤرة الرعاية... وقد كان هذا دوري بشكل خاص مع "**سوزان**" الجليسة، أثناء انشغال **باربارا** برعاية الرضيع. تركنا **والتر والين** بعد يومين على أن يعودا مع **تروي** لمُناسبة السبوع الذي سيُجرى فيه تسمية الوليد.

ولأن حكاية السبوع قد شاعت معرفتها بين كل أصدقائنا وطلابي في جامعة ديبوا، فقد كان هناك رغبة في المشاركة أو الفرجة على هذا الاحتفال الفولكلوري الريفي المصري، وفي يوم ١٦/٤/١٩٧٥، تم الاحتفال بحضور عدد غفير من الأقارب والأصدقاء والجيران والطلاب... ولأن الجو كان ربيعاً ومُشمساً، فقد تم الاحتفال في الهواء الطلق في الحديقة الخلفية للمنزل. وكنت مع **باربارا**، وشقيقتها، **نانسي** وشقيقها **تروي**، وآخرين قد اخترنا سبعة أسماء، تشترك في سهولة النطق وجمال الوقع، وترتبط بأشخاص نعرفهم في الواقع أو بالسماع - مثل **كريم**، **شريف**، **أمير**، **رمزي**، **تامر**، **وياسر**. وأضيئت الشموع السبع التي يحمل كل منها أحد تلك الأسماء، ذات الموسيقى، وتحمست كل مجموعة من

المُشاركين لأحد الأسماء... وفي النهاية فازت شمعة "**أمير**"، وأصبح هذا هو اسم طفلي الثاني، ولدي الأول، وقد تصادف أن ذلك كان اسم زميل لي في الجامعة وهو د.**أمير رأفت** أستاذ العلاقات الدولية، وهو من إيران... ورغم أنه لا يُشبهني، وليس له لحية مثلي، إلا أن مُعظم أهل المدينة الصغيرة جرين كاسل، بما في ذلك مكتب البريد كانوا كثيراً ما يخلطون بيني وبينه!. وكان أمير رأفت أحد الحضور، وتأثر كثيراً لتسمية طفلي باسمه.

كانت أخبار استقالتي من الجامعة قد بلغت **باربارا**، وطلب منها الأصدقاء من هيئة التدريس أن تقنعني بالتراجع عنها. ولكن **باربارا** لم تفاتحني في الموضوع، إما انتظاراً لمُبادرة مني في هذا الصدد أو لانشغالها بالوافد الجديد، واحتفال السبوع... ولكن حدث خلال الأسبوع التالي لإعلان استقالتي وميلاد **أمير**، تطوران هامان أولهما، وصول خطاب من الجامعة الأمريكية في القاهرة يعرض عليّ العمل فيها ابتداء من العام الدراسي التالي، أما التطور الثاني فقد كان خطاباً من مصلحة الهجرة والتجنيس الأمريكية، يُخبرني أنني استوفيت كل شروط الحصول على الجنسية الأمريكية لذلك بعد أن فرغنا من احتفالات السبوع، وانصراف كل الضيوف خلونا إلى أنفسنا نحن الأربعة فقط **باربارا، وراندا، وأمير**، وأنا - ربما لأول مرة... وبعد أن وضعنا **راندا**... و**أمير** في فراشهما (كان أمير يشاركنا نفس الفراش)، أشعلت **باربارا** شمعة واحدة، وأحضرت كأسين من الروزيه البرتغالي، الذي أتانا ضمن الهدايا العديدة، وأدارت موسيقى هادئة، وأطفأت الأنوار، وجلست بجانبي، وأمسكت بيدي... ومرت دقائق لم نتحدث فيها بالكلمات... ولكن بأنفاسنا ودقات قلبينا تكاد تسمع في هدوء الليل الذي لفنا ولف المكان كله... وتبادلنا قبلة حارة على الشفاه، ربما لأول مرة منذ مدة، بدت لي طويلة... بعدها سألتني عما أفكر فيه... وجاءت المُناسبة لأحدثها عن... إعلان استقالتي من الجامعة بعد ميلاد **أمير** بساعة واحدة... وأنني آسف لعدم أخذ رأيها مُقدماً، أو إخبارها لاحقاً! وفاجأتني بأنها علمت بموضوع الاستقالة في اليوم التالي، حين توافد المُهنئون بميلاد **أمير**... أما المُفاجأة الثانية، فهي أنها لم تندهش لما فعلت... بل أنها شعرت بالفخر لهذا القرار الشجاع، وأنه ربما لو كنا تداولنا بشأنه، لما كان له نفس الوقع الذي اهتز له الجميع ! وتنفست الصعداء!!... وسادت لحظة صمت طويلة ... كنت أتوقع أن تسأل عن المُستقبل، ولكنها لم تفعل... ومن ناحيتي لم أبادر... ولا أدرى تماماً لماذا... وكان هناك تواصل صامت... مفاده أننا ما دمنا معاً، ومعنا طفلانا، ونحب بعضنا، فإن المُستقبل سيكون على ما يُرام! ولكن "ذلك إغراق في الرومانسية، لا يطعم الأفواه، ولا يكسي الأجساد!" وبالقطع هي تدرك أننا لن

نموت جوعاً، أو نشرد... سألتها هل هي قلقة حول المُستقبل... ردت بصوت خافت "قليلاً... فقط قليلاً" ضممتها، وقبلتها... وأخبرتها عن البدائل في الأمدين القصير والمُتوسط... قالت دعنا نأوِ إلى الفراش، وغداً نتحدث.

كانت البدائل هي: ١- أن أسحب استقالتي وأستمر في عملي في جامعة ديبوا، ٢- أن أقبل العمل الاستشاري كل الوقت في مجموعة "المشاريع والتنمية العربية" وهو ما كانت المجموعة تتمناه وبراتب يفوق ضعف مُرتب الجامعة، و ٣- قبول عرض الجامعة الأمريكية في القاهرة. وعلى الإفطار في صباح اليوم التالي تحدثنا عن البدائل الثلاثة وكانت هي تميل للبديلين الثاني والثالث، وتعتبر البديل الأول تراجعاً عن موقفي المبدئي في مُناصرة زميل وقع عليه ظلم فادح، وكيف سيبدو ذلك أمام طلابي؟ الشرط الوحيد الذي فتح التفكير في هذا البديل هو تراجع الجامعة عن موقفها وترقية وتثبيت **روبرت فورنارو**. أما بالنسبة لبديل المجموعة الاستشارية فقد كان ينطوي على فكرة الإقامة الأطول في الوطن العربي بين بيروت وعواصم عربية أخرى حسب توفر المشروعات التي تكلف بها المجموعة مثل مشروع المواصلات في السودان، ومشروع تنمية الطاقة البشرية العُليا في العراق... وعبّرت صراحة عن تفضيلها للبديل الثالث وهو الجامعة الأمريكية بالقاهرة، خاصة أنه يعني عودتي إلى الوطن، وهي تعرف أن ذلك حلمي، ويعني نشأة **راندا وأمير** في مصر، وسط الأهل والأقارب ، فضلاً عن أن هذا البديل، يُسعدني ولا يُحرم المجموعة الاستشارية العربية من مُساهماتي، ولكن بشكل جزئي، كما هو حادث بالفعل، أسعدني سماع هذا كله من **باربارا** ، وأصبح ذلك هو البديل المُرجّح. وقد حسم الأمر قبول **د.فورنارو** لتسوية أو تعويض مالي ضخم من الجامعة، تحاشياً للتقاضي في المحاكم، كما شجّعه على ذلك عرض التدريس من أحد جامعات ولاية آلاباما، حيث أسرة زوجته ... كان **فورنارو** خفيف الظل، ومُعلماً من الطراز الأول، ولكنه كان أيضاً براغماتياً (انتهازياً) لا مانع عنده من تحريض الآخرين لخدمة مبادئهم، إذا كان ذلك يخدم مصلحته، ولكنه كان يفخر علانية بأنه غير مُستعد للتضحية بأي شيء من أجل المبادئ... وكانت عبارة الجنرال **باتون** لجنوده (إياك أن تستشهد طواعية من أجل الوطن، ولكن ساعد جنود العدو للموت في سبيل وطنهم) (Let the enemy solider die for his country) وكانت هذه الحقيقة المعروفة عن شخصية **فورنارو**، أحد أسباب عتاب بعض الأساتذة المُخضرمين من خارج القسم، لي على التضحية من أجل شخص ليس على استعداد للتضحية من أجل أي مبدأ أو قضية. وكانت إجابتي هي أنني لم أضحِ من أجل **فورنارو**، ولكن من أجل العدالة الأكاديمية.

رسالة من أسامة الباز: لا طعم أو لون أو رائحة

كان **أسامة الباز** من أهم الشخصيات الطلابية الذين توثقت صلتي بهم منذ بداية الستينات في الولايات المتحدة، وتحديداً منذ انتخابي رئيساً للطلبة المصريين في ربيع ١٩٦٤... كان **أسامة** قريباً جداً من قضية فرض الحراسة، حيث كان واحداً من ثلاثة أو أربعة مصريين في الولايات المتحدة يعرفون بما حدث لي عام ١٩٦٦... وظل مُتابعاً مع **د.كمال أبو المجد** والسفير المصري **د.مصطفى كامل**، تطورات هذا الملف إلى أن عاد ثلاثتهم إلى مصر في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ـ على التوالي. وبعد عودته كان يكتب بين الحين والآخر من مصر عن تطورات ومُستجدات ملف الحراسة. لذلك حينما ألغى الرئيس **السادات** إجراءات الحراسة عليّ وغيري، كتب **أسامة** خطاباً من ستة صفحات فولسكاب، بخط عربي جميل اشتهر به. هنأني بالقرار، ثم قدم سلسلة من النصائح والوصايا، في حالة عودتي إلى البلاد. أهمها هو ألا أتعجل خوض الحياة العامة في مصر في السنة الأولى لعودتي، بل أقضيها في الاستقرار، والمُتابعة، والملاحظة عن بعد، دون الاقتراب من المسؤولين، بالقول أو الفعل. ثم في السنة الثانية، أبدأ في الكتابة في الصحافة في موضوعات غير خلافية، كنوع من تقديم نفسي تدريجياً للرأي العام. ثم أنتظر بعد ذلك إلى أن يطلب مني المسؤولون "الاقتراب"، أو من خلال تكليفي بمهام هنا وهناك، وعليّ في هذه الحالة أن أقوم بما أكلف به في سرية وإتقان، ودون انتظار مُكافأة أو جزاء، ودون إلحاح في القيام بدور مُعين. محاذراً من نقد أي قيادة أو أي سياسة، أو التطوع برأي إلا إذا طُلب مني ذلك، كذلك كانت إحدى الوصايا ألا أكون جزءاً من "شلة" أو أن يُعرف عني أنني جزء من شلة.

وخلصت من الرسالة التي جاءتني من الصديق **أسامة الباز**، أن ثمن الرغبة في العمل السياسي هو أن أكون **بلا طعم أو لون أو رائحة**، ورغم حب وإخلاص صاحب الرسالة فيما قاله إلا أنني خلصت أيضاً إلى أنه خلط بين العمل العام مع المجتمع والعمل السياسي مع النظام الحاكم. ولأن **أسامة** كان يصف فعلاً النظام الحاكم بدقة، **فقد قررت ألا يكون دوري العام مُرتبطاً بالسُلطة، أي سُلطة**، وأن يقتصر على دور المُثقف الناشط في الحياة العامة.

بدايات الحرب الأهلية في لبنان

وقعت مُصادمات مُسلحة بين بعض فصائل المُقاومة الفلسطينية وميليشيا حزب الكتائب اللبنانية... وكان وما يزال حزب الكتائب اليميني، والذي تأسس

على منهج الأحزاب الفاشية الأوروبية (مثل النازي في ألمانيا والفلانج في أسبانيا) يعتبر نفسه الحارس الأمين على "لبنان" بهويته الفريدة في منطقة الشرق الأوسط - من حيث مسيحيته، وديمقراطيته، وعلاقته الخاصة بالغرب عموماً، وبفرنسا، الأم الرؤوم خصوصاً. وكان الحزب يُعارض الوجود الفلسطيني، الذي بدأ بلاجئي ١٩٤٨، مُضافاً له فصائل مُسلحة منذ عام ١٩٦٥، ثم تكثف هذا الوجود المُسلح بعد أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠، وشعر حزب الكتائب أن "لبنانه"، بخصوصيته "الفريدة"، كما كان يصفها الشيخ **بيير الجميل**، مؤسس الحزب، بات يهدده "الغرباء"، وصاحب هذا التوجس اللبناني الماروني المسيحي الكتائبي، تصعيد في تدريب وتسليح كوادره وشحن أيديولوجي طائفي وطني ضد الفلسطينيين، وكنت قد رأيت مُقدمات الصدام في ربيع ١٩٧١ بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية. وكانت هذه الأخيرة تكسب في العادة المعركة السياسية داخلياً بتأييد المسلمين والأرثوذكس اللبنانيين لها، وإقليمياً بمُساندة الرأي العام العربي لها، ويبدو أن حزب الكتائب قرر أن يجنب الجيش اللبناني حرج المواجهة مع الفلسطينيين، فقام هو بها مُباشرة... ولم يُدرك الكثيرون أن الصراع الذي حدث بين الطرفين في أبريل ١٩٧٥، سيتحول إلى حرب أهلية مُمتدة تدوم خمسة عشر عاماً، وتدخلها أطراف عديدة، وتتغير فيها التحالفات مراراً، وتتخللها فترات هدنة طويلة. وكانت فترات الهدنة هذه - أسابيع أو شهورا - فرصةً لأعود خلالها إلى لبنان زائراً. فقد كان هذا البلد، منذ وطأته أقدامي لأول مرة عام ١٩٦٩، يتمتع بسحر وجاذبية لا تقاوم. وفي ذلك ربما كان الشيخ **بيير الجميل** صادقاً وصائباً حول الخصوصية "الفريدة" للبنان.

العودة إلى مصر عن طريق العراق

أخبرت **باربارا** بخطاب مصلحة الهجرة والتجنيس الأمريكية باستحقاقي الحصول على الجنسية الأمريكية ... لم تبدِ بهجة ولا امتعاضاً، ولكنها سألت سؤالين أحدهما خاص بتأثير حصولي على الجنسية الأمريكية على دور مُتوقع لي في الحياة العامة المصرية والسؤال الثاني كان حول شروط حصولها هي أيضاً على **الجنسية المصرية**. كانت الإجابة على السؤال الأول سهلة نسبياً - فهي حسب نوع الدور الذي أريده في الحياة العامة المصرية والعربية، وهو دور قررت أنا منذ عام ١٩٦٦ أن يكون مقصوراً على الدعوة للديمقراطية وحقوق الإنسان، والبحث العلمي التطبيقي، دون طموح أو سعي لمنصب سياسي... أما بالنسبة لشروط حصولها على الجنسية المصرية فهي مسألة مُمكنة لمن تتزوج من مصري، وبعد الإقامة الدائمة لثلاث سنوات في مصر على الأقل... تذكرنا

معاً المشهد المُتكرر على الحدود العربية حيث يُحترم جواز السفر الأمريكي أكثر مما يُحترم أي جواز سفر عربي! بعد أخذ ورد، قررنا **أن تحصل الأسرة كلها على الجنسيتين المصرية والأمريكية، ما دام القانون المصري يسمح بذلك.**

وهكذا كان شهر أبريل ١٩٧٥ شهراً حافلاً بالأحداث والقرارات التي ستؤثر في حياتي وحياة أسرتي بقية حياتي. كتبت بالموافقة على عرض الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وعلى الحصول على الجنسية الأمريكية، والتقدم بطلب لحصول **باربارا** على الجنسية المصرية، وكذلك لطفلينا **راندا وأمير** على الجنسيتين وجوازي سفر مصري وأمريكي لكل منهما... وهكذا أصبحنا على طريق ازدواج الجنسية، ونحن في طريقنا إلى مصر والوطن العربي، إذ بدأت في هذا الشهر أحداث قتال لبناني فلسطيني.

كان شهري مايو ويونيو مرحلة تصفية وتقفيل مهامي في جامعة ديبوا وجرين كاسل، استعداداً للعودة "النهائية" إلى الوطن... طبعاً كنت أدرك أن علاقتي بأمريكا ستستمر من خلال أسرة زوجتي ودراستها للدكتوراه في جامعة إنديانا هذا فضلاً عن طُلابي وزملائي وأصدقائي الأمريكيين ومع ذلك كنت أشعر أنني أودّع مرحلة هامة من حياتي، وعلى وشك أن أبدأ المرحلة الأهم من حياتي.

كان لدي التزام قائم مع المجموعة الاستشارية "المشاريع والتنمية العربية" لاستكمال المهام الموكلة إليّ في مشروع تنمية الطاقة البشرية العُليا في العراق... وكانت **باربارا** تريد أن تنتهي من بقية المناهج المُقررة للدكتوراه في جامعة أنديانا، على أن تستكمل العمل الميداني للرسالة في مصر. وهكذا تركتها في جرين كاسل، وعدت إلى بيروت ومنها إلى بغداد. واتفقنا على أن نلتقي في نهاية الصيف في بيروت، ومنها إلى القاهرة.

في مواجهة صدام حسين

كان العمل في مشروع الطاقة البشرية قد تجاوز ثلثيه... أما المهام الخاصة بي فقد كانت أربعة أخماسها قد أنجزت، وكان خمسها الأخير هو ما خططت لإنجازه خلال شهور الصيف الثلاثة... ولأنني كنت أدرك أنني في طريقي بعد ذلك إلى وطني مصر... وكان لدي شوق شديد لذلك، فإنني لم أضيع وقتاً في البحث عن سكن لمدة الشهور الثلاثة التي كنت سأقضيها في بغداد، وقررت الإقامة في فندق الرشيد... وبعد شهر تقريباً التحق بي في نفس الفندق **د.أنطوان زحلان** وعروسه، الزوجة الجديدة، وهي **روز ماري سعيد**، شقيقة المُفكر الفلسطيني **إدوارد سعيد**، والتي كنت أعرفها منذ الوقت الذي قمت فيه بالتدريس

في الجامعة الأمريكية ببيروت في العام الدراسي ١٩٧٣/١٩٧٢... احتفل فريق العمل في المشروع بالعروسين في حفل بسيط في الفندق... وأدركت طبعاً كيف كانت هناك قصة حب قائمة منذ سنوات... وكانت آن زوجته الأولى قد شعرت طبعاً بذلك. ورغم تلميحها لي بذلك في زيارتي لبيروت في ربيع ١٩٧٤، وهي تلاحقني، كما لتزيح أي شعور بالذنب من جراء علاقة حميمة محتملة!.

كان الجزء الأخير من مهمتي هو إعداد خطة لاجتذاب الكفاءات العلمية والتقنية العربية الرفيعة. وقد بُنيت هذه الخطة على استخلاصاتي من الدراسات الميدانية داخل العراق للكفاءات الموجودة بالفعل وشروط بقائها، ثم في الوطن العربي خارج العراق، حيث توجد هذه الكفاءات ولكنها غير مُستخدمة استخداماً أمثل أو غير راضية عن ظروف عملها ومعيشتها، وأخيراً الكفاءات العربية في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة وكندا، وبريطانيا وألمانيا، والشروط المُثلى لترك مواقعها في هذه البلدان والتوجه للعمل والإقامة في العراق. وكانت الخطة التي اقترحتها تقوم على أربعة محاور الأول، مادي، وهو التعويض المادي، بحيث يكون مُجزياً للغاية، بحيث يكون ضعف أو ثلاثة أمثال ما يحصل عليه صاحب الكفاءة المطلوبة في الخارج، مع ضمانات إدخال أسرته ومنقولاته، بما في ذلك سيارة، مُعفاة من الجمارك. أما **المحور الثاني فكان مهنياً**، ويقوم على أساس توفير كل مُستلزمات الإشباع المهني من معامل ومُساعدين، ومراجع ودوريات علمية، وحضور المؤتمرات والندوات في مجال التخصص. وكان **المحور الثالث قانونياً**، وهو منح من يريد من هذه الكفاءات **الجنسية العراقية**، دون التخلي عن جنسيته العربية الأخرى أو جنسيته الغربية إذا كانت لديه بالفعل. وهو ما يعني علمياً أن بعض هذه الكفاءات يمكن أن تكون مُزدوجة أو ثلاثية الجنسية. أما **المحور الرابع** فقد كان يتعلق **بحرية السفر وتحويل العملة والاحتفاظ بحسابات في بنوك أجنبية.**

وتمت الموافقة على الخطة التي اقترحتها من حيث المبدأ، وجرى تحويلها إلى تفصيلات إجرائية وقانونية... وقد أسعدني ذلك، وبدأنا بالفعل في صياغة قانون "تشجيع جذب الكفاءات العربية" وكان أحد التمهيدات لذلك هو إصدار قانون يسمح لأي عربي الحصول على الجنسية العراقية، بمُجرد دخوله العراق، وتقدمه بطلب للحصول على هذه الجنسية، خلال عام من إقامته فيها... ثم أصدرت الحكومة قانون جذب الكفاءات العربية، ولكن بدون كل عناصر المحورين الثاني والرابع. **فلم يستطع أو لم يطِق النظام العراقي إطلاق "الحُريات" بالنسبة للكفاءات على النحو الذي كان في ذهني**... وقد قررت أن القانون بشكله الأعرج الذي صدر به لن يجذب إلا ثلث العدد المُستهدف،

وسيجذب كفاءات من الدرجة الثانية... ومع ذلك فقد أدركت أن هذه هي الحدود المسموح بها في نظام البعث الحاكم... ورغم قصوره عما كنت أتمناه حقيقة لهذا البلد العربي، الذي بدا لي واعداً في ذلك الوقت. وأحسست بالرضا واكتمال مُهمتي في العراق.

وفجأة أزعجني قلق النظام العراقي من حرية الحركة والسفر التي كان يتمتع بها أعضاء فريقنا نفسه، منذ بداية المشروع قبل عامين. بدأ التضييق بأن نطلب تصريحاً من السلطات العراقية قبل السفر إلى الخارج كل مرة، سواء كان ذلك بطريق الجو أو البر. وكان أعضاء الفريق من غير العراقيين قد تعودوا على السفر إلى بيروت أو الكويت كل أسبوعين على الأكثر. وانزعج أفراد الفريق لذلك... ولكن هذا الانزعاج تحوّل إلى ذعر، حينما صعّدت السُلطات العراقية وجعلت الحظر على حركة أعضاء الفريق، فلا يتحركون إلا بتصريح، حتى للتنقل خارج بغداد أيضاً. ووصل هذا الذعر إلى أقصاه مع عروس الدكتور **أنطوان زحلان الجديدة**... فقد فسرت **روز ماري سعيد** هذه الأوامر الجديدة بمثابة "**اعتقال**"، وربما يتلوه تصفية لأعضاء الفريق جسدياً، وفي مُقدمتهم رئيس المجموعة الذي هو عريسها **طوني**! وصل الذعر بـ**روز ماري**، وهي من الأرستقراطية الفلسطينية المقدسية وشقيقة الأستاذ الأمريكي الفلسطيني المعروف **إدوارد سعيد**... تزوجت **روز ماري** على كبر، حيث كان عمرها عند الزواج قد قارب الأربعين... ولذلك كان حبها وحرصها على زوجها يكاد يكون مرضياً... وكان في رأيي رمزاً لإحساس عميق بعدم الأمان.

فوجئت ذات صباح **بطوني زحلان** يوقظني ويستدعيني لغرفته... وتوجهت إليه لأجد **روز ماري** في حالة هيستيرية بسبب الإجراءات العراقية بخصوص السفر والانتقالات... وفهمت من زوجها أنه يُحاول تهدئتها منذ الليلة السابقة... وأنهما لم يناما بسبب ذعرها، كما لو كانت ستعدم خلال ساعات أو حتى دقائق! حاولت تهدئتها... وكان بيني وبينها ود قديم... وكثيراً ما كنت أداعبها وأشاكسها... وأكدت لها (دون أن أكون مُتأكداً) أن القرارات العراقية الأخيرة لا تخص "زوجات" أعضاء الفريق أو ذويهم... وبالتالي، تستطيع هي أن تغادر في أي وقت إلى بيروت... فردت عليّ بذعر، "تقصد أن أذهب بدون **طوني**؟" فقلت لها "نعم، وتأتين أنت كل أسبوع أو أسبوعين"... فصاحت في وجهي مستهجنة الفكرة... إذ كيف تترك **طوني** وحده للوحوش يفتكون به في بغداد؟ قلت "إذن، ابقي معه في بغداد حتى لا يفتكوا به" قالت في وجهي وهي تصرخ "الآن، أعرف أنك تهزل!"... وهكذا كُلما حاولت أن أقول شيئاً لتهدئتها، أتت بنتيجة سلبية، ضاعفت من هياجها وصراخها...

كنت أجلس على فراشهما، قرب التليفون، ووقع بصري على دليل التليفون، الذي نُزع غلافه... ورأيت في الصفحة الأولى اسمي ورقمي هاتف كلٍّ من: الرفيق **أحمد حسن البكر**، وتحته مُباشرة الرفيق **صدام حسين**. وكان الجميع يعرف أن الذي يحكم العراق فعلاً هو نائب الرئيس الرفيق **صدام حسين**، قلت: "دعيني أتحدث إلى **صدام حسين**". فصاحت في مرة أخرى أن أكف عن هذا "الهزار البايخ" ... قالت ذلك أثناء إدارتي لرقم هاتف **صدام حسين** المطبوع في الدليل.

ولدهشتي رد عليّ صوت، سألته، عما إذا كان ذلك مكتب الرفيق **صدام حسين**... أجاب الصوت: نعم أنا هو... سألت: أنت هو من؟ قال الصوت بنبره تعرفت عليها "أنا **صدام حسين**"... أسقط في يدي، وقلت في ذهول تلقائي "ما هذا؟ هل نحن في زمن **عُمر بن الخطاب**، أم **عُمر بن عبدالعزيز**؟". سمعت ضحكة على الخط، وسألني صاحب الصوت بلهجة عراقية "الأخ من مصر، أليس كذلك؟" قلت نعم... قال **صدام** بلهجة مصرية "أي خدمة" قدمت نفسي، وشرحت باختصار ماذا أفعل أنا وزملائي في العراق... وما هي مُشكلتنا... ورد **صدام**، بأن أحضر إلى مكتبه ومن يرغب من الفريق. وسألت: متى؟ ورد "الآن..." طلبت أن نكون عنده خلال ساعة... ورد بأنه "لا مانع"، وسألت عن مكان الاجتماع، ورد بأن مكتبه في "**المجلس الوطني**".

وضعت سماعة الهاتف، وأنا مازلت مذهولاً... ولاحظ **طوني** الذهول على وجهي، بينما كانت **روز ماري** ما زالت مُنهمكة في هيستريتها. استجمعت وعيي... وقلت بصوت يختلط فيه الذهول بالحسم: توقفي يا **روز ماري** عن هذا الهياج. لقد تحدثت مع **صدام حسين**، وهو في انتظارنا لمناقشة المشكلة... صاحت بصوت أعلى "**أن أرحمهما وأكف عن هذا الهزل**..." تركتها لحالها، وبدأت في توجيه كلامي **لأنطوان زحلان** أن يستعد في خلال عشرة إلى عشرين دقيقة لمُقابلة **صدام حسين** معي في الحادية عشرة، أي بعد خمسين دقيقة... لم يُصدقني **طوني**، واعتقد أنني ما زلت أتحايل لتهدئة **روز ماري**... ولكن حينما بدأ صوتي يرتفع وتأكيداتي بالجدية... استجاب تدريجياً، طالباً مني أن أعيد على مسامعه المُحادثة التليفونية مع الفريق **صدام حسين**... وفعلت... فقال ومن تقترحه لحضور اللقاء... فقلت نحيط كل أعضاء الفريق علماً، ونترك الحُرية لمن يُريد.

وصلنا إلى مبنى المجلس الوطني العراقي (البرلمان)، الذي كان يتخذ منه **صدام حسين** مقراً لمكتبه. كان يتقدمنا **زحلان**، **وجورج عبد** (مُدير المشروع)،

وأنا، ود.**عاطف القبرصي** (أستاذ اقتصاد لبناني - كندي)، وكنا في أواخر شهر يوليو (تموز). كان **زحلان** يُخطط لكل شيء، حين صدّقني أننا سنقابل **صدام**، قام بتصور كيفية إدارة اللقاء، يتحدث هو في البداية، شاكراً للفريق مقابلتنا رغم جسامة أعبائه، وضيق وقته، ثم يُعطي فكرة عامة عن المشروع. وبعده يتحدث **جورج عيد**، عما تم إنجازه في المشروع، ثم أتحدث أنا عن المُشكلة التي طرأت في الأيام الأخيرة، وأهمية حلها فوراً، وكان الاتفاق ألا يتحدث أي منا أكثر من خمس دقائق في الجولة الأولى للحوار، وحتى يتضح لنا الوقت المسموح به. فإذا اتسع الوقت يقوم كل منا بالتفصيل، وكان الدور المُخصص **لعاطف القبرصي**، هو تسجيل وقائع هذا اللقاء التاريخي، ثم التذكير بأي نقاط، نسيها أي منا.

مررنا بعدة نقاط حراسة (ثلاثة على الأقل) بين البوابة الخارجية لمبنى المجلس الوطني، وباب البناية التي يوجد في طابقها الثاني الفريق **صدام**. ومع دخولنا من باب البناية تم تفتيشنا تفتيشاً إلكترونياً، ثم تفتيشاً ذاتياً... وكان ذلك يتم بأسلوب مُهذب، مع الاعتذار المُسبق بأن ذلك لدواعٍ أمنية، مع رجاء من يقوم بالتفتيش أن نتفهم ونُسامح! رافقنا إلى الطابق الثاني أحد المسؤولين بزي مدني، حيث أسلمنا إلى مكتب سكرتارية "الرفيق"، الذي كان يجلس فيه ثلاثة رجال، بزيهم المدني الأنيق، وشواربهم الكثة، التي يتشابه بها مُعظم الرجال بشارب وتسريحة شعر الرفيق **صدام**. طلب لنا شاياً، أتانا في الأكواب الزجاجية الصغيرة وشائعة الاستخدام في العراق ومنطقة الخليج... ثم قام أحدهم بقيادتنا إلى مكتب آخر، داخلي، حيث أسلمنا لشخص واحد، يجلس في هذا المكتب بمُفرده، كان واضحاً أنه السكرتير الشخصي للرفيق، حيث كان أكثر بشاشة، ودعانا للجلوس دقائق، قدمت لنا فيها القهوة العربية (الهال) في فناجين صغيرة. وفي المكتبين الأخيرين لاحظت وجود ما يُشبه عدسات كاميرات في السقف... لم يكن أعضاء الفريق يتحدثون مع بعضهم خلال هذه المراحل والخطوات السابقة لأخذنا إلى مكتب الرفيق... كان هناك رهبة تُحيط بالمكان، ضاعفت الصمت من وقعها. وقطعت الصمت والرهبة بسؤال السكرتير الشخصي عن الوقت المُحدد للقاء... فقال أنه لا يعلم، وأن ذلك متروك كلية للسيد/ الرفيق/ النائب.

وأخيراً، فتح باب مكتب ما اعتقدنا أنه السكرتير الخاص، إلى مكتب داخلي آخر، كان صاحبه هو السكرتير الخاص للرفيق، لم يدعونا للجلوس في مكتبه الأكبر والأفخم من المكتبين السابقين، ولكنه أخذنا مُباشرة إلى مكتب الرفيق، الذي كان واقفاً لاستقبالنا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. وقدم كل منا نفسه بالاسم، والعمل، والبلد الذي ينتمي إليه - كما كنا قد اتفقنا - دعانا **صدام** للجلوس

على كنبتين كبيرتين يتوسطهما كُرسي مُنفرد ضخم فخم، كان من الواضح أنه كرسي الرفيق، الذي لم يعد إلى مكتبه ذي الأدراج، الذي توجد عليه الملفات. وفعلاً جلس **صدام** على الكرسي المنفرد، وجلست أنا و**زحلان** على يمينه، وجلس **جورج** و**عاطف** على يساره. شكر **زحلان** وقدم فكرة المشروع في ثلاث دقائق، وتحدث **جورج** عما أنجز في ثلاث دقائق... أي في أقل من الوقت الذي اتفقنا عليه. وجاء دوري، فبدأت بسؤال الرفيق عن الوقت المسموح لنا به... ابتسم الرجل، وقال كل ما تبغونه من وقت... فقد انتهينا من **احتفالات شهر تموز**... وعدنا للعمل، ومشروع الطاقة البشرية من أهم ما نهتم به. شجّعني ذلك أن أسترخي قليلاً، وتقدمت له بكتابي الذي كان قد صدر حديثاً "**كيسنجر وصراع الشرق الأوسط**"... وفوجئت به يقول "لقد قرأت الكتاب عندما صدر في بيروت منذ ثلاثة شهور... ومع ذلك إذا كنت قد كتبت إهداء، ووقعت عليه فيسعدني قبول الهدية"... وضحك الجميع، وشجّع ذلك **عاطف قبرصي** أن يُهديه نسخة من أحد كُتبه بالإنجليزية... وكانت هذه المُقاطعة لتدفق الحديث حول المشروع مُهلة لالتقاط الأنفاس واستجماع الأفكار... فقد كان إحساسي أن كلاً من **زحلان وجورج**، قد أسرعا أكثر من اللازم، كما لو كانا في امتحان شفوي، يُريدان الفراغ منه بسرعة ودون نسيان أو أخطاء.

كان **صدام** هو الذي استأنف الحديث بسؤال وجهه لي مُباشرة "**هل الصراع في الشرق الأوسط هو فقط الصراع العربي الإسرائيلي؟**" وتنبهت فجأة إلى ما بدا لي أنه ربما يرمي إليه. فسارعت: "بأن هناك صراعات أخرى كامنة مع الجوار مثل إيران وتركيا وإثيوبيا، وهناك صراعات أهلية مثل ما تشهده لبنان والسودان، و..." توقفت... فقال هو "وشمال العراق..." أجبت "نعم" قال: "وهذا ما أريد أن نتحدث فيه قليلاً، بعد أن نفرغ من الحديث عما جئتم تشكون منه. دخلت في الموضوع مُباشرة، وبدأت بالمقارنة بين الطريقة الكريمة الذي عومل بها أعضاء الفريق طوال السنتين الأوليين من حياة المشروع، والطريقة المهينة التي عوملوا بها في الأسبوعين الأخيرين... ورغم أن المشروع قد أوشك على الاكتمال، وقبل الموعد المحدد له بستة شهور. وأن المشكلة لا تكمن فيما يصيبنا، أعضاء الفريق من مضايقات، فنحن ذاهبون، كل إلى موطنه الذي جاء منه خلال أسابيع قليلة... ويمكننا تحمل هذه المضايقات خلال هذه الأسابيع القليلة... ولكن المشكلة هي **مصداقية الدولة العراقية**، ومحاولتها جذب الكفاءات العربية من الخارج... فإذا شاعت وانتشرت أخبار ما حدث لفريق الخُبراء، الذي اقترح حزمة السياسات العراقية لجذب الكفاءات، فكيف سيُصدقها الناس، وخاصة المُستهدفون من هذه الكفاءات في الخارج...

كان وجه **صدام** يكتسب جدية مُتزايدة، وهو يستمع إلى مُلاحظاتي... إلى أن أصبح شديد التقطيب والتجهم... وهو ما دفعني إلى شكر الرفيق على سعة صدره وحسن استماعه... ثم سألت زملائي إذا كان لديهم ما يُضيفونه... ولم يتطوع أحد بالإضافة، غير سؤال من **د.عاطف القبرصي**، عن سبب التغير في المعاملة، لعل وعسى هناك حكمة في ذلك، قد تكون خفيت عنا.

تحدث **صدام** بصوت وقور، وبدا مُتأثراً بما سمع، فعبّر عن انزعاجه لما سمع... وأنه "سيأمر على الفور بإلغاء الإجراءات الغبية، بعد أن يعرف المسؤول عنها، وسيُحاسبه حساباً عسيراً... لأنه يهدم بجرة قلم كل ما يهدف المشروع له، وما يرنو العراق إليه" ثم توقف لحظة، بعدها استأنف الحديث بالشكوى من الروتين والبيروقراطية والأجهزة، والتي تتصرف "كملكية أكثر من الملك"، فتبالغ في الإجراءات الأمنية حرصاً على النظام! وأن هذه الأجهزة هي التي تعوق إنجاز" التنمية المأمولة".

توقف **صدام** مرة أخرى لحظة أطول، ونحن كلنا آذان صاغية. قال الفريق أنه:

"يحلم بأن يجعل الأمة العربية قوية، خالدة... وأن ذلك لن يتحقق إلا بوحدتها... وأن هذه الوحدة لن تتحقق إلا بوجود القطر العربي القاعدة، الذي تنطلق منه قاطرة الوحدة... وأن مصر الناصرية كانت مُهيئة في الخمسينات أن تكون القاعدة، وانطلقت منها القاطرة فعلاً... ولكنها لم تمض أبعد من سوريا، ثم ارتدت القاطرة، عام ١٩٦١، وتحطمت سنة ١٩٦٧... ولا يوجد قطر عربي مُهيأ لأن يكون قاعدة تنطلق منه القاطرة في السنوات العشر القادمة، وربما إلى نهاية القرن، سوى العراق".

واستعرض **صدام** البُلدان العربية التي كان يمكن أن تقوم بدوري **"القاعدة القاطرة"**، ولكن يمنعها من ذلك عامل أو أكثر... ومن ثم تُستبعد تلك الأقطار في الوقت الراهن، إلا العراق، الذي لديه **السكان والنفط، والماء، والزراعة، والقاعدة الصناعية** ـ التقنية المعقولة. وتوقف الفريق لحظات.

ثم استأنف "ولكني، وأظنكم تتفقون معي، أظن أن **ذلك كله قد يكفي لأن تكون العراق قاعدة... ولكنه لا يكفي لأن تنطلق منه القاطرة... ولكي تنطلق القاطرة، لا بد من الطاقة البشرية العُليا، التي هي موضوع مشروعنا**"... وأردف أنه هو شخصياً الذي طلب من وزير التخطيط أن يُبادر بالمشروع ولكن للأسف لم يستوعب الوزير المرامي البعيدة للمشروع... ولكنه لم يتوقف طويلاً عند الوزير الذي لم يستوعب، وإن كنا ندرك أن الوزير الذي تعاقد معنا، أقيل من

منصبه منذ مدة. ثم فاجأنا بسؤال "**ما هو المطلوب لكي يكون لدى العراق في خمس سنوات من العُلماء والمُهندسين قدر ما لدى إيران وتركيا مُجتمعتين؟**"

ثم قال **صدام** قبل أن يُجيب أو يُعلق أحدنا، ما رأيكم أن نتناول غداءً خفيفاً سوياً؟ ولم يترك لنا فرصة الإجابة ... حيث تحدث هاتفياً إلى السكرتارية... وترك لنا فرصة لدخول دورة المياه المُلحقة بمكتبه... بينما انشغل هو ببعض المُكالمات، ثم توقيع بعض الأوراق... وبعد دقائق كان الطعام جاهزاً... وتحدثنا على غداء الكباب والكفتة... وعلى الغداء سألني **زحلان**، حيث أنني خبير السُكان في الفريق، فقلت: تركيا وإيران مُجتمعتان سكانهما ثمانون مليوناً، ويتقدمان على العراق بالفعل في مُعدلات التعليم والتصنيع... وبحسبة بسيطة يتضح أن لديهما عشرين مرة طاقة بشرية عُليا أكثر من العراق حالياً... ومن ثم يكاد يستحيل أن تتمكن العراق من تحقيق هذا الهدف في خمس سنوات. رد **صدام** بأنه سعيد باستخدامي لكلمتي "**يكاد يستحيل**"، وليس يستحيل وحدها... ولذلك لم أقفل الباب على إمكانية تحقيق الهدف... ثم أشار إلى أن نفس النسبة والتناسب بين العراق من ناحية وإيران وتركيا من ناحية أخرى، هي بين إسرائيل والأمة العربية سُكاناً، ومع ذلك فإن إسرائيل لديها من العُلماء والمُهندسين أكثر مما لدى الأمة العربية... وفتح ذلك الباب لما اقترحه المشروع من وسائل وطرق لجذب الكفاءات العربية، كما تفعل إسرائيل لجلب المهاجرين والكفاءات من كل أنحاء العالم... ودخل معنا الفريق في نقاش وحوار، كما لو كان عضواً في **صدام** وفي أحد جولات العصف الذهني (Brain – Storming)... وانسجم الرجل، وكان يمزح، ويُعلق تعليقات بعضها ذكي وبعضها جاد، وبعضها هزلي... ولم تفته فرصه إطلاق بعض النكات المصرية التي سمعها مؤخراً، ولكنها محوّرة لتناسب السياق العراقي.

في حوالي الثالثة والنصف دق جرس التليفون في مكتب الرفيق **صدام**... فالتفت إلينا وقال: **د.زحلان** هل زوجتكم في بغداد؟ ولما أجاب **زحلان** بنعم، قال أنها على الهاتف وتريد الحديث إليكم... احمر وجه **زحلان** وهو يتقدم إلى التليفون، وسمعناه يؤكد **لروز ماري** أنه بخير، وأننا سنكون في الفندق بعد قليل. وكان لا بد أن نشرح له ما انتاب زوجاتنا مؤخراً من هواجس، بسبب القيود التي فُرضت علينا. ابتسم **صدام** وقال أرجو أن تطمئنوا زوجاتكم!.

ودّعنا الرفيق بحرارة، وهو يشكرنا، ويؤكد لنا ثقته فينا وأننا لن نخذله أو نخذل العراق.

حينما عُدنا إلى فندق الرشيد، وجدنا بقية أعضاء الفريق ينتظرون، وهم جالسون حول **روز ماري سعيد**، عروس **زحلان**، كما لو كانوا في مشهد عزاء أو

رثاء. وفهمنا أنها كانت في حالة انهيار حينما مرت الساعة الأولى على مُغادرتنا لرؤية الفريق، ولم نعد... وبعد ساعتين، اتصلت هاتفياً بمكتب المشروع لتسأل إذا كانوا قد سمعوا منا... وحينما سمعوها تبكي وتولول عما عسى أن يكون قد حدث **لطوني** (وليس لنا)، تركوا جميعاً أعمالهم، وتوجهوا للفندق لشد أزرها والتخفيف عنها... ولما علم أحدهم الكيفية البسيطة، التي تم بها الاتصال بمكتب **صدام حسين**، اقترح معاودة الاتصال للسؤال... وحينما طلبت منه أن يفعل ذلك نيابة عنها، تردد... فنهرته... فما كان منه إلا أن أدار الرقم... وحينما سمع صوتاً يرد على الجانب الآخر، قذف بسماعة التليفون إليها مذعوراً... وكانت هي التي سألت **صدام** عن زوجها على نحو ما ذكرت في الفقرة السابقة.

حكينا لزملائنا ما حدث في لقائنا مع **صدام حسين**... وأجبنا على أسئلتهم الكثيرة، لا فقط حول مضمون اللقاء، ولكن أكثره حول شخصية **صدام**، الذي كانت سُمعته الدموية الشرسة مثار الفولكلور السياسي العراقي، والعربي، لذلك كانت دهشتهم ـ كما كانت دهشتنا من قبلهم ـ حول حسن الاستقبال، وعُمق التحليل، واتساع رؤية الرجل السياسية... والانطباع الكاريزمي الذي تركه فينا، رغم اختلاف بعضنا مع تقديراته وإمكانية تحقيق طموحاته... والأهم أن روع العروس **روز ماري سعيد** قد هدأ مؤقتاً. وأرادت اختبار وعد **صدام حسين** لنا بإلغاء كل إجراءات تقييد حركة العاملين في المشروع، وخاصة زوجها **أنطوان زحلان**... فطلب حجز تذكرتي سفر لهما بالطائرة، على أول طائرة مُتجهة إلى بيروت... وبالفعل تغيرت مُعاملة السُلطات العراقية والمسؤولين العراقيين مع أعضاء الفريق، لا بالمقارنة بما كانت عليه من قبل، ولكن أيضاً في درجة الحفاوة... وتصاعد الاحترام إلى ما يُشبه التوقير... لقد أصبح أعضاء الفريق بمثابة امتداد **لصدام حسين** نفسه... وقد أسعد ذلك أفراد الفريق، ولكنه أحزنني إلى حافة الاكتئاب... كيف يُمكن فهم إشارة "سالبة" أو "موجبة" نحو الآخرين من مسؤول عربي مُستقبلاً، ترتب عليها انقلاب في المُعاملة هكذا من النقيض إلى النقيض.

أدركت أيضاً كيف أن شخصاً واحداً على قمة هرم السُلطة المُستبدة يكون له هذا النفوذ الطاغي، الذي لا تحده حدود، ولا يُسائله فيه أحد، أو يُحاسبه.... وكيف في حالتنا أن وشاية ضد وزير التخطيط الذي كان قد تعاقد معنا، تؤدي إلى العصف بهذا الوزير، والإساءة والشك في كل من كان يتعامل أو يعمل معهم... **إنه نظام يقوم على الخوف والرعب، وليس فيه إلا كبير واحد... يخافه ويرتعب منه الجميع**... وفي كل مُستوى من مُستويات الهرم من

تحت هذا المُستبد، يوجد مُستبدون آخرون، يُرعبون من هم دونهم كما يرتعبون هم ممن فوقهم.

وقد فسّر لي ذلك أشياء كثيرة من حولي، لاحظتها على مدى العامين اللذين أقمت فيهما بالعراق.

من ذلك المُعاملة الرسمية الجافة التي لقيتها من **د.سعدون حمادي** في زيارتي له في مكتبه بوزارة الخارجية، ودفأه وبشاشته كل مرة لقيته فيها خارج العراق... كما لو كان الرجل شخصين مُختلفين... فرغم أنه من أبرز رجال النظام كبعثي شيعي قومي قديم، وهو ما يُندر بين الشيعة العراقيين، فإنه لم يكن من الدائرة التكريتية الصغيرة التي تربطها علاقة القرابة الدموية مع **صدام حسين**... وفسر ذلك أيضاً لماذا صدر مرسوم جمهوري بقانون يحظر استخدام اسم العائلة أو العشيرة أو القبيلة، ولكن فقط الاسم الثلاثي للشخص على الجيش والمُخابرات والأمن والإعلام والحزب. كانت ظاهرة صارخة... لم يكن وزير التخطيط المغضوب عليه، ولا وزير الخارجية الخائف المتحنط من هذه الدائرة التكريتية.

ومن ذلك أيضاً، وعلى مُستوى أدنى، رعب مُساعديّ العراقيين مني في البداية... وإلى أن شجّعتهم بعد شهر على أسلوبي الديمقراطي المُداعب في العمل... ثم اضطرابهم وقلقهم حينما طلب منهم قرب نهاية المشروع أن يُراقبا (أي يتجسسا) كل تحركاتي وسلوكي ومُقابلاتي. انهارت سكرتيرتي **ديانا**، وكبير الباحثين نزار، وتركوا العمل واختفوا تماماً إلى أن تركت العراق.

ذهبت أنا إلى بيروت في مُنتصف أغسطس، حيث التقيت **باربارا، وراندا، وأمير**، بعد ما يقرب من شهرين اشتدت فيهما الوحشة إليهم... وعرض علينا **د.بيتر وإريكا دود**، أن نقيم في شقتهما في شارع **عبد العزيز** - بين منطقة الحمراء والجامعة الأمريكية... واستطعنا تأمين جليسة، مما مكّننا من الخروج بحُرية نسبية في المساء لزيارة الأصدقاء أو ارتياد المطاعم والسينمات... وهو ما كنت افتقده في بغداد، التي كان الجو الاجتماعي فيها خانقاً، فضلاً عن الحرارة الشديدة، وفي أحد أيام خروجنا، وقعت حادثة بسيطة **لراندا**، وهي إقفال باب الشقة الخارجي على أحد أصابع يديها... ولحسن الحظ كانت مُستشفى الجامعة على بعد دقيقة واحدة، فاستغاثت الجليسة بالجيران الذين أخذوا **راندا** فوراً إلى قسم طوارئ المُستشفى الذي قام باللازم... وحيث لم تحدث كسور تنفست الجليسة الصعداء، وخف اضطرابها وهي تعيد القصة علينا مع اعتذاراتها ودموعها... ولأننا ندرك تعلقها الحقيقي **براندا وأمير**، فقد هدأنا من خاطرها على أساس أن الأمر كله "حادثة"، كان يمكن أن تقع في وجودنا... كانت **راندا وأمير**

نائمان، ولم نرهما إلا في صباح اليوم التالي... ورغم إحساسنا بالإشفاق والذنب، إلا أن **راندا** بدت أكثر إثارة بالحادث والضمادة حول يدها...

بعد عشرة أيام التحق بنا في بيروت شقيقي الأكبر **حامد** وزوجته الحاجة **فتحية** وولديهما **مدحت وأيمن**... قضيت مع الجميع ثلاثة أيام، وعدت إلى بغداد لإنهاء أعمالي، وحزم أمتعتي استعداداً للعودة إلى القاهرة... كانت أحد أهداف زيارة الجميع إلى بيروت هو شراء وشحن سيارة وبعض السلع المُعمرة الأخرى، وهو ما كان شقيقي مُتمرساً عليه، وكان خير مُرشد لزوجتي **باربارا** في هذا الصدد... وقد أتموا هذه المهام، وغادروا بيروت بالباخرة سوياً إلى الإسكندرية ومعهم مشترياتهم، وكان ذلك في أول أيام رمضان.

في القاهرة

وصلت أنا للقاهرة في مُنتصف سبتمبر ١٩٧٥، بعد الأسرة بحوالي عشرة أيام... كانوا هم قد وصلوا إلى الإسكندرية وقضت **باربارا** والطفلين ليلتين، ثم توجهوا للقاهرة حيث كان مندوب من الجامعة الأمريكية في انتظارهم لإخطارهم أن السكن الذي خصصته لنا الجامعة في حي جاردن سيتي، ٨ ش السلاملك جاهز لإقامتهم ... وكان مندوب الجامعة ينتظرني أيضاً في المطار، ومعه **باربارا وراندا وأمير**... كان وصولي ليلاً بعد الفطار، حيث كنا مانزال في رمضان.

تكتمت الأسرة الصغيرة على موعد وصولي، حتى نستمتع ببعضنا وببعض الخصوصية لعدة أيام... مع هذا الوقت كانت **بركة (باربارا)** قد تمرّست على عادات وتقاليد الأسرة المُمتدة... ففي الأسبوع الذي سبقتني فيه إلى القاهرة، كانت الأسرة المُمتدة حول الأسرة الصغيرة **(بركة/ راندا/ أمير)** كل ليلة، ودعوات للفطور والسحور، ورغم استمتاع **بركة** بهذه الحفاوة وهذا الكرم، إلا أنها افتقدت الشعور بالخصوصية (Sense of Privacy) ... لحسن الحظ كان وصولي يوم خميس، وهو ما أعطانا خلوة عائلية في عطلة نهاية الأسبوع.

توجهت إلى الجامعة يوم الإثنين، حيث أعلمت من يُهمهم الأمر بوصولي وتفقدت القسم، والمكتب الذي خصص لي، وحضرت جزء من برنامج إعداد الأساتذة الجدد (Orientation) والذي كان سيستمر لمدة أسبوعين ـ أحدهما قبل عيد الفطر، والثاني بعد عيد الفطر وضمن برنامج الإعداد التمهيدي هذا كانت هناك مُرافقة لي من طلبة الجامعة ـ وكان اسمها **أميمة حاتم**، وكذلك أسرة مُضيفة من هيئة التدريس القدامى، وهي أسرة **د.جونز** وزوجته التايلندية، وطفلين في عُمر أطفالنا... وكان هو نفسه أستاذاً للرياضيات...

كان جميلاً ومُفيداً، أن تقوم الجامعة بتوفير السكن والخدمات لنا، حيث وفّر ذلك علينا الكثير من المصاعب التي تواجه العائدين من الخارج، وخاصة بعد غياب طويل في حالتنا، وصل إلى **ثلاثة عشر عاماً**.

ولكن كان غريباً وطريفاً أن أمر ببرنامج إعداد الأساتذة الجُدد، الذي ينطوي على **التعريف بمصر ـ تاريخاً، وثقافة، ومُجتمعاً وسياسة واقتصاد**، وأن تكون لدي مُرافقة في العشرين من عُمرها لتشرح لي نظم العمل والنشاط والخدمات في الجامعة، وأسرة مُضيفة أمريكية تشرح لي ما ينبغي أن أتوقعه من طوارئ ومُشكلات المعيشة!

وكان يمكن لي و**لبركة** ـ بالطبع ـ أن نعتذر عن المُشاركة في برنامج الإعداد التمهيدي هذا، على أساس أنني ابن البلد، وأعرف عنها الكثير. ولكننا قررنا أن نخوض التجربة... خاصة وأننا اكتشفنا صديقاً أمريكياً هو **د.نيكولاس هوبكنز**، الإنثربولوجي، وزوجته العراقية **فريال**... كما كان حسنا السوسيولوجي ـ كعالمي اجتماع ـ جعلنا حريصين على معرفة الكيفية التي سيتم بها "تقديم مصر"، "تعليبا"، أو "تشريبها"، أو تزويقها" للقادمين الجُدد.

ولم نندم على هذا القرار... فقد أعطانا برنامج الإعداد فرصة حقيقية لا فقط لإعادة اكتشاف وتذكر بتاريخ مصر القديم والوسيط، ولكن أيضاً بإعادة رؤية معالم مصر التاريخية مع الوافدين الجُدد ـ ورغم تعرّف بعض الحاضرين المصريين على شخصي، وتنويههم بذلك، بل والاعتذار عن أن يتناولوا "الموضوع" في حضرتي... إلا أنني كنت ألزم الصمت، وأكتفي بدور المُستمع، أي دون أسئلة أو مُشاركة في الحوار، حتى أشجّع المُحاضر والمُستمعين على أن يأخذوا راحتهم، دون إحراج أو إحساس بالدونية.

كانت المجموعة الجديدة حوالي أربعين عضواً تدريسياً، بما في ذلك زوجاتهم، وقد أتاح البرنامج الإعدادي التعرف عليهم جيداً، نتيجة طول الوقت الذي قضيناه سوياً... وأهم من ذلك تعرفي على عدد من الأساتذة والإداريين القدامى بالجامعة. وربما كان أهمهم جميعاً العميد/ **توماس لامونت**، الذي كان قريباً مني في العُمر والروح... وعبّر لي مُبكراً عن سعادته بقبولي العمل في الجامعة... وأنه يأمل أن أساعده في تحقيق حلم يُداعبه منذ أتى إلى هذه الجامعة طالباً، قبل رُبع قرن. ولما سألته عن حلمه ذلك، قال "**هو أن يجعل الجامعة جزءاً مُتفاعلاً مُتكاملاً مع المجتمع المصري... بدلاً من أن تظل جزيرة معزولة لأبناء وبنات الصفوة المحظوظة**... أدهشني كلام **د.لامونت**، ولكنه أسعدني... ولم أكن مُتأكداً من عُمق هذا الحلم أو ما يتطلبه من التزامات ومسؤوليات... جاملت الرجل بإجابة عامة... وكان من الذكاء والحساسية،

بحيث أدرك أنني لم آخذه بمحمل الجد... فقال دعنا نلتقِ خارج البرنامج الإعدادي، لنتحدث بحُرية. قلت له أريد أن أفتح حقائبي وأنظم مكتبي، وأقضي عدة أيام مع أسرتي المُمتدة في القرية... رد الرجل إذا كان ذلك هو السبب، فليكن... شرط أن تعدني بأخذ الأمر مأخذ الجد!.

انتهزت فرصة عيد الفطر المُبارك لأقضيه أنا وأسرتي الصغيرة مع أسرتي المُمتدة في قريتي بدين... وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقضي فيها إجازة أي عيد في قريتي منذ ١٣ عاماً ـ أي منذ عام ١٩٦٢، وكانت فرصة لاستعادة كل ذكريات الطفولة والصبا والشباب، ولإشراك أفراد أسرتي الصغيرة في خبرة العيد بالريف المصري، ولأغرس فيهم بعض الحب والاعتزاز الذي أشعر به نحو هذه القرية... كذلك كانت فرصة للقاء أهل القرية جميعاً، في المسجد مع صلاة العيد، وبعدها مُباشرة في زيارة المقابر للترحم وقراءة الفاتحة على أرواح الوالدة والأهل والأقارب الذين انتقلوا إلى رحمة الله، وبعد ذلك الطواف بمنازل من رحل ذويهم للعزاء، ثم العودة إلى المنزل الكبير... حيث نتناول إفطاراً، ثم نستقبل أهل القرية من المُهنئين بسلامة وصولي، وبالعيد.

كانت المُناسبة حافلة بالمشاعر، والمُجاملات، والأسئلة عن أمريكا، ثم طلبات أهل القرية للخدمات الشخصية، والوساطات، والتبرع للمشروعات ـ الجديدة في القرية: **بناء مسجد، مكتب بريد، ومستوصف.**

أحييت تقليد والدي رحمه الله، بتوزيع مُعايدات على الأطفال وفقراء القرية من النقود الورقية الجديدة ـ التي تبدأ بفئة الجنيه، وتنتهي بفئة المئة جنيه.

كان قضاء أيام العيد الثلاثة في القرية، ومُمارسة نفس الطقوس، وتذوق نفس الطعام، واستنشاق نفس الهواء ونفس الروائح هو الذي أعطاني الشعور الحقيقي، أو لنقل أول شعور حقيقي بأنني فعلاً عدت إلى وطني... وصباي... وأحلامي.

رُبع قرن من أجل الديمقراطية

في مصر والوطن العربي

سبتمبر ١٩٧٥ - يونيو ٢٠٠٠

أول مواجهة مع مباحث أمن الدولة المصرية

في أحد أيام الأسبوع الأخير من رمضان، اتصل بي في المنزل تليفونيا، شخص قدم نفسه باسم العقيد **رضا مطاوع**، من مباحث أمن الدولة، الذي رحب بعودتي إلى الوطن، وعبر عن حرصه على التعرف بي في أسرع وقت ممكن... دعوته للمرور عليّ في مكتبي في الجامعة في اليوم التالي أو الذي يليه... ولكن الرجل ادعى أنه مضطر إلى مُغادرة القاهرة في مُهمة رسمية غداً... واستسمحني في تشريف مكتبه في أي وقت بين صلاتي العشاء والفجر! استغربت وتضايقت من إلحاحه، وطلبت من العقيد **رضا مطاوع** أن يترك رقم تليفونه... وسأتصل به في وقت لاحق لإخباره ما إذا كنت سأتمكن من تلبية دعوته من عدمه... أعطاني الرجل رقمي تليفون مكتبه ومنزله للاتصال به، راجياً مرة أخرى أن ألبي دعوته... كانت الساعة الرابعة مساء، قبل موعد الإفطار بحوالي ساعتين.

أخبرت **بركة** بالمُكالمة... وأعطيتها فكرة عن جهاز مباحث أمن الدولة، وسجله الأسود في تاريخ مصر، وخاصة في الحقبة الناصرية... كان رد فعلها الأول هو: ادعه إلى المنزل لكي أحضر اللقاء... وفعلاً اتصلت بالرجل، ودعوته لزيارتنا في سكننا... شكرني الرجل بشدة، وسأل في أي وقت والمدة المسموح بها للزيارة... فقلت له إنه يستطيع أن يأتي ابتداء من الثامنة والنصف إلى العاشرة والنصف. رد العقيد بدعابة "ماذا عن تأخير الموعد إلى ما بعد العاشرة والنصف، وأن تدعوني للسحور؟ فرددت بالشهامة المصرية المعهودة" على الرحب والسعة" فقال "هذا يعني أنك حر من الثامنة والنصف إلى الثانية عشرة والنصف... وما دام الأمر كذلك فلماذا لا تشرف مكتبي لمدة ساعة واحدة فقط... وتنفذ بقية المساء للأسرة والأقارب؟" أعجبت بذكاء وحيلة الرجل... وقلت له لا بأس، بشرط أن تمر عليّ بسيارتك أو ترسل لي سيارة بسائق، حيث أن سيارتي الجديدة لم يفرج عنها من الجمرك بعد" وافق الرجل، وفي الثامنة والنصف مساء، جاء البواب يستدعيني من شقتي في الطابق السادس، حيث أن سيارة تنتظرني أمام العمارة... طلبت منه أن يسبقني وسألحقه بعد دقائق، وفي نفس الوقت يُسجل رقم رخصة السيارة...

كان العقيد **رضا مطاوع** في انتظاري بمكتبه في الطابق الثالث من مبنى الجهاز بلاظوغلي... في أوائل الأربعينيات، ممشوق القامة، شعر كث ذو سوالف بيضاء، ويرتدي بدلة أنيقة. استقبلني الرجل بود وترحيب شديدين، وطلب فنجانين من الشاي... أدهشني أسلوب الرجل الذي بدا بشوشاً دافئاً، وبلا تكلف أو تصنع... ومع ذلك أردت "أن أدخل في الموضع مُباشرة"... فشكرته على حسن الاستقبال، ثم سألته ما هو سبب العجلة والإلحاح في طلب اللقاء؟

قال الرجل أنه يُريد أن "يتعلم مني" عن الولايات المتحدة، وحقيقة سياستها في الشرق الأوسط، وماذا تريد من مصر؟ فأعدت الكرة إلى ملعبه... سائلاً وماذا تعتقد أنت؟ حاول التملص بأنه "لا يمكن أن يفتي ومالك في المدينة"... وطبعاً يقصد أنني الخبير في هذه الموضوعات... فكيف له أن يتحدث فيها في حضوري... فقلت له "فقط أريد أن أختبر معلومات وتحليلات جهاز مباحث أمن الدولة" فقال "لماذا لا تفيدني أنت أولاً، وأعدك أن أقول لك بأمانة ما كنت أعلمه وما كنت أجهله، بعد أن اسمع منك؟" رددت عليه أنني سأرسل له كتابي عن "كيسنجر وصراع الشرق الأوسط"، وسيجد فيه كل الإجابات على ما سأله وما لم يسأله في هذا الصدد. قال ومتى يمكن أن ترسل الكتاب، قلت له غداً... قال متى غداً، قلت في أي وقت ترغب... قال سأكون هنا في مكتبي من العاشرة صباحاً، ثم من الثامنة إلى منتصف الليل" فقلت له "هذا معناه أنك لن تغادر القاهرة غداً كما أخبرتني". احمر وجه الرجل قليلاً، ولم يُحاول مزيداً من الحيل، فقد استسلم قائلاً "إذن لقد غلبتني... هل يمكن أن نكون أصدقاء وصرحاء مع بعضنا البعض من الآن فصاعداً؟" طبعاً، لم آخذ ما قاله العقيد **رضا مطاوع** مأخذ الجد... ومع ذلك قلت له: لا مانع... فقال على الفور: إذن ساعدني في شيء آخر... كيف نبدو للأمريكيين؟ أجبته "تبدو لهم الآن أحسن مما كنا قبل أكتوبر ١٩٧٣" طلب التفصيل، وهكذا كنت أجيب على كل أسئلته بإيجاز شديد، يدفعه إلى أن يسأل أكثر... وكان هدفي من ذلك أن أكتشف من خلال أسئلته كيف يُفكر هذا الضابط... ومن خلاله كيف يُفكر جهاز مباحث أمن الدولة. ذو السُمعة المُرعبة! كانت أسئلته تتدفق، حينما دق جرس التليفون، أجاب الرجل... نعم...نعم، ثم التفت إلي، وقال منزلكم، وسلمني سماعة التليفون، نظرت في ساعتي، وكانت قد مرت ساعتين على مُغادرتي للمنزل، تحدثت مع زوجتي **بركة**، وطمأنتها، وقلت لها أن تلغي المؤتمر الصحفي! أخبرتني أن ابن عمتي موجود في المنزل حيث جاء للتحية والسلام، تحدثت إليه وهو الدكتور **عبد المهيمن بكر**، أستاذ القانون الجنائي بجامعة عين شمس.

حين وضعت سماعة التليفون، كنت أدرك ما يدور في عقل العقيد الذي تظاهر أنه لم يكن ينصت لمحادثتي التليفونية... لذلك بدأت أو استأنفت الحديث من حيث تركته قبل أن يدق جرس التليفون... وبعد دقيقتين، سأل العقيد: هل كل شيء على ما يرام في منزلكم؟ قلت بسرعة نعم... نعم، ثم سألت العقيد هل لديك موضوعات أخرى تريد الحديث فيها؟ قال: هل أنت مستعجل؟ قلت نعم، فأنت كنت تريد ساعة، وها نحن قد تجاوزنا ساعتين، وهناك ضيوف أقارب ينتظرون. قال أنه آسف، ولكن عزاؤه أننا في رمضان، والناس تسهر إلى السحور ثم توقف وقال ما يعني Press Conference؟ قلت له معناها مؤتمر صحفي؟ قال على استحياء وهل لديك مؤتمر صحفي قريباً... قلت له لا لا ليس لي، لقد كان شيئاً تتنويه زوجتنا المصون... ولم أشفِ غليله كعادتي طوال اللقاء... ثم سألته هل لديك أسئلة أخرى، أريد الاستئذان... وأخيراً اضطر للدخول في الموضوع الذي أعتقد أنه استدعاني من أجله.

كان الرجل يُريد أن يعرف ما الأنشطة التي أنوي القيام بها في مصر من الآن فصاعداً... قلت له نفس ما كنت أقوم به خارج مصر - التدريس، والتأليف، والكتابة الصحفية، والمُشاركة في الندوات والمؤتمرات إذا دُعيت لها. سأل بتملل وقلق: وهل ستتكلم بنفس الصراحة التي كتبت بها كتابي "سوسيولوجية الصراع..." وكيسنجر وصراع الشرق الأوسط" قلت له ولكنك لم تقرأ الكتاب الأخير، ولا تعلم مدى الصراحة التي كتبته بها! أسقط في يد الرجل للمرة الثالثة أو الرابعة في هذا اللقاء... وأصبحت في الواقع أشفق عليه... فقلت له "نعم أنوي إذا تحدثت أو كتبت في مصر، فسيكون بنفس الصراحة التي كنت أتحدث وأكتب بها وأنا خارج مصر... وإلا فلا معنى لعودتي لأرض الوطن لخدمة مصر... وفي كل الأحوال إذا كان ذلك لا يعجب الدولة أو مباحث أمنها، فلتقولوا ذلك، ولحسن الحظ مُعظم حقائبي وصناديق كتبي ما زالت محزومة... ويمكن مُغادرة مصر فوراً، ووقفت استعداداً للمُغادرة. فاستدرك الرجل وتأسف حيث أنه لم يقصد الحظر أو الرقابة عل حُريتي في التعبير... وإن مصر هي وطننا جميعاً... ولا يمكن أن يكون قد قصد شيئاً مما تبادر إلى ذهني... ومع ذلك فهو يُريد أن يعرف "حكاية المؤتمر الصحفي الذي طلبت من زوجتي إلغائه... وقلت له "أنك تدعي عدم معرفة الإنجليزية، وتظاهرت أنك لم تكن تتنصت على مُكالمتي... فكيف عرفت أنني طلبت إلغاء المؤتمر الصحفي؟" أسقط في يد العقيد للمرة الرابعة... وقال أنني أستسلم... واعترف... ولكن ما هو موضوع المؤتمر الصحفي... قلت له في إشفاق وأنا على الباب: "كان الاتفاق مع زوجتي هو أنه إذا تأخرت عندكم أكثر من ساعتين، هو أن تدعو إلى مؤتمر

صحفي للمراسلين الأجانب في القاهرة لإخبارهم بأنني مُحتجز في مباحث أمن الدولة" امتقع وجه الرجل وقال "كيف كنت ستفعل ذلك يا دكتور... ألم يكن ذلك ينطوي على فضيحة لمصر؟" قلت له "لا... لم يكن ذلك لينطوي على فضيحة مصر، ولكن على فضيحة النظام ولجهاز مباحثكم ... وليس لمصر، التي هي أكبر من الدولة ومن النظام ومن المباحث". قال الرجل "كيف تقولون مثل هذا الكلام الخطير وأنت على الباب في طريقك لمنزلكم" وعدته بلقاء آخر بعد شهر لمواصلة الحديث، ولكن في مكتبي أو منزلي، وصافحته بحرارة... وغادرت.

كان هذا "اللقاء ـ المواجهة" مع مباحث أمن الدولة بداية علاقة طويلة، مُعقدة، فيها من الندية والقوة، بقدر ما كان فيها من مُحاولة الترشيد والتنوير من جانبي، ومُحاولة السيطرة والابتزاز من جانب الجهاز، إلى أن نجح بعد ربع قرن في وضعي وراء القضبان... كما سيأتي ذكره تفصيلاً في أوانه بهذه المذكرات.

وخلال السنوات العشر التالية ظل العقيد، ثم المُقدم، ثم العميد **رضا مطاوع** هو مسؤول مباحث أمن الدولة الذي يُتابع نشاطي... وقد أتى إلى مكتبي في الجامعة الأمريكية فتناول القهوة، بعد اللقاء الأول بشهر، ولكنها كانت زيارة مُجاملة رجاني بعدها أن نلتقي في مكتبه بالجهاز، حيث يشعر براحة أكبر، ولكي يستطيع صغار مُساعديه من الضباط مُقابلتي والاستفادة من "علمي الغزير" وإلى أن تقاعد هذا الرجل برتبة لواء، كانت علاقتي بمباحث أمن الدولة يحكمها الاحترام والندية والمهنية... أصبح واضحاً للجهاز أنني لن أكون عميلاً له، ولن أعطيه معلومات عن زملائي المصريين أو حتى الأجانب في الجامعة أو خارج الجامعة... ولكني لم أبخل على الجهاز بالكتب والمقالات والمُحاضرات وتحليلي للأوضاع الداخلية والإقليمية والدولية... وكان الضابط **رضا مطاوع** شغوفاً بمعرفة كيف يُقارن أداء جهازه بالـ FBI في الولايات المتحدة... وكانت تلك أحد المُناسبات التي أوقعه سؤاله فيها، مأزق مؤقت من تلك التي أصبحت أهواها وأستمتع بها. فقد قلت له في دهاء نصف ظاهر "وكيف لي أن أقارن الجهازين، وقد تعاملت فقط مع جهازكم؟"... قال الرجل وهو يرفع "الراية البيضاء" "طيب يا سيدي... نحن نتبادل المعلومات مع الـ FBI، وقد تلقيت أنا شخصياً دورة تدريبية في الولايات المتحدة في أوائل ١٩٧٥... وأعرف أن مندوبي جهازهم قد تردد عليك عدة مرات في منزلك أيام كنت طالباً في لوس أنجلوس، وسياتل، ثم وأنت أستاذ جامعي في جرين كاسل... لم أندهش تماماً... ولكن زادت محبتي واحترامي للضابط **رضا مطاوع**... وأشفقت عليه من "**عُقدة الخواجة**"، التي يعاني منها معظم المصريين، وخاصة أبناء الطبقة الوسطى، والتي ربما كنت أيضاً سأعاني منها، لولا سنوات معيشتي ودراستي

وعملي في الولايات المتحدة، والتي بددت مشاعر النقص والدونية تجاه "**الآخر... الغربي**" (أي الخواجة). فالدراسة والعمل، فضلاً عن الزواج منهم، جعل هذا "**الآخر**" يأخذ حجمه الطبيعي - دون تهوين أو تهويل، فقد تناقشت وتعاونت وتنافست وتصارعت مع مُفردات هذا الآخر، وانتصرت أحياناً، وهُزمت أحياناً... عرفت نقاط القوة ونقاط الضعف فيهم كأفراد، وهي لا تختلف كثيراً عنا نحن المصريين والعرب، إذا تساوى التعليم والخبرة وتكافأت الفُرص... ولكن تفوقهم المؤكد علينا هو بسبب **مؤسساتهم الأكثر كفاءة وانضباطاً**... وأخيراً وليس آخراً بسبب **الديمقراطية**.

نقلت هذه الخواطر للضابط **رضا مطاوع** وحده... وأكبرته حينما رجاني أن أعيد ما قلته على مُساعديه من صغار الضباط... وهو ما فعلته... وأجبت على أسئلة كثيرة منهم ... وبعد انصراف صغار الضباط، قال **رضا مطاوع** أن هذا النقاش ذكّره بالحوارات التي شارك فيها مع غيره من المتدربين من دول أخرى في تلك الدورة التي شارك فيها في أكاديمية الـ FBI في واشنطن. وقبل أن أنصرف... أعاد الرجل سؤاله "لم تقل لي يا دكتور... كيف نقارن نحن بالـ FBI؟" طمأنته "بأنه إذا كان هو نموذجاً مُمثلاً لمن يعملون في جهاز مباحث أمن الدولة المصري، فإنهم في هذه الحالة لا يقلون كفاءة عن أقرانهم الأمريكيين... ولكن هناك ما هو أكثر من كفاءة الأفراد في أي جهاز، هناك نظام وضوابط العمل " هز الرجل رأسه ولم يُعلق.

وفي كل عام دراسي، كان لا بد من الحصول على إذن عمل من وزارة الداخلية، وتحديداً من جهاز مباحث أمن الدولة... وكانت هذه إحدى المناسبات التي يحرص فيها الضابط **رضا مطاوع** على حجز "**إذن العمل في جهة أجنبية**" - أي الجامعة الأمريكية - حتى أتصل به، فيدعوني إلى فنجان قهوة في مكتبه... ليستفسر عن أمور عامة، يعتقد هو أنني أستطيع إفادته بشأنها أو لكي يجمع صغار مُعاونيه لما يُشبه المُحاضرة المُصغرة. وفي أحد المرات، عام ١٩٧٧، سألني ووجهه متجهم، "هل تعرف هذا الرجل؟ وعرض عليّ صورة الرجل؟ فأجبته نعم إنه **د.وليام رو** (Dr.William Rugh) مسؤول الاستعلامات بالسفارة الأمريكية. سأل أليست تلك هي وكالة **المخابرات المركزية**. (C.I.A)، قلت له لا هذه اسمها بالإنجليزية I.A-Information Agency u.s.، ولا ينبغي خلطها بـ u.s. Centeral. U.S.C.I.A – Information Agency، وأدركت على الفور كيف يمكن أن يكون قد وقع الخلط والالتباس. وزدت في التوضيح أن هاتين وكالتين مُختلفتين من حيث الوظيفة تماماً - إحداهما تعمل كل شيء في العلن والأخرى تعمل كل شيء في السر، وبالطبع هذا لا يمنع أن يكون للـ C.I.A عملاء في

.I.A. سأل: "هل يمكن أن ينطبق ذلك على المدعو **وليام رو؟**" قلت "كل شيء ممكن... ولكني لست في موقع يسمح لي بالفتوى في هذا الأمر! "،، فكر **رضا مطاوع** لوهلة طويلة ثم سألني: "هل دعاك هذا **الوليام رو** لمنزله؟" قلت له "نعم... مراراً". أطرق مرة أخرى، ثم سأل "إن هذا الرجل يبدو كما لو كان **عميلاً مزدوجاً!**" قلت: يا سيادة العقيد أنت تتجاوز الحدود التي اتفقنا عليها في التعامل... فحتى إذا كنت أعلم أنه يعمل مع الـ C.I.A، أو أنه عميل مزدوج لبلده ولبلد آخر... حتى إذا كنت أعلم ذلك فإنني لن أفضي لك به". قال مُستدركاً "عفواً يا دكتور، إنني أدرك تماماً شرط وحدود التعامل بيننا... ولم أقصد أبداً أن أدفعك أو أستدرجك للإدلاء بمعلومات حول الوزير المفوض **وليام رو**... فقط يُحيرني هذا الرجل الذي يدعو إلى منزله خليطاً غريباً من المصريين... مثلك وأمثالك من "**الناصريين**"، ومثل **محمود سيد أحمد** وأمثاله من الشيوعيين، ومثل **حسن حنفي وفهمي هويدي** وأمثالهما من "**الإخوان المسلمين**"، ومثل أقرب الناس للرئيس **السادات** مثل **أسامه الباز وتحسين بشير، ومنصور حسن!**".
ابتسمت في إشفاق ظاهر على عقيد أمن الدولة، وتذكرت قضية الصحفي الكبير **مصطفى أمين**، الذي اتهم وحوكم وأودع السجن لعدة سنوات بتهمة "التخابر مع الولايات المتحدة"، لمجرد أنه تقابل مع مسؤول في السفارة الأمريكية في الستينات . مثل **د.وليام رو**... وقلت "يا سيادة العقيد... أمريكا قوة دولية أعظم، وبهذه الصفة... فهي حريصة على أن تنفتح على كل التيارات الفكرية والأيديولوجية في بلد مُهم لها في الشرق الأوسط، مثل مصر". هز الرجل رأسه فيما يُشبه أنه فهم وأستوعب... والله أعلم.

ظلت علاقتي بجهاز مباحث أمن الدولة معقولة، طالما كان الضابط **رضا مطاوع** هو همزة الوصل... وقد رتب لي عدة لقاءات حوارية، لا فقط بمرؤسيه، كما ذكرت، ولكن أيضاً برؤسائه، ومنهم اللواء **فؤاد علام**، واللواء **حسن أبو باشا**، واللواء **أحمد العادلي**... وأصبح بعضهم فيما بعد وزراء للداخلية.

تدريس ورومانسية في الجامعة الأمريكية

كان الفصل الدراسي الأول لي في الجامعة الأمريكية مُثيراً... فهذه هي المرة الأولى منذ كنت مُعيداً في كلية الآداب جامعة القاهرة، التي أقوم فيها بالتدريس لطلاب مُعظمهم من المصريين"...

ولكن أي مصريين؟

كانت مُرافقتي أثناء البرنامج الإعدادي للأساتذة الجُدد الطالبة **أميمة حاتم**، هي أول نموذج للعينة التي سأتعامل معها طوال الربع قرن التالي: طلاب وطالبات من خلفيات طبقية أعلى مما أتذكره من زملائي الطلاب، ثم من طلبتي كمُعيد بجامعة القاهرة.

كان هناك إقبال واضح على المقررات التي قمت بتدريسها في ذلك الفصل الدراسي الأول... والذي اجتهدت فيه على أن أكون مُحاضراً مُثيراً، وجذاباً، ومستفزاً للطلبة لكي يتحدثوا ويناقشوا، ويتحاوروا... وبينما كان ذلك مصدر ضيق للبعض، ثبت أنه مصدر استمالة شديدة للبعض الآخر... ومع الفصل الدراسي الثاني كان الإقبال مُضاعفاً، مع انتقائية واضحة. فالطلبة والطالبات الأكثر خجلاً وانطوائية تحاشوا التسجيل في المُقررات التي أقوم بتدريسها، والعكس صحيح... وظل ذلك هو الحال طوال السنوات التالية.

لاحظت أن عدداً غير قليل من الطالبات كن أكبر سناً عن المتوسط العام لطلبة الجامعة، وقدرت نسبتهن بحوالي عشرة في المئة ممن سجلوا في المقررات التي كنت أقوم بتدريسها... وكن بالطبع أكثر نضجاً وجدية في الدراسة... وحرصن على الاقتراب مني، سواء بالتسجيل في أكثر من مُقرر من مُقرراتي في نفس الفصل الدراسي، أو في فصول مُتتالية. واكتشفت بسرعة أنهن متزوجات، وقد شب أطفالهن عن الطوق فقررن الالتحاق بالجامعة لاستكمال تعليمهن، أو كن من الحاصلات على الدرجة الجامعية الأولى، و أتين للحصول على الماجستير. وكن عادة يجلسن معاً في صف واحد في قاعة المُحاضرات... كما كُن يحرصن على عدم الغياب ويؤدين واجباتهن الدراسية... باختصار كان هذا النوع من الطالبات نموذجيا في مظهرهن وأدائهن. ومن بين هذه الفئة طالبة سيكون لها شأن عظيم فيما بعد، اسمها **سوزان ثابت**.

كان الطلبة الذكور يميلون إلى دراسة الهندسة، وإدارة الأعمال، والاقتصاد والعلوم الطبيعية... وقلة منهم كانت تتجه إلى العلوم الاجتماعية والإنسانيات، ولكن كانت هناك، طبقاً للتقاليد الجامعية الأمريكية، أربعة مُقررات في العلوم الاجتماعية مطلوبة من كل طالب وطالبة بصرف النظر عن تخصصهم وكان من هذه المُقررات الأربعة، مادة "**المجتمع العربي**"، التي كنت أقوم بتدريسها، وهو ما جعل مُعظم، إن لم يكن كل طلاب الجامعة يتعرضون للدراسة معي... إجبارياً، وليس اختيارياً، رغم بُعد تخصصهم عن العلوم الاجتماعية، وخاصة من طلبة الهندسة. وكان المثال الدرامي على ذلك الطالبة **أميمة حاتم**، التي سيرتبط مسار حياتها ويتقاطع مع مساري في عدة نقاط، إلى أن تزوجت قريباً

من أحد مُساعدي في مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالأهرام وهو **د.ممدوح حمزة**، أستاذ الهندسة المدنية في جامعتي عين شمس وقناة السويس.

ومن القلة القليلة من الطلبة الذكور الأكبر سناً، والذي عاد للدراسة في الجامعة الأمريكية، مُهندس في الخمسينات من عُمره هو المُهندس **محب زكي**، والذي كان نموذجاً في الأداء والاجتهاد والإخلاص... ودرس معي كل مادة قمت بتدريسها، وحصل على الماجستير في العلوم السياسية... وظل مرتبطاً بي ـ سواء في الجامعة أو في المركز الذي أنشأته فيما بعد وهو مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.

كانت الجامعة تأخذ بنفس تقليد مثيلاتها من الجامعات الأمريكية، بتعيين مُساعدين للأساتذة، من طلبة الدراسات العُليا... وكانت مُهمة المُساعد أو المُساعدة هي مُعاونة الأستاذ في البحث المكتبي، وتنظيم المراجع، ومُراجعة وطباعة مقالاته وهوامشها، ومراقبة طلبته في الاختبارات والامتحانات، والمُقابل لهذا الدور في الجامعات المصرية هو ما يُطلق عليه "المُعيد"، وهي وظيفة مرموقة، لأن من يشغلها سيصبح إن آجلاً أو عاجلاً، أحد أعضاء هيئة التدريس الجامعي، وهو موقع مرموق للغاية في التركيبة الطبقية ـ المهنية المصرية، وكان ذلك حتى أكثر أهمية في مصر للمكانة الاجتماعية، بعد أن تراجعت الأسس الأخرى ـ مثل الحسب والنسب والجاه وملكية الأرض أو رأس المال.

كانت أول مُساعدة لي في الجامعة الأمريكية هي السودانية **زينب البكري**. وكانت نموذجاً رائعاً للجدية والاجتهاد، واستطاعت خلال عام واحد من العمل معي من إنجاز أطروحة ماجستير، كانت الأولى تحت إشرافي، وفي أحد مجالات اهتمامي وتخصصي، وهو "**الحركات الاجتماعية**" ولأن المُساعدين أو المُساعدات يحضرن أحياناً مع الأستاذ وهو يقوم بالتدريس... فقد كانت **زينب البكري** تحضر دروس مادة الحركات الاجتماعية، حيث استهوتها الأمثلة التي استخدمت فيها مُقارنات بين ثلاث حركات دينية في المنطقة وهي: "**الوهابية**" في الجزيرة العربية، و"**المهدية**" في السودان، و"**السنوسية**" في شمال إفريقيا. فقررت أن يكون هذا هو موضوع رسالتها للماجستير وهو ما كان. بعد ذلك ستذهب **زينب** إلى بريطانيا حيث تحصل على الدكتوراه وتعود للتدريس في جامعة الخرطوم في أوائل السبعينات... وسيظل مسار حياتها هي ووالدها **مهدي البكري**، وزوجها عالم الاجتماع السوداني **الواثق كمير** يتقاطع مع مسار حياتي طوال الربع قرن التالي.

كانت المُساعدة التالية لي بعد **زينب** هي طالبة الدراسات العُليا **جاكلين نصار**، هي مُساعدتي التالية للعام الدراسي ٧٧/٧٦. وهي مصرية من

أصول شامية ـ كاثوليكية... وكانت قمة في الذكاء والكفاءة، متعددة القدرات، وعلى معرفة باللغات العربية، والألمانية، والفرنسية، والإنجليزية... وبعد إعجابي بها، استفسرت منها عن خلفيتها المدرسية، ووجدت أنها تلقت تعليمها قبل الجامعي في مدارس ألمانية ـ من الحضانة إلى الثانوي. وكان ذلك مُلهماً لي أن أضع ابنتي **راندا** في نفس حضانة مدرسة الراهبات الألمانيات، بدءاً من العام الدراسي ٧٨/٧٧، وكانت في المعادي. لذلك قررنا لهذا السبب أساساً أن ننقل من مسكننا في جاردن سيتي، إلى فيلا في المعادي (١١ ش عرابي) وهكذا أصبح طفلينا محوراً رئيسياً في قراراتنا الأسرية والمهنية.

مر العام الدراسي ٧٦/٧٥، بسرعة... وقبل أن ينتهي الفصل الدراسي الثاني، زارني في مكتبي بالجامعة صديقي العزيز **د.إسماعيل سراج الدين**، الذي كان قد التحق **بالبنك الدولي** في واشنطن منذ خمس سنوات، ولأنه كان مُبادراً، مُثابراً، ولتنوع خلفيته المعرفية – من العمارة إلى التخطيط إلى التعليم، إلى الاقتصاد، فقد ترقى وصعد في مراتب البنك الدولي بسرعة صاروخية، وفي هذا الصعود الذي استحقه بجدارة، أوكلت له مُهمة رئيسية في قسم جديد، استحدثه البنك الدولي للمُساعدة الفنية للأقطار العربية تحت الاسم المختصر TAS (Technical Assistants Section)، وطلب مني **إسماعيل سراج الدين** أن أشترك معه، وآخرين في مشروع **لتنمية الطاقة البشرية في السعودية**. ولم أبد تحمساً للدعوة، رغم إعزازي لهذا الصديق الذي ربطتني به علاقة وثيقة، هو وزوجته **نيفين مدكور**... وطفله **عُمر**. لم يكن **إسماعيل** من النوع الذي يقبل الاعتذار بسهولة... فدخل إلى قلبي وعقلي من خلال حججه أن هذا المشروع ينطوي على "**ثورة سلمية صامتة**" في السعودية، هذه القلعة العربية المُحافظة... وزاد، وعاد، في هذا الصدد، حتى وافقت أن أشارك خلال الإجازة الصيفية فقط.

من طرائف السنة الأولى المُبادرات الرومانسية لعدة طالبات في الجامعة، من المتزوجات والأكبر سناً. واكتشفت بسرعة أن أولئك السيدات كان لديهن فراغ فكري وعاطفي... بعضهن تزوج في سن صغيرة... من نفس الطبقات العُليا البرجوازية والأرستقراطية، ولكن بعودتهن إلى الدراسة، ونموهن الفكري، فقد تجاوزن أزواجهن من حيث الوعي والنضج الفكري وتنوع الاهتمامات... وقد وجد بعضهن في صحبتي والحوار معي، ما يملأ ذاك الخواء الفكري والعاطفي في أزواجهن... وكان كل من يُردنه هو أن يستمع إليهن أحد يحترم عقولهن وكان أكثرهن اندفاعاً في تلك السنة (ش.أ)، و(ن. ج)، و (م. م. ع)... ولكني كنت دائماً وحينما أشعر بنزعة رومانسية صارخة، كنت أصرح لهن بوضوح وجلاء سعادتي في زواجي... وكان بعضهن يعتبرن ذلك تحدياً يدفعهن، نحوي أكثر،

وكان بعضهن يستوعبن الرسالة ويقلعن عن المحاولة، وإما يرحلن، أو يتسامين بالعلاقة إلى صداقة.

وخارج الجامعة بدأت علاقاتي تتشعب وتتعمق تدريجياً مع **مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية**، الذي كان مُديره الجديد الصديق **سيد يس**، وكذا كليتي **الآداب** و**الاقتصاد** بجامعة القاهرة، حيث العديد من الزملاء والأصدقاء، وأهمهم **د.محمد الجوهري**، و**د.علي الدين هلال**. وكذا **المركز القومي للبحوث**، حيث **صلاح عبد المتعال وعزت حجازي وسهير؟؟؟** وآخرون.

آل ليثم يقضون أعياد الميلاد في مصر

كنا نتوقع أن يقضي **آل ليثم** عطلة أعياد الميلاد في النصف الثاني من ديسمبر ١٩٧٥، ورأس السنة الجديدة (١٩٧٦)... ولم يكن البريد بين مصر والولايات المتحدة بالكفاءة المطلوبة... ولذلك كنا نعرف يوم الوصول، ولكن دون معرفة خط السير أو الخطوط الجوية التي سيصلون عليها، لذلك توجهت و**باربارا** إلى مطار القاهرة في مساء اليوم الموعود، وانتظرنا كل الطائرات الآتية من العواصم الأوربية (لندن/ باريس/ روما/ فرانكفورت) حيث لم تكن هناك رحلات مُباشرة في تلك الأيام بين مصر والولايات المتحدة. انصرفنا في مُنتصف الليل، فاقدي الأمل في وصول آل **ليثم** تلك الليلة... وفي العاشرة من صباح اليوم التالي، اتصل بنا تليفونيا صديقنا عميد الجامعة **توم لامونت**، وبعد التحية والسلام، قال لي أن شخصاً بجانبه يُريد التحدث إليّ. وجاء الصوت، وكان **لصهري والتر ليثم!**

لسبب ما، وصل **صهري** وحماتي في نفس الليلة التي انتظرناهما فيها... ولكن شخصاً من فرع الشركة التي يعمل بها **والتر** وهي **ساندرا أويل** في القاهرة، قابلهما صدفه في قاعة الوصول، وأخذهما خارج المطار في دقائق... وشكراه، وأكدا له أننا سنصل خلال دقائق، وألحا عليه بالانصراف، فانصرف... وبعد ساعة من انتظارهما خارج المطار، بينما نحن في الداخل، أخذا تاكسي، وطلبا منه أن يأخذهما إلى فندق وسط القاهرة... وكانت فنادق الدرجة الأولى كلها مشغولة بسبب موسم الإجازات ولاجئي الحرب الأهلية اللبنانية... فاستقرا في فندق متواضع في ميدان سليمان... وقضيا ليلة قلقة في القاهرة... وفي صباح اليوم التالي، رأيا من نافذة الغرفة لافتة فندق هيلتون القاهرة، فتوجها إليه، حيث تناولا طعام الإفطار في سياق أقرب لمزاجهما الأمريكي... ثم أخذا توجيهات للوصول إلى الجامعة الأمريكية التي كانت على بعد دقائق قليلة من هيلتون...

فذهبا إليها حيث انتهى بهما المطاف في مكتب العميد... ومن هناك تم الاتصال... وضحكنا على هذه الواقعة... لعدة سنوات.

أخذنا **صهري** وحماتي إلى كل المعالم السياحية حول القاهرة، وإلى قريتي بدين، وإلى الإسماعيلية حيث عمي **عبد الوهاب** وشقيقي **أحمد**... وذهبا وحدهما إلى الأقصر وأسوان. سعدنا بهما، وسعدا هما بأحفادهما... وأصبح تقليداً سنوياً لهما، إلى أن رحل **صهري والتر** عن دنيانا في ٢٣ يوليو ١٩٩٢. ولكن حماتي، **إيلين** وحدها، ثم مع زوجها الثاني بدءاً من عام ١٩٩٧، استأنفا نفس التقليد.

بدأت أيضاً أنشر سلسلة مقالات في صحيفة **الأهرام** اليومية، عن **الانتخابات الأمريكية**، التي بدأت معركتها في ما يُسمى بالانتخابات الأولية في الولايات ـ ابتداء بولاية نيوهامشَيَر في فبراير ١٩٧٦. ولاقت المقالات الثلاث الأولى استحساناً فائقاً، حمل كلاً من **د.بطرس غالي** رئيس مجلس إدارة مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية والسيد **يس**، مدير المركز، على الاستمرار في السلسلة طوال العام إلى أن تعقد الانتخابات النهائية في الأسبوع الأول من نوفمبر، ثم تجميع هذه المقالات في كتاب، يُقدم له **د.بطرس غالي**. وهو ما تحقق بالفعل، وكان أول كتاب يُنشر لي في مصر بعد عودتي بعنوان "الانتخابات الأمريكية ومُشكلة الشرق الأوسط"

من الشخصيات الجامعية التي اقتربت مني كثيراً منذ العام الدراسي الأول، كل من **نيكولاس هوبكنز**، أستاذ الأنثربولوجيا، وزوجته العراقية **فريال غزول** التي كانت تنهي رسالة الدكتوراه في الأدب المُقارن، والعميد **توماس لامونت** وزوجته؟؟؟. وللتقارب في العُمر والاهتمامات العامة اقترب ثلاثتنا اجتماعياً وعائلياً أيضاً. وكان العميد يُلح علينا منذ الأسبوع الأول لوصولي، أن أجعل أحد أهدافي وخدماتي للجامعة هو ربطها بالجامعات المصرية خصوصاً والمجتمع المصري عموماً... وهو ما بدأته فعلاً من خلال برنامج للمُحاضرات العامة المُشتركة مع جامعتي القاهرة وعين شمس في العلوم الاجتماعية، والتدريس مجاناً في قسم الاجتماع جامعة القاهرة الذي تخرجت منه عام ١٩٦٠، ومركز البحوث الاجتماعية والجنائية... وفي هذه المؤسسات كنت أشارك بالمُحاضرات والندوات... وطُلب مني مراراً أن أكون ضمن لجان مُناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه، حيث قدمت مادة لطلبة الدراسات العُليا عن النظريات الاجتماعية المُعاصرة... وكان يحضرها بعض الأساتذة، وفي مُقدمتهم أستاذي الكبير **د.مصطفى الخشاب**، الذي قدمني في أول مُحاضرة تقديماً مؤثراً، مس شغاف قلبي... رتبت أيضاً لقيام **د.أحمد** خليفة مُدير المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بتدريس مادة علم الاجتماع لطلبة الاجتماع في الجامعة الأمريكية. أما

د.هويكنز، فقد تعاون معي في مشروعي لتطوير برامج القسم، والتخطيط لإعداد كتاب مُشترك عن "**المجتمع العربي**"، ليكون كتاباً جامعياً للمادة الإخبارية التي تحمل نفس العنوان لكل طلبة الجامعة الأمريكية.

خير الدين حسيب

التقى بي في القاهرة في ربيع ١٩٧٦، شخص كنت قد قابلته بشكل عارض في بيروت مع صديقي د.**هشام شرابي** قبل عامين، وهو العراقي **د.خير الدين حسيب**... وكنت قد سمعت اسمه أيضاً على لسان **د.سعدون حمادي** في بغداد، ونحن نتذاكر ما آلت إليه فكرة إنشاء مركز بحثي عربي مُستقل عن كل الحكومات العربية... وهي الفكرة التي كنت قد اقترحتها في مُراسلاتي الحزينة مع **سعدون حمادي** في الشهور التي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧. المُهم تحدث إلي تليفونياً **د.خير الدين حسيب** بلهجة عسكرية صارمة، طالباً أن ألقاه في مكتب الأستاذ **سيد يس** في الأهرام في اليوم التالي في الواحدة ظهراً تماماً... قلت للرجل على سبيل المُشاكسة، ومن يُدريك أنني حُر في تلك الساعة، أو أنني أريد لقائك في مكتب طرف ثالث، لم نستأذنه في شغل مكتبه في تلك الساعة، قال الرجل بنفس الجدية والصرامة "إنني أتحدث من مكتب السيد **يسن**... وهو الذي أعطاني رقم هاتفك... وهو الذي أخبرني بأنك ستتناول معه وجبة الغداء في الثانية والنصف، غداً الأحد، كما تفعل كل أسبوع... وانتهزت الفرصة لأطلب منك الحضور ساعة ونصف مُبكراً، حتى نتحدث في أمور هامة، بدأتها أنت مع الأخ **د.سعدون حمادي**..." عند هذه النقطة بدأت الخيوط كلها تلتقي وتتقاطع... فقلت له، وهو كذلك... في هذه الحالة ستجدني في انتظارك في المكان والموعد المُحددين".

كان **خير الدين حسيب**، أهم اقتصادي عراقي ومن أبرز الاقتصاديين العرب... وكان قومياً عربياً ناصرياً، واتهمه النظام البعثي بسبب ذلك بالتفريط في أموال العراق أيام كان مُحافظاً للبنك المركزي العراقي، بوضع وديعة عراقية كبيرة في البنك المركزي المصري، رغم أنها بفائدة أعلى من تلك السائدة أيامها في أوروبا بنصف في المئة. المهم أن الرجل كان ناصرياً حتى النخاع، وتصور أن كل ناصري مثله لا بد أن يكون مُتفانياً في العمل القومي الوحدوي. وقد قيل له أنني ناصري، وبناء على ذلك كان يتحدث معي بلهجة صارمة، آمرة، بما أنه ناصري أقدم وأكبر مني سناً بحوالي عشر سنوات.

التقيت الرجل، وحدثني بلغة تلغرافية عن أن فكرتنا قد رأت النور أخيراً، وأن مركزاً لدراسات الوحدة العربية قد تأسس في بيروت، وهو يقوم فيه بدور المدير

العام المؤقت، بعض الوقت... وأن له مجلس أمناء من عدة أقطار عربية ـ ذكر لي منهم **سعدون حمادي**، و**قسطنطين زريق**، و**أحمد بهاء الدين**، و**الأخضر الإبراهيمي**... وهم جميعاً وجوه عربية مرموقة كما حدثني عن تصوراته لأنشطة المركز مستقبلاً وطلب (أو أمر) أن أضع يدي في أيديهم حتى يُباشروا العمل على الفور... وسيكون ذلك دأب **خير الدين حسيب** منذ عرفته وتعاملت معه طوال السنوات الثلاثين التالية. لقد كان أسلوبه في العمل "بسماركيا ـ بروسياً صارماً... ومع اختلافي الكامل معه شخصية وأسلوباً، إلا أن الرجل كان على استعداد لأن يتحمل ويسمع مني ما لا يتحمله أو يسمعه من الآخرين. من ذلك أنني قلت له أنني لن أستطيع أن أفعل الكثير له أو مع المركز قبل سبتمبر أو أكتوبر... وكان ذلك بسبب التزامي مع صديق آخر بمعاونته في مشروع تنمية القوى البشرية... سأل من هو الصديق ومن الذي يرعى المشروع... وكانت أسماء **إسماعيل سراج الدين**، و**البنك الدولي** و**السعودية**، كفيلة بأن تصعق أي "قومي عربي ناصري اشتراكي" في ذلك الوقت، وقد شعرت على الفور بتغير سحنته، وازدياد وجهه الأحمر أصلاً احمراراً... وسأل في دهشة واستنكار: "**كيف لناصري قومي مثلك أن يقبل بالعمل في مشروع بالسعودية، وتحت مظلة البنك الدولي؟**"... ولأنني كنت قد ناقشت الأمر تفصيلاً، وفكرت فيه ملياً مع **إسماعيل سراج الدين**، سليل الأسرة الإقطاعية التي أمّمها **عبد الناصر**، فقد كانت إجاباتي واضحة قاطعة. وهي أنني **أؤدي خدمة مهنية لشعب عربي، بصرف النظر عن النظام الحاكم... فلو كان معيار عملي هو برضائي عن كل نظام حاكم في الوطن العربي، فلن أجد بلداً عربياً واحداً، ليس لي تحفظ جوهري على نظامه الحاكم**... وسألته هل يمكن أن تسمي نظاماً عربياً واحداً، ليس لديك عليه تحفظ؟ أسقط في يده... ثم قال "أنها مسألة نسبية". قلت نعم، في السنتين الماضيتين عملت في العراق، وقبلها بسنة في السودان... ورغم اختلاف الأنظمة في البُلدان الثلاثة، إلا أنني تعلمت الكثير، وسأتعلم الكثير عن كل بلد عربي أدرسه... وبما أنني لست "**حاكماً**"، بل "**عالماً**"، فهذا كل ما أبغيه في هذه المرحلة، وإلى أن أصبح "حاكماً". نظر الرجل إلي ملياً... وسأل متى تستطيع أن تأتي إلى بيروت لمدة أسبوع، قلت له في سبتمبر ، قال: "اتفقنا... سأعيد ترتيب الأمور حول هذا الموعد".

من سوزان ثابت إلى سوزان مُبارك

كانت إحدى الطالبات في مادة "**المشكلات الاجتماعية**" (social Problems) تسمى **سوزان ثابت**، وكانت واحدة من خمس طالبات كبار

السن نسبياً، في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات، خلال الفصل الدراسي الثاني. وكانت خبرتي من الفصل الدراسي الأول أن الطالبات الأكبر سناً هن الأكثر جدية وانضباطاً في الدراسة، وكانت **سوزان ثابت** وزميلة لها اسمها **سوزان مسيحة**، يجلسان بجانب بعضهما... ويكتبان تقريباً كل كلمة أتفوه بها... ولم أكن أرتاح لهذه المُمارسة المدرسية التي تذكرني بالمدرسة الثانوية... وكثيراً ما كنت أداعبهن، بأسئلة مُفاجئة... أو أطلب منهما التعليق على بعض الموضوعات ذات العلاقة... حتى كفتا عن الكتابة المُستمرة في المُحاضرة... وتعودتا تدريجياً على المُشاركة في المُناقشات، وتوجيه الأسئلة... وهو ما سرّني، واعتبرته إنجازاً هاماً.

وقرب نهاية الفصل الدراسي الثاني كنا نناقش "**المشكلة السكانية في مصر**"... وضمن أسباب المُشكلة الزواج المُبكر... وعبثية الإعلانات التي تنصح الشباب والآباء بتأخير سن الزواج، ما دامت "**القدوة**" (Role Models) مُنعدمة، أو منافقة، تعمل عكس ما تقول أو تصرح به رسمياً... وضربت مثل **تزويج الرئيس السادات لصغرى بناته مؤخراً، وهي لم تتجاوز السادسة عشر**. حتى قيل أن أسرة الرئيس لجأت للحصول على **فتوى من مفتي الديار المصرية تبيح حساب العمر لأغراض الزواج بالسنة القمرية**... أي أن كريمة الرئيس تزوجت وهي في الواقع في الخامسة عشرة من عمرها... وضجت المُحاضرة بالضحك.

وهنا رفعت **سوزان ثابت** يدها تطلب الحديث... وقالت ما معناه "**أن الزواج مسألة شخصية... لا ينبغي الخوض فيها، خاصة إذا كانت تمس رئيس البلاد وأفراد أسرته**" والذي أدهشني لم يكن مُحتوى التعليق، ولكن الحدة التي قيل بها على غير عادة هذه الطالبة الهادئة ذات الصوت الخفيف... قلت لها "**هذا يعني أنك لم تستوعبي فلسفة المادة، رغم أن الفصل الدراسي أوشك على الانتهاء... يا للخسارة...**" فضجت المُحاضرة بالضحك مرة أخرى... وهنا إحمر وجه الطالبة، وقامت من مقعدها بطريقة درامية... وطلبت الإذن لها بالخروج... وهو ما كان.

وبعد انتهاء المُحاضرة اقتربت زميلتها **سوزان مسيحة**... مُعاتبة إحراجي وقسوتي على صديقتها... التي كان لا بد أن تقول ما قالت... واستغربت، وسألت لماذا كان عليها أن تتفوه بمثل هذا التعليق الغبي... قالت **سوزان مسيحة "لأنها زوجة نائب الرئيس**"... قلت زوجة **د.مهدي علام** نائب رئيس الجامعة... قالت "لا... لا... نائب رئيس الجمهورية **حسني مبارك!**" قلت... ولو! وتركت **سوزان مسيحة** تضرب كفاً بكف!. كان هذا هو الأسبوع الأخير

في الفصل الدراسي الثاني. وتصورت أنني لن أرى **سوزان ثابت (مبارك)** مرة أخرى، في أي من المواد التي أقوم بتدريسها، ومُعظمها اختيارية، ليس مطلوباً أن يأخذها كل طالب أو طالبة. وكم كنت مُخطئاً. ففي بداية العام الدراسي التالي، وجدت **سوزان** تجلس في الصف الأول من مادة "**الحركات الاجتماعية**". وتكرر ذلك خلال السنوات التالية!.

عُمرة وصيف حار في السعودية

تنفيذاً لما كنت قد اتفقت عليه مع الصديق **إسماعيل سراج الدين** سافرت إلى الرياض بالسعودية، حيث التقيت ببقية أعضاء الفريق في مشروع تنمية الطاقة البشرية. وكان الفريق كبيراً، يصل إلى حوالي عشرين خبيراً واستشارياً من العرب والأجانب من خارج السعودية، إلى جانب عدد مُماثل من السعوديين. وكانت وزارة التخطيط، ووزارة المالية همزتي الوصل مع البنك الدولي في البداية. وفي مرحلة تالية دخلت وزارة التربية، ثم إدارة تعليم البنات ضمن الأطراف السعودية الضالعة في المشروع.

كانت المشكلة باختصار هي: مع الزيادة الفلكية في الموارد المالية السعودية نتيجة رفع أسعار النفط عدة مرات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، أرادات السعودية ـ مثلها في ذلك مثل العراق وبقية البلدان العربية المنتجة والمصدرة للنفط ـ أن تستثمر هذه الموارد الفلكية في تنمية السعودية تنمية سريعة. ولكن لم يكن لدى السعودية موارد بشرية كافية أو مؤهلة للقيام بالتنمية المطلوبة، ولذلك لجأت إلى استيراد الأيدي العاملة من الخارج. ولكن هذه الأخيرة كانت تزداد نسبتها بسرعة مقارنة بقوة العمل الوطنية (السعودية)، مما بات يُهدد الأمن القومي السعودي والمطلوب هو: "تقليص الاعتماد على العمالة الأجنبية إلى أدنى حد ممكن، وزيادة العمالة الوطنية إلى أقصى حد مُمكن، وفي أقصر مدة زمنية مُمكنة.

قضى فريق البحث أسبوعاً للاطلاع على ومُناقشة الأوراق الخلفية للمشروع، وأسبوعاً آخر "للعصف الذهني" (Brain-Storming) ووصلنا إلى بعض التصورات الأولية التي تم عرضها ومُناقشتها على المسؤولين السعوديين. وكان أهم تلك جميعاً هو استغلال الطاقات البشرية السعودية الكامنة، أو المُعطلة ـ وفي مُقدمتها البدو والنساء. حيث من شأن إدماج هاتين الفئتين في سوق العمل الحديث، تقليص الاعتماد على العمالة الأجنبية بمقدار النصف خلال ثلاث إلى خمس سنوات.

وبعد أخذ ورد، اقتنع المسؤولون بالشق الأول من التصورات وهو إدماج البدو... وطلبوا تأجيل الشق الثاني وهو إدماج النساء في قوة العمل إلى مرحلة لاحقة.

كنت قبل السفر إلى السعودية قد رتبت مع الأسرة المُمتدة، أن نلبي رغبة عارمة عند والدتي - الحاجة جوهرة - أن تقوم بمناسك العُمرة معي، وكنت قد وعدتها بذلك فعلاً... وكانت هي على يقين أنه بمُجرد أن تلمس قدماي الأراضي المقدسة في مكة والمدينة، فإنني سأتحول تحولاً فجائياً وعميقاً إلى إنسان أكثر إيماناً وإسلاماً... نعم لقد كان تحفظها الوحيد على "ابنها وقرة عينها الدكتور **سعد**، الذي يكاد أن يكون كاملاً في كل شيء... هو عدم مواظبته على الصلاة وعدم اهتمامه بما فيه الكفاية ببقية العبادات والشعائر"، وكنت اسمعها تردد ذلك أحياناً على مسامعي مُباشرة، و وترديده لنفسها أكثر، وإن بصوت مسموع... وتصورت أمي التقية الطيبة، أن الحج أو العُمرة من شأنهما أن يُحدثا الأثر المطلوب... وكمثل كل الأتقياء البُسطاء الذين خبروا تجربتي الحج والرحلة النبوية، كما فعلت هي مع والدي رحمه الله في مُنتصف الخمسينات، كانت مُتأكدة تماماً... حرصت زوجتي **بركة** على أن تقوم بكل ما هو مطلوب من أخذ تأشيرة السفر لوالدتي من القنصلية السعودية، التي كانت عبر الشارع من منزلنا في جاردن سيتي... وودعتها هي وأختي في المطار... وكنت وآخرين في انتظارها في مطار جدة... ونزلَت من الطائرة واجتازت الجوازات والجمارك، وهي تزغرد وتغني أغانٍ دينية، ما زالت تحفظها منذ جاءت للحج قبل عشرين سنة.

وكان من أصدقائي وزملائي المصريين في جدة كل من **د.محمد الجوهري** وزوجته **علياء**، زملاء الدراسة من سنوات كلية الآداب في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، و**د.صبري الشبراوي** وزوجته الأمريكية **شارلوت**، زملاء الدراسة في أمريكا... وكانوا يعملون في جامعة الملك **عبد العزيز** في جدة... وقد احتفيا بنا خير احتفاء، وهو ما أضاف لسعادة أمي... وبعد ليلتين في جدة، توجهنا إلى مكة حيث كان لنا حجز في فندق أربع نجوم، على الشارع المفضي إلى الحرم والكعبة... ولم تكف والدتي عن الغناء والزغاريد.

كانت تلك هي رحلتي الأولى للسعودية، وللحجاز... ومثل كل بلد عربي أزوره للمرة الأولى تتداخل السياحة، مع الدراسة، مع العمل... فلا أنسى أبداً مهنتي الأصلية **كعالم اجتماع** يُراقب، ويقارن ويحلل. كما لم أنسَ نزعتي القومية الوحدوية في مُلاحظة ما يوحد وما يفرّق أبناء وعادات البلد الذي أزوره لأول مرة مع بُلدان عربية أخرى زرتها بالفعل، وأعرفها نسبياً. وبعكس بلدان عربية أخرى كنت تواقاً لزيارتها، فإن السعودية، لسبب ما، لم تكن أحد البلدان التي كنت

متشوقاً لزيارتها. وما لم يكن إلحاح **إسماعيل سراج الدين** لمشروعه، ووالدتي للعمرة ولهدايتي، لربما تأخرت زيارتي للسعودية عدة سنوات إضافية. ولكن الشاهد أنه بمجرد وصولي لهذا البلد العربي، حتى تفتحت كل حواسي الاستطلاعية... وبحثت عن زملائي وأصدقائي السعوديين من سنوات الدراسة في سياتل: **الأمير بندر بن عبد الله بن عبد الرحمن**، و**عبد الله النهيان**، و**بكر خوجه**، و**سعيد موصلي** وآخرون، وكذلك زملائي وأصدقائي المصريين والعرب الذين علمت أنهم يعملون في السعودية. كذلك كان فريق العمل في مشروع البنك الدولي مُتنوعاً من حيث الخلفيات القومية والمهنية ـ وكان من أعضاء الفريق الذين كنت أعرفهم من قبل كل من **د.حامد عمار** وهو من جيل أساتذتي، و**د.عزت عبد الموجود**، الذي كان زميلاً من آداب القاهرة ومن سنوات الدراسة في الولايات المتحدة، و**د.نعيم الشربيني** من سنوات الدراسة في الولايات المتحدة ومن مشروعات أخرى مشتركة في السودان والعراق. ومن الأساتذة الجدد الذين تعرفت عليهم أيضاً **أ.د.محمد رشدي خاطر**، أحد أساطين التربية العربية... تركت هذا الفريق العتيد لمدة عشرة أيام لأداء العُمرة مع والدتي.

مُشاجرة في الكعبة

وبقدر سعادة والدتي لأداء العُمرة، ولصحبتي، بقدر خيبة أملها في هدايتي بالشكل الوجداني الروحاني المفاجئ الذي كانت تتوقعه... على العكس كادت تفجع حينما حدثت مشاجرة بيني وبين أحد حُراس الكعبة ممن يُسمون "بالمطوّعة"، حينما رأيته يضرب امرأة شابه تطوف حول الكعبة مع أمها العجوز... وكانت الابنة تصيح فيه لماذا يضربها... وكان الرجل النحيل يقول لها أنها "**فاجرة... عاهرة**" وهو مستمر في ضربها، وكان المشهد بالنسبة لي مُستفزاً... فصحت في الرجل أن يكف عن ضربها، خاصة أن أمها العجوز بدأت تولول هي الأخرى إشفاقاً على ابنتها التي تتعرض لهذا الضرب المُبرح... ويبدو أنه لا أحد يتعرض أو يعترض على حُراس الكعبة من المطوّعة هؤلاء... لذلك استنكف الرجل أن أصيح فيه مُحتجاً، فاستدار، وبدأ ينهال عليّ أنا بعصاه (خرزانة)... وبدفاع تلقائي عن النفس، أخذت العصا من يده وبدأت أضربه بها، وسط ولولة العجوز وابنتها الشابة ووالدتي، وفي لمح البصر تجمع حولي ما لا يقل عن عشرة من زملاء الحارس، وانهالوا عليّ هم أيضاً بعصيهم... وحدث هرج ومرج حينما تدخلت النساء الثلاث في المعركة دفاعاً عني... ولحسن الحظ، ظهر بسرعة ما بدا أنه ضابط شرطة كبير، نهر الحُراس فتوقفوا، وأمرني بأن أتبعه إلى مكتبه... وبعد عدة أسئلة عن هويتي... اعتذر الرجل نيابة عن

الحارس الفظ، وفسر لي سلوكهم المؤسف حيث هم أعضاء في "**جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" الوهابية المُحافظة...**" وقبلت اعتذاره...ولكن حب استطلاعي جعلني ألح عليه لاستدعاء الحارس لمعرفة السبب الذي جعله يستهدف الابنة الشابة، وليس أمها، وليس والدتي، مثلا... وفعلاً استدعى الضابط ذلك الحارس ووجه له السؤال، وكانت الإجابة لدهشتي هو أن جزءاً من أصابع قدميها كان سافراً، ولما وضّحت أنها ترتدي نفس الطاقم مثل أمها، وأن نفس السفور بادٍ من قدمي أمها، وأكثر منها من قدمي والدتي لم يعرضهما لنفس المُعاملة... صرف الضابط الحارس، وأجاب نيابة عنه: السبب بسيط يا دكتور "**أن أمها عجوز، وكذلك والدتك... أما التي تعرضت للضرب فهي شابة جميلة، أخرج حيالها الحارس الكبت الجنسي المخزون في أعماقه**". شكرت الضابط، وعدت لوالدتي التي كانت تنتظر على بُعد أمتار هي والسيدتان الآخرتان اللتان شكرتاني على تدخلي اِنتصاراً لهما. وأما والدتي فقد وبختني على إفساد التجربة الروحية العظيمة التي أتيحت لي في الكعبة بكلمات الخنوع المصرية المعتادة: "**وإنت مالك؟ هل جئت هنا لإصلاح الكون؟ ألا تكفيك مصر؟**".

ولكن بعد هذا الحادث امتثلت لما تريده والدتي... وصلينا كثيراً وطفنا كثيراً حول الكعبة... وشربنا من ماء زمزم، واشترينا زجاجاته... وزرنا المدينة، وبقينا فيها مدة أطول. كانت سُمعة المدينة المنورة، كما كان يُردد أبي رحمه الله، أن أهلها أكثر طيبة وكرماً من أهل مكة وقد لمست ذلك بالفعل... وإن لم يمنع ذلك من احتكاك بيني وبين أحد المطوعة من حراس المسجد النبوي، الذي رأيته أيضاً ينهر سيدة ما من الواضح من ملامحها وملابسها، أنها كانت من **شبه القارة الهندية**... فقد كان جزءاً من بطنها مكشوفاً... فأخذت الرجل برفق جانباً، وشرحت له أن ذلك هو الزي الذي يلبسه نساء بنجلاديش، التي لم يكن قد سمع بها... فقلت له الهند، فقال الذين يعبدون البجر (البقر)، قلت له شيء قريب من ذلك... وعدت إلى حيث كانت تنتظر والدتي على مضض، مخافة أن يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ.

اشترينا من المدينة المنورة عدداً كبيراً من الهدايا التي يتوقعها الأهل من الأراضي الحجازية ـ مثل سجادات الصلاة، والمسابح، والجلاليب... وما إلى ذلك... وقد فرحت والدتي بذلك، ربما بقدر فرحتها بأداء العُمرة أو الحج، وواقع الأمر أنني اكتشفت أن جلب هذه الهدايا هو جزء لا يتجزأ من طقوس الحج ـ على الأقل بالنسبة للمصريين، وعلى الأخص من أهل الريف... وكنت أساعد والدتي في تذكر كل الأقارب والأباعد... وسكان الشارع، والشغالين في منزلنا وفي أرضنا في بدين... لكي نشتري لكل منهم شيئاً من "**رائحة النبي**"... وكانت

الدموع تترقرق في عينيها لما اعتبرَته كرماً زائداً مني على الأهل والأقارب والمعارف... وخاصة حينما تذكرت أخواتها الستة، وأبناءهم وبناتهم... وكثيراً ما كانت تتذكر زوجها الراحل، أبي، وتقرأ الفاتحة على روحه في كل بقعة توقفنا فيها، وتتمتم لنفسها بما معناه "ليته يبعث حياً ليشاركها هذه الخيرة المُباركة من جديد، وليرى السعد الذي يحيطها به ابنه، الذي رباه فأحسن تربيته..."

حين ودّعت والدتي في مطار جدة... كان يخيل إليّ أنها أسعد أم في العالم... وشعرت بدوري أنني أسعد ابن في العالم... وأغرورقت عيوني بالدموع... ومرت بذاكرتي خواطر عديدة، ربما أهمها كم بدا هذا القليل الذي فبذلتُه، وقتاً ومالاً كبيراً في نظر والدتي الحبيبة التي ضحت من أجلنا بالكثير... وطبعاً كما أن كل ابن، كما يقول المأثور الشعبي، هو في عين أمه غزال، فكذلك "**كل أم هي في عين ابنها ملاك**"... كانت الأيام العشرة مع أمي وحدنا بلا شك، هي تجربة فريدة، لم تحدث لي أو لها من قبل... وطوال طريق وساعات عودتي إلى الرياض، كنت أسترجع عبق تلك الأيام، ومن قبلها سنوات وذكريات طفولتي وصباي.

مع البدو

كانت الأسابيع التالية هي زيارات ميدانية قمت بها مع بعض أفراد الفريق إلى أماكن تجمعات البدو... بقصد مزيد من التعرف على أسلوب حياتهم... واستعداداتهم للتعلم، واكتساب مهارات جديدة حديثة... والانخراط في قوى العمل الحديثة...

كان البدو بصفة عامة "**رُحلاً**" طوال العام، مع قطعانهم من الإبل، والغنم، بحثاً عن الكلأ... أما في فصل الصيف، حيث ينعدم المطر، وينذر الكلأ، فإن البدو يتجمعون حول آبار المياه، ويمكثون لثلاثة أو أربعة شهور... وكان دوري أن آتي في النهاية بحزمة من التوصيات والسياسات التي من شأنها إدماج البدو في قوى العمل السعودية الحديثة... وهو ما ينطوي على تغيير أسلوب وطبيعة حياتهم بشكل جذري - أي أن يتوقفوا عن أن يكونوا "بدواً رحلاً"!

وهنا يُصادف العالم الاجتماعي أحد تناقضات مهنته الأخلاقية... **فهل من حقه أو حق الدولة - أي دولة - أن تطلب من أي فئة اجتماعية أن تغير من حياتها أو تلغي مقومات هذه الحياة كلية، لمجرد أن ذلك يُحقق هدفاً من أهداف "الدولة الحديثة"، خاصة إذا لم تكن هذه الفئة الاجتماعية قد شاركت في اختيار حكومة هذه الدولة... وبالتالي لم تشارك في صياغة أهدافها وسياستها؟**

وكان حلي المبدئي لهذه المُعضلة المهنية ـ الأخلاقية هي أن **أشرك البدو في تحديد مُستقبلهم**... أي أفترض أنهم شركاء في تحديد كل ما يخصهم، كما لو كانوا مواطنين في مُجتمع ديمقراطي فعلاً. وشجعني على هذا المدخل، أن أسلوب حياة البدو ينزع فعلاً إلى "**الحرية الفطرية**"، وأن **سلطة القبيلة، أقوى من سلطة أي حكومة أو دولة**، وهي التي يحترمها البدوي ويلتزم بها. لذلك قضيت خمسة أسابيع أنتقل، أنا وعضوين من الفريق ومُرافق سعودي، بين مناطق السعودية التي يتجمع بدوها الرحل حول آبار المياه في الصحراء... وكنا نجالس البدو ساعات طويلة في المساء، بعد أن يكونوا قد عادوا بقطعانهم من المراعي القريبة... وكنا نقبل دعواتهم لتناول الطعام، وشرب لبن النياق أو الماعز... والقهوة العربية المخلوطة "بالهال"... تعلمت النظام التدرجي بين قبائل البدو... وإن رعاة الإبل هم "**بدو المسافات الطويلة**"، أعلى مرتبة من رعاة الأغنام والماعز، وهم "**بدو المسافات القصيرة**"... وأن القبائل نفسها سواء من رعاة الإبل أو الغنم، يُصنفون تراتبياً حسب **أصول الحسب والنسب، والكرم والشجاعة**... ولكل قبيلة "**وطن**" تتحرك في نطاقه، وتحترم القبائل الأخرى حُرمته، وهي حُرمة لا تتوافق بالضرورة مع حدود الدول العربية المُلاصقة للسعودية.

حينما كنا نتحدث مع "**الفئات العُمرية المُختلفة**"، كنا نتلقى استجابات مُختلفة حول أسلوب الحياة والقطاعات المرغوبة. فرغم رضاء، بل وتقدير كل البدو لأسلوب الحياة البدوية، إلا أن الأصغر سناً كانت لديهم تطلعات أكثر تنوعاً وتطلعاً للمستقبل... وكان لديهم استعداد لاكتساب مهارات مُعينة والقيام بأعمال مُحددة، وليس غيرها، من ذلك شغفهم بكل شيء يتحرك بسرعة، ويمكن ركوبه وقيادته من الخيول، إلى السيارات إلى الشاحنات، إلى الطائرات. وكانت المهنة الأكثر تفضيلاً على الإطلاق بين فتيان وشبان البدو هي "طيار مُقاتل"، ثم "طيار قاذف"، ثم قائد دبابة، ثم قائد مُصفحة... وهكذا. وكانت وسائل الحرب المُتحركة، والتي كان حتى بعض أعضاء الفريق من خبراء البنك الدولي يجهلونها ـ مثل الفارق بين الطائرات المقاتلة (Fighters) والطائرات من قاذفات القنابل (Bombers)... ورغم أن فتيان البدو لم يقتربوا من أي من هذه الطائرات وجودياً، إلا أنهم تعلموا أن يميزوا بينها في السماوات من فوقهم، وهي سماوات صافية معظم أيام السنة.

كانت توصياتنا الأولية، بناء على جولاتنا الميدانية، هو أن العوامل المشجعة لاستقرار البدو حول الآبار الموجودة بالفعل، أو التي يمكن حفرها، بشرط بناء مسجد، ومدرسة، ومستوصف حول هذه الآبار، مع ترك الحرية

للبدو في البقاء والاستقرار أو استئناف الترحال. ثم بناء منازل من البلوكّات الحجرية بتصميم مُبسط، مع مساحات واسعة للقطعان والخيام قرب هذه المساكن. وعلى سبيل التجربة اقترحنا حملات صيفية لمحو الأمية وعلاج الأمراض، ابتداء من العام التالي . أي في صيف ١٩٧٧.

مركز دراسات الوحدة العربية

تركت السعودية في أوائل سبتمبر عائداً إلى القاهرة استعداداً للعام الدراسي الجديد، وتزامن ذلك مع عودة **بركة ورانـدا وأمير**، الذين اشتدت وحشتي إليهم، ووحشتهم لمصر... وقد قضينا معاً أسبوعاً في القاهرة، ثم أسبوعاً آخر في مصيف أبو قير التابع للشركة التي يعمل فيها شقيقي الأكبر **حامد** في الإسكندرية... وانضم إلينا خلال ذلك الأسبوع والدتي وشقيقتي **شفيقة وآمال** وأسرتهما... وانضم إلينا شقيقي الأكبر **إبراهيم** لعدة أيام... وكانت فوضى عائلية مُحببة... ذكّرتني بتجمع العائلة في المنزل الكبير بقريتي بدين.

عدنا للقاهرة لعدة أيام... قمت فيها بعمل ترتيبات استئناف الدراسة... مثل إعداد خطط تدريس كل مُقرر، والتأكد من توفر الكتب والمراجع... وما إلى ذلك... وكانت مُساعدتي الجديدة **جاكلين** في غاية الهمة والمُبادرة وهو ما طمأنني تماماً على كل الترتيبات الإجرائية اللازمة... لذلك توجهت إلى بيروت، وفاء لالتزامي مع **د.خير الدين حسيب** والمركز الوليد لدراسات الوحدة العربية.

كان لقاء بيروت بغرض وضع خطة عمل المركز الجديد للسنوات الخمس التالية. وشارك معنا من مصر كل من **السيد يس وعلي الدين هلال**، وسترتبط مسيرتنا نحن الثلاثة طوال السنوات الخمس عشر التالية... وشارك معنا من الكويت **د.محمد الرميحي**، و**عادل حسين** الماركسي المصري السابق الذي كان يعيش لاجئاً في بيروت... والإخوان **فايز وتوفيق صايغ**، و**أحمد صدقي الدجاني**، إلى جانب المضيف طبعاً، وهو **خير الدين حسيب**. وكان العمل مُكثفاً صباحاً ومساءً، يتخللهما غداء وعشاء عمل. كان برنامج العمل يتضمن القيام بدراسات مكتبية وميدانية، وتوصيات بتأليف كتب في موضوعات مُعينة، وعقد عدد من الندوات والمؤتمرات، وإصدار مجلة مُحكمة، تبدأ فصلية ثم تتحول إلى شهرية. المهم أن هذه المُفردات كان ينظمها منطق مُحدد وهو **توفير بنية معرفية أساسية للدعوة إلى الوحدة العربية على أسس موضوعية مُبرمجة، تتجاوز رومانسيات ثلاثة أرباع القرن المنصرم... وكان ذلك جديداً، ونتاجاً لعصف دماغي نقدي**، لم يبق على "أبقار مقدسة"، ولم يترك شعاراً أو مقولة

قومية، إلا وراجعها، واقترح بشأنها دراسة أو ندوة للمُراجعة النقدية. كذلك كان الجديد، أن كل هذا كان يتم بأسلوب علمي وروح ديمقراطية تماماً.

أصر **خير الدين حسيب** أن يقوم المشاركون بتعريف كل دراسة، وبمواصفاتها، وهدفها، والناتج المتوقع منها ـ وهو ما يُشار إليه عادة باسم "الشروط المرجعية" (Terms of Reference). وهي مُمارسة مُتعارف عليها في بيوت الخبرة والمؤسسات الدولية. ولم يكن ذلك غريباً أو جديداً عليّ، ولكنه كان كذلك بالنسبة لعدد من المشاركين في هذا اللقاء التخطيطي... وبالتالي وقع العبء الأكبر من هذا العمل عليّ وعلى ثلاثة آخرين... وفي اليوم الرابع خر اثنان منا نتيجة الإرهاق الشديد. ومع ذلك كان اللقاء مُثمراً ومُنتجاً ومُشبعاً للجميع... وأرسى لا فقط مسودة برنامج طموح للمركز، ولكن أيضاً أسلوب عمل: الجدية، والصرامة، وعدم إضاعة أي وقت أو مجهود.

كان من المفروض أن تصاغ مسودة وثيقة برنامج العمل خلال أسبوع، وترسل إلى كل من شارك في اللقاء لمراجعتها والتأكد على أنها تعكس بأمانة مداولات اللقاء، وإرسال أي مُلاحظات خلال أسبوعين، استعداداً لعرضها ومناقشتها وإقرارها في مجلس الأمناء في يناير ١٩٧٧... والبدء فوراً في تنفيذها... وفعلاً تم كل شيئ طبقاً لهذا الجدول الصارم.

وفي فبراير ١٩٧٧ سيحضر **خير الدين حسيب** إلى القاهرة توطئة لتنفيذ برنامج السنة الأولى.

كانت أحد الأفكار التي طرحتها بقوة في الاجتماع التخطيطي في بيروت قبل أربعة أشهر هو أهمية أن يُسأل المواطن العربي العادي عما يُريده مُستقبلاً، وليس ما تريده له "النخبة". وكان جزء من إلحاحي حول هذه الفكرة مُستوحاً من المسح الذي قمت به **للدكتوراه**، قبل عشر سنوات، والذي اتضح لي من خلاله، أنه ليس صحيحاً أن كل عربي يُريد الوحدة العربية... وأن أولئك الذين يريدونها، لا يريدونها بالضرورة وحدة اندماجية، بالشكل الذي كانت قد تمت به الوحدة المصرية ـ السورية ـ أي الجمهورية العربية المتحدة ـ والتي لم تُعمّر طويلاً. **كانت العينة التي أجريت عليها دراسة الدكتوراه حوالي أربعمئة طالب عربي من الذين كانوا يدرسون في الولايات المتحدة وكندا، خلال سنوات المد القومي.** أي أنها كانت عينة مُتميزة تعليماً ووعياً، وفي فترة مواتية لمواقف وحدوية... ومع ذلك فقد كان هناك حوالي عشرين في المئة غير مُؤيدين لمشروع الوحدة... وكانت لديهم أسبابهم، وبدائلهم للمستقبل العربي. وقد قُبلت فكرة إجراء استطلاع للرأي العام العربي حول مسألة الوحدة ومسائل سياسية واجتماعية واقتصادية

وثقافية أخرى، **وأن تكون نتائج هذا الاستطلاع هي الأساس الذي يسترشد به مركز دراسات الوحدة العربية في برامجه.**

جاء **خير الدين حسيب** إلى القاهرة ومعه موافقة مجلس الأمناء على الخطة التي وضعناها للسنوات الخمس، وفي مُقدمتها دراسة اتجاهات الرأي العام العربي... وفي اجتماع بمكتب الزميل السيد **يس** بالأهرام، طلب مني **خير الدين حسيب**، وبتأكيد قوي من السيد **يس**، أن أقدم مُقترحاً مُفصلاً لمشروع بحثي حول الموضوع، بكل التفصيلات اللازمة عن عناصر المشروع ومنهجيته، وطريقة تنفيذه، والمدى الزمني المطلوب لإنجازه، والقوى البشرية البحثية المطلوبة، والناتج المتوقع، والأهم من ذلك كله ميزانية المشروع.

وكعادة **حسيب**، كان يُريد المقترح خلال زيارته للقاهرة... أي خلال أيام... فقلت له على الفور أن ذلك سيستغرق ستة أشهر... وبعد مُفاوضات مُضنية، اتفقنا على ثلاثة شهور وسافر الرجل عائداً إلى بيروت... وفي خلال شهر كنت قد انتهيت من مسودة مُقترح المشروع، ولكني عرضتها على عدد من الزملاء لمُراجعتها، وأخذ مُلاحظاتهم عليها، وتلكأت شهراً آخر قبل أن أرسلها إليه في أبريل ١٩٧٧... وأخذ هو شهراً آخر قبل أن يُرسل إليّ مُلاحظاته ومُلاحظات بعض أعضاء مجلس الأمناء.

كنت أتعمد التلكؤ والتأجيل مع **خير الدين حسيب** لسببين، **أولهما**، نزعته للسيطرة والاحتكار، التي كنت أريد الحد منها على الأقل فيما يتعلق بي. **وثانيهما**، أجندتي الخاصة، التي كانت تحتوي على التزامين خلال صيف ١٩٧٧ أحدهما استكمال مشروع الطاقة البشرية في السعودية، والأخر هو قيادة **رحلة دراسية إلى الصين الشعبية**. كذلك كان لدي التزام ثالث، ولكنه أكثر مرونة مع **منظمة اليونسكو لدراسة ظاهرة "التحضر" (Urbanization) في المغرب**. وسيظل مركز دراسات الوحدة العربية بنداً رئيسياً، ولكن ليس وحيداً، على أجندة دراساتي وكتاباتي وأنشطتي التنظيمية طوال السنوات العشر التالية (١٩٧٦. ١٩٨٦).

عودة سوزان مُبارك
وزيارة الصين

تصورت بعد ما حدث لها في الأسبوع الأخير من الفصل الدراسي السابق، أنني لن أرى **سوزان ثابت** في أي من المواد التي أقوم بتدريسها مرة أخرى، خاصة وأن تلك المواد ليست إجبارية، ولأنها طالبة في قسم العلوم السياسية

وليس في قسم الاجتماع، وبالتالي فالمواد التي أدرسها تعتبر مواداً اختيارية يأخذها الطلبة فقط بمحض إرادتهم الحُرة.

لذلك دهشت وسعدت حينما رأيت الثنائي **سوزان ثابت (مبارك)** و**سوزان مسيحة** في أول صف في مُحاضرة مادة "**الحركات الاجتماعية**" (Social Movements)... وسألت **سوزان مسيحة** أولاً، لماذا اختارت أن تأخذ هذه المادة التي لا علاقة لها بتخصصها وهو الاقتصاد "... قالت بعفوية "**لأنك تقوم بتدريسها**"، واحمر وجهي حياء، ربما لأول مرة منذ بدأت التدريس... وتحاشيت توجيه نفس السؤال لزميلتها وصديقتها **سوزان ثابت**.

وكانت هذه المادة في مُعظمها عن الثورات الكلاسيكية الغربية : الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والروسية، وعن ثورات العالم الثالث: الصينية، والجزائرية، والكوبية، والمصرية. وكانت كمية القراءات في المادة غزيرة... وخاصة عن ثورات العالم الثالث... وكان ضمن واجبات الطلبة في هذه المادة أن يتعمق كل منهم في أحد الثورات. واختارت **سوزان مسيحة** الثورة الجزائرية، واختارت **سوزان ثابت**، الثورة الصينية.

وفي نهاية الفصل الدراسي الأول، سافرت **سوزان ثابت** مع زوجها في زيارة رسمية للصين الشعبية... وبُهر الصينيون بمعلومات ومُلاحظات وأسئلة زوجة نائب الرئيس المصري عن بلادهم ـ من المسيرة الطويلة Long Marsh، إلى الكتاب الأحمر... إلى مبادئ **ماوتسي تونج** في الحرب الشعبية، والثورة الثقافية... وهي موضوعات كان يجهلها زوجها تماماً... ومثَّل ذلك بالنسبة للصينيين لُغزاً... كان لا بد أن يفكّوه... وجدّت واجتهدت المخابرات الصينية في بكين والقاهرة، حتى علمت أن سر اللغز، هو مادة اسمها "الحركات الاجتماعية" يقوم بتدريسها **د.سعد الدين إبراهيم** في الجامعة الأمريكية بالقاهرة... فدعاني السفير إلى منزله للعشاء... وليوجه إلي أسئلة كثيرة حول غرابة **تدريس شيء عن الثورة الصينية الماركسية في جامعة أمريكية رأسمالية؟** وبعد زيارات مُتبادلة في مكتبي ومنزله ومنزلي، وجّه السفير دعوة رسمية لي ولطلابي في مادة "الحركات الاجتماعية" لزيارة الصين في العطلة الصيفية!.

أحداث يناير ١٩٧٧: انتفاضة الجياع والنضال من أجل المجتمع المدني في مصر

مضى العام الدراسي الجديد بسلاسة وهدوء... وكان الجديد فيه بالنسبة لي استحداث مادة جديدة في الدراسات العُليا تحت اسم "المجتمع المصري".

وقد تصادف أنني كنت ألقي مُحاضرة في هذه المادة، في قاعة في المبنى القديم للجامعة المُطل على ميدان التحرير، حينما سمعنا هتافات هادرة تقترب بسرعة من المبنى... توقفت، وسألت الطلبة إن كانوا يسمعون الهتافات... فردوا بحماس نعم... وسألت: هل تريدون أن تروا المجتمع المصري على الطبيعة... فردوا نعم، وقاموا من مقاعدهم مُتحفزين للخروج... نبّهت عليهم، أن يظلوا معاً، مُمسكين بأيدي بعضهم البعض... كانوا حوالي عشرين، منهم خمسة عشر طالبة، وخمس طلاب ذكور فقط... وقبل أن نخرج توجهت الطالبات بأن لديهم بديل مُراقبة المُظاهرة من سطح مبنى الجامعة المُطل على التحرير... ولكنهم جميعاً أصروا على المُشاركة الميدانية بما فيهم أربعة من الطلاب الأجانب، ذوي البشرة والشعر والملامح الغربية الشقراء... هؤلاء أخذتهم جانباً، وطلبت منهم أن يكتفوا بالمراقبة عن بُعد من فوق سطح الجامعة... واستجاب ثلاثة منهم لذلك ورفضت طالبة أصرت على الخروج إلى الميدان على مسؤوليتها... ومع ذلك طلبت منها أن تظل قريبة مني... واندمجنا في الجماهير المُتظاهرة... وعلى عكس مخاوفي أدرك المتظاهرين على الفور أن هؤلاء الطلبة والطالبات مُختلفين بعض الشيئ... ربما لملابسهم وطريقة تسريحات شعرهم... وبالطيبة المصرية المعهودة كان المتظاهرون يحيون "طلبة الجامعة الأمريكية"، وسرعان ما سرى خبر انضمام طلبة الجامعة الأمريكية لمُظاهرات الاحتجاج على إلغاء **دعم عدد من السلع الأساسية**... وصفّق المتظاهرون حينما رأوا الطالبة "**إيناس لوقا**" محمولة على أكتاف زملائها، تردد نفس هتافات المُظاهرة: "**سيد بيه... سيد بيه... كيلو السكر بقى بجنيه**" (كان المقصود **سيد مرعي**، رئيس مجلس الشعب، وصهر الرئيس **السادات**)... كانت **إيناس** وطلبة الجامعة أبعد ما يكونون عن المعاناة الحقيقية للآلاف الذين يسيرون في المُظاهرة ببطئ شديد من ميدان التحرير، إلى شارع القصر العيني، قاصدين مجلس الشعب.

وقبل أن تصل المُظاهرة إلى شارع مجلس الشعب، الذي يصل بين شارع القصر العيني وميدان لاظوغلي، فوجئنا بالقنابل المُسيلة للدموع تطلق علينا بغزارة، يتبعها هجوم بالهراوات والدروع من قوات الأمن المركزي... وساد هرج ومرج، وكر وفر... وحاول طلبتي أن يظلوا سوياً في كرهم وفرهم... لحوالي نصف ساعة ـ إلى أن داهمنا الظلام... أو بمعنى أدق غلالة دخان برتقالية، اختلطت فيها الغازات المُسيلة للدموع مع قنابل الدخان مع الأنوار الكهربائية لمصابيح الشوارع... ولأننا كنا على بعد حوالي مئة وخمسين متراً من مسكني في جاردن سيتي، فقد ناديت على طلبتي ليتبعوني... ففعل معظمهم ذلك إلى أن وصلنا إلى بنايتي في ٨ شارع السلاملك... وهناك استقبلتنا **بركة وراندا وأمير**

بذهول، ثم بإثارة... استمعنا إلى بيان فرض الأحكام العرفية، وحظر التجول... ونزول الجيش إلى الشوارع في القاهرة والمدن التي انفجرت فيها مُظاهرات الجياع... جلس طلبتي يستمعون... ثم تناوبوا الاتصال بذويهم تليفونياً... ثم جلسنا نحتسي الشاي والقهوة... ونناقش تجربة التظاهر بالنسبة لكل منهم... وأجمعوا على أنها المرة الأولى التي يفعلون فيها ذلك... وأنهم سُعداء وفخورون بالتجربة وما سمعوه من هتافات وتعليقات... وكيف أن هذه الخبرة الوجودية المباشرة ستدفع كل منهم إلى إعادة التفكير في معنى حياته في السياق العام لبلدان كمصر. ثم انتقل الحديث إلى الأسباب المُباشرة لانتفاضة الجياع - وهي قرار الحكومة بإلغاء دعم سلع غذائية رئيسية... ولكن الأهم من ذلك هو لماذا اتخذت الحكومة هذا الإجراء غير المرغوب شعبياً... وهو ما ذهب بنا إلى مُناقشة "**سياسة الانفتاح**" التي أعلنها الرئيس **السادات** منذ ثلاث سنوات - في فبراير ١٩٧٤. وكان يتضح لمزيد من المُراقبين مع مرور الأيام أن تلك السياسة أفادت الأغنياء وأضرت بالفقراء.

رفض الإعفاء من الضرائب

وتصادف أنه في أول اجتماع لهيئة التدريس بالجامعة الأمريكية بعد أحداث يناير، أن **أعلن رئيس الجامعة بفخر أن البروتوكول الذي وقع مع الحكومة المصرية منذ عشر سنوات قد تم تجديده، وأضيف بمقتضاه الاعتراف الرسمي المصري بدرجة الماجستير التي تمنحها الجامعة الأمريكية**، فصفق الحاضرون وصمت رئيس الجامعة، **د.سيسيل بيرد**، لحظة حتى هدأ التصفيق... ثم أعلن أن لديه **مُفاجأة سارة أخرى، وهي أن الرئيس السادات شخصياً قد أضاف مادة إلى مواد البروتوكول تعفي العاملين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة من دفع أي ضرائب على مُرتباتهم وأجورهم وعلاواتهم من الجامعة**... وساد القاعة وجوم... تحول إلى صمت رهيب... قبل أن أقطعه بسؤال لرئيس الجامعة: "**أنني حديث العهد بهذه الجامعة... ولكني عملت في جامعات مصرية وأمريكية من قبل... ولم يسبق لي في أي منها أن تمتعت بهذا الإعفاء الكريم من الضرائب... وسؤالي يا سيادة الرئيس، هو هل طلبتم أو طلب أحد من العاملين في الجامعة، تصريحاً أو تلميحاً للإعفاء من الضرائب التي تؤديها لخزينة هذا البلد الفقير؟**"، وانفجرت القاعة الشرقية التي كنا مُجتمعين فيها بالتصفيق... وذهلت أنا للتصفيق على مُجرد سؤال وجهته بحسن نية، ورغبة في المعرفة!.

ولكن يبدو أن السؤال قد مس جرحاً، أو غضباً مكتوماً، أو شعوراً دفيناً بالذنب لدى هيئة التدريس... على الأقل في تلك اللحظة، في ذلك اليوم... وقد

وضح ذلك من تدفق التعليقات التي جاءت من بقية الأساتذة، وخاصة الأمريكيين منهم... وكانت كلها تدور حول معنى واحد، وهو **أن العاملين في هذه الجامعة ينبغي أن يكونوا جزءاً لا يتجزأ من مصر والمصريين**... وألا يُعاملوا مُعاملة تفضيلية لمُجرد أنهم يعملون في "جامعة أمريكية"، وخاصة في هذه الظروف الاقتصادية العصيبة، والتي شهدنا أحد تجلياتها الدرامية الحزينة، منذ أيام... ومع كل تعليق إضافي، كانت حدة الغضب تزداد... حتى شعرت بالإشفاق على رئيس الجامعة... الذي تكلم مرة أخرى وأخيرة في الاجتماع، مُعتذراً عن أي سوء فهم... حيث يبدو أن هيئة التدريس لم تسمع كلماته بوضوح وهي أن الرئيس **السادات** هو الذي أضاف مادة الإعفاءات الضريبية بخط يده على المسودة التي عُرضت عليه، قبل إرسال البروتوكول إلى مجلس الشعب المصري لإقراره كقانون للبلاد... وأنه فوجئ بهذه المادة الإضافية هو نفسه، حينما تمت ترجمة القانون له منذ أيام... وأن ذلك كله قد تم منذ أسبوعين، قبل الأحداث، ولكن هذا هو أول اجتماع لهيئة التدريس منذ إقرار مجلس الشعب للبروتوكول الذي أصبح قانوناً ساريا بعد توقيعه من رئيس الجمهورية ونشره في الصحيفة الرسمية... ولم يكن أمامه شيئاً يفعله، سوى عرض الأمر للعلم أمام هيئة التدريس الموقرة، ومع ذلك فهو وإدارة الجامعة على استعداد إلى سماع اقتراحات أو توصيات توافق عليها هيئة التدريس.

وبعد مُناقشات حادة، وُوفق على اقتراح بمُقتضاه "تشكر هيئة التدريس الحكومة المصرية على تجديد البرتوكول مع الجامعة الأمريكية، وتعتذر عن قبول مادة الإعفاء الضريبي، وتطلب من السلطات في الجامعة الأمريكية، مصريين وأجانب، على السواء" الاستمرار في خصم الضرائب... ووفق على التوصية بالإجماع، فسادت موجة تصفيق حاد.

وكان رئيس الجامعة ونائبه وعميدها ضمن الموافقين على التوصية... ولكن رئيس الجامعة كلّف رئيس هيئة التدريس كتابةً، بأن يقترح لجنة تقوم بالتخاطب مع السلطات المصرية بشأن التوصية... وعرض رئيس هيئة التدريس الاقتراح، ووافق عليه، واختيرت لجنة ثلاثية برئاستي لتنفيذ التوصية، وإحاطة هيئة التدريس بنتيجة اتصالاتها مع السُلطات المصرية، كان عضوا اللجنة الآخران هما **د.لويس كانتوري** الأمريكي وأستاذ العلوم السياسية، وأحد من تحدثوا بحماس حول الفوارق الطبقية البغيضة التي زادت في المجتمع المصري بصورة صارخة منذ سياسة الانفتاح، وتحدث أيضاً عن فوارق مُماثلة في المرتبات بين أساتذة الجامعة الأمريكية، وزملائهم في الجامعات المصرية، والتي تصل إلى (٥)

أمثال على الأقل. أما عضو اللجنة الثالث فقد كان المصري **د.محمد** وهو عالم لغة عربية فاضل، هادئ الطباع، ولكنه يتمتع باحترام الجميع.

بداية معركتي مع قانون الجمعيات

توجهت اللجنة في أولى محطاتها إلى **مصلحة الضرائب**، التي كان مبناها على بُعد دقائق من الجامعة، وطلبنا مُقابلة مُديرها العام، الذي استجاب فوراً، وقابلنا بحفاوة... وكان عضوا اللجنة قد اختاراني رئيساً، ورغم أنني كنت أصغرهم سناً، ومركزاً حيث كنت ما أزال أستاذا مُشاركاً. وأغلب الظن أن اختياري كان مُرتبطاً بشيئين. أولهما، مُبادرتي بإثارة الموضوع في اجتماع هيئة التدريس، والثاني، هو أنني كنت "**مُزدوج الجنسية**" مصري . أمريكي. المهم أنني شرحت طبيعة مُهمة اللجنة، وهي "**رجاء إلى مصلحة الضرائب أن تستمر في جباية الضرائب من العاملين في الجامعة الأمريكية بناء على قرار إجماعي منهم**". طلب مدير مصلحة الضرائب أن أحكي القصة مرتين... وبعد المرة الثالثة... وكنا قد فرغنا من شرب القهوة... قال الرجل بصوت واضح، حاسم، ولكنه مُهذب: "**أنه يُقدر مشاعر العاملين في الجامعة الأمريكية، وخاصة في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها مصر... ولكنه لا يستطيع، حتى لو أراد، أن يستجيب لطلبنا... فالضرائب لا تفرض إلا بقانون، ولا تعدّل إلا بقانون... ومع ذلك إذا كانت نزعة الخير هذه أكيدة، فإنه يقترح أن نتوجه إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، والتي تقع على بعد خطوات من الجامعة، ونتبرع بقيمة الضرائب لأحد الأعمال الخيرية التي تقوم بها تلك الوزارة...**" وظل الرجل يضرب كفاً بكف، وهو يودعنا، ويتمتم، أنه رأى في حياته بمصلحة الضرائب كل العجائب والحيل، إلا هذه الطرفة... أناس تعفيهم الحكومة من الضرائب، وهم يرفضون... ولكنه سعيد أنه عاش ورأى، قبل أن يتقاعد في أول يوليو القادم، هذه الواقعة الفريدة. والتي يُجزم أن مديراً آخر للمصلحة من قبله، ولا مدير آخر من بعده... شهدها أو سيشهدها.

وخرجنا من مصلحة الضرائب نجر أذيال الخيبة لفشلنا السريع في المُهمة التي كلفنا بها زملاؤنا.

كانت الساعة ما تزال العاشرة صباح يوم سبت، وهو يوم عطلة في الجامعة... وبالفعل مررنا في طريق العودة بوزارة الشؤون الاجتماعية... فاقترحت أن نتوجه فوراً إلى مكتب الوزيرة، ونطلب موعداً... لمُناقشتها في الاقتراح الذي جاء علينا به مُدير مصلحة الضرائب... وفي مكتب سكرتيرة الوزيرة، قدمت نفسي وزملائي... وطلبت تحديد موعد... أتت على الفور مديرة

مكتب الوزيرة، وعلمت بطلبنا... فقالت أن الوزيرة... على استعداد لرؤيتنا على الفور، حيث لديها نصف ساعة قبل الموعد التالي، هذا إذا كانت نصف ساعة تكفي لمُناقشة ما نريد... أخبرت **د.كانتوري** بالإنجليزية، وتشاورنا لدقيقة، وأخبرنا مدير المكتب برغبتنا في رؤية الوزيرة... وقد كان، واستمعت **د.عائشة راتب** باهتمام... وقالت أننا أتينا فعلاً للجهة المُختصة التي ستستجيب لطلبنا... واستدعت مُدير عام الجمعيات... وشرحت له ما نريد، وطلبت منه أن يقوم باللازم فوراً... ابتسم الرجل، واستأذن من الوزيرة أن نصحبه إلى مكتبه... ودعتنا الوزيرة وهي تشكرنا على مُبادرتنا الرائعة... وذهبنا مع مُدير عام الجمعيات إلى مكتبه... لتبدأ رحلة عذاب لمدة ثمانية أشهر... انتهت بفشل اللجنة للمرة الثانية... وتبخر المبادرة، ورحلة أخرى أخذت فيها عهداً على نفسي أن أناضل لتغيير قانون الجمعيات رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤.

ترجم مُدير عام الجمعيات تعليمات الوزيرة بالتنفيذ "الفوري"، بأن شرح لنا على فنجان القهوة الثالث (بعد مصلحة الضرائب ومكتب الوزيرة) أن الأمر غاية في البساطة، وهو أن يُكوّن العاملون في الجامعة الأمريكية "جمعية"، يكون إيرادها هو قيمة الضرائب، التي نريد التبرع بها، ويمكن لإدارة الجامعة أن تحول القيمة مُباشرة لصندوق الجمعية، بعد تأسيسها رسمياً طبعاً، ثم يُقرر مجلس إدارة الجمعية المنتخب وجوه الخير، التي تنفق فيه هذه الأموال... وأنه على استعداد أن يكون مُستشاراً للجمعية، بعد إشهارها، لإرشادها إلى أنواع الأنشطة والمشروعات الأولى بالرعاية، ثم طلب من سكرتيره إحضار الأوراق والنماذج المطلوبة لتأسيس جمعية العاملين بالجامعة الأمريكية لتنمية المجتمع... وهذا هو الاسم الذي اقترحه جنابه.

أخذنا رُزمة متوسطة الحجم من الأوراق... وشكرنا المُدير العام وترك زميلي عضوا اللجنة لي مُهمة استيفاء هذه المُهمة البيرقراطية "البسيطة"، ولا بد أن تكون "بسيطة للغاية" بعد مُباركة الوزيرة ومُدير عام الجمعيات!

إلى نهاية العام الدراسي كنت ما زلت أتردد بين مكاتب وزارة الشؤون ومديرية الشؤون الاجتماعية للقاهرة في مُجمع التحرير لاستيفاء الأوراق والأختام والشهادات... وانفض عني تماماً عضوا اللجنة اللذان انشغلا بانتخابات نهاية الفصل الدراسي، ثم سافر كل منهم في إجازته الصيفي... وحينما استؤنِف العام الدراسي التالي ١٩٧٨/١٩٧٧، كان حماس الأساتذة قد تبخر، وحل محله يأس من إمكانية الاستمرار في المشروع... وهكذا نجحت بيرقراطية الدولة المصرية في إجهاض هذه المبادرة المخلصة من أساتذة الجامعة... ولكن بالنسبة لي تبلور هدف آخر لم يكن ضمن أجندتي أصلاً، وهو محاربة قانون الجمعيات،

الذي يُكَبل كل المُبادرات الأهلية... وعبر كفاح توج بنصر قصير في مايو ١٩٩٩، أي بعد ٢٢ سنة من بدء ذلك الكفاح!

رحلة تاريخية إلى الصين

كان الفصل الدراسي الثاني للعام ١٩٧٦/ ١٩٧٧ حافلاً بالأحداث وإرساء بذور جديدة لمزيد من مُفردات مشروعي الفكري وعملي العام... من ذلك الاتفاق على مشروع الدراسة الميدانية لاتجاهات الرأي العام العربي، ومواصلة دراستي لتنمية الطاقة البشرية في السعودية، والسكان والتحضر في المغرب... وجاءت دعوة السفير الصيني في القاهرة لي ولطلابي في مادة الحركات الاجتماعية لزيارة الصين في صيف ١٩٧٧، كأكثر الأحداث إثارة لي ولمجتمع الجامعة الأمريكية على الإطلاق خلال ذلك العام.

سألني السفير الصيني عن عدد الطلبة الذين يدرسون معي هذه المادة ومع السيدة **سوزان مبارك**. فقلت له أن العدد حوالي ثلاثين. والذي لم يستوعبه السفير، هو أن هؤلاء الطلبة "كانوا" يدرسون، ولم يعودوا... وبعضهم تخرج في الواقع في نهاية يناير... ولم يعودوا طلاباً... ولكن السفير قال أن الدعوة لمدة أسبوعين، واقترح برنامجاً حافلاً لرؤية معالم الصين التاريخية، وعقد حوارات مع مسؤولين ومُثقفين صينيين، وزيارات ميدانية لقرى ومزارع ومصانع وجامعات في أقاليم الصين المُختلفة.

وبمُجرد إعلاني للخبر، حتى انفتحت عليّ الأبواب، وانهالت علي الطلبات من كل فج عميق، لا فقط من طُلاب الجامعة الذين لم يدرسوا معي مادة الحركات الاجتماعية، بل وممن لم يدرسوا أي مادة في علم الاجتماع على الإطلاق... أكثر من ذلك انهالت الطلبات من خارج الجامعة... وعلى الطريقة المصرية المُعتادة، انهالت مع هذه الطلبات الضغوط والوساطات لكي يحظى أصحابها بأن يكونوا ضمن الوفد الذي سيُسافر إلى الصين... وكانت تجربة مريرة بالنسبة لي... فقد تقدم، مثلاً، أساتذة من الجامعة، منهم رئيسة القسم، **د.سنثيا نلسون**، ورئيس قسم العلوم السياسية، **د.تيم سوليفان**، وأساتذة آخرون... كما تقدم أستاذان من كلية طب جامعة القاهرة، والمُحامي العام للقاهرة المُستشار **محمد سعيد عشماوي**، وأحد كبار صحفييّ جريدة الأهرام، **أ. محمد سلماوي**. حتى تجمع لدي أكثر من مئة وعشرين طلباً للانضمام إلى الرحلة، التي كان مُقرراً لها ثلاثون فرداً فقط، أي تقدم أربعة لكل مكان متاح... ووضعني ذلك في حرج شديد، وأحال ما بدا أنه مصدر إثارة إلى ما يشبه الكابوس. وكنت التقي بالسفير الصيني أو الوزير المفوض دورياً للتنسيق...

وكانت السفارة في البداية مُندهشة لهذا الإقبال الشديد... إلى أن أدركت مثلما اكتشفت أنا، **أن هذه أول فرصة تتاح لمصريين غير رسميين لزيارة الصين منذ عام ١٩٤٩.** الطريف أن بعض من تقدموا لجأوا لوزير الخارجية السيد **إسماعيل فهمي**، لكي يتوسط لهم لدى السفير الصيني مُباشرة ـ ومنهم المُستشار **محمد سعيد العشماوي**، **وراندا**، كريمة وزير الخارجية نفسه!.

في ضوء هذه الضغوط والرغبات المحمومة، اتفقت مع السفير الصيني على مجموعة من الضوابط الموضوعية التي تجنبه أيضاً الحرج مع حكومته، والحرج مع من يتصل به من المسؤولين المصريين. من ذلك:

١- أن يكتب لحكومته، شكرنا العميق على دعوتها الكريمة.

٢- أنني وطلابي وبعض أصدقاء الصين من المصريين نقبل الدعوة فقط إذا دفعنا نحن تكاليف الرحلة والإقامة في الصين، حيث لا نريد أن نثقل على كاهل الشعب الصيني المُناضل.

٣- أنه إذا قبل مبدأ أن يتكفل كل راغب في المُشاركة، تكاليف السفر والإقامة، فلتسمح لنا السلطات الصينية بفتح باب المُشاركة لمن يرغب ويقدر.

ووافق السفير الصيني أن يكتب لحكومته بذلك، وجاءت الموافقة فعلاً بعد أسبوعين... وقد أراح ذلك ضميري جداً، غير أن السُلطات الصينية مع ذلك اشترطت ألا يزيد العدد عن خمسين مُشاركاً حسب الطاقة الاستيعابية في الفنادق خلال شهر يونيو ١٩٧٧.

وقد وضعت شرطاً إضافياً، لم أخبر به السفير الصيني، وهو مجموعة من **القرارات والمُحاضرات عن تاريخ الصين وثقافتها، وأيديولوجية الحزب الشيوعي الصيني**... وجعلت ذلك اختباراً لجدية من يرغبون السفر معي إلى الصين. ثم أعطينا **الأولوية المُطلقة لمن درسوا مادة "الحركات الاجتماعية"**، ثم **لأساتذة الجامعة الأمريكية**، ثم **لأقارب الطلاب والأساتذة من الدرجة الأولى!.**

وسارت الأمور إلى حد بعيد ضمن هذه الحدود... وتقدم مندوب شركة **الخطوط الجوية اليابانية** بعرض مُغرٍ، يتيح لنا فرصة قضاء أسبوع في اليابان في طريق الذهاب، **وأسبوع آخر بين هونج كونج ويانجكوك**، في طريق الإياب... **وكانت فعلاً رحلة أسطورية لكل من شاركوا فيها.**

اللقاء الأول مع حُسني مُبارك: لم يكن بقرة ضحوك

تخرجت **سوزان ثابت مبارك** في أول يونيو ١٩٧٧ بحصولها على البكالوريوس من الجامعة الأمريكية في العلوم السياسية. وبهذه المُناسبة أقامت حفل عشاء بسيط في حديقة الفيلا التي تقيم فيها الأسرة ـ هي **وحسني** وولديهما

علاء وجمال ودعت إلى الحفل أساتذتها من قسم العلوم السياسية، ومعظمهم أمريكيون ودعتني من قسم الاجتماع، حيث كانت قد درست معي **أربعة مواد إلى ذلك الوقت**، وهي أكثر مما درسته مع أي أستاذ آخر في الجامعة، بما في ذلك أساتذة القسم الذي تخرجت منه... أو هكذا قالت لي وهي تلح عليّ لتلبية دعوة العشاء، التي ضمت زوجتي **بركة**، وزوجات الأساتذة الآخرين المدعوين... وقد لبيت الدعوة لأنني في الواقع أصبحت أكبرها وأُقدرها تقديراً حقيقياً... **فهي عادت لتدرس معي في كل فصل دراسي، رغم آرائي النقدية الواضحة التي عبّرت عنها صراحة، ودائماً في نظام الرئيس السادات، التي كان زوجها يحتل فيه المركز الثاني** وباستثناء المشهد الصدامي الأول، في مادة "المشكلات الاجتماعية" في أواخر الفصل الدراسي الثاني، ربيع ١٩٧٦، فإنها أصبحت أكثر تحكماً في التعبير عن مشاعرها الخاصة بصورة دفاعية!

كانت الصورة العامة الشائعة عن نائب الرئيس هي أنه "**لا لون له ولا طعم ولا رائحة**"... ومع ذلك يظهر دائماً في صورة لقاءات الرئيس مع مسؤولين آخرين مصريين وعرب وأجانب، وهو **يبتسم ابتسامة عريضة، لا تتغير... وكان بوجهه شبه المُستدير، يبدو للمصريين قريب الشبه بصورة تظهر على علبة نوع من الجبن الفرنسي، اسمه "لافاش كري"، أو البقرة الضحوك**... وكان المصريون في كثير من نكاتهم في تلك الفترة يدّخرون له النكات التي تدل على التواضع الشديد في الذكاء!

ورغم أن نائب الرئيس حرص على أن يتجاذب أطراف الحديث مع جميع المدعوين، إلا أنه خصني بحديث جانبي طويل... حرص أن يسمع فيه مني رأيي في عدد من القضايا، أذكر منها قضيتي "**انتفاضة الجياع**"، **التي كان النظام يُطلق عليها "انتفاضة الحرامية"**، و"**التطرف الديني**" مصرياً، وقضية **الصحراء والصراع المغربي - الجزائري** عربياً، وقد لمست في أسئلته وتعليقاته، **أنه ليس مُجرد بقرة ضحوك، بل مُتحدث ذكي ويجيد الاستماع، وأهم من ذلك استخلاصي أن سوزان كانت تحكي له كثيراً مما يدور في مُحاضراتي!** سألته عن الصين، بمُناسبة الرحلة التي كنا سنقوم بها بعد أيام، اكتفى بالقول "**بأنها بلاد مُدهشة... سل سوزان فهي تعرف عنها أكثر ... وبعد رحلتك أكتب لي تقريراً عن الصين!**".

صحبتني **بركة** في هذه الرحلة... التي كانت بمثابة **شهر عسل آخر**، رغم الأعباء التنظيمية للرحلة...

بدت مسافة الطيران ووقته طويلين جداً - حوالي **عشرين ساعة طيران**، غير توقفنا في **كراتش وسنغافورة**... وصلنا **طوكيو ليلاً**، مُرهقين جداً... وفوجئنا

بحجم غرف صغيرة جداً في الفندق الذي حجزت لنا فيه شركة السياحة التي نظمت الجزء الخاص باليابان... ومع ذلك فقد استوعبنا تلك الصدمة، واستيقظنا في اليوم التالي مبكرين لجولة في طوكيو... ومعالمها... ثم ترك لنا عدة ساعات للتجوال الحُر... وراعنا جميعاً **النظافة والنظام والازدحام** ـ وأدركنا ترابط هذا الشعب لكي ينتج **مجتمعاً صناعياً فائق التقدم بلا ضوضاء أو تلوث**... في اليوم الثاني زرنا **القصور الإمبراطورية في طوكيو وضواحيها**. وفي اليوم الثالث، أخذنا القطار في رحلة إلى مدينة "نارا"، العاصمة التاريخية، ذات الأبنية اليابانية التقليدية والحدائق الجميلة... وفي اليوم الرابع زرنا المدينة التي كان يطلق عليها المُشاركون في الرحلة... البلد التي لا تسمى، فقد كان اسمها الياباني "نيكو". أما اليوم الخامس والأخير فقد قضيناه في أحد أحياء طوكيو الشعبية... حيث الباعة يزدحمون في الشوارع نهاراً، وعلب الليل والترفيه مساءً... وكانت فرصة أيضاً للعابثين والمُغامرين من أعضاء الرحلة لكي يصولوا ويجولوا، وليترددوا على محلات "**الجيشا**" حيث تقوم النساء اليابانيات المُدربات، تدريباً خاصاً للترفيه عن الرجال **بدءاً من خدمة تقديم الشاي والطعام إلى التدليك! وطبعاً كل ذلك ـ مثل كل شيئ في اليابان ـ كان باهظ التكاليف، وهو ما لم يتحمله إلا قلة قليلة من الميسورين من طلاب الجامعة وذويهم الذين أتوا معهم.**

استقبلنا في **مطار بكين استقبالاً شبه رسمي**، حيث كان هناك مندوبين عن الحكومة والحزب، وبلدية بكين، والسفير المصري وعدد من العاملين بالسفارة. ورغم حفاوة اللقاء، إلا أننا شعرنا منذ الدقيقة الأولى بعد النزول من سلم الطائرة **بالمناخ الاسبرطي شبه العسكري**. من ذلك أنه طلب منا أن **ننتظم في طابور، ذو تشكيل رباعي** (four a braest)، وهو ما استهجنه واستغربه الطلبة وذويهم، ولكنهم امتثلوا للتعليمات... وكانت هذه بداية طيبة من وجهة نظري... خاصة وأنه حدث في اليوم التالي – أول أيام برنامج الرحلة – **أن تحرك الركب بعد موعد التجمع بخمس دقائق، تاركاً وراءه ثلاثة من المُشاركين... وكان ذلك درساً مُبكراً في ضرورة الانضباط...**

استيقظت مُبكراً صباح أول يوم لنا في بكين... كان الوقت بعد السادسة بقليل وأطللت من غرفة الفندق الذي كان يطل على "**ميدان السلام السماوي**"... رأيت حركة **آلاف الدراجات**، ولكن بالكاد سمعت الأزيز الخفيف لبدالاتها، وركابها من الصينيين **بزيهم الأزرق والرمادي الموحد، والذي كان العالم يُطلق عليه "بدلة ماو"** فهو نفس الزي الذي كان يلبسه ما يقرب من **مليار صيني ـ رجالاً ونساء**. كان مشهداً هائلاً... وهذه الآلاف تمر أمام الفندق في نظام

وهدوء ودون جلبة أو ضوضاء... كان ما يزال هناك ساعة إلى وقت الإفطار من السابعة إلى الثامنة، وكانت **بركة** ما تزال في نوم عميق... ارتديت ملابسي بهدوء، وغادرت الغرفة لكي أتريض في ميدان السلام السماوي وأكتشف المنطقة حول الفندق... وهو ما فعلته لمدة أربعين دقيقة... كنت فيها أكاد أكون الوحيد الذي يسير على قدميه في هذه المنطقة غير السكنية... فقد كان **فندق بكين الكبير**، أفخم فنادق العاصمة، الذي يضم فيه، واحداً من عدة مبانٍ ضخمة تحيط بالميدان... وهي مبانٍ سأتعرف عليها فيما بعد مع أفراد الرحلة... وأهمها "**المدينة المُحرمة**" (the Forbidden City) التي كانت تضم شبكة قصور أباطرة الصين، وبقية أفراد العائلة الحاكمة، ومساكن مُساعديهم من كبار رجال الدولة، وخدمهم وحشمهم...

كان كل شيء كبيراً، ضخماً، فخماً حول ذلك الميدان الذي هو أكبر ميدان مفتوح وقع عليه نظري في أي مكان في العالم إلى تاريخه... وكانت هذه الضخامة والفخامة تتناقض كلياً مع حجم قامة الإنسان الصيني ومع بساطة مظهره... وذكرت ما كتبه **كارل فيتفوجل**، عن "**الاستبداد الشرقي**" (*Oriental Dispotism*)، وتخيلت أن ملايين الصينيين الذين شُيّدوا. كل هذه المعالم العملاقة، لا بد أنهم إما كانوا محكومين بقبضة حديدية أو بعقيدة روحية، مكّنت هؤلاء الأباطرة أن يتركوا كل هذا التراث... وفي طريق عودتي إلى الفندق، لم أملك إلا أن أعقد مُقارنة، بين ما شاهدته بشكل خاطف حول ميدان السلام السماوي وبين **أهرامات الجيزة**، وغيرها من صروح مصر القديمة... لا بد **أنها نفس الآلية "الروحية ـ الزمنية"** .

في بكين وحولها ، قضينا ثلاثة أيام شاهدنا فيها معالم المدينة المُحرمة، و**سور الصين العظيم**، ومتاحف بكين... وقضينا يومين آخرين في زيارة إلى **جامعة بكين**، و**مقر الحزب الشيوعي الصيني**، و**مصنع للآلات الكهربائية**... و"محلات الصداقة" (Friendship Store)... وفرزت هذه الأنشطة أعضاء الرحلة الخمسين إلى ثلاثة مجموعات: **الأولى يغلب عليها الاهتمام بشؤون الصين المُعاصرة، وكانوا حوالي عشرين**، والمجموعة الثانية يغلب عليها **الاهتمام بالصين القديمة والتاريخية**، وكانوا حوالي عشرة، والمجموعة **الثالثة** يغلب عليها **الاهتمام بالتسوق وشراء التحف الصينية البالغة الجمال والدقة في صناعتها، وكانوا الأغلبية بلا مُنازع، حوالي ثلاثين**. وبالنسبة لهذه المجموعة الأخيرة كانت أهمَ مُفردات البرنامج في المدن الصينية الأربعة التي زرناها هي "**محلات الصداقة**". وبمعنى من المعاني أتاحت لي هذه الرحلة لا فقط دراسة الصين والصينيين، ولكن بنفس القدر **دراسة مصر والمصريين**، أو بتعبير أدق **الشرائح**

البرجوازية والأرستقراطية العُليا المصرية... وبسبب المركزية الشديدة، وهيمنة الدولة على كل النشاط الاقتصادي، كان لا بد أن يتم **استبدال العُملة من خلالي ومن خلال مسؤول صيني واحد في أحد فروع البنك المركزي الصيني في كل مدينة**... وهو الأمر الذي ألزمني، وأتاح لي فرصة الاطلاع على كل ما يغيره كل مشارك من عملات صعبة دولارية أو استرلينية إلى العُملة الصينية "**الياون**"... من ذلك أن أم أحد طالبات الجامعة، قد غيّرت ما يربو على **ربع مليون دولار** قيمة مشترياتها في الصين وحدها... وحينما قلت لها مُداعباً، كيف ستسافرين بكل هذه المشتريات إلى مصر... فوجئت بأنها رتبت ذلك مُقدماً من خلال السفارة الجزائرية في كل من بكين والقاهرة... وكان ذلك لغزاً آخر... نعم لقد كان زوجها الراحل أحد الضباط الأحرار الذي ساعد الثورة الجزائرية، واستشهد في الجزائر... وكرّمت ذكراه **الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال** بمنح زوجته وأبنائها الجنسية وجوازات سفر دبلوماسية جزائرية... واستغلت الأرملة ذلك في فتح بوتيك فخم في القاهرة تُجلب له تحفاً من كل أنحاء العالم... وكانت هذه هي فرصتها السانحة "لشراء التحف الصينية، بأسعار خيالية في انخفاضها.

كان المُدهش في المدينة المُحرمة هو معمارها وذوقها، ونقوشها المنمنمة... وكانت عدة مبانٍ في المدينة تحاكي تماماً ما كانت عليه عهود الأباطرة، إلى القرن التاسع عشر... وتعلمنا منها كثيراً عن الأسر الصينية الحاكمة على امتداد ثلاثة آلاف سنة... وتطور الحِرف المُختلفة المُرتبطة بصناعة الأواني الفخارية، ونقوشها، وحرقها في أفران شديدة الحرارة، حتى تتحول إلى ما نُطلق عليه "**الصيني**"، في كل اللغات... وكذلك صناعات أخرى بدأت في أو ارتبطت بالصين، مثل **الورق**، و**البارود**، و**السجاد**... أما "**المنمنمات**" فقد كانت صناعتها شيئاً خارقاً بالنسبة لنا... من ذلك مشهد أحد الحرفيين الذي قضى **عشر سنوات في نقش بيضة نعامة**...!

وكان المُدهش في رؤية **سور الصين العظيم**، الذي يبعد عن بكين بالأتوبيس حوالي مائتي كيلو متر، لا فقط امتداده لأكثر من **ثلاثة آلاف كم متر طولي من الشمال إلى الجنوب غرب الصين**، ليفصلها ويحميها من غزوات "**البرابرة من قبائل الأستبس في أواسط أسيا**"، الذين عُرفوا فيما بعد باسم المغول والتتار... ولكن المدهش بنفس القدر هو **ارتفاع السور لأكثر من خمسة عشر متراً عن سطح الأرض، وعرضه الذي كان أيضاً حوالي خمسة عشر متراً في مُعظم أجزائه**... ولذلك يُمثل سور الصين العظيم هذا **أكبر "كتلة مبنية" في العالم**، وتزيد في ذلك عن الهرم الأكبر عشرات المرات... وكان هو **الأثر الوحيد من بناء البشر، الذي ظهرت صورته على عدسات كاميرات رواد القمر**...

أدركت أن القراءة عن سور الصين العظيم شيء ورؤيته رأي العين شيء آخر تماماً.

وكان المُدهش في زيارتنا ومناقشاتنا، من خلال مُترجمين يُجيدون العربية والإنجليزية، هو **حماسة الفلاحين**، وقصصهم في كيفية التغلب على **الأمية**، وعلى **الذباب**، و**العصافير** التي تأكل قدراً كبيراً من المحاصيل... وحكى كبار السن منهم كيف كانت أحوالهم قبل انتصار الثورة عام ١٩٤٩... وكيف تغير الحال... كان كل شيء رأيناه وسمعناه عن أوضاع الصين المُعاصرة في الأسبوع الأول، يؤكد تماماً الصورة المثالية لمجتمع اشتراكي كما قرأنا عنه في الكتب والكلاسيكيات الماركسية.

زينب وانج الصينية - المصرية

لحسن الحظ كان معنا طالبة مصرية من أصل صيني هي **زينب وانج**، التي استقرت أسرتها في مصر منذ الحرب العالمية الثانية، وكانت أسرتها تملك مطعماً صينياً كان الوحيد من نوعه في مصر، بشارع **سليمان** وسط القاهرة... وكانت **زينب** ترى وطنها الأصلي لأول مرة... وكانت هي وأسرتها يُعبرون عن الامتنان كثيراً لي، لإتاحة هذه الفرصة لها... وكانت الأسرة حريصة على تعليم أبنائها وبناتها اللغة الصينية. ورغم بعض الصعوبة في البداية، إلا أنها بدأت تتابع المتحدثين بالصينية مُباشرة، دون انتظار للترجمة... وكانت **زينب** مع ذلك لا تريد للسُلطات الصينية أن تعرف ذلك... ويبدو أن والدها بقدر ما كان سعيداً بمُشاركة ابنته في الرحلة، بقدر ما كان خائفاً عليها من تعسف السُلطات الصينية معها بسبب ما كان يسمعه من لاجئين صينيين آخرين عن بشاعة الحكم الشيوعي في الصين... لذلك لم تتحدث معي **زينب** عما كانت تسمعه من مُحادثات الصينيين مع بعضهم البعض... إلا بعد أن تركنا الصين.

كانت هناك عناية فائقة بالوجبات والأطعمة، سواء في الفندق أو المآدب الرسمية، التي كانت لدى أو على موائد وزراء ورؤساء حزبيين، وخاصة في بكين وشنغهاي... وكان أكثرها إبهاراً وتأثيراً هو عشاء **وزيرة الثقافة**، التي قيل لنا أنها شاركت في "**المسيرة الطويلة**" في الثلاثينات، وكانت دون العشرين في ذلك الوقت... وتحدثت الوزيرة بتواضع شديد، حيث قالت أنها في تلك السن المُبكرة لم تكن تدرك تماماً ماذا تفعل... أو أن ما تفعله سيكون جزءاً من أحداث كُبرى تغير مُستقبل أكبر بلد في العالم، وبالتالي تغير مُستقبل العالم كله... وما تتذكره هي أن بواعث الانضمام للحزب والمسيرة بين المُراهقين في ذلك الوقت

كانت مثالية ورومانسية. ثم سألت ببساطة وطيبة: هل ما زال المُراهقون هذه الأيام بنفس القلق والتمرد، كما كان أيامنا ؟

في كل اللقاءات مع مسؤولين حكوميين أو حزبيين، كان اللقاء يبدأ بكلمة ترحيب بنا... وكنت دائماً أردد بكلمة شكر... وكان ذلك في البداية يبدو مُفتعلاً، ولكن مع انتصاف الرحلة أصبح أمراً عادياً... وكانت الكلمات المُتبادلة تحتوي على عدة عناصر مُشتركة، عن عظمة وقدم الحضارتين المصرية والصينية، والصداقة بين شعبينا العظيمين، والتحديات المُتشابهة التي تواجهما من أجل **التقدم والعدالة والاشتراكية**، وأيضاً في **مواجهة الإمبريالية، وكلابها** الذين يجرون في كل مكان! ومع ذلك كنت أحرص على التغيير والتنويع، على الأقل حتى لا يمل المُشاركين المصريين في الرحلة... وقد حاولت مراراً أن أجعل أحد المصريين، وخاصة الكبار يُلقي مثل هذه الكلمات الطقوسية بدلاً مني، ولكنهم كانوا يعتذرون أو يتمنعون من ناحية... وكان الصينيون يعتبرون ذلك غير لائق بروتوكولياً أي أن يتحدث شخص غير "**رئيس الوفد المصري**" نفسه!

قضينا في شنغهاي، أكبر المدن الصينية، حوالي خمسة أيام حافلة، فزرنا **مقر الحزب الشيوعي، والجامعة**، والعديد من المصانع... وكذلك دار **الأوبرا، والسيرك، ومسرح غنائي**... وكانت هذه كلها مصادر مُتعة حقيقية لي وللأكثر حيوية من أعضاء الوفد... أما عُشاق المُشتريات والتحف، فقد وجدوا في محلات الصداقة بشنغهاي مزيداً مما اقتنوه بنهم شديد.

كانت حواراتنا الفكرية في شنغهاي أكثر حُرية وانطلاقاً... وكانت **بوادر التراجع وتعديل المسار الاشتراكي** قد بدأت تظهر لنا بجلاء ووضوح أكثر في شنغهاي، وكلما اتجهنا جنوباً، باتجاه هونج جونج... والطريف أن بعضنا من قدامى اليساريين المُعجبين بخط **ماوتسي تونج**، كانوا قلقين بسبب نغمة التراجع التي لمسناها في تصريحات بعض المُتحاورين الصينيين... وأذكر أنه في أحد هذه الحوارات في جامعة شنغهاي... حينما ضيق المتحاورين المصريين الخناق على الطرف الصيني، لدرجة اتهامهم "بالتحريفية" (Revisionism)، أن رد علينا الطرف الصيني بالتعبير عن الدهشة، **حيث أن ما يحاولونه هو مثل ما بدأته مصر نفسها منذ ثلاث سنوات بسياسة الانفتاح**... وأسقط في يد المُتحاورين المصريين لوهلة... ثم عادوا **لينقدوا سياسة الانفتاح المصرية**، ويذكّروا محاوريهم الصينيين، بسلبيات تلك السياسة، وما سببته من تظالم، وهو ما تجلى في "**انتفاضة الخبز!**"

كانت دهشة الطرف الصيني هي أنه **رغم نقدنا لسياسة رسمية سمحت لنا الحكومة المصرية بالسفر إلى خارج البلاد!**.

هونج كونج وتايلاند

بعد آخر محطة لنا في الصين، وهي مدينة **نانكنج**، أخذنا القطار إلى آخر نقطة حدودية تفصلها عن المُستعمرة **هونج كونج**، التي قضينا فيها ثلاثة أيام... كانت **عودة صاخبة إلى الرأسمالية في أعتى صورها**... وكان الطريف في المشهد الهونج كونجي أن تسعين في المئة من السكان هم أيضاً صينيون، مثل الذين تركناهم خلفنا على الأرض الرئيسية للصين (Mainland china)... وكانت أوجه الشبه الرئيسية هي الخلقية أو الملامح واللغة من ناحية والدأب في العلم من ناحية أخرى. فيما عدا ذلك كان كل شيء مُختلفاً... **السرعة، الازدحام، الضجيج، التسول، أطفال الشوارع، الثراء الفاحش، الأندية الليلية، البغاء، والجريمة**... ظلت الصورة الرومانسية للصين الشعبية هي المُسيطرة على عقلي وقلبي، ولم أتقبل أو أستسيغ أسلوب ومظاهر الحياة في هونج كونج بالمرة... ولولا ارتباطي بالبرنامج الجماعي للرحلة، لما بقيت في هونج كونج أكثر من يوم واحد، على سبيل حب الاستطلاع.

بعكس انطباعاتي ومشاعري، كانت انطباعات ومشاعر عُشاق التسوق من أثرياء الرحلة... الذين وجدوا في هونج كونج كل ما افتقدوه خلال أسبوعي إقامتنا في الصين. كانت الكلمة الطيبة الوحيدة التي حفظها هذا الفريق هي كلمة "بينج" (Ping) وتعني "**ثلج**" لكثرة طلبهم له، وهم يحتسون الويسكي والفودكا التي كانوا يبتاعونها من محلات الصداقة... وفي هونج كونج وجدوا كميات لا حصر لها من البينج، وما يُشرب معه... إلى جانب قسط من السلع الرأسمالية من كل الدنيا ـ من اليابان إلى الولايات المتحدة، مروراً بأوربا. والمُثير لدهشة من كانوا قد اشتروا كاميرات وأدوات إلكترونية أخرى من اليابان، أنهم وجدوها **أرخص في هونج كونج**.

وصلنا بالطائرة فجراً من هونج كونج إلى مطار بانجكوك... وكانت تلك أيضاً ظاهرة... فالذين لم يُسافروا من قبل إلى شرق وجنوب شرق آسيا، مثلنا، يندهشون لطول المسافات بين أقطار ذلك الجزء من العالم التي تبدو على الخريطة، كما لو كانت قريبة من بعضها ـ كالبلاد العربية أو البلدان الأوربية... ومع ساعات إنهاء الإجراءات في المطار، وساعتين من المطار إلى الفندق، كان الصباح قد أقبل... وكانت العاصمة أقرب إلى هونج كونج منها إلى الصين الشعبية ـ من ذلك **الازدحام والصخب، وبطء حركة المرور حتى في تلك الساعة المُبكرة**... كان لمدينة بانجكوك ـ رائحة خاصة بها ـ ربما بسبب عربات الطعام

الكثيرة المُنتشرة في شوارع المدينة المزدحمة، وحول كل منها جمع من العامة، مثلما نشاهد أحياناً حول عربات باعة الفول والكشري في القاهرة.

بمُجرد وصولنا إلى الفندق انهالت علينا عروض مندوبي شركات السياحة النهرية، حيث تكثر الأنهار والقنوات ... ولم يقل عن مندوبي شركات السياحة عدداً، **بائعي وبائعات الهوى**... كنت اسمع وأقرأ عن الرجال الذين يعرضون خدماتهم الجنسية على السائحات الأجنبيات، وخاصة العجائز... والدميمات منهن... ولكن في تايلاند، كان هؤلاء الرجال من الشباب المفتول العضلات يعرضون أنفسهم لا فقط كـ (gigoloes) للنساء ولكن أيضاً للرجال، كذلك كانت فتيات الهوى يعرضن خدماتهن على الرجال والنساء على السواء... كان اللفظين المُهذبين لهذه الخدمات هما مصطلح الرفيق (cscort) أو التدليك (massage)... وقد جرب بعض أعضاء الرحلة الذين كانوا عُزاباً أو بدون زوجاتهم هذه الخدمات... كان المشهد الغالب في الصين هو الصرامة والتعسف والمساواة... وكان المشهد في هونج كونج هو "**الرأسمالية المتوحشة**"، أما في تايلاند فكان المشهد الغالب هو "**الانحلال والفساد**"... لذلك لم يكن مُستغرباً أن تُصادف عرباً نفطيصن كثر في هذا الفندق وفي مطاعم وملاهي بانجكوك... وكان بائعو الهوى من الرجال والنساء يستغربون زهدنا النسبي في خدماتهم، مع أننا عرب!

مثلما شعرت في هونج كونج، شعرت في تايلاند بالضيق، والرغبة في العودة إلى الوطن... كانت وحشتي أنا و**بركة** لمصر ولطفلينا **راندا وأمير** قد اشتدت جداً... ولم يكن الاتصال التليفوني بمصر في تلك الأيام بالسهولة أو اليسر الذي أصبح به في الثمانينات وبعدها... وضاعف من هذه الصعوبة فروق التوقيت التي تصل إلى ١٢ ساعة من اليابان و ١٠ ساعات من الصين و ٨ ساعات من تايلاند.

تحركنا إلى القاهرة بشغف شديد في الأسبوع الأول من يوليو... ووصلناها ونحن في غاية الإرهاق حوالي الثانية بعد الظهر... وبعد تأكدنا من خروج كل أعضاء الرحلة سالمين من المطار وتوديعهم، انطلقنا إلى مسكننا في جاردن سيتي.

مأساة أرنبي راندا وأمير

كنا قد تركنا طفلينا **راندا وأمير** مع والدتي وصديقة العائلة السيدة **سعادة محمود**، والشغالة **نعيمة**... وكان القصد ألا يتركا مسكنهما وغرفتهما ولعبهما أثناء غيابنا لما يقرب من الشهر... وكانت شقتنا في شارع السلاملك بجاردن

سيتي واسعة، وفيها من الغرف والردهات والبلكونات ما يكفي ضعف حجم الأسرة، وللعب وركوب دراجات الأطفال، وحتى اقتناء الطيور والحيوانات الأليفة... ومن ذلك أن **بركة** اشترت أرنبين صغيرين **لراندا وأمير**، وأعدت لهما حظيرة صغيرة في أحد بلكونات الشقة... وكانت متعة **راندا وأمير** في إطعام الأرنبين واللعب معهما ومُطاردتهما... وكان الأرنبان ينموان بسرعة.

ولذلك لم يكن غريباً، حينما أتت والدتي للإقامة في شقتنا، وتشتهي يوماً أكلة "ملوخية"... أن تذبح الأرنبين لتطهو بهما أكلة ملوخية مُعتبرة، دعت لها شقيقي **أحمد** وزوجته **أميرة**... ولم يكن لدى والدتي أدنى فكرة أن الأرانب من المقتنيات الأليفة التي يمكن أن تكون **"لعبة" للأطفال.**

وحينما عادت **راندا وأمير** من مجموعة اللعب في الحديقة الإندونيسية القريبة من المنزل، ظهر ذلك اليوم، **وانطلقا** كالعادة إلى البلكونة ليُطعما الأرنبين، فلم يجداهما... وسألا سعادة والشغالة... وأشارت أحدهما الإدعاء بأن الأرنبين، قد قفزا من البلكونة! ولم يقلل ذلك بالطبع من حنق وحزن الطفلين على الأرنبين.

وحينما عدنا نحن إلى المنزل، مساء **يوم المذبحة**، وكُلنا شوق إلى رؤية **راندا وأمير...** لنفاجأ بهما لا يهتمان إلا بقص الحكاية، عن قفز الأرنبين من البلكونة، ودموعهما مُنهمرة... **ولم يُباليا في البداية بوصولنا، أو بشوقنا للأرنبين، أو بما أحضرناه لهما من لعب، وملابس**... وهكذا اتضح لنا حجم حب طفلينا لنا، مُقارنة بحبهما للأرنبين!

ولم نستعد مكانتنا كأب وأم، لدى **راندا وأمير**، إلا بعد أن أخذناهما إلى بائع طيور وأرانب في شارع القصر العيني ليختارا هما أرنبين شبيهين بديلين... وحينما عدنا مُبتهجين، شرعا يهتمان بما أحضرناه لهما من لعب وهدايا.

أما والدتي المسكينة، فقد أحست بالألم الشديد، وظلت تلعن أكلة الملوخية لعدة أيام!

صيف ساخن مع التكفير والهجرة ... وعودة ثانية للسعودية

خلال أيام من عودتنا إلى القاهرة، وقعت مُداهمات دموية عنيفة بين قوات الأمن المصرية ومُتشددين إسلاميين، أطلق عليهم في ذلك الوقت اسم جماعة **"التكفير والهجرة"**، بزعامة شخص يُدعى **شكري مصطفى**... وكانت مواجهة غير مسبوقة، تضاءلت بجانبها أحداث الفنية العسكرية في أبريل ١٩٧٤. ومما ضاعف في درامية حدث يوليو ١٩٧٧، هو أنه انطوى على اختطاف وزير أوقاف سابق، هو **د.حسين الدهبي**، كرهينة، إلى أن تلبي الحكومة مطالب

لجماعة التكفير... ولما لم يحدث ذلك قتلت الجماعة الدكتور **حسين الذهبي**... واقتحمت قوات الأمن المعقل الذي كان يتمترس فيه التكفيريون، وقتل وجرح أكثر **من مئة من الطرفين**... وقد هزت هذه الواقعة الدولة والمجتمع كما لم يحدث من قبل... تابعت الحدث مثلي مثل بقية الرأي العام... ولكن لم أدر وقتها أن ذلك الحدث سيكون سبباً في **مشروع بحثي طموح**، سيربط مهنياً وفكرياً وسياسياً بيني وبين ظاهرة **التطرف الديني**، على امتداد الربع قرن التالي.

كان **بركة ورائدا وأمير** على موعد للسفر إلى الولايات المتحدة لقضاء جزء من الصيف مع أقربائهم من آل **ليثم**... بينما كنت أنا على موعد للسفر إلى السعودية لاستكمال دراستي عن البدو ضمن مشروع تنمية الطاقة البشرية الذي يقوم به البنك الدولي.

وكان أحد زملائي بقسم الاجتماع، وهو الأمريكي **دونالد كول** (D.Cole) قد عاتبني لعدم ترشيحه للعمل معي في مشروع البنك الدولي بالسعودية، رغم أنه مُتخصص في دراسة **بدو الربع الخالي**، وخاصة قبائل "**الدواسر**"، وكانوا موضوع رسالته للدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ـ بيركلي... والتي نشرها بعد ذلك في كتاب ذائع الصيت هو "رحالة الرحالون" (NomadsoftheNomads)... وكان على حق في عتابه... ووعدته بأن أرشحه للدكتوراه **إسماعيل سراج الدين**... وهو ما حدث، وتم ضم **د.كول** إلى فريق العمل... وسافرنا سوياً إلى السعودية... وبدأنا العمل على الفور، بزيارات ميدانية إلى مواقع الحملات الصيفية التي كنا قد اقترحناها في العام السابق، والتي كانت تتضمن عُنصراً تعليمياً وهو **محو أمية الكبار، وتعليم الصغار، وعنصراً طبياً صحياً وهو الكشف على من يرغب من البدو وتقديم العلاج، والتوعية الصحية الأولية.** كما طلب البدو أنفسهم إضافة **خدمة بيطرية لقطعانهم من الإبل والغنم.** وكنا في المشروع سعداء لمُبادرتهم بهذا الطلب، الذي غاب عنا في البداية. وشجّعناهم على ألا يترددوا في طلب ما يحتاجونه من ضروريات.

وكان جزء من مُخطط توطين البدو، هو **تحفيز الجيل الأصغر على الاستمرار في طلب العلم**، بما في ذلك تعليم الدين... وهي أمور يجد الكبار إما أنها مرغوبة، أو يستحون من رفضها. هذا إلى جانب استجلاب بعض العاملين في شركة البترول السعودية العملاقة أرامكو ARAMCO للحديث إلى الشباب عن فرص العمل المتاحة لهم في الشركة ـ وخاصة أعمال الحراسة... وكانت هذه الوسيلة فعّالة للغاية، خاصة إذا كان المُتحدث من أصول بدوية، مثل المُستمعين إلى حديثه في مواقع الحملات الصيفية. وكان يكفي في كثير من الحالات مُجرد تقديم المُتحدث باسمه القبلي الكامل... ونبّهنا على المُتحدثين من أرامكو أن

يذكروا الفروق في الرواتب والأجور بين من يُجيدون الكتابة والقراءة، والأميين - وهو بنسبة ١:٣.

وقد توسعنا في هذا النوع من التوعية بالتعاون مع **الحرس الوطني السعودي**، الذي وافق على أن يُرسل لنا مُتحدثين من جنوده وصفّ ضباطه، وضباطه ذوي الأصول البدوية، حتى لو كانوا قد تركوا البادية منذ جيل أو جيلين. المهم أن يكونوا ذوي **أسماء قبلية**، يسهل تعرف شباب البدو في مواقع الحملات الصيفية عليها.

بالفعل في **ثلاث من سبعة مواقع**، طلبت عدة أسر وبطون الاستمرار في موقع الحملة، إذا توفرت لهم منازل "بلوكّات"، أي سابقة التجهيز، ومدرسة، ومسجد ومُستوصف إلى جانب بئر المياه بالطبع. وقد اعتبرنا ذلك إنجازاً ملموساً... وتوقعنا أن **تتزايد نسبة من يطلبون التوطن كل سنة... وهو ما حدث فعلاً.**

ضلال في الصحراء

ومن طرائف ذلك الصيف **ليلة ضللنا فيها الطريق** ونحن عائدون باللاند روفر من أحد المواقع إلى الرياض. فرغم أنه كان يُصاحبنا مُرافق سعودي ادعى أنه يعرف الطرق والمسالك، ما دام هناك ضوء قمر، إلا أنه فشل... وظللنا ندور حول أنفسنا من **العاشرة مساء إلى الخامسة صباحاً**... حيث نفذ بنزين السيارة، فوقفنا، وأسلمنا أمرنا لله، ونحن في غاية الإرهاق والإحباط والخنق، من المُرافق السعودي، الذي اعترف أخيراً أنه وأسرته هجروا البادية منذ جيلين، وأن كل معلوماته عن الصحراء هي معلومات سماعية من والده وجده... وكان أكثرنا إحباطاً وهيستيرية وحزناً زميل من العاملين في البنك الدولي في واشنطن، وهو أصلاً من **بنجلاديش** والذي اعتقد أننا سنهلك جميعاً في الصحراء، وأنه كان قد قرأ كثيراً عمن حدث لهم ذلك من قبل... ولحسن الحظ والمُفاجأة بعد توقفنا بخمس دقائق... سمعنا موتور سيارة يقترب منا، ويتقدم ضوء سيارة من تلة مُرتفعة هابطاً نحونا... وعاد إلينا الأمل في ألا نهلك في الصحراء... حيث كنا لم نر أي أثر لأي سيارة أو بشر خلال الساعات الخمس الأخيرة.

حينما وصلت شاحنة صغيرة، نزل منها بدوي... وسألنا "**لماذا توقفنا عن اللعب؟**" سأل **دونالد كول**، الذي كان يُجيد اللهجة البدوية أكثر مني، "أي لعب يا ابن العم؟"... ومن مجرى الحديث المتبادل بينهما، فهمنا أن البدوي كان يُراقبنا من أعلى التل، ونحن ندور حول أنفسنا، معتقداً أننا نلعب للتسلية ليلاً! ولما توقفنا جاء يستطلع الأمر. فلما علم أننا ضالون، ولم يعد معنا بنزين،

أعطانا جيركن بنزين، وأرشدنا إلى طريق عام مرصوف، يأخذنا إلى الرياض مُباشرة... استغرق ذلك من البدوي **أقل من عشر دقائق**... وهكذا ضاعت منا سبع ساعات للوصول إلى طريق كان بيننا وبينه سبع دقائق، ولكن فقط لمن يعرف دروب الصحراء! لقد كانت خبرتي مع البدو ومشروع البنك الدولي نواة كتاب مُشترك لي و**لدنالد كول** بعنوان "**بدو المملكة السعودية**".

مع إحساسي بمزيد من الطمأنينة على سير المشروع، كان لدي مزيد من الوقت للبحث والالتقاء بأصدقائي ومعارفي السعوديين... وفي هذه الرحلة الثانية للسعودية التقيت عدة مرات بالأمير **بندر بن عبد الله آل سعود**، ومن خلاله بالعديد من الجيل الثالث من أفراد الأسرة المالكة وكذلك السعودية، وطبقة رجال الأعمال الجديدة، ومن خلالها على تفاصيل كثيرة عن الحياة بعد "الطفرة النفطية"، أي بعد ارتفاع أسعار النفط لأربعة أمثال كانت عليه عشية حرب أكتوبر. وكان الغوص في هذه الأمور مع السعوديين من ناحية والمصريين العاملين في السعودية من ناحية أخرى، وكانت المعلومات والذخيرة المعرفية التي خرجت بها من هذه المُقابلات هي نواة كتاب آخر سيظهر بعد ذلك بثلاثة سنوات بعنوان "**النظام الاجتماعي العربي الجديد**" **The New Arab social order**. ضمن مشروع جماعي أكبر عن **العلاقة بين الأغنياء والفقراء في العالم العربي**.

الانتقال إلى فيلا المعادي

كانت صديقات **بركة** من الأمريكيات المتزوجات ولهن أطفال يلححن عليها أن تنتقل إلى المعادي، حيث الهدوء النسبي، والحدائق والأشجار، ونادي المعادي، والمدارس الأفضل والأقرب... وكانت أكثر الصديقات المقربات، **آن لامونت**، تبحث بجدية عن إحدى الفيلات التي تؤجرها الجامعة لأساتذتها... وبمُجرد توافر واحدة في شارع غُرابي، بالجزء المُميز، المعروف باسم "معادي السرايات" قامت **آن لامونت**، بحجزها، حتى دون استشارتنا، فقد كنت في السعودية وكانت **بركة** في أمريكا، وأعطت تعليمات لقسم الإسكان بالجامعة أن يُعيد تأهيل الفيلا، وتغيير مطبخها إلى مطبخ أحدث، ويُعيد طلاءها... ويقوم بنقل مُتعلقاتنا، بعد حزمها طبعاً، من شقة جاردن سيتي إلى فيلا المعادي.

لحُسن الحظ كان ذوق هذه السيدة رفيعاً في كل اختياراتها... وصلت **بركة** و**راندا** و**أمير** من أمريكا، قبل وصولي أنا من السعودية بأسبوع... وكانت مُفاجأة الانتقال من جاردن سيتي إلى المعادي في أغسطس ١٩٧٧ مُفاجأة سارة **لبركة** والأطفال أولاً، ثم لي ثانياً، كان سبب قرارنا قبل سنتين بالإقامة في جاردن سيتي

وليس في الزمالك أو المعادي حيث تجمعات إسكان هيئة التدريس، هو رغبتنا أن نكون قرب وسط القاهرة، حتى نتفاعل مع حياتها الثقافية، من مسارح وسينمات ومقاهٍ ومتاحف... وحتى لا ننعزل في "**جيوب غربية**"، تهزم غرض عودتي إلى مصر. ولكن خلال أول سنتين اتضح أن للسكن في جاردن سيتي سلبيات بالنسبة لطفلينا أكثر من إيجابيته بالنسبة لي **ولبركة**.

مشروع بحث التطرف الإسلامي

حينما عدت من السعودية في أواخر أغسطس، لم أجد فقط مسكنا جديداً في انتظاري ولكن أيضاً عدة مشاريع بحثية، بعضها كنت قد التزمت به، وإن لم أبدأه بعد ـ مثل مشروع بحث **اتجاهات الرأي العام العربي، والتحضر والسكان في المغرب** وبعضها جديد تماماً لم أكن حتى قد فكرت فيه أو التزمت به. من هذه الأخيرة، مشروع بحث "**التطرف والحركات الإسلامية**" ومشروع إعداد كتاب جماعي عن "**مصر في ربع قرن**" (١٩٥٢ ـ ١٩٧٧)، ومشروع عن "**علاقة فقراء العالم العربي بأغنيائه**"، ومشروع عن "**الاقتصاد السياسي لتوزيع الدخل في مصر**"... ورغم أن هذه المشروعات جميعاً بدت مُثيرة فكرياً ومهنياً، إلا أنه لم يكن في مقدوري أن أقوم بها جميعاً في نفس الوقت، كما كان يُريد صاحب أو مُمول كل مشروع... وكان اعتذاري المبدئي عن بعض هذه المشاريع مدعاة للذين بادروا بها على الإصرار والإلحاح... وكان بعضهم أصدقائي ـ مثل مشروع الاقتصاد السياسي لتوزيع الدخل، الذي كان يقوم بتنسيقه زميل الدراسة من الولايات المتحدة **د.جودة عبد الخالق**، وكذا مشروع العلاقة بين الأغنياء والفقراء في العالم العربي، الذي كان يُنسقه أستاذي من جامعة كاليفورنيا **د.مالكولم كير** (Malcolm Kere) وصديقي من مركز الأهرام للدراسات السياسية **السيد يس**... وكان يُقال لي أحياناً أنني إذا لم أوافق على المُشاركة فلن تقوم للمشروع قائمة، أو أن المشروع في حاجة إلى عالم اجتماع سياسي، يُجيد الكتابة باللغتين العربية والإنجليزية، ولا يوجد في مصر كلها من ينطبق عليه الشرطان سواي. وسواء كان ذلك للمُجاملة أو مُداعبة غروري، فإنني اضطررت للموافقة، وقررت أنه على المُشاركين معي أن يسيروا على سرعتي، التي لا بد أن تكون بالضرورة بطيئة!.

وافق أصحاب المشروعات المعروضة على شروطي. التي شملت مُشاركة بعضهم في المشروعات التي أقوم بتنسيقها!.

كانت كل المشاريع البحثية المذكورة أعلاه مُثيرة، وقد ثبت فيما بعد أن قيامي بها، وما نشرته فيها أو حولها سيرقى إلى مصاف الكلاسيكيات الرائدة في

العلوم الاجتماعية عربياً وعالمياً. ومنه على وجه الخصوص دراسة طلب مني **المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية** أن أقوم بالإشراف عليها حول "الانحراف الديني".

دعوة سلامية لإسرائيل مع محمد سيد أحمد ولطفي الخولي

كان خريف ١٩٧٧، حافلاً بالمُبادرات والأنشطة البحثية والفكرية والعامة من الذين دعوني لزيارة كل من إسرائيل وإيران. الأولى كانت من **حركة السلام الإسرائيلية**، التي يقودها اليساري السلامي، **يوري أفتيري**، وتتمركز في مجلة "**هاعولهم هازيه**" (هذا العالم)... وكانت موجهة لي وللأستاذ **محمد سيد أحمد**، والأستاذ **لطفي الخولي** للمُشاركة في مُظاهرة عالمية من أجل سلام عربي - إسرائيلي، تساهم فيها حركات السلام الأوربية والأمريكية... وفيها فلسطينيون من حرب ١٩٤٨ من الضفة الغربية وقطاع غزة. وكانت الدعوة مفهومة لكل من **محمد السيد أحمد**، الذي أصدر كتاباً بعد حرب أكتوبر بعنوان "**حينما تسكت المدافع**"، وهو دعوة عربية صريحة للسلام كانت الأولى من نوعها، كما كانت الدعوة مفهومة للأستاذ **لطفي الخولي** القطب اليساري الماركسي القديم، والذي كان جناحه في الحركة الماركسية قد وافق على قرار التقسيم عام ١٩٤٧، (أي من ثلاثين سنة). ولكني لم أفهم تماماً لماذا تمت دعوتي... وسألت الزميلين عما إذا كانا قد رشحاني... وكانت الإجابة بالسلب... وخمّنت أنه ربما كانت بعض المُحاضرات التي ألقيتها في أعقاب حرب أكتوبر، والتي تحدثت فيها عن مُستقبل المنطقة و**مفهومي الدولة العلمانية المتعددة الأديان والقوميات** في فلسطين، أو **الدولة الكونفدرالية** التي تشمل دولة فلسطين وأخرى يهودية، ويظل بابها مفتوحاً لدول شرق أوسطية أخرى.

تناقش ثلاثتنا حول الدعوة واستقر رأينا أن نحيط **الرئاسة** علماً بالدعوة وننتظر رأيها أو أذنها، حتى لا نقع تحت طائلة القانون المصري من ناحية، والمُزايدات الغوغائية من ناحية أخرى... ولدهشتنا... جاءت الإجابة من مُدير مكتب الرئيس **أنور السادات** مُباشرة (السيد/**فوزي عبد الحافظ**) بألا نرفض الدعوة، ولكن أن نرسل شكر واعتذار عن الحضور هذه المرة... **وأن عند الرئيس مفاجأة لنا**". وقد فعلنا ذلك - اعتذرنا وانتظرنا المُفاجأة، التي وعد بها الرئيس **السادات**. كانت التظاهرة اليسارية التي اعتذرنا عنها في أكتوبر **وجاءت المُفاجأة في مُنتصف نوفمبر**... وكانت زلزالاً، فاق كل ما تخيلناه أو خمناه... **كانت إعلان الرئيس باستعداده للتوجه لإسرائيل من أجل السلام.**

دعانا الرئيس **السادات** لاصطحابه ضمن الوفد المصري الزائر معه إلى القدس ولكن زميلي **محمد سيد أحمد ولطفي الخولي** - أشارا بأنه لا يجوز أن نكون قد اعتذرنا عن الذهاب إلى مؤتمر لليسار الإسرائيلي، ثم نذهب مع وفد رسمي لمُصافحة **اليمين الإسرائيلي الفاشيستي**، الذي يقوده الإرهابي القديم **مناحم بيجن**. وشكرنا الرئيس، واعتذرنا عن تلبية الدعوة هذه المرة. وهي نفس الكلمات التي كنا قد بعثنا بها **ليوري أفتيري** قبل أسبوعين. دعاني المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية لرئاسة مشروع بحثي عن الانحراف الديني، وكان مدير هذا المركز هو الأستاذ الدكتور **أحمد خليفة**، أحد رواد البحث الاجتماعي في مصر والوطن العربي، الذي كان يمثل بالنسبة لجيلي أحد العمالقة... لذلك كان صعباً عليّ الاعتذار... خاصة أن الباحثة المسؤولة عن وحدة الانحراف في المركز كانت تلميذة سابقة لي في كلية الآداب، أيام كنت مُعيداً بها في أوائل الستينات . وهي **د.سهير لطفي**، وكانت لحوحة بتدلل أنوثي مصري من الصعوبة رده بجفاء!

كل ما استطعت أن أفعله هو **إعادة تكييف المشروع**، بحيث يخرج من نطاق بحوث "**وحدة الانحراف**" أو "**الإجرام**" إلى دراسة "**لحركة اجتماعية**"، شأنها شأن أي حركة اجتماعية كلاسيكية سواء كنا نوافق على أهدافها وأيديولوجيتها أو لا نوافق... وبعد أخذ ورد، وافق المركز على اقتراحي وتكييفي النظري للموضوع، وفريق العمل المُقترح من داخل وخارج المركز.

وقد شمل فريق البحث **د.سهير لطفي** (أميناً)، و**د.عفاف محفوظ**، ولواء شرطة متقاعد **إبراهيم الفحام**، ورئيس النيابة المستشار **عدلي حسين**، والباحثين المُساعدين **محمد محي الدين وسهام العريني**.

وبعد شهر من مناقشة مسودة تصميم البحث الذي قدمته، بدأنا في خطوات التنفيذ التي شملت.

١- حصر وتحليل **أدبيات الإسلام السياسي** من الخارج.

٢- مسح وتحليل كل **قضايا الجماعات الإسلامية**، التي استخدم فيها العنف في مصر خلال القرن العشرين.

٣- مسح وتحليل كل **القوانين التي تجرم سلوكيات الإسلاميين، والقضايا**، التي نظرها القضاء المصري في هذا الصدد.

٤- جانب ميداني يشمل **مُقابلات مُتعمقة لعينات من الإسلاميين المنظمين سواء داخل أو خارج السجون**.

وفي ضوء أحداث الصيف، واغتيال الشيخ **حسين الدهبي**، كان واضحاً أن المركز يُريد أن ينجز هذا المشروع بأسرع ما يمكن، مع مجموعة من **التوصيات**

بسياسات يمكن للدولة أن تستفيد بها في مُناهضة واحتواء ظاهرة التطرف الديني باسم الإسلام.

وكان فريق البحث يجتمع مرتين، أسبوعياً لعدة ساعات، مرة في المركز القومي، والأخرى في الميدان حيث يوجد إسلاميون في الجامعات، أو مقار الإخوان المسلمين، أو السجون. **وكان لا بد من الحصول على تصريح من وزارة الداخلية**، وتحديداً من **جهاز أمن الدولة**، لدخول السجون، التي يوجد بها مُعتقلون أو محكوم عليهم من أعضاء التنظيمات الإسلامية المُختلفة... وقد حصل لنا المركز على تصريح لمُقابلة الإسلاميين من تنظيمي **الفنية العسكرية** (الجهاد)، والتكفير والهجرة (الجماعة الإسلامية) في مُنتصف أكتوبر ١٩٧٧. وكان معظم هؤلاء في سجن مزرعة طرة، القريب من حي المعادي، حيث أسكن... لذلك كان الفريق يمر عليّ في الصباح، حيث نتناول إفطار عمل، نراجع فيه خطة العمل ثم نتوجه في سيارتين إلى السجن.

كانت مُقابلة الإسلاميين عموماً تحدياً كبيراً، بسبب شكوكهم حول مرامي البحث، وعلاقتنا بالحكومة والأجهزة الأمنية... هذا فضلاً عن الامتعاض من فكرة أن يدرسهم أحد، كما لو كانوا "**فئران تجارب**"، وكان هذا التحدي يتضاعف عدة مرات مع الإسلاميين في المُعتقلات، وبدرجه أقل في السجون.

ولم أجد من وسيلة لتبديد هذه الشكوك سوى **المُصارحة التامة: هدفنا كباحثين أن نعرف بأمانة لماذا اخترتم أنتم هذا البديل الفكري والتنظيمي والحركي، ولم يختاره أقرانكم؟ وكيف تم ذلك، وأين، ومتى؟.**

وقلت لهم **أنهم أحرار في أن يتحدثوا أو يمتنعوا**... وهم أحرار حينما يتحدثون أن يقولوا ما يُريدون، وأن يحجبوا ما يُريدون وأننا سننقل وجهات نظرهم بأمانة... وسننبه القارئ لما نكتبه عنهم، أين ينتهي كلامهم، وأين يبدأ تحليلنا... وفي كل الأحوال سنعرض عليهم ما نخلص إليه قبل نشره.

ماذا عن علاقتي بالأمريكان؟ أنا أعمل في **الجامعة الأمريكية** بالقاهرة **ومتزوج من أمريكية . مصرية . مسلمة**، ولدي **جواز سفر أمريكي** كما أن زوجتي لديها جواز سفر مصري، أي أن أفراد أسرتي جميعاً مزدوجي الجنسية. ولكن مشروع الدراسة الذي أقوم به معهم وعنهم هو لهيئة مصرية هي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية... وهذا هو فريق البحث، الذي قدمت أعضائه لكل جماعة من الجماعات الإسلامية.

كانت لهجتي بسيطة وواضحة... أجبت على أسئلتهم كلها بلا تحفظ. طلبوا مُهلة أسبوع للتداول فيما بينهم، وأن أعود أنا وأعضاء الفريق من الرجال فقط، لمزيد من النقاش ومعرفة ما إذا كانوا سيتعاونون... وذهبنا بعد أسبوع، وكان

المتحدث الرسمي باسم مجموعة الفنية العسكرية هو الشاب **طلال الأنصاري**.
وبعد عدة شهور دخلنا في مُفاوضات مُماثلة مع جماعة التكفير والهجرة، التي كان المتحدث باسمها في البداية هو **شكري مصطفى**، ثم بعد إعدامه أصبح مندوبهم في التفاوض معنا هو **صفوت الزيني**.

طلبوا أن نزودهم بكل مؤلفاتنا... وطلبوا أن تأتي النساء من أعضاء الفريق "**مُحجبات**"... وبعد شهر آخر، شرعوا في التحاور مع كل عضو من أعضاء الفريق فيما كتبه أو نشره... بتعبير آخر، خلال تلك الفترة كان **الإسلاميون هم الذين يدرسون فريق البحث، وليس العكس**. وكان هذا وضع جديد على أعضاء الفريق، ولكنهم استجابوا لندائي لهم بأن يكونوا واسعي الصدر... وأن يعتبروا التجربة كلها فتحاً منهجياً جديداً، يمكن أن نصل به إلى مُصطلح جديداً هو "**البحث التفاعلي**" (Interactivc Research).

مع الشهر الثالث كان الإسلاميون قد وثقوا في فريق البحث... حتى أحاديثنا معهم التي رفضوا في البداية تسجيلها على أشرطة، اقترحوا هم بعد فترة أن نحضر آلات تسجيل ونقوم بتسجيلها...

كانت غرفة أو مكتب نائب المأمور هو المكان الذي خصصته إدارة السجن لنا لإجراء المقابلات... وكانت إدارة السجن تتركنا على حُريتنا، دون مُرافق من هيئة السجن... ولما أبديت مرة امتنان الفريق لهذه الاستنارة من إدارة السجن، علّق **صفوت الزيني** بأنها "ليست الروح الرياضية، ولكن لأن ما يدور في المكتب يجري التقاطه بأجهزة تسجيل مباحثية دقيقة... وأن ذلك هو السبب الذي جعل الإسلاميين يسمحون لنا بتسجيل المُقابلات لأغراضنا البحثية بدلاً من إجهاد أنفسنا في الكتابة... ما دامت إدارة السجن أو مباحث أمن الدولة تسجل كل شيء!".

استمر ترددنا على سجن مزرعة طرة أسبوعياً لمدة سنتين ونصف، إلى يوم عودة **آية الله روح الخوميني** إلى طهران... وكُنا في السجن حيث سمعنا **تهليل الإسلاميين وتكبيرهم**، وهو ما سبب حرجاً للإدارة والمباحث، فسُحب منا تصريح زيارة السجون.

وتحول العمل في المشروع إلى البحث المكتبي، وفي الجامعات... وتحليل مضمون الأشرطة واستمارات الاستطلاعات التي كنا قد جمعناها من الإسلاميين، داخل وخارج السجون... وكان بها مادة غزيرة تكفي لاستخلاصات معقولة عن الظاهرة.

غير أن شيئاً غريباً حدث، أثار غضبي وحنقي على **د.أحمد خليفة** مُدير المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية... كان الرجل بالطبع يُتابع مشروع

دراسة حركات المُتطرفين الإسلاميين... وكان يعتبر نجاح الفريق في تسجيل المُقابلات المُتعمقة مع قياداتهم في سجن مزرعة طرة، إنجازاً بحثياً رائعاً، جعله يُشيد بي في مُناسبات عديدة... لأنه يعتبر ما قمنا به على هذه الدرجة من الأهمية، فقد احتفظ بالشرائط في خزينة خاصة في مكتبه لحين الانتهاء من العمل الميداني والتصريح لتفريغ الشرائط وتحليل مضمونها... ورغم المُبالغة في الإطراء والهاجس الأمني في حراسة الأشرطة، فإنني لم أهتم بالأمر كثيراً، حيث كان لدي عدة مشروعات بحثية أخرى تتنافس على وقتي واهتمامي. ولكن في بداية عام ١٩٧٩... وبعد عودة **الخوميني** إلى إيران، وسحب تصريح زياراتنا الميدانية إلي السجون... بدأ الإعلام المصري الرسمي يُصعّد من لهجته العدائية ضد الثورة الإيرانية، وضد الحركات الإسلامية في مصر والخارج... وفي أحد أيام شهر أبريل ١٩٧٩، جاءت **سوزان مبارك** إلى مكتبي وهي مُتوترة، ودعوتها أن تجلس وقدمت لها سيجارة، وكانت ما تزال تدخن... وبعد عدة أنفاس سريعة... هدأت وسألت: "**ألم تعلمونا أن ما يدور بين المباحث والبحوث من أحاديث، يدخل في باب معلومات الثقة المهنية، التي لا يجوز البوح بها، وهي في ذلك جزء لا يتجزأ من أخلاقيات مهنة العالم الاجتماعي...**" صمتَت قليلاً، وأخذت نفساً آخر من سيجارتها... ثم سألت "**ماذا حدث في البحث الذي تشرف عليه حول المُتطرفين الإسلاميين؟**"... قصصت عليها آخر تطورات العمل. فسألت سؤالاً ثالثاً، أصابني أنا بالتوتر: "**وأين هي شرائط تسجيلات مُقابلاتكم مع المتطرفين؟**" قلت لها "في خزينة حديدية آمنة في مكتب **د.أحمد خليفة**، مُدير المركز..." سألت سؤالاً رابعاً، ضاعف من توتري، فأشعلت أنا سيجارة وقدمت لها سيجارة ثانية، كان سؤالها "**متى كانت آخر مرة رأيت فيها أنت هذه الأشرطة؟**"... أجبتها أن ذلك كان منذ شهر تقريباً، حينما أودعنا آخر مجموعة تسجيلات، بعد وقف مُقابلاتنا في السجن مباشرة... هزت رأسها في هدوء... وسألتها أنا ما هي المسألة...؟" قالت أن الدكتور **أحمد خليفة** طلب مُقابلة السيد النائب (تقصد زوجها **حُسني مُبارك**)، وأحضر له مجموعة الشرائط التي سجلتم عليها مُقابلاتكم مع المُتطرفين... بدعوى أنها تحتوي على مادة ربما يكون بها مساس بالأمن القومي... وأن النائب طلب تفريغها... ووجد أنها تتعلق بالخلفيات الاجتماعية للمُتطرفين، والطريقة التي تم تجنيدهم بها، وتدريبهم وأنشطتهم وآرائهم في النظام وتطبيق الشريعة، والعرب وإسرائيل ولذلك سألها بصفتها تدرس علم اجتماع عما عسى أن يكون مغزى إحضار هذه الشرائط بواسطة **د.خليفة؟**"... حاولت التظاهر بالهدوء والتماسك، رغم أنني كنت **أغلي بداخلي**... وقلت لها علّ الرجل قد شعر بأن النظام أو تحديداً جهات الأمن يُمكن أن تستفيد بهذه

المعلومات... قالت "أن السيد/ النائب أخبرها **بأن هذه المعلومات كلها مُتوفرة لدى الأجهزة الأمنية بالفعل** !"... وغادرت **سوزان مبارك** مكتبي، بعد أن أكدت لها أنه رغم النوايا القومية الطيبة للدكتور **خليفة**، إلا أن ما فعله يتنافى مع أحد الأساسيات الأخلاقية للبحث الاجتماعي... وانطلقت إلى سيارتي، وبها إلى المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، وإلى مكتب **د.أحمد خليفة**، وطلبت منه أن يُعطيني الأشرطة لكي أبدأ في سماعها وتحليلها... كان الرجل، وهو ذكي ولماح، يشعر أن في الأمر شيئاً... فحاول بطريقته اللبقة الباسمة أن يُغيّر الموضوع، بتهنئتي "**بدرجة الأستاذية**" التي حصلت عليها يوم **عيد ميلادي الأربعين (١٩٧٨/١٢/٣)**... ثم كم استمتع بقراءة إنتاجي العلمي، حيث كان واحداً من لجنة فحص هذا الإنتاج والتي أوصت بالترقية... وكما لو كان الرجل يريد أيضاً تذكيري **بأنه صاحب فضل عليّ** ... وقف الرجل وهو يقول للأسف لدي اجتماع بعد دقائق، فلماذا لا تمر عليّ أنت وفريق البحث الأسبوع القادم للحوار حول المرحلة التالية... قلت في صوت مُحتد "يا دكتور **خليفة** "إنني أريد الأشرطة الآن، قبل أن أخرج من مكتبكم..." قال الرجل وهو يُحاول السيطرة على الموقف "يا دكتور **سعد** أنت أتيت إلى هنا بدون موعد، وتريد شرائط لم تسلمها لي، وليست ملكاً لك، وإنما أودعتها في خزانة مكتب أمينة لجنة البحث **د.سهير لطفي**، لأن هذه الأشرطة هي ملكية عامة للمركز وللدولة... والآن من غير مطرود!"... قلت له في حدة غير معتادة "**طبعاً أنت تدرك أنك تراوغ ولا تقول الحقيقة... وأنك تعلم أنني أعلم الجريمة الأخلاقية التي ارتكبتها تزلفاً وتقرباً إلى السُلطة**". وخرجت غاضباً **ولم أدخل هذا المبنى طيلة العشرين عاماً التالية!**.

١٩٧٨: خبير في الأهرام

كان عام ١٩٧٨ زاخراً، مثل سابقه بالأحداث المهنية والعامة... ففيه وصل انقسام المُثقفين المصريين والعرب إلى أشده بسبب مُبادرة الرئيس **السادات** السلمية لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي. وفيه انتهيت من تحرير ونشر كتاب **مصر في ربع قرن**، وزرت **تونس** لأول مرة، وبدأت العمل الميداني لمشروع دراسة **اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة**، وبدأت العمل **كخبير غير مُتفرغ وكرئيس لوحدة الشؤون العربية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام**، وألقيت سلسلة مُحاضرات حول المجتمع العربي في **أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية**، وفي نفس هذا العام انتهيت، وتم نشر كتابنا

ذي التحرير المُشترك - مع **نيكولاس هوبكنز**، عن "**المجتمع العربي**"، وكتابي مع **دونالد كول** عن "**بدو العربية السعودية**".

وكان إسهامي بمقالين في الأهرام حول مُبادرة الرئيس **السادات** هو جزء من السجال العام المُحتدم... ظهرت أحدهما في أواخر عام ١٩٧٧، والثانية في أوائل ١٩٧٨... ورغم أنني لم أؤيد المُبادرة في أي من المقالين، إلا أن وجهة نظري كانت دعوة إلى المُثقفين والساسة العرب للاستفادة منها، حيث أنها قد حدثت بالفعل، ونتج عنها دوي عالمي هائل، وسيولة غير مسبوقة، منذ حرب أكتوبر، في الموقف. وقد قيل لي أن الرئيس **السادات** أعجب بالمقالين للغاية، واستخدم ما جاء فيهما في الرد على مُنتقديه... وحينما نقل هذا الإعجاب إلى أ.**يوسف السباعي** رئيس تحرير الأهرام في ذلك الوقت، سارع الرجل بدوره في أن يقترح على **السيد يس**، مُدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية تعييني خبيراً في المركز... وطار **السيد يس** فرحاً بالاقتراح، واتصل بي على **الفور** ليرجوني أن أقبل الانضمام إلى مجلس خبراء المركز، الذي كان يضم عدداً من أصدقائي بالفعل، مثل **د.عمرو محي الدين، ود.علي الدين هلال، ود.سامي منصور، وأ.أبو سيف يوسف، وأ. جميل مطر**... وكنت أشعر منذ سنة سابقة على الأقل أن السيد **يس** يتحين الفرص لإشراكي في أنشطة المركز، الذي كان **د.بُطرس غالي** هو رئيس مجلس إدارته. من ذلك أن مجموعة مقالاتي عن **الانتخابات الأمريكية وصراع الشرق الأوسط**، كانت تُنشر تحت شعار المركز، وجُمعت بعد ذلك في كتاب إصدارات المركز أيضاً... وأسعدني الانضمام إلى مجلس خبراء المركز، ودعم **السيد يس**، الذي كان العاملون القدامى بالمركز وبالأهرام يشعرونه بأنه "**دخيل**" عليهم، حيث جاء أو هبط عليهم من مركز بحثي آخر هو **المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية**... سعدت أيضاً لأن العلاقة المؤسسية بالأهرام أتاحت لي فرصاً عديدة للتفاعل مع ثلاثة أجيال، بشكل دائم ومُنتظم. الجيل الأكبر والذي كان يضم **توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض ويوسف إدريس وأحمد بهاء الدين**، وكانت مكاتبهم في نفس الطابق السادس، حيث المكتب الذي خُصص لي. وكان أكثرهم تردداً على مكتبي كل من **يوسف إدريس وأحمد بهاء الدين**، ربما لأنهم الأقرب عُمراً ومزاجاً من كبار الكُتاب الآخرين الذين كانوا يكبروني بعشرين أو ثلاثين سنة، وكانوا "ليبراليين مصريين"، في مرحلة كنت ما أزال فيها "ناصرياً - اشتراكياً - قومياً عربياً" أقرب إلى **أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس**. ولم يجمعني مع الجيل الأكبر إلا **النزعة الديمقراطية**، التي تعاظمت لدي منذ هزيمة ١٩٦٧. أما الجيل الأوسط فقد كان جيلي... أي من هم في الأربعينات والخمسينات، ومنهم

أعضاء مجلس الخُبراء. وأخيراً كانت فرصتي في التفاعل مع جيل أصغر في العشرينات وأوائل الثلاثينات. وكان ضمن هؤلاء من عملوا تحت إشرافي مُباشرة مثل **عبد العاطي محمد ووحيد عبد المجيد، وحسن أبو طالب، وجهاد عودة،** أو تحت إشراف غير مُباشر ـ مثل **عبد المنعم سعيد، ومحمد السيد سعيد، وأسامة الغزالي حرب، وعبد الحميد صفوت، وهالة مصطفى، ودينا الخواجة**... وقد شب هؤلاء جميعاً عن الطوق، وحصلوا على الدكتوراه من مصر أو الخارج، وتبوءوا في التسعينات مواقع بحثية وأكاديمية وعلمية مرموقة.

كذلك كنت أشجع مُساعدي في الجامعة الأمريكية على المُشاركة في أنشطة المركز، ومنهم **منى مكرم عبيد** و**أميمة حاتم، ونعمت جنينة، ومايسة الجمل، وجيهان عطية.** وكان وجودهن حولي في الأهرام مصدر جذب سواء للشباب المُتطلعين للاقتراب لمن هن أعلى منهم طبقياً من طالبات وخريجات الجامعة الأمريكية، أو من الكهول والشيوخ المُتضامنين الذين أحرزوا صيتاً عالمياً ـ مثل **يوسف إدريس وإحسان عبد القدوس**... وكانت بنات الجامعة الأمريكية يستمتعن كثيراً بالاستمالة الفكرية التي يجدنها في أنشطة المركز، كما في الاهتمام الرومانسي بهن من الشباب، وربما أكثر من الكهول. وكان يوم **الأحد** من كل أسبوع هو موعدي للاجتماع صباحاً بأعضاء وحدة الشؤون العربية، وعلى الغداء في مطعم الأهرام بالزائرين من خارج المركز والعاملين معي في الوحدات الأخرى، وفي المساء اجتماع مجلس الخبراء، والذي كان يتضمن ندوة فكرية مفتوحة مرة واحدة على الأقل شهرياً.

رحلة ثانية إلى الشرق الأقصى

كانت إحدى ترتيبات رحلة ١٩٧٧ إلى الصين، وعداً إلى من تقدموا، ولم يصيبهم الحظ في المرة الأولى أن ننظم لهم رحلة مُشابهة في صيف ١٩٧٨. وهو ما تم بالفعل، وبنفس الإجراءات والبرنامج تقريباً... في هذه المرة لم تأت معي زوجتي **بركة**... فكنت حُراً طليقاً... ولكن أتى من الولايات المتحدة خصيصاً لكي ينضم إلى الرحلة أحد أصدقائي الأعزاء وهو **د.إسماعيل سراج الدين** وزوجته **د.نيفين مدكور**، وهو ما وضع حدوداً لدرجات الحُرية والانطلاق، حيث تربطهما أيضاً أواصر المعرفة بزوجتي.

كان معنا أيضاً في هذه المرة الدكتور **"تيم سوليفان"**، زميلي في قسم العلوم السياسية كمُنسق مُشارك للرحلة، وتعمدت ترك مزيد من المسؤوليات الإدارية له... وهو ما مكّنه من القيام بنفس الرحلة للمرة الثالثة على التوالي عام ١٩٧٩، بدوني.

في رحلة ١٩٧٨، رأينا الصين تتغير بسرعة فائقة... وأصبح النقد الذي كان يتم همسياً أو تلميحاً للثورة الثقافية، ومُمارسات بعض المُحيطين **بماوتسي تونج**، تقال علناً هذا العام. سمعنا كثيراً عن "**عصابة الأربعة**"، التي كانت تضم زوجة (الآن أرملة) **ماو**، وثلاثة آخرين من كبار خُلفائها... ولكن كان ما يزال هناك حذر شديد في نقد **ماوتسي تونج** نفسه أو الحزب الشيوعي الصيني.

كان الانفتاح الاقتصادي، الذي رأينا بوادره في العام الماضي، أكثر وضوحاً وأسرع إيقاعاً هذه السنة. وسمعنا التكييف الأيديولوجي لذلك تحت شعار "**التحديثات الأربعة**" (The Four Modernigutions)، والتي شملت العلم والتكنولوجيا، والزراعة، والصناعة، و"السوق المُشتركة". وكانت هذه الأخيرة تعني إطلاق الحوافز، والسماح بالملكية الفردية المُتزايدة، واستحداث **مناطق حُرة، يُسمح فيها بالاستثمارات الأجنبية.**

كان مُعظمنا ما يزال مُتحفظاً على هذا الانفتاح... وكُنا في ذلك "**صينيون مُلتزمون أكثر من الصينيين الشيوعيين أنفسهم**"... وبدا لي الأمر بعد سنوات، كما لو كان مُراهقة رومانسية ثورية، ما دمنا لا نعيش في ظل النظام الشمولي أنفسنا!.

كانت مقالتي عن كيفية استفادة العرب من **السادات**، تبدأ بعبارة "**برغم تحفظي وآخرون على المُبادرة... إلا أنها وقعت بالفعل**...". وبقدر ما أعجبت هذه المقالات البعض، وفي مُقدمتهم **رئيس الجمهورية، ورئيس تحرير الأهرام**، بقدر ما أغضبت البعض غضباً شديداً، ومنهم زميل وصديق عزيز هو **د.أشرف بيومي**، أستاذ الكيمياء في جامعة ولاية ميتشيجان وقتها... واعتبرني مؤيداً للمُبادرة... وانني "**بعت القضية**"... وقاطعني من وقتها إلى وقت كتابة هذه المذكرات (٢٠٠٢) وأدهشتني ردود فعله العدوانية طوال ما يزيد على رُبع قرن، رغم ما كان يجمعنا من صداقة وطيدة، تزاملنا فيها في العمل مع **المُقاومة الفلسطينية في الأردن عام ١٩٧٠**، وكان هو وأسرته ضمن المصريين والعرب القلائل الذين حضروا فرحي في جرين كاسل، أنديانا، في أكتوبر ١٩٧١، وظل هذا الود مُتصلاً إلى ديسمبر ١٩٧٧، حين ظهرت أول مقالاتي حول الموضوع... أذهلني رد فعل هذا الزميل... ولكني اكتشفت أنه يُمثل نمطاً إشكالياً مُعقداً من المُثقفين العرب... فعلى مدى الرُبع قرن الماضي صادفت هذا النمط عدة مرات، تحولت فيها صداقة طويلة سابقة، إلى قطيعة تاريخية خاطفة... وكان ذلك مصدر حزن وألم شديدين... خاصة كلما زاد إكباري لهم ولكفاءاتهم وخصالهم الطيبة الأخرى. من أولئك الذين يدخلون في نمط **د.أشرف بيومي** كل من **د.نادر فرجاني**، و**السيد يس**، **وجمال الغيطاني**... ولم أجد تفسيراً عقلانياً

لهذه النزعة العدوانية والقطعية الحادة من طرف هؤلاء إلا لأن لدى كل منهم مُشكلة أخرى دفينة نحوي، أو نحو نفسه، أو نحو العالم والحياة عموماً... ويأتي الخلاف معي على ما يبدو أنه قضية عامة، يجوز فيها الخلاف، فيُفجر هذه المُشكلات الدفينة الأخرى، والتي لا علاقة لها بالقضية موضوع الخلاف بالضرورة!.

كتاب مصر في ربع قرن

كان الحدث الهام الثاني في ذلك العام هو الانتهاء من مشروع كتاب **مصر في ربع قرن**، والذي كان احتفاء بثورة يوليو ١٩٥٢، وتقييم مُنجزاتها بعد ٢٥ سنة. كان مشروع الكتاب بتمويل من **معهد الإنماء العربي**، في بيروت، والذي كانت ترعاه "**الثورة الليبية**" التي قام بانقلابها مجموعة من الضباط الشباب الليبيين الناصريين بقيادة العقيد **معمر القذافي** عام ١٩٦٩. واختيرت بيروت مقراً للمعهد الليبي لأنها توفر حُرية في الحركة والاتصال والتعاون مع المُفكرين والعُلماء العرب. وكان مُدير المعهد في بيروت المُفكر العربي السوري **مُطاوع الصفدي**، والذي انتهز فرصة وجودي في بيروت لأحد اجتماعاتي لمركز دراسات الوحدة العربية، ليُفاوضني بشأن هذا المشروع. وخلال هذه المفاوضات تعرفت بشاب لبناني، كان مُديراً للأبحاث في المعهد، وهو **د.غسان سلامة**، الذي ستربطني به بعد ذلك صداقة وطيدة، استمرت إلى الوقت الحاضر، وتجاوزت علاقتي بكل من **مُطاوع صفدي** ومعهد الإنماء العربي.

كان موضوع كتاب مصر في رُبع قرن مجهوداً جماعياً على طريقة الكتب المُحررة (Edited Books)، والذي كان شيئاً جديداً على الساحتين المصرية والعربية. كانت فلسفة الكتاب وخطته المبدئية من إعدادي، وكذلك اختيار المُشاركين فيه، والذين مثلوا في وقتها في رأيي أفضل المُتخصصين من جيلي في العلوم الاجتماعية، وكان بعضهم معروفاً بالفعل على الساحة، ولكن بعضهم الآخر كان معروفاً فقط في دوائر التخصص الضيقة. كان من المعروفين في الدائرة الأوسع كل من: **د.نوال السعداوي**، الزعيمة، النسائية، والطبيبة اليسارية المعروفة، و**د.حسن حنفي**، أستاذ الفلسفة الإسلامية، و**د.عمرو محي الدين**، أستاذ الاقتصاد اليساري اللامع، وشقيق خالد وابن عم زكريا محي الدين من **الضباط الأحرار**، الذين قاموا بالثورة، التي يدور مشروع الكتاب حولها. أما الجيل الأصغر من المُشاركين في المشروع، فقد ضم **د.على الدين هلال**، أستاذ العلوم السياسية، وزميلي في نفس التخصص **د.نزيه نصيف الأيوبي**، و**د.نادر الفرجاني**، المُتخصص في الإحصاء والدراسات السُكانية، و**السيد يس**.

وقد أسهمت في الكتاب بثلاثة فصول: مُقدمة طويلة (٤٠ صفحة) عن مفاتيح فهم مصر، وفصل ثانٍ بالمُشاركة مع **عمرو محي الدين** عن التنمية، وفصل ختامي، به استخلاصات الكتاب ونظرة للمُستقبل، وخاصة في ضوء مبادرة الرئيس **السادات**، التي قلبت موائد كثيرة، وعصفت بمفاهيم ومقولات كانت قد أرستها ثورة يوليو الناصرية.

استقبل الكتاب استقبالاً جيداً، وأصبح نموذجاً يُحتذى به في مجهودات علمية مُماثلة. ومنها ما شاركت فيه أنا نفسي، وبعض من شاركوا في مشروعي، ثم في مشاريع أخرى، ربما أهمها مشروع **جامعة برنستون** الذي موّلته **مؤسسة فورد**، عن **"الاقتصاد السياسي لتوزيع الدخل في مصر"**، تحت إشراف الزميل **جودة عبد الخالق**، وشارك فيه أيضاً معنا **علي الدين هلال**، و**حسن حنفي**، وآخرون.

كان من أهم تداعيات المشروع توطيد العلاقة بيني وبين هذه المجموعة على مُستويات مُختلفة، وخاصة **السيد يس**، و**علي الدين هلال**. وأصبح ثلاثتنا قواسم مُشتركة في كل المُبادرات الفكرية الهامة مصرياً وعربياً، طوال السنوات العشر التالية.

في تونس

زرت تونس لأول مرة في خريف ١٩٧٨، للمُشاركة في ندوة بين مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية التونسي، وكان اختصار اسمه بالفرنسية (CRES) والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، والذي كنت أشرف له على أحد المشاريع. وكنت ما زلت في شهر عسل مع مديره العام **د.أحمد خليفة**.

كانت الندوة بغرض التنسيق والتعاون وتبادل الخبرات والأفكار... ومن خلالها قابلت عدداً كبيراً من العُلماء الاجتماعيين التوانسة، مثل **د.عبد الوهاب بوحديبة**، و**الطاهر لبيب**، و**عبد الباقي الهرماسي**، و**فريج استامبولي**، وآخرين. وقد تعاون بعضهم معي في مشروعات بحثية عربية مُشتركة في العقدين التاليين. والواقع، أنني انتهزت فرصة هذه الزيارة لأرى معالم تونس، وأتجول في ربوعها لمدة أسبوع بعد انتهاء الندوة... زرت **سيدي بو سعيد** القريبة من العاصمة، و**صفاقس**، و**القيروان**. ولأن **بركة** كانت معي، فقد كان هذا الأسبوع بمثابة شهر عسل. وقد تسوّقت كما يحلو لها عادة في كل ما هو تقليدي... وظلت مقتنياتها من تونس تُزين منزلنا طول العقدين التاليين.

كانت تونس وأهلها يتسمون بالرقة والذوق الرفيع... وفي ذلك كانت على طرف نقيض مع جارتيها ـ شرقاً (ليبيا) وغرباً (الجزائر)... وكانت تونس في كثير من الوجوه أقرب للمغرب الأقصى، ولمصر.

انتهزت الفرصة للاتفاق مع **د.الطاهر لبيب**، الذي كان قد زارني في مكتبي بالجامعة الأمريكية في سنة سابقة، على أن يعمل معي في مشروع **اتجاهات الرأي العام العربي**، وأن يكون مسؤولاً عن العمل الميداني للمشروع في تونس. كان **الطاهر لبيب** أكثر العُلماء الاجتماعيين التوانسة عروبية، وذكاء، وخفة ظل... وكان عملنا معاً في المشروع بداية صداقة وتعاون امتدا حتى **أزمة الخليج، وغزو العراق للكويت**، حيث كان هو مثل مُعظم الأنتلجنسيا المغاربية مؤيدين **لصدام حسين**، نكاية في الغرب والأغنياء العرب. ولكن فيما عدا ذلك وقبله كان **الطاهر لبيب** هو الأقرب لي في مشروعات عديدة ـ مثل تأسيس **الجمعية العربية لعلم الاجتماع والمنظمة العربية لحقوق الإنسان**. وتكررت زياراتي لتونس طوال السنوات الإثنتي عشر التالية... وأصبحت تُنافس لبنان والمغرب والأردن، كموقع مُختار لندواتي ومؤتمراتي.

١٩٧٩

كان عام ١٩٧٩، هو بداية العقد الخامس من عُمري... وكالعادة استقبلنا نهاية ١٩٧٨ وبداية ١٩٧٩، في جو أسري دافئ، شاركنا فيه كالعادة صهري **والتر**، وحماتي **إلين**... وكان العام الذي انتهى، حافلاً بالمُبادرات والإنجازات المهنية ـ من مؤلفات، ومقالات في دوريات عربية وأجنبية، ومقالات صحفية في الصحف اليومية والأسبوعية... وكانت أهمها دورية **المستقبل العربي**، التي تصدر عن **مركز دراسات الوحدة العربية**. وأصبحت أهم قنوات تقديم فكري إلى **النخبة العربية** من المُحيط إلى الخليج. وكانت صحيفة **الأهرام**، ومجلة **الأهرام الاقتصادي**، و**المصور** و**أكتوبر**، هي قنوات توصيل أفكاري إلى **النخبة المصرية**. وكنت راضياً عن الاستقبال الإيجابي لهذا الفكر بين من علقوا عليه كتابة ـ بالاتفاق أو الاختلاف. وقد كانت أهم التعليقات على كتاباتي، من **أحمد بهاء الدين** بأنها: تمثل "**لغة جديدة**"، سهلاً مُمتعاً "تبسيطاً للعلم الاجتماعي"، "جراءة نادرة"، "نقداً بلا إسفاف"، "نحت لمُصطلحات ومفاهيم جديدة"... وحينما كانت تجئ مثل هذه الأوصاف أيضاً من مُفكرين كبار مصريين، مثل **د.حامد عمار**، وأ.**محمد حسنين هيكل**، أو عرب، مثل **د.قسطنطين زريق**، ود.**يوسف صايغ**... كانت تمنحني مزيداً من الثقة، وتشجيعاً بلا حدود.

كانت **الجامعة الأمريكية بالقاهرة**، و**مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت**، و**مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية** هي المُثلث الذي تكونت منه القاعدة المؤسسية التي انطلق منها نشاطي الأكاديمي والفكري والتنظيمي... خلال عقد كامل، من ١٩٧٥ ــ ١٩٨٥. وكان أهم شركائي الدائمين في هذا المُثلث طوال هذه السنوات هما الصديقين **سيد يس وعلي الدين هلال.**

كان هناك تنافس خلاف على وقتي بين أضلاع المُثلث المؤسسي. وكان هناك بالمثل تنافس بنّاء بين مُثلث الأصدقاء... ولأن الفرص والموارد المتاحة لي كانت أكبر في تلك السنوات، فقد حرصت على اقتسامها وتوزيعها معهما ـ **يس وهلال** ـ وهو ما حجّم، وإن لم يمنع الغيرة المهنية. ولأن **يس** كان أقلّنا حظاً ــ من حيث الدرجات العلمية واللغات الأجنبية والشهرة العربية والدولية ــ فقد حرصت بشكل خاص أن أختصه بقدر أكبر من الفُرص المُتاحة... من ذلك أنني **دعوته للمُشاركة في التدريس بالجامعة الأمريكية**، في مادتي المجتمع المصري، وعلم اجتماع الأدب. ودعوته للمُشاركة في **ثلاثٍ من مشروعاتي: مصر في رُبع قرن**، و**اتجاهات الرأي العام العربي**، وأوعزت لأستاذي الأمريكي **مالكوم كير** أن يُشركه في مشروع **العلاقة بين أغنياء العرب وفقرائهم**. ولم يكن ذلك إحساناً من جانبي، بقدر ما كان تحريكاً لإمكانيات كامنة عند **السيد يس**، ولكن كسله وعدم ثقته بنفسه في تلك الفترة، كانا يجعلانه أقل الثلاثي لمعاناً... وكان **علي الدين هلال**، على عكس **يس**، أكثر نشاطاً وثقة بنفسه وطموحاً... وكان أيضاً أصغر سناً. ولكن كانت كتاباته الغزيرة ينقصها الإبداع في التحليل والجرأة في الأسلوب. وبينما كان **يس** يُرهقني في متابعته للانتهاء من تكليفات اتفقنا عليها، كان **علي الدين** دائماً يُنجز ما يُكلف به في الوقت المُحدد. لذلك كان يُعتمد عليه كتلميذ مُجتهد، فيما لا يحتاج إلى إبداع أو اقتحام آفاق جديدة. شارك معي **وعلي الدين** في مشروع "**مصر في رُبع قرن**"، و"الاقتصاد السياسي لتوزيع الدخل"، و"علاقة العرب الأغنياء بالعرب الفقراء". وعموماً كنت أعتمد عليه خصوصاً فيما يتطلب الكتابة بالإنجليزية أو التمثيل الدولي، حيث كان تعليمه في واحدة من أحسن الجامعات الكندية (ماكجيل) يؤهله لذلك.

كان ثلاثي الزملاء ـ الأصدقاء، حاضراً في الثلاثي المؤسسي (الجامعة الأمريكية، مركز الأهرام، مركز دراسات الوحدة). وقد رشحت **يس وهلال** للدكتور **خير الدين حسيب**، ورحب واحتفى بهما واعتمد عليهما كثيراً ورشحت **يس** للجامعة الأمريكية، ورشحني هو للأهرام. أما **علي الدين** فقد كان عمله في الأهرام وتدريسه في الجامعة الأمريكية سابقاً على عملي بالجهتين.

كان عام ١٩٧٩، والأعوام الأربعة التالية قمة تألق مُثلث الأصدقاء ومُثلث المؤسسات التي يعملون بها. ومن ذلك عديد من الندوات والمؤتمرات في القاهرة، وبيروت وتونس، وعمان، ولشبونة، ولوس أنجلوس. هذا الثلاثي وتلك المؤسسات، حتى أطلق عليهم الكاتب الساخر **لطفي الخولي**، "**نجوم شباك**" وهو ربما يتندر بأننا الطريقة السهلة التي يضمن بها نجاح أي ندوة أو مؤتمر. نجوم الشباك - مثل تعمد إعطاء بطولة الأفلام لنجوم ذوي شعبية - **كفاتن حمامة، أو عادل إمام**، أو **عبد الحليم حافظ** - بصرف النظر عن قصة الفيلم، ولقد كان المُعادل الوظيفي للمنتج السينمائي في حالة هذا الثالوث الذي أطلق عليه "الذهبي"، هو **د.خير الدين حسيب**، الاقتصادي العراقي، ومُدير عام مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت. وبوعي أو غير وعي حرص **د.حسيب** أن يُقحم الثلاثي الذهبي في كل خططه وندواته ومؤتمراته خلال ذلك العقد الفريد (١٩٧٥ - ١٩٨٥)... والذي وضحت معالمه، وتبلورت مفاصله بشكل درامي عام ١٩٧٩.

هيكل في مقاعد الدراسة

كان الأستاذ **محمد حسنين هيكل** أسطورة في عالم الصحافة المصرية في جيلي... كان صاحب مدرسة في كتابة المقال الصحفي السياسي، وربما لهذا السبب قرّبه الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**، واصطفاه بكل أسرار الثورة المصرية، فكان النجم الأوحد لمدة عشرين عاماً (١٩٥٤ - ١٩٧٤)... ولم أكن قد قابلته وجهاً لوجه إلا مرة واحدة في عزبته بقرية **برقاش** أثناء زيارة لشقيقه الأوسط، وصديقي **فوزي هيكل** لمصر، في صيف ١٩٧٧، حيث دعى الشقيق الأكبر مجموعة من أصدقاء **فوزي** الذين تزاملوا معه في أمريكا في الستينات.

لذلك اندهشت، حينما رأيت الأستاذ **هيكل**، وبجواره **د.عبد الوهاب المسيري**، يجلسان بين طلابي في مادة الدراسات العُليا "**المجتمع المصري**"، في أول العام الدراسي في سبتمبر ١٩٧٩... واقتربت منه قبل أن أبدأ الدرس، واستوثقت من وجوده، مُتسائلاً عما يفعله في هذه القاعة، ظناً مني أنه جاء إلى المكان على سبيل الخطأ، ولكنه فاجأني بأنه جاء "**كتلميذ**"، وأخرج بطاقة تسجيله "**كطالب مستمع**" (Auditor) في مادة المجتمع المصري... أسقط في يدي... ودعوته لكي يتبعني إلى مكتبي الذي كان على بعد أمتار من القاعة (١٠٩)... وفي مكتبي رحّبت به ترحيباً خاصاً، ورجوته "**أن يوفر على نفسه مشقة المجيء إلى مُحاضراتي، حيث لن يتعلم شيئاً ذا قيمة**" رد وقال "أنني أكتب وأتحدث منذ ثلاثين سنة بلا انقطاع، وقد آن الأوان لأن أقرأ، وأستمع، وأتعلم... فضلاً عن

أنني أريد فرصة للتفاعل المُباشر مع الجيل الشاب الصاعد، ولولا أن الأعداد كبيرة للغاية ولا تسمح بالحوار لكنت فعلت ذلك في أحد الجامعات المصرية... ثم أن هذه الأخيرة لا يوجد فيها مثل هذه المادة ولا مثل هذا الأستاذ!" قال العبارة الأخيرة وابتسامة عريضة، توحي بالمُجاملة والإطراء... فقلت "سلمت أمري إلى الله..." واصطحبته عائداً إلى القاعة.

حينما انتشر خبر وجود الأستاذ **هيكل** في مادة المجتمع المصري، امتلأت القاعة في الأسبوع التالي وطوال الفصل الدراسي إلى مُنتصف يناير ١٩٨٠، بالأساتذة والدبلوماسيين، وبقدر ما كان ذلك مصدر فخر وإثارة لي، فقد كان يعني أيضاً **مُضاعفة جهدي في إعداد مُحاضرات المادة... فقد كان جمهوراً خارقاً للعادة**... وللأمانة، كان **هيكل** طالباً نموذجياً، في القيام بالقراءات المُقررة والواجبات المطلوبة... ولم يُرهبه الطلبة كما تصورت. بل كانوا أنداداً له في المُناقشة والحوار... وخاصة **نعمت جنينة** و**مايسة الجمل وجيهان عطية**. وسترتبط الأخيرتان به لعدة سنوات فيما بعد، كمُساعدتان.

ندوة القومية العربية

شهد عام ١٩٧٩، أولى الندوات الكُبرى التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، في بيروت، وشارك فيها حشد كبير من السياسيين والمُفكرين والأكاديميين، الذين كانوا يُمثلون ثلاثة أجيال. كان مُمثلوا الجيل الأكبر فيها من أمثال **صلاح الدين البيطار**، أحد مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، ود.**قسطنطين زريق**، المؤرخ العربي الكبير، ومن مصر د.**إسماعيل صبري عبد الله** ود.**لبيب شقير**، وأ.**أحمد بهاء الدين**، وناصريون مثل الأستاذ **أمين هويدي** رئيس المُخابرات ووزير الدفاع في آخر سنوات **عبد الناصر**. وكان أبناء هذا الجيل في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من أعمارهم. وكان بالندوة جيل وسيط، من أمثال د.**خير الدين حسيب** نفسه، ود.**جمال الشاعر**، ود.**يحي الجمل**، وعدد من القوميين العرب من منطقة الخليج والمغرب العربي، واليمن، ووزير النفط السعودي السابق **عبد الله الطريقي**. وأخيراً كان هناك الجيل الأصغر، الذي كان الثلاثي الذهبي من مصر يُمثله، ومعه آخرون من نفس الجيل من مُختلف أرجاء الوطن العربي.

وقامت الندوة بمُراجعة نقدية للتراث القومي العربي ـ فكراً ومُمارسة وتضمن ذلك مسحاً للإنجازات والإخفاقات في تجارب الوحدة العربية. وحيث كان مشروعنا عن اتجاهات الرأي العام العربي قد قطع ثلثيه، فقد أتاح لي ذلك عرض النتائج الأولية للمشروع، وهو ما جعلني قطعاً ألعب دوراً رئيسياً في

الندوة... وكان واضحاً من التعليقات والتنويهات التي ترددت في القاعة، بعد إلقاء ورقتي، كان يدل على انبهار الجميع بما اعتبروه لغة جديدة ومفاهيم جديدة ومناهج جديدة ينطوي عليها المشروع.

زيف الأنظمة الثورية العربية

رغم أنني كنت قد اكتشفت في تنقلاتي بين سوريا والعراق عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥، التناقض الصارخ بين الشعارات والواقع، في علاقتي حزب البعث العراقي والسوري ببعضهما وبما يرفعانه من شعارات ـ مثل "البعث ثورة على الحدود المُصطنعة"، رغم ذلك الاكتشاف المُبكر، إلا أن مُناسبة إجراء البحث الميداني لمشروع اتجاهات الرأي العام العربي أكدت هذا الاكتشاف بشكل درامي. ففي كل من سورية والعراق والجزائر وليبيا واليمن الديمقراطية، كان لا بد من الحصول على تصريح رسمي من الجهات المسؤولة في كل بلد لإجراء البحث الميداني على عينات من مواطنيها، اختبرتُ كل عينة قطرية، طبقاً للقواعد المنهجية المُعتادة في هذا النوع من الدراسات. وفي كل من هذه البلدان التي تدعي "**التقدمية**" و"**الثورية**" و"**الوحدوية**"، لم يستطع مركز دراسات الوحدة العربية، راعي الدراسة، أن يحصل على التصريح. رغم مُحاولات **د.خير الدين حسيب** مُدير المركز المستميتة، ورغم علاقاته الشخصية ببعض كبار المسؤولين في كل من هذه البلدان، بصفته قطباً ناصرياً قومياً معروفاً، ووزير نفط ومُحافظ بنك مركزي سابق.

وكانت عملية مُحاولة الحصول على تصريح رسمي في حد ذاتها تنطوي على مزيد من التعليم والنفاذ إلى طبيعة الأنظمة الحاكمة في تلك البُلدان محل البحث، ومن يملك السُلطة الحقيقية فيها. ولم يرفض أيٌ من هذه الأقطار رفضاً صريحاً أن يقوم مركز دراسات الوحدة العربية بمسح ميداني عن رأي الناس في الوحدة (مع من، وكيف، ولماذا، ومتى). وكيف لأنظمة هذه البُلدان أن ترفض علناً، بينما هي تردد في خطابها الأيديولوجي، وربما في دستورها، أن بلدها هو "**جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الواحدة، ذات الرسالة الخالدة**"... ولكن الذي حدث هو التأجيل والتسويف، وإحالتنا (**د.حسيب وأنا** / من مسؤول حكومي، إلى مسؤول حزبي إلى مسؤول أمني، إلى مسؤول حكومي مرة أخرى. كان ترتيب وأسلوب ودرجة نعومة أو صلف هذه الإحالات تختلف من قطر "تقدمي" إلى أخر، ولكنه في النهاية (بعد أكثر من عام) لم يُفضِ إلى شيء.

ولوهلة اعتقدنا أننا حققنا نصراً في بلد "**المليون شهيد**"، حيث حصلنا على تصريح من الحزب الحاكم، وهم "جبهة التحرير الوطني الجزائرية"، وقام الفريق

الجزائري بإنجاز المُهمة فعلاً، **ولكن قبض على رئيس الفريق، وصودرت استمارات البحث، وظل رئيس الفريق محبوساً لأسبوعين إلى أن توسطت الحكومة الفرنسية للإفراج عنه**، فقد كان متزوجاً من فرنسية!.

ندوة القومية العربية، والإسلام، والاستيلاء على الكعبة

أوصى المُشاركون في ندوة القومية العربية في الربيع، أن تعقد ندوة أخرى عن العلاقة بين القومية العربية والإسلام، وهو ما أصبح أمراً مُلحاً في ضوء نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، بقيادة الإمام **آية الله الخوميني**، والشعبية العارمة التي استقبلت بها الجماهير العربية تلك الثورة، التي كانت لغتها تحررية مُعادية للإمبريالية والعرب وإسرائيل، كذلك دعّم من هذه التوصية بزوغ الحركات الإسلامية الاحتجاجية في الوطن العربي أيضاً.

وكالعادة طلب **خير الدين حسيب** من الثلاثي الذهبي المصري، و**عادل حسين** الذي كان يعيش في بيروت، التحضير لهذه الندوة، والتي تقرر أن تُعقد في أواخر عام ١٩٧٩... وهذا ما حدث فعلاً.

ودُعي إلى الندوة عدد من القوميين العرب ذو التوجه الإسلامي ـ مثل **د.أحمد صدقي الدجاني** المُفكر والمؤرخ الفلسطيني، والمُستشار **طارق البشري**، و**د.أحمد كمال أبو المجد**. ومُفكرين إسلاميين مثل مُفتي لبنان الشيخ **حسن بن سعد الدين خالد**، وأ.**فهمي هويدي**، **ود.محمد أحمد خلف الله** وأ.**منير شفيق** الفلسطيني المسيحي الذي اعتنق الإسلام. وكانت المُداولات في غاية السخونة. وكان الإسلاميون في نشوى النصر، ويعتبرون أن المد الإسلامي لا يُمكن وقفه، وأنه البديل الحقيقي للمد القومي العربي، الذي قاده **عبد الناصر** وحزب البعث في الخمسينات والستينات. ورغم ما كانت تنطوي عليه هذه المُلاحظة من حقيقة ظاهرة للعيان، إلا أن الجيل الأكبر من القوميين العرب وجد صعوبة بالغة في قبولها، وكابر بشدة، حول وقتية الظاهرة الإسلامية، وأن المد القومي العربي لا بد أن يعود إلى الصدارة قريباً.

كان رأيي الذي جاهرت به في الندوة هو الإقرار بأن المد الإسلامي حقيقة واقعة، وأن ننصرف إلى كيفية التعامل مع الظاهرة، وتدعيم مُحتواها النقدي، والمُصالحة بينها وبين الظاهرة القومية. وكانت وجهة نظري هذه مزودة بنتائج استطلاع الرأي العام الذي قمنا به في عشرة أقطار عربية: المغرب، تونس، مصر، السودان، الأردن، فلسطين، لبنان، اليمن، الكويت، وقطر. وكان هناك ما يكاد يكون إجماعاً على أنه لا تعارض بين الإسلام والعروبة والوحدة. وأنه إذا كانت تلك هي نزعة رجل الشارع من المغرب إلى الكويت، فلماذا يفرض عليه

مُثقفون مثل الموجودين في القاعة هذه الثنائية التفضيلية "ألا ينبغي علينا بدلاً من" ؟؟؟ ؟؟؟.

من مُفاجآت دراسة الرأي العام العربي

ولم تكن مُفاجأة أن أكثر من ثمانين في المئة من العشرة آلاف مواطن عربي في عشرة أقطار عربية، يعتزون بعروبتهم، وإسلامهم، وأنهم لا يرون تناقضاً بينهما.

وكذلك لم تكن مُفاجأة أن يرغب أكثر من سبعين في المئة في رؤية الوطن العربي موحداً في دولة واحدة.

ولكن كانت نصف مُفاجأة أن ما يتجاوز الثلثين، تريد هذه الوحدة الفيدرالية أو كونفدرالية، وليست اندماجية، وأن تأتي هذه الوحدة تدريجية مرحلية.

وكانت مُفاجأة مع ذلك أن أغلبية، تصل إلى ستين في المئة من كل العرب، وسبعين في المئة من العينة المصرية، أيّدت النهج الساداتي في تسوية الصراع العربي الإسرائيلي ـ أي المُفاوضات السلمية على أساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢، أو الأرض مُقابل السلام... هذا رغم مُعارضة المُثقفين العرب، والذين كُنت أنا واحداً منه في البداية، في مُعارضتهم لمُبادرة **السادات** واتهامه بأنه "خاف" أو "باع القضية".

وكانت مُفاجأة أن "الديمقراطية" حظيت بالمركز السابع بين أولويات العينة القومية العامة. وجاءت بعد التنمية، والعدالة الاجتماعية، والوحدة العربية، وتسوية المُشكلة الفلسطينية، والتعليم، والقضاء على الفساد.

كانت مُفاجأة أن الإعلاميين والأكاديميين العرب كانوا الأقل حماساً للوحدة العربية من بقية الشرائح المهنية.

وكانت مُفاجأة أن اليمنيين والأردنيين كانوا الأكثر حماساً للوحدة العربية. وكانت نصف مُفاجأة أن التونسيين كانوا الأكثر حماساً للوحدة من المغاربة والمصريين. ولم تكن مُفاجأة أن يكون اللبنانيون والسودانيون هم الأقل حماساً للوحدة بين الأقطار العربية العشرة التي شملها الاستطلاع. المُفاضلات الوهمية، أن ندع صياغات فكرية جديدة تأخر ما هو موجود بالفعل في وجدان الناس؟ ولأن هذه كانت مُداخلة قرب نهاية الندوة، فقد طلب مني **د.خير الدين حسيب** أن ألخص كل أعمال الندوة وأن أفصل مُداخلتي في نهاية التلخيص، بحيث تصبح بمثابة نداء ختامياً موجهاً للقوميين والإسلاميين على السواء.

وبينما نحن نستعد لليوم الختامي للندوة، إذ بأخبار تعرض انقلاب إسلامي يقع في السعودية، وينطوي على استيلاء تنظيم يُسمى نفسه "بالإخوان"، يقوده

شاب لم نسمع عنه من قبل، اسمه "**جهيمان العتيبي**" قد استولى على الحرم المكّي، الذي توجد الكعبة في وسطه، وأصدر سلسلة من البيانات النارية الغاضبة ضد الأسرة السعودية المالكة، التي اتهمها بالانحلال والفساد... لقد كان خطاب **جهيمان العتيبي** أقرب إلى خطاب الثورة الإيرانية، منه إلى الخطاب القومي العربي.

وكان أحد المُشاركين في الندوة هو زميلنا وصديقنا **د.محمد الرميحي** ودكتور آخر، وكلاهما من الكويت. ورغم أنهما لم تكن لديهما أكثر مما لدينا من معلومات، إلا أنهما استنتجا من اسم زعيم التمرد أنه ينتمي إلى أحد القبائل النجدية الكبيرة عددياً، ولكنها مُهمشة اجتماعياً وسياسياً. ولم يُدهشني ذلك كثيراً، حيث كان ذلك هو "البروفيل الاجتماعي" (Social Profile) للمُنخرطين في الحركات الإسلامية الاحتجاجية في مصر: شباب منجز، طموح، قلق، ولكنه مُهمش اجتماعياً وسياسياً.

وبينما نحن نتابع أخبار تمرد مكة، إذا بأخبار صدام آخر يقع في تونس، وأيضاً بين مجموعة ترفع شعارات إسلامية وقوات الأمن التونسية، ومن الطريف أن كلا من تونس والسعودية طلبتا مُساعدات القوات الخاصة الفرنسية لقهر المُتمردين وهو ما كان.

المُهم أن هذين الحدثين، عربياً في السعودية وتونس خلال نفس الأسبوع، وخلال نفس السنة من نجاح الثورة الإسلامية في إيران، قد ألقما غلاة القوميين العرب في الندوة حجراً. وبدا ندائي بضرورة المُصالحة بين القومية العربية والإسلامية كالذي كانوا قد امتعضوا منه في البداية، بدا معقولاً مقبولاً.

عن حياتي الخاصة في ذلك الوقت

رغم كثافة وانتشار أنشطتي، وربما بسبب ذلك، كان هناك اندفاع أنثوي غير مسبوق، حتى في قمة سنوات الحُرية والثورة الجنسية في الولايات المتحدة. ولأن وقتي كان مزدحماً ومحدوداً، فلم يكن لدي رغبة في "المُطاردات" أو "الرومنسيات" في تلك الفترة - أي أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات. لذلك كانت مُساعداتي في الجامعة الأمريكية، لمعرفتهن بالتزاماتي الكثيرة من ناحية، وربما لنزعة التملك من ناحية أخرى، قمن بوظيفة "الطاردات" لمن يلمسن لديهن ميولاً "عاطفية عدوانية" وكانت أشدهن شراسة علي في تلك الفترة مُساعدتي **جيهان عطية**، التي عملت بعد ذلك مُساعدة للأستاذ **هيكل**، وتزوجت ابن الشيخ **محمد الغزالي**.

ومع ذلك لم يسلم الأمر من عدة اختراقات عارضة من إناث تراوحن في العمر بين العشرين والأربعين، بعضهن كاتبات، أو صحفيات، أو أكاديميات مرموقات... وبعضهن مصريات أو عربيات. وكانت كثرة أسفاري إلى بيروت وتونس وعمان لحضور المؤتمرات والندوات لكسر أغلال التقاليد، ولو على سبيل التحدي والمُغامرة، إن لم يكن للمُتعة الجسدية والرومانسية. وكنت أدهش لمُبادرات النساء المصريات والعربيات، اللائي يبدين في الحياة العامة ذوات مظهر مُتحفظ، ومحتشم ... أي أنهن كن أبعد ما يكون عن التبرج والابتذال في قولهن أو مظهرهن!.

والمرة بعد المرة، كنت أكتشف أن ما يجذبهن هو احترام عقولهن، والاستماع لهن بتعاطف، وعدم التردد في الإشادة بما يستحق إشادة في كتاباتهن، أو في مُداخلة قد أسهمن بها في مؤتمر أو ندوة، أو بسؤال ذكي وجهته إحداهن. وحين اقترب بعضهن بشكل حميم، شاركتهن مُتعة هذه الحميمية... مع الحرص في كل الأحوال على ألا تتجاوز هذه الحميمية الحدود التي تهدد حياتي العائلية أو الزوجية. كان يُريحني ضميرياً، أنني كنت أخبر زوجتي تصريحاً أو تلميحاً ببعض من يقمن بالاقتراب الحميمي... وكثيراً ما كانت تستخف بهذه المعلومات وتعتبرها نوعاً من "النرجسية" أو "التباهي" من جانبي، ومن ناحيتي كان مُجرد إخبارها هو نوع من "إبراء الذمة" و "إراحة الضمير". ومع ذلك فقد غضبت في مناسبتين رأت فيهما رسالتين، إحداهما من آن الأمريكية، والأخرى من **سهى** المصرية!

١٩٨٠

كانت إحدى المشروعات البحثية الجماعية التي التحقت بها عن علاقة فقراء العرب بأغنيائهم، تحت إشراف عالم السياسة الأمريكي **مالكوم كير**، الذي تعود معرفتي به إلى عام ١٩٦٣، وهي السنة الأولى التي أرسلت فيها في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس (UCLA). وكان المشروع ينص على أن يقضي كل مُشارك فيه فصلاً دراسياً واحداً على الأقل في الجامعة الراعية للمشروع... وقد اخترت أنا الفصل الدراسي الثاني من العام الأكاديمي ١٩٧٩/ ١٩٨٠، والذي يبدأ عادة في الأسبوع الثالث من يناير ١٩٨٠.

ورتبت الأسرة أمورها على أن نقضي إجازة أعياد الميلاد مع آل **ليثم**، في مقر إقامتهم الجديد، الذي تقاعدوا فيه من بلاتاين إلى بيلافيسنا بولاية أركنساس، بمُرتفعات الأوزارك الجميلة، التي كانت مثل فادريدا، وأريزونا، وجنوب كاليفورنيا، بقعة مُختارة لتقاعد الطبقة المهنية الميسورة، والتي كان والد **بركة**

المحامي **والتر ليثم**، ينتمي إليها، بعد سنوات خدمته الطويلة كمُحامي لواحدة من كُبريات شركات البترول الأمريكية وهي شركة "أماكو" (AMACO)، والتي كان اسمها ستاندارد لعقود طويلة، حين أسّسها "**جون روكفلر**" في أوائل القرن العشرين. ومن المُصادفات أن ابني **أمير** الذي أصبح مُهندساً، سيعمل في نفس الشركة، أو هو بالأحرى في فرعها بمصر، بعد تقاعد جده منها بخمسة عشر عاماً.

تركت الأسرة إلى الولايات المتحدة قبل أعياد الميلاد لعدة أيام، وبقيت أنا في القاهرة خلال الأسابيع الثلاثة التالية، لكي أنهي امتحانات الفصل الدراسي الأول، وبعض المُتعلقات المهنية الأخرى، ومن ثم ألحق بهم في لوس أنجيلوس مُباشرة، حيث كانوا سيسبقوني إليها بعدة أيام قادمين من أركنساس للبحث عن منزل نقضي فيه الشهور الستة الأولى من عام ١٩٨٠.

في بيتنا حريق

كان وجودي بمُفردي، عادة، مدعاة لتجمع أصدقائي الباحثين عن المُتعة أو الفسحة، بعيداً عن زوجاتهم (أو أزواجهن) وحدث أن استضفت جمعاً مكون من **نوال السعداوي**، و**عواطف عبد الرحمن**، و**لطيفة الزيات**، و**فوزي هيكل**، و**حسن طلعت**، و**صبري الشبراوي**، واحتفلوا معي في الفيلا بعيد رأس السنة، في بهجة وحبور، وغناء، ونكات، وموسيقى وأكل وشرب.

كانت العديد من العائلات الصديقة أيضاً تتسابق في دعوتي للغداء أو العشاء، حتى لا أبقى وحدي، وهو عكس ما كنت أريده تماماً، حيث كنت أستمتع بالوحدة أثناء غياب أسرتي، إما للتركيز في انتهاء أعمال مُتأخرة، أو لاستقبال "المُعجبات"، اللاتي يتحين فرص سفر **بركة** للانقضاض. وقد تضاعف ذلك بعد حادث احتراق الفيلا في الأسبوع الأول من يناير، وتحولي إلى ما يُشبه "اللاجئ" !

كان بالمدينة زميلان آخران بدون عائلتهما، وهما العميد **توماس لامونت**، الذي كانت زوجته **مادلين** في إجازة لفحوصات طبية، والصديق **صبري الشبراوي** الذي كان قد التحق بالجامعة الأمريكية منذ شهور بناء على ترشيحي له عند العميد الذي كان يسعى إلى "التمصير النشط"، من خلال أساتذة مصريين من ذوي الاستعداد للمُشاركة في الحياة المصرية العامة. وفي هذه السنة رشّحت له أيضاً **د.جلال أمين**. كان الأول مُتخصصاً في إدارة الأعمال، والثاني في الاقتصاد.

ودعوت **لامونت والشبراوي** للعشاء عندي في الفيلا في يوم جمعة، وحيث لا تأتي الشغالة في هذا اليوم، فقد قررت أن أقوم أنا بإعداد وجبة العشاء، وهو ما لم أفعله من مدة طويلة أيام العزوبية في أوائل السبعينات وكنت أعد صينية من الدجاج والبطاطس في الفرن. ويبدو أن أنبوبة البوتاجاز لم تكن مُحكمة، وكان الغاز يتسرب منها بدرجة خفيفة لم اسمعها أو أشمها، ولكنها كانت قد شبعت هواء المطبخ... لذلك حينما فتحت فرن الموقد لكي أخرج الصينية، اشتعلت النار فجأة، بشكل أذهلني وانتفضت من هوله إلى الخلف لأتفادى اشتباك النيران في ملابسي، حاولت استخدام الماء من الحوض القريب، ولكن سرعة انتشار النار فاقت قدرتي، فوجدت نفسي مُحاصراً بالنيران وبالكاد أفلت من المطبخ، وركضاً توجهت إلى التليفون لاستدعاء المطافئ، وبعد محاولتين... كانت النيران قد خرجت من بابين للمطبخ باتجاه غرفة المائدة، والصالة التي كنت أطلب المطافئ منها... لذلك أسرعت إلى الخروج من الصالة إلى الباب الخارجي للمنزل، وإلى أقرب الجيران، وهو لواء شرطة، لكي يطلب المطافئ، فسارع الرجل إلى سيارته، ثم إلى محطة المطافئ القريبة، حيث أتى بسيارة الإطفاء في خلال خمسة عشر دقيقة، كانت بالنسبة لي دهراً طويلاً، وأنا أرى ألسنة اللهب من كل نوافذ الطابق الأول للفيلا، وصوت النيران يتصاعد... وكأن ضلوعي تتكسّر... كان الليل قد أسدل ظلماته، ولكن منظر النيران جعل حديقة الفيلا تبدو كما لو كنا في وضح النهار، وكذلك شرفة الفيلا الأمامية، وشارعي عرابي ورقم ١٣... وانهمرت دموعي وأنا أرى المشهد الرهيب وذكريات سنوات تلتهمها النيران المسعورة... راح رجال الإطفاء يقاومون النيران بهمة وحرفية... وفي هذه الأثناء وصل العميد **لامونت** والصديق **صبري الشبراوي**، وأذهلهما المشهد، وحاولا التخفيف عني، وأن أحمد الله على سلامتي، وعلى عدم وجود الأسرة في المنزل... وقد كانا محقين.

داعباني بالإصرار على معرفة مُفردات وجبة العشاء التي كنت أعدها؟ وعما إذا كنت قد أشعلت مواقد البوتاجاز في حياتي من قبل؟ وعما إذا كنت سآخذهما إلى مطعم لتعويضهما عن وجبة العشاء المنزلية؟

بعد حوالي ساعة ونصف كان رجال الإطفاء قد سيطروا على النيران تماماً... في هذه الأثناء كان العميد قد عبأ إمكانيات الجامعة الأمنية والإسكانية لعمل الطوارئ اللازمة للتعامل مع الموقف ومن ذلك وضع حراسة ٢٤ ساعة على الفيلا، وإعداد إحدى شقق الضيافة التابعة للجامعة في الزمالك لإقامتي خلال الأسبوعين التاليين. حاول الجميع التخفيف من الصدمة... واعتبرتني كثير من السيدات "لاجئاً" يستحق العطف والحنان والرعاية لدرجة التدليل... ولم

أرفض استغلال هذا الكرم، الذي سيتحول مع واحدة منهن إلى علاقة حميمة طويلة لسنوات، كانت ربما المرة الوحيدة التي يهتز فيها زواجي بعد ذلك بسنتين.

أنهيت أعمال الفصل الدراسي الأول وحزمت حقائبي، وطرت إلى لوس أنجيلوس، حيث استقبلتني الأسرة، وكل من الصديقين **علي الدين هلال ونزيه نصيف الأيوبي**، اللذين كانا قد سبقاني إلى لوس أنجلوس، ضمن نفس المشروع.

في لوس أنجلوس

حينما حطت بي الطائرة في مطار لوس أنجلوس، استعدت ذكرى اليوم الذي وصلت فيه إلى نفس المكان لأول مرة كعضو بعثة، قبل سبعة عشر عاماً... اليوم أعود كأستاذ لنفس الجامعة التي كنت فيها طالباً... كان أول شيء حدثتني عنه **راندا وأمير** هي رؤيتهما للثلوج في بيلافيسنا، بلدة جدهم وجدتهم الجديدة... كانوا في قمة السعادة!.

عثرت **بركة** على منزل صغير، ليس بعيداً عن حي وست وود، حيث توجد جامعة كاليفورنيا... قضيت الأيام القليلة التالية في صحبة الأسرة، وفي تلبية الدعوات.

دعوة لتدشين كرسي الحضارة المصرية في تل أبيب

بعد وصولي إلى لوس أنجيلوس بشهرين، وتحديدا في مارس ١٩٨٠، اتصل بي في مكتبي بمبنى رالف بانش بالجامعة أستاذ التاريخ الإسرائيلي **شامير موشي شامير**، والذي كنت قد التقيته عدة مرات في مؤتمرات دولية وهو شخصية ودودة ودمثة الخلق، فضلاً عن كونه مؤرخ مرموق، ومن أكثر الإسرائيليين إعجاباً بمصر وثقافتها، ومن أكثرهم تعاطفاً مع الفلسطينيين.

وتصورت في البداية أنه يتحدث من لوس أنجلوس، حيث يرتبط مع الجامعة بعلاقات وطيدة منذ سنوات دراسته في الولايات المتحدة، فدعوته لزيارتي في مكتبي... وفوجئت به يقول "ولكني الذي أتصل لأدعوك لزيارتي في مكتبي في جامعة تل أبيب... وأنت أول مصري أتصل به لإخباره بأن جامعة تل أبيب قد استخدمت كرسياً لتاريخ الحضارة المصرية"، وأنه أول إسرائيلي رشح لشغل هذا الكرسي... وكان ذلك حلم حياته... هنأته على الحدثين... ولكنه فاجأني للمرة الثالثة، بأنه رشحني لأن أكون المُتحدث الرئيسي (Keynote Speaker) في الاحتفال بتدشين هذا الكرسي الجديد...

وأسقط في يدي، فأنا أحب الرجل وأكبره، ولكني لم أكن مُستعداً بعد للسفر لإسرائيل، حيث أني مع عدد من زملائي المصريين والعرب كُنا قد اتخذنا قراراً

بتأييد مُبادرة السلام، ولكن الامتناع عن "التطبيع" مع إسرائيل، إلى أن تتم تسوية يرضا عنها الفلسطينيون، مُمثلين بمنظمة التحرير الفلسطينية فقلت **لشامير** ذلك، فقال لماذا لا تأتي وتقول كل ما تريد للرأي العام الإسرائيلي من خلال الكلمة التي تلقيها في حفل التدشين، والذي سُيذاع في كل وسائل الإعلام وعلى الهواء... لم أكن أريد صد الرجل أو تخييب أمله، وكنت أبحث عن طريقة مُهذبة، وفجأة خطرت لي فكرة... تلقاها هو بارتياح، ثم بحفاوة وحماس: وهي دعوة السفير المصري السيد/ **سعد الفطاطري**، الذي وصل لتوه إلى تل أبيب، كأول سفير لمصر في إسرائيل بعد توقيع معاهدة السلام بين البلدين... وأن ذلك سيكون أكثر وقعاً، وأعظم رمزية، وفي توقيت عبقري، واقتنع الرجل واستسمحني أن ينقل للسفير المصري أن ذلك ترشيحي... فوافقت... وقد كان، وسمعت بعد ذلك عن الاحتفال من **د.شامير** ومن السفير المصري نفسه كل ما أثلج صدري.

ومرت خمسة عشر سنه أخرى، قبل أن أزور فلسطين وإسرائيل، وفي مُناسبة أول انتخابات فلسطينية، دعيت للمُساهمة في الإعداد لمُراقبتها.

الزملاء المصريين والعرب...

وتوطدت خلال الشهور الستة التالية الأواصر العائلية بيننا وبين أسرتي صديقي **علي الدين هلال** وزوجته. وطفليه **بهاء ونورا**، و**نزيه الأيوبي** وزوجته النيوزيلاندية **ليندا**، وطفلهم **سامي**... وكان ذلك مُفيداً لصحبة **راندا وأمير** والحفاظ على لغتهما العربية. كذلك كانت صدفة مواتية أن إحدى تلميذاتي من القاهرة وهي **إيمان غزالة**، قد بدأت دراسة الدكتوراه في UCLA في علم الاجتماع، وكان أهمية ذلك تكمن في أن **إيمان** كانت خريجة نفس المدرسة الألمانية، التي تدرس فيها **راندا**، ووافقت على الفور أن تواصل إعطاء دروس خصوصية في الألمانية **لراندا**... وفي خلال أيام كنا قد وجدنا مدارس مُناسبة لكل من **راندا وأمير**، بالقرب من المنزل الذي استأجرناه... ولم يبق لاستكمال أسباب الاستقرار، إلا شراء سيارة، وهي ضرورة في المدينة المترامية الأطراف.

فقدمت نفسي لزملائي في مركز جرينبوم لدراسات الشرق الأدنى، وقسم الاجتماع بالجامعة، وتسلمت مكتبي في المبنى الجديد، وبدأت الإعداد لدروسي في المادتين التي كنت سأقوم بتدريسهما، مُشاركة بين المركز والقسم. وكان ضمن طلابي في مادة الدراسات العُليا عن الشرق الأوسط، الطالبين النابهين **إبراهيم كروان** الذي كُنت أعرفه جيداً، حيث عمل معي في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، **وإيمان غزالة**، طالبتي السابقة، كذلك كان المفروض أن أعد لثلاثة مُحاضرات عامة مفتوحة لطلبة الجامعة وأساتذتها

خلال فصل الربيع كذلك كان أحد أسباب ذهابنا إلى أمريكا. وهذه الجامعة تحديداً، هو أن نتفرغ جزئياً لإعداد مسودات الفصول التي سيسهم بها كل منا في الكتاب الجماعي عن العلاقات بين الأغنياء والفقراء في العالم العربي... ومضى كل شيء في مساره المُتوقع... وكانت سبعة شهور مُنتجة للغاية.

كان كل ركن، وكل شيء من الجامعة يحمل ذكريات سبعة عشر عاماً سابقة... حتى أول زميل لي في السكن في لوس انجيلوس، بشير (**فرناندو**) الذي كانت أخباره قد انقطعت عني من خمسة عشر عاماً، عاد للظهور، حيث فاجأني يوماً في مكتبي بالجامعة... وعرفته على الفور... كان ما يزال وسيماً، رشيقاً، ولكن شعره الطويل الناعم، قد تحول إلى نصف أبيض، رغم أنه كان يصغرني بثلاث سنوات... لم يتزوج كل هذه السنوات، ولكنه غيّر مسار دراساته من المسرح والسينما إلى العلاقات الدولية... وكان يكسب قوته من تدريس هذه المادة لضباط البحرية والطيران الذين يعسكرون في قواعد بجنوب كاليفورنيا.

دور ربة المنزل

كان تخطيطنا الأسري، هو أن أقوم أنا خلال شهور إقامتنا في لوس أنجلوس، بدوري رب وربة البيت، بحيث تتفرغ **بركة** كلية لكتابة رسالة الدكتوراه، التي تعدها لقسم الاجتماع بجامعة أنديانا (بلومنجتون)... وكانت **بركة** قد قامت بالعمل الميداني للدكتوراه على العاملات المصريات في أحد المصانع الحربية، بين منطقتي طره والمعادي... وكان هدفها هو اكتشاف وقياس تأثير تجربة العمل في مؤسسة صناعية حديثة على السلوك الإنجابي والأسري للمرأة المصرية. ولم تكتفِ فقط بدراسة عينة من العلاقات في ذلك المصنع، ولكن أيضاً درست عينة ضابطة (Control Cinap) من نساء شبيهات في العُمر والحالة الزواجية والطبقة (من جيران وقوميات) عينة العاملات في المصنع، للمُقارنة بين العينتين. كان مشروع الدراسة مُثيراً، واعداً، وتعلّمت من خلاله **بركة** الكثير عن المجتمع المصري، وشرائحه الطبقية المصرية الدُنيا ـ فضلاً عن تحسين لغتها العربية العامية.

كان دوري المزدوج، يتضمن كل أعمال المنزل من تنظيم، وتنظيف وغسيل، وطبيخ. كما كان يتضمن أخذ **راندا وأمير** إلى مدرستهما، ومُقابلة مدرسيهم، والذهاب معهم إلى تدريباتهم الرياضية والفنية، وحفلات أعياد ميلاد أصدقائهما... وكان من طرائف المنطقة التي نسكنها، أن أصدقاء **راندا وأمير** كانوا يهجرون المنطقة في عطلة نهاية الأسبوع، حيث لم تكن عائلة واحدة في المنطقة لديها أطفال من نفس الأب والأم... كان كل طفل وطفلة تعيش مع زوج

أمه، أو زوجة أبيه... لذلك كان كل طفل يذهب لقضاء نهاية الأسبوع مع أمه أو أبيه الطبيعي... وحينما وعي طفلينا هذه الحقيقة، ومن واقع أحاديثهما مع رفاق اللعب، شعرا بنوع من "الحرمان"، واتهمانا أنا و**بركة** "بالوالدين الملولين... غير الخلاقين... " لأننا لم نطلق أو نعيد التزوج!.

كانت **بركة** مُمتنة لقيامي بهذا الدور المزدوج، وخاصة في ضوء خلفيتي المصرية العربية الشرقية... ولم تتصور أنني سأصمد في أداء هذا الدور لأكثر من أسبوع أو شهر على الأكثر... وتضاعف انبهارها حينما صمدت ستة شهور... والواقع أن جزءاً من هذا الصمود كان نتيجة متعة حقيقية، في الاقتراب من طفلينا، وفي دعم زوجتي الوفية.

وفي شهر يونيو، عادت الأسرة إلى بلومنجتون، حيث كنا نملك منزلاً، وحيث تقيم شقيقتها **نانسي**... وقضت شهرين في وضع اللمسات الأخيرة على الرسالة... وعندما عُدنا إلى مصر في أواخر أغسطس، كنا **د.باربارا ود. سعد الدين إبراهيم!.**

النظام الاجتماعي العربي الجديد

كان جزءاً من مُهمتي في لوس أنجيلوس، إلى جانب التدريس والمُحاضرات العامة، هو الإسهام بفصل في الكتاب الجماعي الذي يُشرف على تحريره **د.مالكولم كير**. وكان المُشاركون نخبة مُتميزة من العُلماء الاجتماعيين المصريين والأمريكيين، تضم إلى جانب الثلاثي (**سعد الدين/ علي الدين هلال/ يس**) كل من **جلال أمين**، و**حازم ببلاوي**، و**عمرو محي الدين**، و**نزيه الأيوبي** و**جون ووتر بيري**، و**بول جاير**، و**فادية الجندي**. وكان الفصل الذي أوكل إلي في أواخر يونيو ١٩٨٠، يُعقد في لوس أنجيلوس. وكان كل المصريين المُشاركين قد تناولوا التدريس في UCLA خلال العام الدراسي المُنصرم... وكان **جلال أمين وحازم الببلاوي** قد درسا في الفصل الدراسي الأول وعادا لمقار عملهم في الكويت، بينما كنت أنا و**علي الدين هلال** في الفصل الثاني، و**نزيه نصيف الأيوبي** طول العام أما **فادية الجندي**، فهي مصرية مُتزوجة من أمريكي وتقيم في لوس أنجيلوس.

كان المُنحنى الذي اتبعه في كتابة الفصل الخاص بي هو البدء بثلاث صور من واقع العرب الفقراء: الإسلامي الغاضب (**طلال**)، وطالبة الطب المُحجبة (**إلهام**) وفلاح وادي النيل في الجزيرة العربية (**سراج**). ثم اتبعت ذلك بثلاث صور من عالم الأغنياء الكفيل (**جاسم**)، والسمسار الحضاري (**عبد الله**)، والبدوي المُميكن (**فهد**) واستخدمت في الوصف المُكثف لأصحاب هذه

الشخصيات الحقيقية كل ما استخلصته من دراساتي البدائية في السعودية - أثناء عملي في مشروع البنك الدولي لتنمية الموارد البشرية، وكذلك دراساتي عن ظاهرة التطرف الديني في مصر. ومن هذه الصور الستة نسجت رؤيتي للمُتغيرات الاجتماعية على جانبي خط الثورة بعد الطفرة النفطية.

وقد لاقى هذا الفصل استحساناً وتقريظاً وتنويهاً لم أتوقعه... وتكررت الإشارة إليه طوال أيام الورشة، لدرجة بدأت توغر صدور بعض المُشاركين، وكان منهم، **نادية الجندي**، التي كان موضوع فصلها قريباً من موضوعي، وهو الأبعاد الحضارية الثقافية لتداعيات الثورة النفطية... وجاء عرضها باهتاً هزيلاً، بعد عرضي، ووجهت لها انتقادات عديدة، من مُعظم المُشاركين، ولم أعلق أنا بكلمة واحدة. ورغم ذلك تركت الورشة، غاضبة، وانسحبت من المشروع كلية!.

استمر التقريظ على ورقتي حتى بدأ انتهاء أعمال الورشة ... واقترح **د.مالكوم كلير**، و**د.عفاف لطفي السيد**، و**جون ووتربري** الذين حضروا الورشة كمُناقشين أن أطور هذا الفصل إلى كتاب مُستقل يحمل نفس العنوان، وهو "**النظام الاجتماعي العربي الجديد**" (The New Arab Docial order). وهو ما كان. فقد بقيت في لوس أنجيلوس شهرين إضافيين (يوليو وأغسطس)، لتطوير الفصل الذي كان يقع في خمسين صفحة، إلى مخطوطة كتاب من مائتي صفحة، ثم طبعه ونشره، حتى قبل المُجلد الجماعي للمشروع. كما سارع **د.خير الدين حسيب**، الذي وصلته الأخبار، بمقالتي بمسودة المخطوطة الإنجليزية، ودفع بها إلى أحد المُترجمين المُحترفين (**محمد الخولي**) الذي أنجز الترجمة في شهرين، وتم نشرها في أوائل عام ١٩٨١، أي قبل ظهور الطبعة الإنجليزية، وطبعاً قبل ظهور المُجلد الجماعي. ولاقى الكتابان ترحيباً واسعاً، فاق كل توقعاتي!.

مشروع الجماعات الإسلامية

من تداعيات تلك الشهور التي قضيتها في (UCLA) وسماع **د.عفاف لطفي السيد**، لورقة النظام الاجتماعي العربي الجديد، أنها سألت كثيراً، وعلقت بإسهاب وإعجاب على صورتي **طلال** الإسلامي الغاضب، و**إلهام** طالبة الطب المُحجبة، ثم ألحت عليّ أن أكتب مقالاً تحليلياً عن الجماعات الإسلامية الجديدة في مصر، من واقع دراساتي طوال السنوات الأربع السابقة، والتي توقفت بعد سحب تصريح العمل الميداني من ناحية، وخلافي مع **د.أحمد خليفة** من ناحية أخرى. وكانت **د.عفاف** (أو **فيفي**) محل إكبار وإجلال من الباحثين العرب والأمريكيين على السواء. فهي بنت أخ المُفكر المصري العملاق **أحمد لطفي السيد** باشا،

الذي يُعتبر أبو الليبرالية المصرية. وأهم من ذلك أنها كانت من أشهر المؤرخين لمصر الحديثة، وشغلت كرسي الأستاذية بجدارة في جامعة كاليفورنيا. وكانت تتولانا جميعاً بالحفاوة والرعاية طوال شهور إقامتنا في لوس أنجيلوس. لذلك كان تشجيعها وطلبها أن أعد مقالاً عن الجماعات الإسلامية، للدورية التي كانت ترأس تحريرها، من الأمور التي أخذتها مأخذ الجد... وكتبت المقال قبل أن أغادر كالفورنيا، ونشر في عدد ديسمبر في أشهر دورية عن المنطقة وهي "المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط" International Journal of Middle East Studies (IJMES) وسيصبح هذا المقال، عن دراسة لم تكتمل، هو أشهر مقالاتي على الإطلاق. فحينما اغتيل الرئيس **السادات** بعد عشرة شهور عن طريق الجماعات الإسلامية (الجهاد)، لم يكن هناك أي دراسات حديثة بلغة حية سوى هذا المقال، اليتيم، فتناقلته أيدي وأعين من اهتموا بالحدث التراجيدي. وترجم المقال إلى ثلاثة عشر لغة، خلال عامي ١٩٨١، ١٩٨٢، بما فيها اليابانية والصينية والعبرية!.

١٩٨١

كان خريف عام ١٩٨٠، بعد العودة من الولايات المتحدة حافلاً، حيث تراكمت مهام ومراسلات عدة شهور كانت تنتظرني لحسمها.

وبداية كانت هناك مُهمة إعادة الاستقرار في "الفيلا" (١١ش عرابي – المعادي)، بعد إعادة ترميمها كاملة، وإعادة تأسيسها بواسطة قسم الإسكان في الجامعة والتي كانت لي بين العاملين فيه شعبية كبيرة، جعلتهم يبلون بلاء حسنا في مهامهم، وبشكل أذهل الأسرة التي وجدت الفيلا، وقد تحولت إلى ما يُشبه القصر.

كذلك كان عليّ إعادة الاستقرار في مكتب جديد، بعد أن تآمر زملاء حاقدين، على انتهاز فرصة غيابي لعدة شهور، ليستولوا على مكتبي الفخم الذي كان مُلحقاً به مكتباً للسكرتارية الخاصة تجلس فيه لمُساعدتي، ولانتظار الزوار، وكان في ركن مُستقل من الطابق الأول في مبنى العلوم الاجتماعية، بهدف أن يتنازل عنه القسم لقسم آخر هو قسم إدارة الأعمال... كان الركن الذي يوجد فيه مكتبي يطلق عليه " **رواق ابن خلدون** ".

كان مكتبي الجديد عادياً، مثله مثل بقية مكاتب زملائي في القسم... ولكن لأنني كنت في مزاج طيب، بعد إنجازاتي في لوس أنجيلوس، وحصول "**بركة**" على الدكتوراه، وبالفيلا التي أعيد ترميمها وتجميلها، ولأنني وجدت مُساعدة

جديدة أكثر جمالاً وذكاء من كل مُساعداتي السابقات، وهي **نعمت جنينة** التي تحولت من قسم الشرق الأوسط إلى قسم الاجتماع لتدرس معي، تماماً مثلما فعلت **سوزان مبارك** منذ ثلاث سنوات ... كل ذلك جعلني لا أظهر غضباً يذكر على موضوع مكتبي في **رواق ابن خلدون**. وأخيراً، كان جزءاً من بهجة استقبال العام الدراسي الجديد، أن "**بركة**" كانت تقوم بتدريس أحد المواد، وهي علم الاجتماع الحضري (**Urban Sociology**) في القسم لأول مرة بعد حصولها على الدكتوراه.

ذهبت إلى بيروت مرتين في خريف ١٩٨٠، للمشاركة في تخطيط برنامج السنوات الخمس الجديدة، "لمركز دراسات الوحدة العربية"، ولتوقيع عقد كتاب "النظام الاجتماعي العربي الجديد" والمشاركة في إحد الندوات. وقد أصبح **د.خير الدين حسيب، مدير المركز**، أكثر ارتباطاً بي واعتماداً عليّ في كل ما يخص مركز دراسات الوحدة العربية ... وكان يُبالغ جداً في تقييمه لقدراتي وحكمتي، لدرجة أقلقتني... وكلما نبهته لمبالغاته اعتقد أن ذلك تواضعاً مني.

كان خريف ١٩٨٠ هو موسم الانتخابات الرئاسية الأمريكية، فطلبت مني **جريدة الأهرام**، أن أكتب لها سلسلة من المقالات التحليلية عنها، أسوة بما فعلته في حملة ١٩٧٦ . وكانت المُنافسة هذه المرة بين الديمقراطي الليبرالي "**جيمي كارتر**" والجمهوري المُحافظ "**رونالد ريجان**" ! وكان وجودي في الولايات المتحدة خلال الشهور الأولى من الحملة مُفيداً في إضافة بعد وجودي كشاهد عيان على نوعية المقالات ... وكان عليّ إعداد الرأي العام والمسؤولين المصريين للاحتمالات الكبيرة لخسارة "**جيمي كارتر**" بسبب إدارته السيئة لأزمة الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران. وكانت هناك نزعة للخلط الرغبوي (**Wishful thinking**) في الصحافة المصرية ... التي كان "**كارتر**" يتمتع فيها بشعبية كبيرة بسبب علاقة صداقته بالرئيس **السادات**، ودوره الإيجابي في عملية السلام. كانت هناك نزعة رسمية وشعبية للاعتقاد بأن من يحتل "**الكرسي**" فعلا (**أي كارتر**) لا يمكن أن يخسر الانتخابات، وهو "**إسقاط**" مصري على سياق أمريكي ديمقراطي مُختلف تماماً ... وبالطبع جاءت نتيجة الانتخابات متسقة مع تحليلي، ومخيبة للتمنيات المصرية الرسمية والشعبية وكانت تلك سابقة لكتاباتي في الصحافة المصرية والعربية، تحليل واقعي موضوعي، حتى لو تعارض مع المُعتقدات والتمنيات الشعبية الرائجة.

وفيما تبقى من عام ١٩٨٠، وضعنا اللمسات الأخيرة على سلسلة الكتب التي أعددناها في مشروع اتجاهات الرأي العام، وهي أربعة مُجلدات، كان أهمها بالطبع المجلد الذي تضمن نتائج المسح الميداني، والتي نظم مركز دراسات

الوحدة العربية في بيروت ندوة خاصة لمُناقشتها في أواخر العام. وقد أرسى هذا المشروع ونتائجه أجندة عمل المركز للسنوات التالية. بين ذلك أن **مسألة الأقليات** في الوطن العربي كانت ضمن ما لفتت الدراسة الانتباه لأهميته وخطورته، فقد كانت الأقليات بالطبع أقل حماساً للقومية العربية والمشروعات المتفرعة منها، وكان لا بد من تقصي أسباب ذلك. وتعلق "**خير الدين حسيب**" بهذا الخيط، ليحصل مني علي التزام إعداد دراسة موسوعية حول أقليات الوطن العربي، وهو ما قررنا البدء فيه عام ١٩٨١، حينما يتم تدبير التمويل اللازم للمشروع.

مُقابلة / مواجهة / إدارة الرئيس ريجان

نظم مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة "**جورج تاون** " في أوائل عام ١٩٨١، مجموعة من اللقاءات بين مجموعات من المفكرين السياسيين في دول مختارة من العالم، ومخططي السياسة الخارجية الجدد في إدارة الرئيس "**رونالد ريجان**" وكان معروفاً أن "معهد هينسجون، ومعهد المشروع الأمريكي" (American Enterprise Institute) معاً، هما مُستودع العقول (**Brain trust**) للحزب الجمهوري، كما كان معهد بروكنجز Brookings Institute هو مُستودع العقول للحزب الديمقراطي. من ذلك أن هذا الأخير هو الذي كان قد صاغ الخطوط العامة لعملية السلام المصرية – الإسرائيلية لإدارة الرئيس الديمقراطي "**جيمي كارتر**".

جاءت لنا دعوة مُشتركة من المؤسستين الجمهوريتين للذهاب لواشنطن والمشاركة في لقاء مع خبرائهما حول مُستقبل الشرق الأوسط. وكان المدعون لهذا اللقاء من مصر، خمسة هم السفير "**تحسين بشير**" واللواء "**أحمد فخر**" ود."**علي الدين هلال** " والسيد/ **أمين هويدي** (مستشار الأمن القومي السابق).

وكان يرأس الفريق الأمريكي المتقاعد وكيل الخارجية الأسبق "**هارولد ساندورز**" ... ودُعي إلى اللقاء حوالي مئة من العاملين في الخارجية والدفاع والكونجرس والمُخابرات المركزية، ودُعي من المصريين في الولايات المتحدة سفيرنا في ذلك الوقت "**أشرف غربال**" وعدد من العاملين في السفارة. كما طلب بعض الدارسين المصريين للعلوم السياسية والعلاقات الدولية الحضور كمُستمعين، وسُمح لهم بذلك، وأذكر منهم باحثين من مركز الأهرام كانوا يُعدون للدكتوراه في أمريكا هم **إبراهيم كروان، وعبد المنعم سعيد، ومحمد السيد سعيد.**

كانت ورقتي في هذا اللقاء بعنوان "**علاقات القوى الأعظم بمصر: دروس لإدارة "ريجان"** (Egypt and the super power Links : Lessons for the Ragan Adminstration).

واستخدمت كمدخل لورقتي تجربة الاتحاد السوفييتي مع مصر من منتصف الخمسينات إلى منتصف السبعينيات، وقسمتها إلى ستة مراحل تبدأ بمرحلة الغزل: (**Courting**) ثم الخطوبة (**Engagement**)، ثم شهر العسل (**Honeymoon**) ثم الخلافات الزوجية الخفيفة (**Marital quippling**)، إلى المشاجرات العنيفة (**Open Quarrels**) إلى الطلاق (**Divorce**) واستخلصت الخصائص والأغراض الخارجية لكل مرحلة. وأنهيت عرضي بأنه من الواضح أن العلاقات المصرية الأمريكية منذ عام ١٩٧٤ (**زيارة نلسون**)، قد مرت فعلاً بالمرحلة الأولى والثانية ... ولكن على الجميع أن يخمن الآن في أي مرحلة وصلت العلاقة، وعما إذا كان هناك فكاك من النموذج النمطي (**Paradigm**) الذي عرضته؟

وقد أثارت الورقة نقاشاً حاداً، حيث تسابق المُشاركين في الاجتهاد والتخمين ... واستمر ذلك بعد الجلسة التي تحدثت فيها، وطيلة أيام اللقاء الثلاثة بل واختارت دورية "**الكونجرس**" هذه المقالة الخفيفة علمياً في رأيي لنشرها في ربيع نفس السنة (**Congressional Quarterly**) .

ربما كانت طرافة القياس، وسهولة التذكر هي السبب في ذلك، وربما كان القلق والبرود الذي بدأ يسري في العلاقات المصرية الأمريكية وبالتالي مسيرة السلام، بعد توقيع المُعاهدة، هو السبب في ذلك.

وكان من أهم أحداث لقاء الأيام الثلاثة في واشنطن المواجهة العلنية في مائدة الحفل الختامي، حيث كان المتحدث الرئيسي هو الصحفي الجمهوري المُحافظ " **جورج ويل** " (**well**) ورغم خفة ظله وغزله وتنويهه بمصر والمصريين، إلا أنه قال عبارات جارحة واعتبرتها أنا عنصرية صارخة منه في حق العرب، حيث وصفهم بأنهم "**قبائل بدائية تحمل أعلام**" (the Arabs are primitive tribs with flags).

ورغم أنه جرت العادة ألا يكون هناك نقاش في موائد الحفل الختامي، إلا أن الدم كان يغلي في رأسي ... ولم أستطع احترام تقليد حفلات الختام الأمريكية وحيث كانت مائدتي قريبة من المنصة الرئيسية، فقد رفعت يدي بإشارة واضحة تعني نقطة نظام (**Point of order**) وكان الدبلوماسي "**جورج سيسكو**"، هو منسق الحفل، أومأ برأسه أنه سيأتي دوري. وبمجرد انتهاء "**جورج ويل**" من حديثه وتصفيق الحاضرين له، أعلن "**سيسكو**" أن **د.سعد الدين إبراهيم** من

مصر يطلب التعقيب .. وطلب مني التقدم للميكرفون: وخلال خمسة دقائق قلت ما معناه: **لقد أتينا هنا كمصريين عرب، وناقشنا واتفقنا واختلفنا مع أقراننا الأمريكيين كمصريين عرب** ... واعتبرت أنا وزملائي المصريين العرب اللقاء ناجحا، إلى أن استمعت لكلمة السيد " **جورج ويل** " وما قاله عن العرب "**انهم قبائل بدائية ترفع أعلام دول** ..." فإذا كان يقصد بذلك أن يُميز المصريين عن العرب، فهذه عنصرية يرفضها المصريون ... وإذا كان ذلك غرضه أن يتملق غرور المصريين بأنهم فقط والإسرائيليين هم المتحضرون ... فهي أيضا عنصرية يرفضها كل المصريين، وكل العرب، وأظن أن الإسرائيليين الحكماء يرفضونها أيضا **(وانفجرت القاعة بتصفيق حاد)** ... لقد تركت الولايات المتحدة عائداً إلى وطني منذ ست سنوات لقد درست هنا في الستينيات والسبعينيات ... وحينما غادرت أمريكا كانت العنصرية قد هزمت وولت الأدبار ... أو هكذا اعتقدت وأنا أغادر شواطئها... فماذا حدث ... ماذا حدث؟ ماذا لأمريكا والأمريكيين؟

قلت العبارة الاستفسارية الأخيرة بصوت حزين متهدج، اختلط بدموعي وأنا أترك الميكرفون، لأعود إلى مائدتي... وانفجرت القاعة بتصفيق طويل... انتظر " **جورج ويل** " إلى أن انتهى هذا التصفيق وقال " **د.إبراهيم ... أنا لم أقصد أن أكون عنصريا أو أن أهين العرب ... أنا آسف** " وانفجرت القاعة مرة أخرى بالتصفيق ... وانتهى الحفل.

كان من تداعيات المشهد الأخير أن الشباب المصريين الذين حضروه أيدوا ما اعتبروه "**موقفا شجاعاً**" واعترف لي أحدهم وهو **(محمد السيد سعيد)**، أنه كان يعتقد لسنوات أن أمريكيتي تتفوق على مصريتي وعروبتي ... ولكن مشهد اليوم جعله يقول لي: **د.إبراهيم ... أنا آسف على سوء ظني السابق بك!**".

إحدى التداعيات الأخرى كان إعجاب حسناء إيرانية **(شاهيناز)** والتي تعد للدكتوراه في العلاقات الدولية بجورتجاون، كنت قد رصدتها، وربما التقت عيوننا أثناء الأيام الثلاثة السابقة مرة أو مرتين. ولأنها كانت شقراء، فقد دُهشت حينما تعقبتني بعد الحفل، وظلت واقفة تنتظر دورها إلى أن فرغ الجميع... ثم تقدمت على استحياء لتشكرني على ردي المُفحم على "جورج ويل"... والذي رد "لنا" الاعتبار واستفهمت، حيث لم تكن لهجتها الإنجليزية تنم عن أي شيء غير أمريكي، ففاجأتني أنها إيرانية... قلت لها مُداعباً، "ولكني كنت أدافع عن العرب وليس عن الإيرانيين"... قالت بتأثر"وهل هناك فرق ... إلا إذاً كنت ستنزلق إلى العنصرية أيضا؟".

أعجبت بسرعة بديهتها، وبجمالها، وبعيونها الشرقية وشقارتها الغربية ... ودعوتها إلى القهوة ... ثم إلى عشاء ... ثم إلى غرفتي بالفندق ... وكانت علاقة حميمة استمرت لعدة سنوات ... إلى أن اختفت من شاشة الرادار في واشنطن في أواخر الثمانينات ... كانت " **شاهيناز**" بنت أحد كبار تجار السجاد الإيراني الفاخر ... وقد اعتبرته الثورة الإيرانية نصيراً للشاه، وحظرت سفره إلى الخارج إلا أنها وشقيق لها كانا قد تركا "**إيران**" في مُنتصف السبعينات للدراسة في الولايات المتحدة. ذهب أخيها لدراسة الهندسة في كاليفورنيا وجاءت هي إلى واشنطن. وكانا يعيشان من قيمة أصول مخزن للسجاد تملكه الأسرة في نيويورك.

"مصر اليوم ... "Egypt Today"

لم أكن قد زرت الولايات المتحدة بين صيف **١٩٧٥** وشتاء **١٩٨٠**. رغم أن أسرتي الصغيرة واظبت على قضاء كل صيف مع أصهاري **آل ليثم** ... الذين كانوا يأتون بدورهم بشكل مُنتظم في ديسمبر من كل عام ... ولم أكن أفتقد أمريكا، أو أشعر بإلحاح لزيارتها ... وفجأة ها أنا أعاود زيارتها أو الإقامة بها مُدداً طويلة في عامي **١٩٨٠ و١٩٨١**.

فبعد زيارتي لواشنطن في أوائل فبراير **١٩٨١**، إذا بي أجد نفسي مدعواً في أوائل شهر مارس للعودة إلى الولايات المتحدة، للمُشاركة مع السيدة **جيهان السادات** في برنامج "مصر اليوم"، وتنتظرني جولات في مدن أمريكا الرئيسية لمعارض آثار لمصر القديمة، ومعارض لقنواتها الحديثة، وقراءات شعرية وقصصية، ومُحاضرات عن الثقافة والسياسة والاجتماع.

وتمت ترتيبات هذه الفعاليات بالتنسيق مع وزارتي الإعلام والثقافة في مصر، ووكالة الإعلام الأمريكية، وتحت رعاية السيدة/ **جيهان السادات**، التي وافقت على أن تظهر في المهرجان في المدن الرئيسية، تتبعها المعارض الأثرية والفنية، وسلسلة المُحاضرات. وكان المُحاضرين الذين اختيروا للمهرجان الذي حمل اسم "**مصر اليوم**" هم **د.لويس عوض**، و**د.سهير القلماوي** و**د.فرخندة حسن**، والشاعر **صلاح عبد الصبور**، والطبيب **محمد شعلان** و**د.محمد عناني**، و**د.سمير سرحان**، و**أنا**.

وقد وقع عبء المُحاضرات بشكل أساسي عليّ وعلى **د.لويس عوض** وبشكل قانوني على **د.سهير القلماوي**، و**د.فرخندة حسن** ... أما **صلاح عبد الصبور** فقد كان يقرأ مُختارات من شعره، يتناوب كل من **محمد العناني** و**د.سمير سرحان** على ترجمتها.

وبسبب التزاماتي التدريسية، لم أستطع التغيب أكثر من أسبوعين، بينما استمر زملائي في المهرجان شهراً كاملاً. وألقيت مُحاضرات عن السكان والتفسير الاجتماعي للحركات الإسلامية في أربع مدن أمريكية هي "**سان فرانسيسكو ولوس أنجيلوس، وهيوستن وواشنطن العاصمة**".

وفي "**لوس أنجيلوس**" حدثت طرفة كانت لها تداعيات أخرى في مصر في الشهور التالية. فقد كانت السيدة **جيهان السادات** تسبقنا بأسبوع في كل من هذه المدن ... وحدث أن الذي قدمني لمُحاضرة **لوس أنجيلوس**، تحدث بتأثر شديد عن زيارة "**جيهان**" لمدينتهم منذ أيام، وكيف انبهر بها الجميع في كل ضواحي المدينة بما فيها أشهر ضواحيها "**هوليود**" ... لدرجة أن عمدة المدينة السيد/ **برادلي** لم يستطع حبس دموعه وهو يودعها في المطار! شكرت الرجل على تقديمه الرقيق ونوّهت بمشهد العمدة وسيدة مصر الأولى يبكيان في لحظة الوداع في المطار أمام كاميرات وسائل الإعلام، ثم صمت قليلاً وقلت "**الآن أدرك لماذا اكتسبت مدينتكم عن جدارة لقب عاصمة السينما في العالم**" وضجت القاعة بالضحك.

أما الطرفة الثانية، فقد كانت بمدينة "**هيوستون**" حيث تسلمت ورقة بعد المُحاضرة، في أثناء فترة الأسئلة والأجوبة بها رسم تخطيطي (sketch) لي، وقلّبت علي أجد عليها سؤالا من هذا الفنان، فإذا به اسم انثى، ورقم تليفون مع رجاء أن أتصل بها تليفونيا إن أمكن، حيث أنها مضطرة لمُغادرة القاعة فوراً لارتباط سابق، وبشكل تلقائي نظرت للجمهور، فإذا بفاتنة تقوم من مقعدها، ملوّحة لي بيدها وتغادر القاعة، وتؤكد بإشارة من يدها على أذنها معناها أنها صاحبة الرسم والرسالة وأنها تنتظر مُكالمة مني ... وهو ما كان، وتكررت قصة قريبة من قصة " **شاهيناز**" الإيرانية .. ولكنها في هذه الحالة كانت قصة من فصل واحد، حيث لم أعد إلى "**هيوستن**" بعد ذلك!.

كانت المحطة الأخيرة في **واشنطن**، حيث أصبحت معروفاً نسبياً بسبب مُحاضرتي المُثيرة للجدل، ومواجهتي مع "**جورج ويل**" في الشهر السابق، وهو ما جعل مُحاضرتي مكدسة بجمهور كبير ... ورأيت معظم أصدقائي المصريين والعرب والإيرانية الحسناء، التي قررت أن يكون موضوع رسالتها للدكتوراه هو "**علاقات مصر بالقوى الأعظم**" دراسة مُقارنة! وكان ذلك معناه أن أكون مُشرفاً مُشاركاً أو مُناوباً عليها مع أستاذها في **جورج تاون** "**مايكل هدسون**".

الطريف أنني لم ألتق "**جيهان السادات**" وجهاً لوجه خلال هذين الأسبوعين، رغم أنها كانت راعية العرس وبدلاً من ذلك سألتقي بها، على أرضي المصرية.

اللقاء الأول مع جيهان السادات

كانت الجامعة الأمريكية تنظم احتفالاً خاصاً "**بعيد الأم**"، وتكرم فيه عدد من الأمهات المُكافحات من الريف المصري ... ودعيت السيدة "**جيهان السادات**" للاحتفال حيث سلمت الأمهات المُكرمات جوائز من الجامعة... وأعقب ذلك حفل استقبال للسيدة الأولى مع أعضاء هيئة التدريس ... وحين جاء دوري في طابور الاستقبال لمُصافحتها، وناداني رئيس الجامعة باسمي، وهممت بمصافحتها، فإذا بها تظل قابضة على يدي لثواني إضافية وسألتني" **هل أنا يا دكتور ممثلة حقاً (إحنا برضة ممثلين يا دكتور)؟**" ... وكان على وجهها ابتسامة ودودة "**أقصد ما قلته أنت في بداية مُحاضرتك في" لوس أنجيلوس" عني والعمدة** "**برادلي!**" فقلت متعجبا "**آه ... هذا؟**"، وخبطت جبهتي بيدي مُستغرباً السرعة الفائقة التي نقلت لها بها الواقعة... وبلباقتها المعهودة... أضافت "**لقد أعجبتني القفشة ... وأعجبت الريس أيضا**".

ولأيام حاولت تخمين من يكون من الوفد قد نقل لها تلك الواقعة... وتوقفت كثيراً عند زميلتي د.**فرخندة حسن**، والله أعلم.

اللقاء الثاني مع "جيهان وأنور السادات"

مر الفصل الدراسي بسرعة ... والواقع أن وتيرة حياتي كانت تتسارع عاماً بعد الآخر، منذ عدت إلى الوطن في خريف **١٩٧٥**... كنت أسافر كثيراً، وأكتب كثيراً، وأشارك في أنشطة عامة كثيراً، وأحب كثيراً، وأغامر كثيراً... كان اليوم يكفي بالكاد لكل ما أريد إنجازه ... ولكل ما يُطلب مني بين **الآخرين** ... كانت حياتي مُزدحمة مُرهقة، ولكنها مُنتجة ومُشبعة ومُمتعة!

كان من أهم أحداث النصف الثاني من عام ١٩٨١

- لقاء تاريخي عاصف مع **الرئيس السادات وقرينته**.
- لقاء مع الأمير "**حسن بن طلال** " ولي عهد الأردن.
- لقاء مع الأميرة الكويتية " **سعاد الصباح** ".

سبق أو صاحب أو لحق كل من هذه اللقاءات أحداث هامة أو جسيمة، ذات تداعيات عامة على مصر والمنطقة، امتزجت بتداعيات شخصية ومهنية أثرت على مسار حياتي لسنوات طويلة قادمة.

كان صيف **١٩٨١** مليئاً بالأحداث الدرامية، ففي مصر نفسها وقعت أحداث طائفية بغيضة بين المسلمين والأقباط في منطقة شعبية عشوائية تسمى " **الزاوية الحمراء** " سقط فيها عشرات الموتى والجرحى.

وإقليمياً، أغارت إسرائيل بطائراتها، وقذفت حي "**الفكهاني**" في **بيروت** حيث قوات المقاومة الفلسطينية وحلفائها من الميليشيات اللبنانية، وكان ذلك أول تدخل سافر من إسرائيل في الحرب الأهلية اللبنانية.

ثم أغارت إسرائيل، بعد ذلك بأيام، وبعد ٤٨ ساعة من اجتماع بين **السادات**، ورئيس الوزراء الإسرائيلي "**مناحم بيجن**" في شرم الشيخ، على المفاعل النووي العراقي (أوزيراك) قرب بغداد ودمرته تماماً.

وانفجرت مُظاهرات الغضب في عدد من العواصم العربية، وكتبت بدوري بعض المقالات الاحتجاجية على التقاعس العربي والانقسام العربي، وطالبت في إحداها بصحيفة "**الأهرام**" بمُصالحة عربية تتجاوز فيها ما أحدثته مُعاهدة كامب دافيد من فرقة!

فوجئت بمُكالمة هاتفية بعد ظهر الخميس الأخير من أغسطس ١٩٨١، قدم فيها المتحدث نفسه كفرد من **سكرتارية رئيس الجمهورية**، معلناً أن الرئيس **السادات** يريد أن يراني في الثانية عشرة ظهر يوم السبت، في استراحته الصيفية بالمنتزه في الإسكندرية ... سألت صاحب الصوت، هل يعلم سبب المقابلة، أو موضوعها أو طولها، أو من سيحضرها معي ومع الرئيس؟... وكانت إجاباته على هذه الأسئلة أنه لا يعرف ... المهم أن أكون في المكان والزمان المحدد لرؤية رئيس الجمهورية، وهو ليس لديه معلومات أو تعليمات أخرى!

وضعت سماعة التليفون ... وظللت بجانب التليفون، بمسكني (**فيلا ١١ ش عرابي**) لعدة دقائق فيما يُشبه الذهول... ولاحظت ذلك "**بركة**" التي كانت تعد المائدة لغداء صيفي خفيف لها ولي، حيث كنا وحدنا، بينما كان "**راندا وأمير**" ما يزالان في أحد المُعسكرات الصيفية بالخارج.

سألتني ما بي؟ من كان على التليفون؟ هل كل شيء على ما يُرام؟ وكنت مازلت مذهولا، شارداً، أضرب أخماساً في أسداس حول هذا الاستدعاء الرئاسي المفاجئ والغامض!.

وعلى مائدة الغداء، ذكرت لـ " **بركة** " فحوى المكالمة التليفونية التي جرت قبل دقائق ... واستغربت هي الأخرى، أن يطلب رئيس الجمهورية رؤيتي وأن يتصل مكتبه بي لأول مرة منذ عودتي إلى مصر عام ١٩٧٥... وبدأنا نخمن سوياً عما عسى أن يكون وراء هذا الاستدعاء ... واستعرضنا عدة بواعث لها علاقة بالأوضاع الداخلية، والإقليمية والدولية، أو بأشياء قلتها أو كتبتها في الآونة الأخيرة، يمكن أن تكون محل اهتمام أو غضب من الرئيس ... وخلصنا إلى أنه من المُستحب أن أعد خلال الأربعة وعشرين ساعة التالية أوراقاً قصيرة حول رؤيتي لعدد من المسائل الداخلية والعربية والدولية يمكن أن تكون محل

نقاش. وحتى إذا لم تكن هذه المسائل موضع نقاش في المُقابل فيمكن تركها للرئيس توضيحاً لوجهة نظري (**position papers**). وكان شائعا عن الرئيس **السادات** أنه ليس مُغرماً بالقراءة.

في صباح السبت استيقظنا مُبكراً، وعلى مائدة الإفطار، قبل أن أستقل السيارة إلى الإسكندرية، ألقيت نظرة على صحف الصباح العربية، فإذا بي أجد خبراً في الصفحات الأولى فيها كلها، مفاده "أن الرئيس مُعتكف في استراحته بالإسكندرية لعدة أيام ابتداء من اليوم، لن يرى فيها أحد لإعداد خطاب تاريخي يُلقيه في الخامس من سبتمبر!"

أصابتني دهشة ثانية في أقل من ٤٨ ساعة ... إذ كيف يكون هنالك موعد لي لمُقابلة الرئيس اليوم، بينما هو يعلن للكافة أنه مُعتكف ولن يُقابل أحداً لعدة أيام! أخبرت "**بركة**" بفحوى ما قرأت في الصفحة الأولى بالأهرام والأخبار والجمهورية ... فأخبرتني أنها قرأت نفس الخبر في صحيفتها الإنجليزية (Egyptian Gazett). وحاولنا معاً تفسير اللغز.

سألتني هل يمكن لأحد من أصدقائنا – مثل السيد "**يس**" أو "**علي الدين هلال**" أو "**تحسين بشير**"، أو "**أسامة الباز**" – أن يكون قد لعب علينا هذه اللعبة حتى أذهب إلى الإسكندرية، ثم يتندروا علي غداً، في الطائرة إلى **رودس**، حيث كان هذا الرُباعي مدعوا معي لمؤتمر هناك، ينظمه صديقنا المشترك **ب.ج. فيتاكياتوس (أستاذ التاريخ المصري الحديث في جامعة لندن)**... وحاولت أن أستعيد صوت صاحب المُكالمة بعد ظهر الخميس السابق... ولم أستطع الجزم بأن صوته يشبه أو حتى يقترب من أصوات ذاك الرباعي ... وأخيرا اقترحت "**بركة**"، أن أتوكل على الله وأمضي إلى الإسكندرية، لأنه سيكون من العيب ألا يُلبي مواطن استدعاء من رئيس بلده ... وحتى إذا اتضح أنه غيّر رأيه أو جدوله فإن ذلك، أولاً، من حق رئيس الدولة، ثانيا، لن يُكلفني إلا ست ساعات سفر ذهاباً وإياباً!.

وكالعادة، وجدت رأيها حكيما ... فتوكلت على الله ... وودّعتها ومضيت أقود سيارتي، الريجاتا الحمراء، إلى الإسكندرية، حيث لم يكن لدي سائق خاص في تلك الأيام ... ووصلت إلى منطقة المنتزه، وبدأت السؤال عن السبيل إلى استراحة رئيس الجمهورية ... وكان أهل المنطقة ينظرون إلى بشيء من الاستغراب، شعرت معه بشيء من البلاهة! ... وأخيراً وصلت إلى مدخل الاستراحة، وكانت الساعة الحادية عشر والنصف، وخرج لي على التو، ضابط حراسة، بزي الحرس الجمهوري، سألني عما إذا كنت **د.سعد الدين إبراهيم**. وتنفست الصعداء طلب أن أفتح شنطة السيارة... وفتشها جيداً ... ثم شكرني،

وفتح البوابة، وطلب مني أن أمضي ... سألته: ألن يصحبني أحد؟ قال: فقط اتبع الطريق، الذي سيأخذك إلى الاستراحة ... ولفت انتباهي أنني قدت السيارة لحوالي خمسة دقائق بين حدائق مُترامية الأطراف، وكنت أتصور أنني بصدد مكان أصغر كثيراً مما وجدته ... وعند نهاية الطريق ... وجدت مبنى كبيراً، بجانبه مكان لانتظار السيارات وكانت به بالفعل عدة سيارات ... أوقفت السيارة ... وعلى البعد رأيت شاطئ البحر، وشمسية كبيرة، يجلس تحتها ما بدا لي أنه الرئيس "**السادات**"... استغربت جو "**عدم الرسمية**" في هذا المشهد ... وخرجت من السيارة أحمل ملف أوراقي النحيل (**عشرة ورقات عن عشرة موضوعات**) ... وهممت بالتوجه رأسا إلى حيث يجلس الرئيس ... ليستوقفني مُساعد في زي مدني، ويخبرني أن أتوجه إلى مبنى الاستراحة أولاً، حيث تنتظرني "**الهانم**" (أي السيدة/ **جيهان السادات**).

استقبلتني السيدة "**جيهان السادات**" في البهو الكبير للاستراحة بحرارة ورقة ... ثم قادتني إلى أحد الصالونات الفخمة التي تحيط البهو ... وما هي إلا دقائق حتى دخل أحد الجرسونات بملابسه البيضاء الناصعة، وقدم لي كوباً كبيراً من عصير المانجو المثلج ... والذي جاء في وقته، حيث كان اليوم حاراً رطباً، كما هي العادة في ذلك الوقت من شهر أغسطس ... وبعد حديث مُجاملات عن الرحلة من القاهرة وعن الأسرة، ورسالة الدكتوراه التي انتهت زوجتي من كتابتها ... دخلت في الموضوع !! إنها هي التي رتبت لهذه المُقابلة، لسببين. أولهما، أنه في أثناء الرحلة الرئاسية الأخيرة إلى الولايات المتحدة (منذ أسبوعين) سأل كثير من أعضاء الكونجرس وكبار المسؤولين الرئيس "**السادات**" عن رأيه فيما كتب **د . سعد الدين إبراهيم** عن الجماعات الإسلامية في مصر؟ وعن "**نهاية شهر العسل**" في العلاقات المصرية الأمريكية... ولم يكن الرئيس قد أطلع على ما كتبته... ولكن "مستشاري السوء" أوغروا صدره ضدك، دون أن يكونوا قد قرؤوا ما كتبته... فنصحت الريس أن ينتظر إلى أن يعود، وأن يسمع منك مُباشرة حول هذين الموضوعين، أما السبب الثاني فهو خاص بي ... أنا (أي **السيدة جيهان**) أشعر أن البلد تضيع منا ... ولا أحد يُريد أو يقدر أن يتحدث إلى الريس بصراحة وأمانة ... والوحيد الذي كان يفعل ذلك هو السيد/ **منصور حسن**... ولكنهم همشوه وعزلوه ... حتى ترك الريس فريسة لهم ... وكنت أهز رأسي بشيء من الاستغراب، وخاصة بالنسبة لموضوع السيد/ **منصور حسن**، الذي عرفت لأول مرة أنه استقال أو أقيل وإن كان ذلك لم يعلن رسميا في حينه ...

أحضر نفس الجرسون فنجانين من القهوة، للهانم ولي، وبمجرد الانتهاء من شرب القهوة، وقفت الهانم، ووقفت بدوري... وأشارت بيدها للتفضل بالذهاب إلى حيث ينتظرنا الرئيس ... وسارت أمامي ... ولما وصلنا إلى بعد خطوات منه تنحنحت الهانم لتنبه الرئيس لوصولنا، حيث بدى مُستغرقا في التأمل وناظراً للبحر، الذي كانت مياهه شديدة الزرقة في ذلك اليوم... ثم قالت "**يا ريس الدكتور سعد الدين إبراهيم ... وصل**".

استدار الرئيس ببطء، وفحصني بنظرة متأنية من إخمص قدمي إلى قمة رأسي، ثم زمجر بأعلى صوته: "**إني أعرف أنك تكرهنا ... أنت تكرهنا ...**" كنت مازلت واقفا بجوار السيدة/ **جيهان**، بينما كان هو جالس على كرسي بلاج بالشورت والفانلة وبرنيطة صيفية.

وأصابني الذهول...! واستدركت الهانم بعبارة تلطيفية للرئيس: "يا ريس... الدكتور سعد ضيفنا، ألا ندعوه للجلوس؟ قال الرئيس بتأفف: تفضل.. تفضل! أخذت المُبادرة بالتساؤل عن سبب استقباله الحار ليّ؟ رد: هل تريد أن تمزح مع رئيس الجهورية؟ قلت: كيف تتهمني بأنني أكرهكم؟ قال: هذا ما أخبرتنا به دينا عرفات زوجة ابننا.. قلت: ولكني لا أعرف دينا عرفات.. قال أنها سمعت ذلك من أصدقائها، الذين يدرسون معك؟ قلت بشيء من الاستغراب: هذه "**عنعنات**" قال نعم يا خويا؟

كانت هذه بداية لقاء عاصف استمر ثلاث ساعات ... كانت تتخلله تدخلات من السيدة "**جيهان**" لتلطيف المناخ الساخن، والذي كان الرئيس هو الذي يتحكم في درجة سخونته... وكنت أنا في موقف الدفاع كل الوقت تقريبا...

كان الاستثناء هو تقريظه لأفكار محاضرتي في لقاء العاملين مع إدارة الرئيس "**ريجان**" ... وتمنياته أن يكونوا قد استفادوا من الدرس الذي لقنته مصر للسوفييت ... وهو ما أوحي إلي بأن رحلته إلى الولايات المتحدة لم تكن موفقة وسألته عن الرحلة، ورغم إجاباته الغامضة إلا أنها أكدت لي ما استخلصته عن عدم توفيقه هناك.

في كل مرة كان يستفسر فيها الرئيس عن أي شيء كتبته، كان يبدأ بعبارات : **من قبيل "وما هو الكلام الفارغ الذي كتبته عن الجماعات الإسلامية؟"، أو"ما هي التخريفات التي ترددها عن المصالحة العربية؟"**.

وابتداء من ثلث اللقاء بدأت أجيب على استفزازات الرئيس، بسخرية مهذبة "**من قبيل**" في هذا الموضوع كان كلامي فارغ جداً، لا يستحق أن أردده على مسامعكم أو"**كانت تخاريفي في هذه المسألة من قبيل شطحات الحشاشين...**"! وحينما تكرر ذلك مني ... بدأ يُداعبني قليلا... بأن يطلب أن أذكر أحد

التخاريف أو الشطحات ... وكان يتركني أتحدث ... وهو شارد ينظر للبحر، ولا تلتقي عينيه بعيني، إلا فيما ندر ... وكنت أختبر ما إذا كان ينصت أم لا بالتوقف فجأة فيباغتني بسؤال، أو تعليق أو يتعجل بقية ما بدأت الحديث فيه... وفي منتصف اللقاء وإلى نهايته، بدأ يتحدث هو أكثر، ويقول ما ينوي عمله في هذا الموضوع أو ذاك... وهو ما أدهشني، لأنه كان يتعلق بأمور خطيرة، وشخصيات عامة ينوي التنكيل بها ... مثل "**فؤاد سراج الدين**" باشا، و**البابا شنودة**، و**محمد حسنين هيكل**، والأستاذ **التلمساني** مرشد الإخوان. وفي داخلي اعتقدت أن الرئيس لا يمكن أن يفعل ما يُهدد به لأنه لو كان ينوي ذلك فعلاً، لما ذكره بهذه الخفة أمام شخص مثلي لا يعرفه جيداً. ولكنه حينما استطرد، و بدأت ألمس شيئا من الجدية فيما ينتويه، بدأت أستوقفه وأتطوع برأي في خطورة ما هو على وشك الإقدام عليه!

لقد فصلت كل ذلك في كتاب نشرته بعد عشر سنوات من اغتيال الرئيس بعنوان "**إعادة الاعتبار للرئيس السادات**"، والذي ظهر أولاً على شكل حلقات في صحيفة "**الأهالي**" الأكثر عداوة للرئيس "**السادات**".

وقرب نهاية اللقاء، توجه الرئيس إليّ بصوت جاد "**إذا أردت أن تخدم بلدك، مصر، والأمة العربية التي تكتب عنها كثيرا، فلتقم بالإعداد لمؤتمر تجمع فيه ما تعتقد أنت أنهم أهم مئة مثقف عربي من المحيط إلى الخليج، لكي أواجههم في حوار، أو مُساجلة، أو مُحاكمة حول المُبادرة السلمية التي قمت بها منذ أربع سنوات ... فإما أن يُقنعوني أو أقنعتهم ... هل يمكن أن تفعل ذلك ؟**".

لولا ملامح الجدية على وجه الرئيس والسيدة "**جيهان**" لتصورت أنه يهذي ... وقد ساورني خاطر هذيانه عدة مرات أثناء هذا اللقاء الطويل المُرهق ... قلت للرئيس "يمكن أن أحاول... ولكن متى وأين تريدون سيادتكم هذا اللقاء؟ "**أجاب**" في أي مكان وفي أي وقت تتفقون عليه، داخل أو خارج مصر، ويمكن لي ولهم أن نتوجه إليه بلا قيود أو رزالات!".

ثم نظر الرئيس في ساعة يده، وهب واقفاً، معلنا أن الساعة هي الثالثة بعد الظهر، وهذا موعد رياضة المشي اليومية، وعفواً إذا كنت قد أطلت وأثقلت عليك... ولكني لا أتناول الغداء، وأرجو أن تتناول الغداء مع "**جيهان** " ... ولم ينتظر إجابتي ... شكرت الرئيس، وصافحني وانطلق في مشية سريعة على الشاطئ ... وسارعت السيدة "**جيهان**"، بطلب أن نتوجه سوياً للاستراحة لتناول غداء خفيف ... ولم تفلح محاولات الاعتذار من جانبي. وحسمت هي الموضوع "نحن بالكاد هدأنا من روع الرئيس، فهل تريد إغضابه من جديد بعصيان أوامره بأن نتناول الغذاء سوياً؟"

وكان على المائدة صديقتها د.**زينب السبكي**، ود.**فرخندة حسن** ... وجلسنا ساعتين آخرتين ضحكنا فيها وسمعت ثرثرة السيدات الثلاث، وآراءهم في عدد من الشخصيات العامة، أهمها وزير الداخلية وقتها "**النبوي إسماعيل**" الذي أطلقن عليه لقب ترافولتا (**النجم السينمائي المعروف**)، و**عبدالرازق عبدالمجيد**، وزير الاقتصاد، الذي أطلقن عليه اسم "**إيرهارد**" الوزير الألماني الذي أعاد بناء الاقتصاد الألماني بعد الحرب العالمية الثانية. وكان ذلك طبعاً بسخرية شديدة.

كان الجزء الأهم من حديث الغداء هو رغبة السيدة/ **جيهان** في معرفة كيف سألبي طلب الرئيس في اللقاء بالمُثقفين العرب، سألت عن مدى جدية اقتراح الرئيس، فردّت أنه لم يكن "**اقتراحا**"، وإنما "**طلب**" واجب التنفيذ... وبادرت هي باقتراح بعض الأوقات المُناسبة، بعد احتفالات أكتوبر، وقبل موعد آخر لجلاء إسرائيل عن الشريط الأخير عن سيناء في أبريل من العام التالي (**١٩٨٢**) ... كما اقترحت أن يكون اللقاء في أسوان أو الأقصر، إذا كان الاجتماع سيتم بين نوفمبر وفبراير، وفي الإسكندرية أو برج العرب، إذا كان في مارس أو أبريل ... وفي حالة إقناع الرئيس لهم بوجهة نظره، فيمكن أن يدعوهم إلى حضور الاحتفال بجلاء آخر جندي إسرائيلي عن الأراضي المصرية في سيناء.

اندهشت من درجة المُتابعة والتفاصيل التي بدت في حديث السيدة "**جيهان**" لاقتراح أو طلب الرئيس، كما لو كانا قد ناقشا الفكرة مُسبقاً، وكما لو كان الهدف الرئيسي لاستدعائي هو تكليفي بالمُساعدة في تنفيذه ... في ضوء ذلك، أخبرت السيدة "**جيهان**" أن لدي عدة فرص أتصل فيها بمُفكرين عرب، أولها غدا في مؤتمر بجزيرة "**رودس**"، ثم بعد أسبوع في بيروت، وبعد أسبوعين في عمان ... واستعجبت من هذه المُصادفات، ولكنها فرحت برحلتي في اليوم التالي إلى "**رودس**"، لا فقط لأنها الفرصة الأولى لإجراء اختبار حول طلب الرئيس، ولكن أيضا لأنها تريد "**شتلات تين**" من نوع تشتهر به تلك الجزيرة ... وتركت المائدة لتحضر ورقة وتسجل عليها اسم نوع شتلة تين، وكذلك رقم تليفونها الخاص حتى أتصل بها بمُجرد عودتي إلى مصر، لأخبرها بنتيجة رحلتي... ولم أكن مُتأكداً عند الك اللحظة أيهما الأهم: **ترويج فكرة مؤتمر المثقفين العرب، أو إحضار شتلات التين الرودسي!؟.**

غادرت الاستراحة الرئاسية بالمعمورة، حوالي السادسة مساءً ... وكانت السيدة "**جيهان**" قد لاحظت أنني أدخن سجائر المارلبورو، لذلك وجدت في الكرسي الخلفي لسيارتي عشرة كارتونات من ذلك النوع، وبعض زجاجات العطور الحريمي لزوجتي **بركة**، والكولونيات الرجالي ... كانت هذه السيدة تعرف كيف تكسب الناس بمختلف الوسائل: دفئ الاستقبال، والتدخل في

اللحظات الحرجة انتصاراً للضيف، والقفشات المرحة ... والذكاء اللمّاح ... والهدايا!.

وأذكر كلماتها وهي تودعني عند باب استراحتها "**أرجو ألا تكون قد زعلت من الريس ...انه رجل وطني ... ولولا أن كلامك أثر فيه لما طالت المُقابلة ثلاث ساعات ... فهو عادة يملّ بسرعة من أحاديث المُثقفين!... أرجوك أبقى بجانب أنور ... وكلمني في أي وقت حتى من خارج مصر ... وترجع لنا بالسلامة!** وصافحتني بحرارة لم أدرِ في تلك اللحظة أنني لن أرى هذه السيدة المُبهرة إلا في "**ميريلاند**" بالولايات المتحدة ... وكانت مياه كثيرة قد مرت تحت جسور حياتنا، هي وأنا، وحياة مصر والعالم.

إلى رودس

سافر أربعة منا سويا، إلى رودسي صباح الأحد ٩/١: " **تحسين بشير، وسيد يس، وعلي الدين هلال، وأنا**... أخذتنا الطائرة إلى أثينا، ومنها بطائرة أخرى إلى جزيرة **رودس** التي هي أقرب إلى الساحل التركي، منها إلى الأراضي اليونانية، في مطاري القاهرة، وأثينا، وفي الطائرة ثم في **رودس** بدأت أقترح فكرة المؤتمر الذي طلبه الرئيس **السادات**... وكان لابد من إخبارهم بالسياق الذي جاء فيه الطلب... وكان هناك حب استطلاع شديد، وخاصة من "**علي الدين هلال وتحسين بشير**، عن تفاصيل مُقابلتي للرئيس **السادات**. وكان المصريون الثلاثة متحمسين للفكرة، ولكن **تحسين** توقع أن يكون رد فعل المُثقفين العرب بارداً، وفي أحسن الأحوال مُتحفظاً وأن معظمهم سيطلب الضوء الأخضر من حكومته... كما اقترح أن يُعقد اللقاء خارج مصر، وربما تكون **المغرب** هي أنسب مكان.

في "**رودس**" كان هناك حوالي عشرين مُثقفاً عربياً ومثلهم من اليونانيين وكانت المؤسسة الراعية هي المعهد الهليني للشؤون الدولية، والذي كان **ب.ج فيتاكيوتيس**، رئيساً مجلس إدارة المعهد، وهو مصري من أصل يوناني... وكان الغرض من المؤتمر هو استعراض ماضي وحاضر ومُستقبل العلاقات العربية ـ اليونانية. وباستثناء المصريين السبعة، كان مُعظم العرب المُشاركين من **الأردن ولبنان وفلسطين**، من تلاميذ **فيتاكيوتس** السابقين في جامعة **لندن**، وتحديداً من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية ... وكان واضحاً، أن اليونانيين أكثر جدية في أوراقهم، وأكثر توقعاً في أن يكون المؤتمر فاتحة حوار عربي – يوناني مُستمر وطويل الأمد ... وبقدر ما كانت المسألة الفلسطينية هي هاجس المُثقفين العرب في المؤتمر، كانت المسألة القبرصية هي هاجس اليونانيين.

أما هاجسي أنا فقد كان الترويج لطلب الرئيس **السادات**... وفي اليومين الأول والثاني، كان الزملاء العرب الذين فاتحتهم في الفكرة من لبنان والأردن هم الأكثر تجاوباً، وترحيباً من حيث المبدأ ... انتظاراً للتفاصيل.

ولكن في اليومين الثالث والرابع للمؤتمر **(أي ٣و٤ سبتمبر)** أصيبت جهودي بنكسة شديدة، نتيجة الأخبار التي بدأت تصل من مصر، حتى قبل أن يلقي الرئيس السادات خطابه يوم ٥ سبتمبر ... كانت الأخبار تفيد القبض على عدد كبير من الشخصيات المصرية المعروفة ... وكان الجانب الوحيد الذي أثار دهشة زملائي المصريين هي إقبال الرئيس **السادات** فعلاً على ما كان قد أخبرني به من القبض على تلك الشخصيات ... بما في ذلك عزل **البابا شنودة** ونفيه إلى دير **وادي النطرون**... والذي كان **تحسين بشير** قد راهن بعشرين دولار أنه لن يجرؤ على فعله ... أنفقنا قيمة الرهان على أربعة زجاجات بيرة "ستيلا" أما الزملاء العرب الذين كانوا قد وافقوا على الفكرة، فقد اقترحوا مؤتمراً للمثقفين المصريين مع الرئيس **السادات** أولاً، للحوار، بدلاً من السجن!

كان لدي ارتباط في **بيروت أنا وعلي الدين والسيد يس** بعد عدة أيام ... لذلك قررنا أن نظل في **رودس** يومين إضافيين، ثم التوجه **لبيروت**... كانت شواطئ **رودس** نصف الصخرية جميلة، ومليئة بالسياح الأوربيين ... وتعرفت في اليوم الثالث على الشاطئ بسائحة إنجليزية ومُقيمة بنفس الفندق ... وكانت تحرص على التردد على قاعة المؤتمر أثناء استراحات القهوة أو الغذاء ... وقدمتها لزملائي... وطلب "**علي**" بطريقته التهريجية من "**ليندا**" الإنجليزية أن تعرّفه هو وزملاءه من مصر على بعض صديقاتها من الإنجليزيات اللاتي يزرن "**رودس**" واستجابت "**ليندا**"... وأحضرت ثلاثة من صديقاتها ... وكن جميعاً في الأربعينيات من العمر، ولكن مقبولات شكلاً ... وسعد المصريون بذلك ... ورغم أنني لم أر "**ليندا**" بعد أن تركت "**رودس**"، إلا أن "**علي**"، "**ويس**" و"**تحسين**" ظلوا لسنوات على اتصال بصديقاتهم الإنجليزيات، وخاصة كلما ذهب أحدهم إلى لندن.

في بيروت وسبتمبر الحزبية

حينما وصلنا إلى بيروت لحضور إحدى اجتماعات المتابعة والتخطيط مع **د.خير الدين حسيب** ومركز دراسات الوحدة العربية، كانت أخبار الاعتقالات عموماً، واعتقالات زملاء وأصدقاء خصوصاً، تتوالى علينا يومياً بالتلكس ... وقد وجدت بالفعل عدة رسائل تليكسية من زوجتي "**بركة**" تنتظرني في **بيروت** ... تخبرني فيها عن اعتقال الأستاذ "**هيكل**" والصديقة **د.نوال السعداوي** والصديق **د.ميلاد حنا**، وآخرون.

تصادف أيضاً وجود زملائي من الجامعة الأمريكية بالقاهرة في **بيروت** هو **د.وليد قزيحة**، الذي كان مُتزوجاً منذ سنوات من أحدى صديقات **باربارا**، وهي السيدة "**منى عتيق**" وأنجب منها ولدين ... طلقها وتزوج أحد تلميذاته **(نيفين)** وكان الابن الأصغر يُعالج من مرض السرطان ... وكانت "**بركة**" تريدني أن أتابع الحالة الصحية، حيث لم تكن والدته تستطيع أن تتصل بطليقها بسبب سوء العلاقة بينهما ... الذي لم تكن تعرفه "**بركة**" هو أن ثمة سوء علاقة بيني وبين "**وليد**" بسبب شكه وغيرته الشديدة من علاقة زوجته الثانية بي أيام تلمذتها بالجامعة ... لذلك اكتفيت بإرسال زهور للطفل ووالده وزوجة أبيه في المستشفى **(التي ولدت فيها راندا)** ... وقد توفى بعد أسبوعين وكنت وقتها قد تركت بيروت إلى عمّان، حيث كان **د.حسيب** رتب لي، دون أن أكون مدعواً أصلياً، حضور ندوة تعقدها الجمعية الملكية الأردنية، حول الأقليات في الوطن العربي، اعتقاد منه أن ذلك لا بد أن يفيدنى في المشروع الذي كلفني به المركز، حول نفس الموضوع.

لقاء مع الأمير الحسن بن طلال

ولأنني لم أكن مدعواً أصلياً، فإن اسمي لم يظهر في برنامج الندوة ولم تكن لي ورقة مُدرجة في جدول أعمال الندوة، التي دُعي لها عدد من أبرز الأساتذة العرب في الجامعات البريطانية والأمريكية، فضلاً عن عدد من المُهتمين والمُمارسين السياسيين في الشرق العربي.

وبسبب الأحداث في مصر، والاعتقاد بأن البُعد الطائفي لهذه الأحداث يمس الأقباط وهم أحد أهم الأقليات الدينية في الوطن العربي، فقد اقترح مُنسق الندوة علي أن أقوم بمُداخلة شفوية قصيرة في حدود عشرة دقائق عن الموضوع ... ولم أمانع في ذلك... بل بالعكس رحّبت بالاقتراح، على الأقل حتى أبرر ضيافتي على نفقة الجمعية، طوال أيام الندوة الخمسة.

كان الأمير **الحسن بن طلال**، ولي عهد الأردن، هو رئيس الجمعية الملكية ... وهو مُثقف جاد، إلى جانب أنه شخصية سياسية بارزة ... وكنت أعرفه عن بعد منذ عملي مع تلك الجمعية قبل إحدى عشرعاماً، كغطاء لعملنا – أنا **وأنطوان زحلان وأشرف بيومي وأسامة الخولي – مع المقاومة الفلسطينية.**

وكان الأمير **حسن**، قد افتتح الندوة، ولكنه لم يحضر في جلساتها بسبب ارتباطاته الرسمية الأخرى، ولكن تصادف أنه أتى في الجلسة، التي حشرني مُنسق الندوة فيها، وكان ذلك ظهر اليوم الثاني للمؤتمر. بدأت مُداخلتي بنكتة كان الشارع المصري يُرددها عن إدعاء الرئيس **السادات** العدالة والإنصاف بين

المسلمين والأقباط، ومفادها أن الرئيس كان في طائرة صغيرة يتفقد بعض المشروعات الكبرى، بعد الأحداث الطائفية في **الزاوية الحمراء**... وإمعاناً في التظاهر بأنه رئيس كل المصريين اصطحب معه **شيخ الأزهر** و**بابا الأقباط** ... وبعد دقائق في الجو، أعلن قائد الطائرة أن أحد مُحركاتها قد توقف عن العمل، ولا بد من تخفيف حمولة الطائرة بأن يقفز أحد المُسافرين الثلاثة بالبارشوت، وإلا سقطت الطائرة بهم جميعاً ... نظر **السادات** إلى رجلي الدين، وقال: كان بودي أقفز، ولكن مصر تمر بظروف عصيبة، ولأنني لا أفرق في المُعاملة بين المسلمين والأقباط، فإنني سأجري امتحاناً قصيراً لكما ومن لا ينجح في الإجابة عليه سيقفز. وهز الرجلان رأسيهما بالموافقة.

بدأ **السادات** بالشيخ **عبد الحليم محمود**، شيخ الأزهر: كم شهيداً فقدتهم مصر في كل حروبها مع إسرائيل يا فضيلة الشيخ؟ **قال الشيخ:** مئة ألف شهيد. التفت **السادات** للبابا **شنودة**. وسأل هل تستطيع يا **قداسة البابا** أن تذكر أسماء هؤلاء الشهداء؟.

وضجت القاعة بالضحك ... وكان أعلاهم ضحكاً على الإطلاق هو الأمير **الحسن** ... ومن تلك اللحظة أصبحت نجم الندوة! فقد تأثر الأمير بأسباب التوتر الطائفي في مصر بشكل مُلفت ... وهو ما دفع كل المُنافقين الأردنيين لمُحاكاته ... وهكذا كانت مُداخلة الدقائق العشر، وما تضمنته من إيحاءات نظرية حول "**اتساق المكانة وكبش الفداء**" في لحظات الإحباط والدراما الوطنية موضع تعليقات، واستفسارات أخذت أكثر من ساعة، وشعرت بالامتنان ولكن أيضاً بالإشفاق على أصحاب الأوراق الرئيسية في جلسة المساء، فقد بذلوا فيها جهوداً واضحة، ولكنها لم تحظ باهتمام مُماثل.

أكثر من ذلك تعمد الأمير **الحسن** أن يأتي إلى عشاء المُشاركين في الندوة تلك الليلة، ثم تعمد أن يجلس على نفس المائدة التي كنت أجلس عليها... وطلب أن يسمع آخر النكات المصرية ... ورغم أنني لست من هواة حفظ أو إلقاء النكات، إلا أن الله جاد علي ببعض النكات التي ضحك الأمير لها من كل قلبه ... وكنت أندهش في كل مرة، كيف أن الأمير صاحب هذا الجسم الصغير نسبياً، يمكن أن يطلق هذه الضحكات العالية، التي بدت كما لو كانت صادرة من عملاق!

ولأنني كنت تلقائياً تماماً مع الأمير، فيبدو أن ذلك أراحه، وجعله يأتي إلى كل جلسة ويجلس إلى جانبي في الندوة، وعلى مائدتي في وجبتي الغداء والعشاء. واكتشفت أن الرجل حاد الذكاء، وقارئ نهم، ومُحاور عنيد، وابن نكتة

من الطراز الأول. وقاومت ما استطعت أن أحب الرجل، حيث كانت رواسب نشأتي السياسية الناصرية تضع حواجز نفسية بيني وبين الهاشميين.

في اليوم الأخير للندوة، أخذني الأمير جانباً، وحدّثني عن مُبادرة قام بها، هو وبعض المُفكرين ورجال الأعمال من المشرق والخليج، واسمها نادي"**العقبة**" حيث اجتمعوا أول مرة ... وطلب مني أن أمد زيارتي عدة أيام حتى نتحدث تفصيلا حول مُبادرته التي يُريد لها أن تكون على منوال "**نادي روما**".

كنت قد تسلمت تلكسا جديدا مؤثراً من زوجتي **بركة**، تؤنبني فيه على بقائي في الخارج كل هذه "المدة بينما مصر تحترق"، أو بالأحرى "**ينكل النظام فيها بأفضل أبنائها** ..."

قلت للأمير فحوى ما في التلكس كنوع من الاعتذار عن دعوته لمد إقامتي في **عمان** ... ضحك الأمير ... في موقف لم أظن أنه يستوجب الضحك ... ولاحظ امتعاضاً في ملامح وجهي على ضحكته. فسارع بسؤالي هل تحبك زوجتك إلى هذا الحد... حتى تريدك أن تلحق بأصدقائك في السجن؟ ثم ضحك مرة أخرى بنفس الطريقة المجلجلة ... قلت له ربما هناك شك في حبها لي ... ولكن ليس لدي شك في حبي لها! ومع ذلك سأمد إقامتي ليلة واحدة يمكن أن نتحدث عن "**نادي العقبة**" أو أي شيء آخر، ولكن لا بد من عودتي بعد غد، لأكون بجانب أسرتي وعائلات أصدقائي ... واستعداداً للعام الدراسي الجديد الذي لم يبق عليه إلا أيام ...

وهو ما كان ... وعرض عليّ الأمير أن أعود إلى **عمان** في أقرب فرصة لأساعده في مشروع نادي العقبة ووعدته أن أحاول ... وودعته، ولكني شعرت أن الأمير أصبح يثق فيّ ... ويتمنى أن أبادله الثقة.

الاغتيـال

حينما عدت إلى مصر في منتصف سبتمبر، لم أتصل بالسيدة **جيهان**، كما كنت قد وعدتها ... ولم تتصل هي أو الرئاسة بي ... كانت الأحداث قد جرفت حديث الشاطئ مع الرئيس، وحديث المائدة مع الهانم!

طلب مني بعد ثلاثة أيام من عودتي أن أشارك في مائدة مُستديرة مع صديقيّ **علي الدين هلال ود.علي عيسى** أستاذ السياسة بجامعة القاهرة لأساتذة الجامعة الأمريكية الجُدد ... وتناولت في مداخلتي إجراءات ٥ سبتمبر، التي تزامنت مع وصول الأساتذة الجُدد ... وكأنها تعميد فكري ونفسي لهم بنيران الشرق الأوسط (**مجازيا**) حيث تتداخل في الأزمة الحالية الاختناقات السياسية الاجتماعية الطائفية الداخلية مع الاختناقات الإقليمية لتعثر مسيرة السلام،

والحرب الأهلية، اللبنانية والغضب العربي من جراء الغارتين الإسرائيليتين على **المُفاعل العراقي** وعلى حي **الفكهاني في بيروت** ... ووضحت أننا مُقبلين على أسابيع عصيبة...

وحين تحدث بعدي **علي الدين هلال**، فقد كان أكثر تفاؤلاً وثقة في قوة الدولة المصرية، وقدرة النظام على إدارة ما سمّاه صديقه **سعد الدين إبراهيم** "**بالأزمة**" والتي لا هي "**أزمة**" ولا حتى "**مُشكلة**" ولكنه "**جدل سياسي**" تحكّم فيه الرئيس، تسخيناً وتبريداً، حينما وكيفما شاء ...**!** ثم تطرق إلى مؤسسة الرئاسة في مصر، وقدراتها "**الفرعونية**" على أن تفعل أي شيء وكل شيء بلا رقيب أو حسيب.

وكان جزء مما قاله **علي الدين هلال** صحيح ... ولكني اندهشت من عدم رؤيته أو حساسيته للتوتر القائم والقابل للانفجار ... كان حديثه ذلك اليوم في القاعة الشرقية، كما كان معي في حديث شاطئ "**رودس**"، يتبلور أكثر وأكثر اختلافنا في فهم الأمور، وأكثر من ذلك طريقة تعاملنا معها، حتى إذا توافقنا في الفهم ... كان **علي الدين**، كما كان هو نفسه دائماً رجل الحكومة، والمؤسسة الحاكمة ... هو يتعامل مع "**الكرسي**" الذي يحترمه، ويتقرب منه، طلباً لرضائه، وعلى أمل أن يجلس هو عليه يوما ما.

ومرت عدة أيام، كنت في مكتبي، صباح يوم ٦ أكتوبر، مُنتهزا فرصة تعطيل الدراسة في ذلك اليوم للانتهاء من بعض الأعمال المُتراكمة بسبب سفري الطويل في النصف الأول من سبتمبر... اتصلت بي **بركة** بعد الظهر في الجامعة، لتسألني عما إذا كنت قد سمعت شيئا، ولم أكن قد سمعت شيئا... واستفسرت مثل ماذا؟ قالت بتحفظ أن شيئا لا تعرف طبيعته يبدو أنه وقع أثناء العرض العسكري في وجود الرئيس ويستحسن أن أعود إلى منزلي في المعادي بأسرع ما يمكن... وحاولت تهدئتها، وفي ذهني، ليس التحليل الذي قدمته منذ عشرة أيام، ولكن التحليل الذي قدمه **على الدين هلال** ... أي قدرة النظام على إدارة أي توتر، وتسخينه أو تبريده، كيفما وحينما يُريد.

ركبت سيارتي، ولاحظت هدوءا نسبياً في الشوارع، أرجعته لوهلة إلى أن اليوم كان عطلة رسمية... ولكن كان هناك شيء آخر في هدوء ذلك اليوم الخريفي، رغم أنه كان يوما مُشمساً... أدرت مُفتاح الراديو على القاهرة، ولم اسمع شيئا غير نفس المارشات العسكرية... ولكن محطة لندن أذاعت نبأ مفاداة أن مُحاولة اغتيال فاشلة قد وقعت أثناء العرض العسكري، وأن الرئيس **السادات** أصيب بجروح سطحية.

تعالوا إلى كلمة سواء

حينما وصلت في طريقي إلى مُستشفى المعادي العسكري، لاحظت حركة غير عادية، ولكنها ليست مُستغربة حول ذلك المستشفى بالذات بسبب من يخدمهم من العسكريين ... ولكن مع وصولي إلى المنزل وجدت أن خبر الاعتداء، قد تأكد، وأن السفارة الأمريكية قد أرسلت رسالة عاجلة لكل المؤسسات الأمريكية والمواطنين الأمريكيين، بالاعتكاف داخل منازلهم، وأخذ حذرهم... وبعد ساعة أخرى، كانت كل إذاعات العالم، ماعدا الإذاعة المصرية قد أكدت نبأ الاغتيال... وحزنت من أعماقي حزناً حقيقياً، رغم أنه كان يختلف عن حزني على **عبد الناصر** منذ أحدعشر عاماً... كان حزني في ذلك اليوم، حزناً إنسانياً على مخلوق عرفته وتفاعلت معه ومع زوجته، فقط منذ خمسة أسابيع... استعدت مُناقشاتي العاصفة مع الرجل... وكلمات زوجته عن "**وطنيته**" ورجاءها أن "**أفهمه وأن أقف بجانبه حيث تخلى عنه، أو أُبعد عنه من كانوا يخلصون له النصيحة بلا خوف**".

وفي غضون أسابيع قليلة، وبعد الاستفتاء على الرئيس الجديد **حسني مبارك**، الذي استراح له الناس، أفرج عن كل المُعتقلين السياسيين المعروفين، واستقبلهم في مكتبه بالرئاسة، وترك ذلك على الرأي العام تأثيرا طيباً للغاية... ومن ناحية أخرى، بدأت إذاعة تفاصيل عمن قاموا باغتيال الرئيس **السادات**... وما تبعها من مواجهات دموية حول مديرية أمن أسيوط، تثير الرأي العام داخلياً وخارجياً. وفي الخارج تسابقت وكالات الأنباء للاقتباس من مقالي عن الجماعات الإسلامية الذي كان قد نشر بالإنجليزية قبل شهور... كما تسابقت هذه الوكالات على عقد مُقابلات معي في القاهرة... حتى أن **CBS** لاحقتني في مؤتمر كنت أحضره في فيينا بمُناسبة "**السنة الدولية للمعاقين**"، الذي كنت ألقي فيه الورقة الإقليمية عن العالم العربي ...

أزعجني مع ذلك نفس النزعة الغوغائية في الصحافة المصرية حول الجماعات الإسلامية، بما فيها تنظيم الجهاد، الذي كان هو المُتهم باغتيال **السادات**.

عادت تلك الصحافة تصفهم "**بالجنون**" و"**الشذوذ**" وعقد النقص الدينية في أعضاء تلك الجماعات تارة، وبأنهم "**عُملاء**" و" **مأجورين**" و"**خونة**" تارة أخرى... بينما كان الإعلام الخارجي أكثر موضوعية، على الأقل في مُحاولة جادة للفهم...

لذلك غامرت بمقال طويل للأهرام، دون أمل في أن يُنشر، وكان بعنوان **"تعالوا إلى كلمة سواء..."** وكان على هيئة مجموعة استغاثات للإعلام والرأي العام والدولة أن يكفوا عن النزعة الغوغائية السطحية، الاختزالية، الشتائمية، في التعامل مع الجماعات الإسلامية، وبدلاً من ذلك مُحاولة فهمهم حتى يتم التعامل معهم بعقلانية وفعّالية تُجنبهم... كأبناء لمصر – أن يدفعوا ضريبة دم فادحة كل بضع سنوات، وتُجنب مصر والمصريين ثمناً فادحاً في استقرار وازدهار البلاد.

لدهشتي نشرت الأهرام المقال، بعد حوالي ستة أسابيع من واقعة الاغتيال. وكان له دوي هائل في مصر والوطن العربي، وغيّر تغييراً كيفياً، وإلى الأبد من طريقة تعامل الإعلام المصري مع **"الإسلاميين"**.

منتدى الفكر الديمقراطي

كان اغتيال الرئيس **السادات** عنواناً دراميا على الاحتقان الشديد الذي أصاب المجتمع والدولة في مصر، ولم أكن الوحيد الذي شعر ونبّه إلى ذلك في مقالاته ومحاضراته وكتبه... كانت أحزاب المُعارضة تتحدث عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب الاحتقان ولكن كانت تنقص هذه الأحزاب الرؤية الشاملة للمسألة المصرية في أواخر القرن العشرين، وكانت تنقصها **"المصداقية"** والتي كانت تنقص النظام الحاكم نفسه. وأخيراً كانت تنقصها لُغة خطاب جديدة، تتجاوز اللغة الشعاراتية الصارخة والتي أصبحت أكلشيهات باهتة من كثرة وتكرار الاستخدام.

لذلك بدأت أدعو لمُبادرة مُستقبلية جديدة، تتعامل مع أوضاع ما بعد الاغتيال وتُمهد مصر للقرن الحادي والعشرين... ولكي تكون المُبادرة فعّالة، فقد بحثت عن بعض الشخصيات العامة غير الحزبية، ذات القبول والاحترام العام، وهداني تفكيري إلى الأستاذ **أحمد بهاء الدين**، والأستاذ **كامل زهيري**، ود.**يوسف إدريس**، ود.**محمود شريف** ود.**حلمي الحديدي**، والفنانين **كرم مطاوع**، و**نادية لطفي**. وكان طبيعياً أن أبدأ بصديقيّ ورفيقيّ مسيرتي في تلك السنوات: **السيد يس**، و**علي الدين هلال**... وبعد مُناقشات مُنفصلة اقتنعنا بالفكرة... ورغم أنني كنت أعرف هذه الشخصيات العامة جميعاً، إلا أنني فضلت أن يأخذ **علي الدين** المُبادرة في مُفاتحة **أحمد بهاء الدين** الذي كانت علاقته به أقدم وأوثق، وأطلق اسمه على ابنه الأول **"بهاء"** ... وقد اتفق ثلاثتنا على أن يكون **بهاء** هو رئيس وواجهة المُبادرة الجديدة، رغم علمنا بسلبيات الرجل من حيث القدرات التنظيمية والخطابية والجماهيرية... ولكن كان يعوض

هذه السلبيات نزاهة الرجل، واتساع أفقه، والاحترام الذي يتمتع به مصرياً وعربياً في دوائر واسعة، حكومية وشعبية ومُعارضة... وأقتنع الرجل مبدياً تحفظاً، وبعد أن أكدنا له أننا سنقوم بكل شيء من تلك المهام التي تزعجه... وقد اطمأن إلى ذلك، حيث قد رأى "**الثلاثي الذهبي**"، كما أصبح يُطلق علينا، في سباقات مُختلفة، وخاصة من خلال مركز دراسات الوحدة العربية، الذي كان **أحمد بهاء الدين**، أحد أعضاء مجلس أمنائه...

وعقد أصحاب المُبادرة أولى اجتماعاتهم في **النادي الثقافي المصري**، بجاردن سيتي، ووزعت ثلاث أوراق عمل قصيرة تضمنت رؤانا للوضع القائم وأسباب تدهوره، والطريق للخروج من الأزمة ورؤى المُستقبل... وكان هناك اتفاق بين الأوراق على أن "**الديمقراطية هي ضرورة**"، وهي "**الفريضة الغائبة**" التي عجّلت بنهاية النظام **الناصري**، والتي كان غياب روحها سبباً في تعثر النظام **الساداتي**... حضر الاجتماع الأول حوالي ثلاثين، يُمثلون ثلاثة أجيال وكنا نحن **(الثلاثي)** أوسطها ولكنا حرصنا على ضم جيل يصغرنا بعشر سنوات – أي في الثلاثينات.

واقترحت، ووافق الجميع على أن نسمي مُبادرتنا بمُنتدى الفكر الديمقراطي (DTF Democratic Thought forum). وكان في ذهني أن تكون في روحها وفلسفتها، مُحاكاة "**للجمعية الفابية**" – نسبة لفابيوس كونكتاتورد – التي أسسها "**سيدني وبياتريس ويب**" في أواخر القرن التاسع عشر، في بريطانيا، وكان "**برناردشو**" أحد أعضائها، والتي أدت إلى تغيير الأوضاع جذريا، ولكن سلميا وتدريجيا. وتحولت الجمعية الفابية بعد ذلك إلى "حزب العُمال" البريطاني.

ورغم الحرص على عدم الإعلان عن المُنتدى، إلا أن أخباره تسربت إلى بعض الصحف المُعارضة والأجنبية... واحتفت به الأخيرة، بينما عارضت صحف المُعارضة... وكان أشدها عدوانية هو صحيفة "**الأهالي**" اليسارية... التي أعتقد العاملون فيها أنها تسحب السجادة من تحت أقدامهم وتستقطب الشباب الذين كان حزب التجمع يهدف إلى استقطابهم إلى صفوفه.

استمرت اجتماعتنا أسبوعيا بانتظام، وزاد الإقبال على المُنتدى... حتى وصل إلى المئة... ولم يعد النادي الثقافي يتسع لهم... وقررنا ولأسباب عدة أن نجمد العضوية، إلى أن تتبلور أمور كثيرة، ومنها ما أصرّ **بهاء الدين** عليه، وهو معرفة موقف النظام من المُبادرة... وكان يُعتقد في الشهور الأولى أن لدى الثلاثي، وخاصة أنا، ضوءا أخضر من النظام، بسبب علاقة الأستاذية التي تجمعني **بسوزان مُبارك** ... فلما أخبرته أنني لم أطلب ولم يعطني أحد الضوء الأخضر... بدا عليه القلق والرغبة في نفض يده عن المُبادرة... فاقترحنا أن

نسجل المُنتدى كجمعية أهلية .. وأن ذلك من شأنه أن يكشف نوايا النظام نحو مُبادرة المُنتدى. وبدأنا فعلا إجراءات التسجيل العقيمة، التي كنت قد خبرتها منذ عام ١٩٧٧... ولحسن الحظ، استغرقت الإجراءات شهرين فقط... وانتظرنا فترة التسعين يوماً التالية، حتى نتسلم إخطارا رسمياً من وزارة الشؤون الاجتماعية.

واستمرت اجتماعتنا مع ذلك، ونشط الأعضاء في إعداد الأوراق، وفي التبشير برسالة المُنتدى، وكثّفنا كتاباتنا في الصُحف والمجلات ... وكنا على يقين أننا بصدد عمل وطني مصري وعربي عظيم .. حتى زملاؤنا في الخارج، بدأوا يستفسرون ويُفكرون جدياً في العودة إلى البلاد ... ومنهم **حسن طلعت وفوزي هيكل**.

وعند انتهاء الشهور الثلاثة، وصلنا إخطار وزارة الشؤون الاجتماعية **برفض الموافقة** على إشهار **المُنتدى**، لأسباب أمنية .. وأصبنا جميعاً بصدمة ... واجتمعنا وناقشنا ما ينبغي عمله ... وتعددت الاقتراحات، التي تراوحت بين العمل السري أو النصف علني، ورفع قضية في مجلس الدولة ضد وزارة الشؤون، والإقلاع عن المُحاولة ... وبعد عدة اجتماعات تقرر أن نترك القرار لكل مجموعة أن تفعل ما تشاء.

في نفس الوقت، قرر الأستاذ **أحمد بهاء الدين** نفض يده كلية من المُبادرة. وكانت وجهة نظره أن الدولة لم تعطنا ضوء أخضر فحسب، بل حتى أنكرت علينا الضوء الأصفر، وأعطتنا الضوء الأحمر... وبالتالي فليس لديه وقتا يُضيعه بالاستمرار في المُبادرة.

وباستثناء الثلاثي، ومجموعة الشباب الذين أتينا بهم من الأهرام والجامعات التي يدرسون فيها، فقد انفرط عقد المُبادرة ... ومن ناحيتها تعمدت الدولة أن تنتقي من أعضاء المُنتدى من رشحتهم لأمانة حزبها الوطني الحاكم، أو عيّنتهم مُحافظين ووزراء.

بعد ثلاث سنوات، حاولت ضم أكبر عدد من أعضاء مُنتدى الفكر الديمقراطي لمُنتدى آخر كنت أو أصبحت مسؤولا عنه في **عمان**، وهو **منتدى الفكر العربي**، وهو حديث آخر سيرد ذكره في حوليات ١٩٨٥.

سعاد الصباح

بعد شهر واحد من اغتيال **السادات**، وحديث الرئيس الجديد **مُبارك** عن "**طهارة اليد**" هو كما لو كان ضوءا أخضر لفتح ملف الفساد في عهد سلفه - مثلما كان حديث الرئيس **السادات** عن "**الإيمان**" ضوءا أخضر للهجوم على اليسار، المُتهم بالمادية والاتحاد... وأكد ذلك مُلاحقة بعض رموز النظام

الساداتي: **رشاد عثمان**، و**عصمت السادات**، وغيرهم، كما بدأت الإشاعات تنتشر حول تجاوزات السيدة **جيهان السادات**، وجشعها المادي، ومن ذلك استعارتها لمجوهرات من الأميرة الكويتية **سعاد الصباح**، وعدم إعادتها!

لذلك حينما شاركت في مؤتمر، كنا قد خطّطنا له في أوائل سبتمبر في **بيروت** مع **د.خير الدين حسيب**، وعقد في **الكويت** في ديسمبر ١٩٨١ اندهشت قليلا، عندما وجدت من يجلس عن يساري حسناء، لم أرها في مُحاضرات وندوات مركز دراسات الوحدة العربية من قبل. ونظرت إلى اللافتة التي تحمل اسمها، فإذا بها **د.سعاد الصباح**، وكان المُعتاد في تنظيم جلوس المُشاركين في لقاءات المركز أن تتم طبقاً للحروف الأبجدية للأسماء الأولى للمُشاركين، وكانت "**سعاد**" تأتي قبل "**سعد**" مُباشرة. ولأن الجلسة كانت قد بدأت حينما أخذت موقعي على مقعدي، فقد اكتفيت بتحيتها بإيماءة من رأسي، ردت عليها بإيماءة مع نظرة فاحصة لجارها في المؤتمر... وكان **خير الدين حسيب** على بعد ثلاثة مقاعد عن يساري، ومقعدين عن يسار **د.سعاد**... وكعادته معي في المؤتمرات، كان دائم إرسال رسائل صغيرة، بين الحين والآخر، لأمور هامة أثناء الجلسة، وكان مُعظمها يتمثل في أن يطلب مُداخلة مني أثناء الجلسة، إما لتنشيط حيوية الجلسة، أو إعادة النقاش إلى المسار المفترض... وكان لا بد أن تأتي هذه الرسائل عن طريق **د.سعاد**. لذلك ففي أول استراحة للقهوة... قالت مُداعبة "**عليك أنت ود.حسيب أن تجدا بوسطجي غيري**..." قلت بدعابة مُماثلة "البوسطجية كثيرون، ولكن البوستجيات نادرات" ... "**والبوستجيات الحسناوات**" أكثر ندرة! ردت بلهجة مصرية "شوية شوية علي يا دكتور... هذا هجوم صاروخي أرض – أرض"! وهنا تدخل **حسيب** الذي كان يقف ورائي... ويُريد كالعادة أن يتحدث معي، حول الجلسة التالية، التي كنت أنا المُتحدث الرئيسي فيها.

تحدثت عن أخطار العمالة الأجنبية، غير العربية في **الخليج**، أمنياً، وثقافياً، وعن وضع العمالة في بعض دول **الخليج**، كالإمارات، وهي المرشحة الأولى حيث وصلت بها العمالة الآسيوية أكثر من ٤٠% من قوة العمل، وإذا استمرت نفس المُعدلات فستصل هذه العمالة إلى أكثر من سبعين في المئة، قبل سنة ٢٠٠٠. ولكني ركّزت معظم وقتي في العرض الشفوي على الآثار الثقافية المربيات والآسيويات اللاتي سيُنشئن جيلا عربياً في الخليج مختلف الوجدان والعقل واللسان... ومن واقع المُناقشات التي تلت كان من الواضح أنني لمست وتراً حساساً لم يكن أحداً قد تحدث عنه، وبهذا التفصيل والتحليل، إلى تاريخه...

وحينما عدت إلى مقعدي، تسلمت منها رسالة مكتوبة "**أنت ساحر... هل تسمح لي بدعوتك على الغداء؟**"، شكرتها كتابة، ولبّيت الدعوة شرط أن أفلت من **د.حسيب**... اقترحت هي أن أترك القاعة إلى مطعم معين في الطابق الثاني من الفندق، قبل انتهاء الجلسة بخمس دقائق، حتى أفلت من **حسيب**... وهو ما حدث وانتظرتها في المطعم الذي حددته، حيث وجدت سيدة أخرى سوداء البشرة اقتربت منها، وسألتها إن كانت هي الأخت **آمنة**؟ فقالت نعم يا **سعد الدين**، حسناً أنك تذكرني بعد ٢١ سنة... كانت **آمنة** واحدة من أربع كويتيات درسن في قسم الاجتماع في دفعتي، التي تخرجت سنة ١٩٦٠. قالت أنها تنتظر صديقتها **د.سعاد الصباح**، التي دعتها للغداء. قلت يا لها من صُدفة، فقد دعتني **د.سعاد** للغداء أيضا. وما كان لي أن أراك بعد كل هذه السنين، لولا دعوتها... هنا وصلت **د.سعاد** وهي في غاية الدهشة من انغماسي في الحديث مع **آمنة**، قائلة "كيف تخطف النساء هكذا في الكويت؟ ألا تعلم أن ذلك مُخالف للأعراف والتقاليد؟"... شرحنا لها أننا زملاء قدامى... جلسنا وتحدثنا... وتذكرت فجأة الإشاعة حول استعارة **جيهان السادات** لعقد من أميرة كويتية ولم ترده... فلما جاء حديث الاغتيال ... سألت الضيفة بالمُناسبة ... هل أنت الأميرة المقصودة في الإشاعة؟" أجابت "نعم هي أنا. ولكن لا نصيب لهذه الإشاعة من الصحة. هناك أشياء أخرى، ربما أحدثك عنها يوماً ما، ولكن هذه الإشاعة غير صحيحة بالمرة... قلبي مع **جيهان**، هتلاقيها منين ولا منين؟ كنت مُندهشا لسهولة استخدامها للهجة المصرية، حتى علمت أنها عاشت ودرست في مصر لسنوات طويلة.

كانت بقية أيام الندوة صراعاً أو مُنافسة ودية بين **حسيب** و**د.سعاد** على الاستئثار بوقتي في استراحات القهوة، ووجبات الغداء. كان هذا هو المؤتمر الأول الذي تشارك فيه **سعاد** بعد حصولها منذ شهور على الدكتوراه في الاقتصاد. وكانت بداية علاقة طويلة ومُعقدة استمرت ثلاثة عشر عاماً.

ديسمبر ١٩٨١
اللقاء الأول مع قرينة الرئيس حُسني مُبارك

كنت قد قابلت **حسني مُبارك** مرتين، وهو نائب للرئيس، مرة اجتماعياً في منزله بمُناسبة تخرج **سوزان**، ومرة في مكتبه بمُناسبة مُناقشة وإبداء مشورة بشأن "**التطبيع مع إسرائيل**". وكانت المرة الأولى في يونيو ١٩٧٧، والثانية في مايو ١٩٧٩.

بعد اغتيال الرئيس **السادات**، انقطعت **سوزان** عن الحضور لمكتبي بالجامعة إلى أن مر "**الأربعين**"... وحينما أتت كانت ما تزال في ملابس الحداد السوداء، والتي استمرت إلى نهاية عام ١٩٨١، وفي أول لقاء بعد الاغتيال، أتى معها إلى الجامعة عدد من أفراد **الحراسة الخاصة**، بملابس مدنية، انتظروا على مسافة من مكتبي بشكل نصف ظاهر... واعتذرت **سوزان** نفسها عن وجودهم، وقالت" **ما باليد حيلة...!**" هوّنت عليها الأمر، بعد أن أصبحت "**سيدة مصر الأولى**" ولكنها بادرتني مُعترضة على هذا اللقب، "الذي لا تُحبه ولا يُحبه **حسني**" ... وفهمت من سياق الحديث أنها لا تريد أن تلعب دورا ظاهراً في الحياة العامة، مثلما فعلت السيدة "**جيهان السادات**" وقالت أنها مُختلفة، وكذلك **حُسني**... " وأنهما ينزعجان من الدعاية، ويكرهان التزلف والتملق... وكان بودهما أن يعيشا بقية حياتهما بعيداً عن الأضواء، ولكنها الظروف التي فرضت عليهما تلك المسؤوليات الجديدة... " ولم يُبادرني أي شك في إخلاصها وصدقها، وهي تتفوه بهذه الكلمات، التي كانت مصحوبة بتعبيرات ألم وحزن حقيقيين ... وكنت قد تعودت خلال السنوات الخمس السابقة على طريقتها في الحديث والتعبير... التي كانت دائماً مُعتدلة هادئة... لم أرها أبداً تلك السنوات تضحك بصوت مسموع، أو تشكو بشكل حاد، أو تغضب بدرجة صارخة... كان فرحها أو سعادتها مصحوبان بابتسامة خفيفة، وكذلك حزنها كان مصحوباً بتقطيبة وجه خفيفة... كانت ابتسامتها تضيف لوجهها الجميل أصلاً مزيداً من النورانية... وكانت تقطيبة جبينها تكسو وجهها بالجدية والوقار...

أعطاني حديثها عن أسلوب حياتها "**كزوجة**" الرئيس، أو "**قرينة**" الرئيس، وليس "**حرمه**"، حيث كانت تعتبر حرم، من حريم، مُهينة للمرأة، فرصة لمُناقشة توقيت منحها درجة الماجستير. لقد كانت قد انتهت من عملها الميداني في منطقة "**بولاق أبو العلا**"... وكانت قد سلمتني بالفعل المسودة الأولى لرسالة الماجستير في أواخر سبتمبر، أملا في أن تنتهي من كل شيء قبل نهاية العام، وتتخرج في دفعة **فبراير ١٩٨٢**. ومن المُفارقات القدرية أنني انتهزت فرصة الهدوء في مكتبي يوم ٦ أكتوبر، لأتفرغ لقراءة رسائل الماجستير، التي يرغب أصحابها في التخرج في مُنتصف العام الدراسي... وحينما جائتني مُكالمة من زوجتي بعد ظهر ذلك اليوم، كنت بالفعل أقرأ في مسودة رسالة **سوزان**... وحينما أتت لمكتبي في أوائل ديسمبر، كنت قد فرغت من قراءتها، وسطرت مُلاحظاتي عليها... ولم تكن تحتاج إلا بضعة أيام لتعديل وتصحيح بعض أجزائها... وناقشتها فيما يحتاج إلى تغيير.

وسألت: **هل يمكنني الانتهاء من هذه التغييرات والتخرج في فبراير؟** ... رددت عليها بالإيجاب... وسألتها" ولكن **لماذا العجلة؟**"... ردت "لقد شِخت ... فأنا أعد للماجستير منذ أربع سنوات، فهل تعتبر ذلك تعجلا؟" قلت لها أنه في الظروف العادية لا يعتبر ذلك تعجلا بالمرة، حيث أن متوسط الوقت الذي يحتاجه الطالب للحصول على الماجستير هو سنتين ونصف إذا كان مُتفرغاً، وثلاث ونصف إن لم يكن مُتفرغا... ولكن حيث أنك الآن "قرينة الرئيس"، فإن الأضواء ستكون مُسلطة عليك في حفل التخرج في فبراير... **وقد يظن أصحاب النوايا السيئة بك الظنون... وكيف حصلت على الماجستير بهذه السُرعة بعد أن أصبحت زوجة الرئيس**... ولن يُكلف هؤلاء خاطرهم أن يذكروا أنه مر عليك أربع سنوات ونصف... **وربما تذكرين الضجة التي أثيرت حينما نوقشت رسالة جيهان السادات منذ سنة**... والإشاعات التي روّجتها صُحف المُعارضة والصحافة العربية **حول التواطؤ والمحسوبية في منحها الدرجة العلمية، وما قيل عن تعيين رئيس جامعة القاهرة، د.صوفي أبو طالب رئيسا لمجلس الشعب، ود. صبحي عبد الحكيم، عميد كلية الآداب، رئيساً لمجلس الشورى مُكافأة لهما على الإسراع بمنح جيهان تلك الدرجة، وبتقدير امتياز... فهل تريدين أن يحدث نفس الشيء؟**"

كانت **سوزان** تسمع باهتمام شديد، وتهز رأسها، ثم أطرقت لحظة فكرت فيها ملياً قبل أن تجيب على سؤالي ثم قالت "بالطبع لا أريد أن يثار أي شك... لو أنني أستبعد ذلك فهذه هي الجامعة الأمريكية، وليست جامعة القاهرة، والكل يعرف أنه لا توجد مُجاملات أو وساطات في الجامعة الأمريكية... ثم أنك لست **صوفي أبو طالب** أو **صبحي عبد الحكيم** "

قلت "هذا صحيح في جوهره، ولكن ليس في منظره... فأصحاب النوايا السيئة، حتى إن كانوا يعرفون، فهم يُخلطون الأمور والأوراق... فضلا عن أن الرأي العام لا يعرف ما تعرفينه أنت أو أعرفه أنا عن كل الفروق التي ذكرتيها بين جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية... وفي كل الأحوال رسالتك جاهزة للمُناقشة، إذا أردت، خلال شهر، ويمكنك بالتالي التخرج في دورة فبراير.

عادت وسألتني وبماذا تنصح ؟

قلت "إذا كنت لا تنوين التسجيل فوراً لدرجة الدكتوراه، ولست في عجلة من أمرك، فإنني أنصح بالآتي:

أولا: أن يكون تخرجك في **دور يونيو.**

ثانيا: أن **تعودي للميدان**، وتقومي بإضافات سأقترحها عليك، وتضيفي بشأنها فصلين في الرسالة، بحيث أن من يطّلع عليها بعد ذلك، يُخلص لا أنها تستحق الماجستير فقط، ولكن الدكتوراه أيضا".

ابتسمت، وقالت " **وهو كذلك ok** وودعتها بحرارة على أن نلتقي شهريا للمُراجعة.

١٩٨٢

اللقاء الأول مع الرئيس محمد حُسني مُبارك

في أحد لقاءات **سوزان** في يناير ١٩٨٢، سألتني عن رأيي في بعض القضايا العامة، التي كانت تشغل الناس، وهو ما لا علاقة له بموضوع الماجستير، الذي كنا نتابعه طبقاً للخطة المُتفق عليها... وقلت رأيي فيما سألت عنه... وكانت هي تُسجل بعض ما أذكره من نقاط... ثم توقفت فجأة، وسألت لماذا لا تطلب مُقابلة "**الرئيس**" وتقول له هذه الأشياء؟ وكانت هذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها لقب الرئيس وليس اسمه مُجردا **(أي حُسني)** كما تعودت من قبل ... قلت لها، أتصور أن الرئيس في غاية الانشغال طوال الشهور الستة الأولى من ولايته، حتى يتم ترتيب البيت من الداخل ... ومع ذلك لو طلبني فلن أتأخر لحظة"... هزت رأسها، وبدأت في عرض الجديد الذي استحدثته في عملها الميداني عن مُكافحة الفقر في **بولاق** من خلال النهوض بأسر التلاميذ، وخاصة الأمهات... وكان الجديد أن بعض الأمهات قد طلبن اقتناء **ماكينات خياطة وتطريز**، ليقمن بأنشطة تزيد من دخلهن وجرت مُناقشة حول منحهن هذه الماكينات مجاناً، أو بقرض يتم تسديده على أقساط... وكانت هي قد استطاعت بالفعل أن تقنع بعض أصحاب الأعمال والميسورين من خارج المنطقة بالتبرع بثمن **خمسين ماكينة**... وكانت سعيدة بهذا الإنجاز وعلى وشك توزيعها مجانا على أفقر الأمهات، ولكن لي رأي آخر... وهو أن تدفع الأمهات ثمن هذه الماكينات على آجال مُريحة. وللتأكد من جدوى المشروع وقابليته للاتساع، هو الاتفاق معهن على **تصنيع/ تفصيل** الزي المدرسي للتلاميذ للعام الدراسي التالي... ومن هذا العمل المضمون، يكون هناك دخل مضمون، ومكسب مضمون يدفعن عنه الأقساط... ويتم شراء ماكينات أخرى لمجموعة أخرى من الأمهات أو أي مشروعات مُشابهة... مثل إعداد الوجبات المدرسية تحت إشراف طبي وصحي مُناسب... اقتنعت بالفكرة وبالمثل الصيني الذي كنا قد سمعناه من سنوات "**بدلا من أن تعطيني سمكة، مرة واحدة... علمني كيف أصطاد السمك**".

بعد ثلاثة أيام أتصل بي مسؤول من الرئاسة، حيث حدّد لي موعداً لرؤية الرئيس في العاشرة من صباح اليوم التالي.

توجهت بسيارتي إلى قصر العروبة، حيث مكتب الرئيس... لم تكن إجراءات الحراسة مُلفتة للنظر بشكل خاص... وكانت أجواء القصر هادئة مُسترخية (**Relaxed**) ... انتظرت حوالي نصف ساعة، قبل الإذن لي بالدخول... وكان الرئيس بشوشا ودوداً... واعتذر عن تركي أنتظر، حيث كان عنده المهندس **إبراهيم شكري**، الذي لم يكف عن الكلام، ولم يرد الرئيس "أن يوقفه أو يُقاطعه، حيث أنه رجل كبير السن، وإنسان فاضل" ... فنظرت في ساعتي، وسألت الرئيس عن الوقت المسموح به لمُقابلتي، حتى لا أعطله عن التزاماته الأخرى، فسارع "لا... لا... أنا لم أقصد أنك ستكون مثل **إبراهيم شكري**... لا أظن أن لدي مواعيد أخرى هذا الصباح، فأنا أريد يوم الخميس دائما بلا التزامات رسمية أو خارج المكتب... المهم دعنا نتحدث... وأنت لست غريبا، ولن تأخذ على خاطرك إن حدث ما يوجب تقصير هذا اللقاء... ونحن سنلتقي كثيرا بإذن الله... إذا لم يكن لديك مانع طبعاً.

سألت الرئيس عن تقييمه لخبرة "**المئة يوم الأولى...** " فسأل "**اشمعنى يعني مئة يوم** ؟" فقلت له أن ذلك تعبير شائع في الولايات المتحدة وأوربا الغربية حينما تأتي رئاسة جديدة... حيث يُعطيها الجميع مئة يوم لتدبير شؤون المنزل من الداخل... ولا يوجهون لها أي انتقادات حول المئة يوم الأولى" فقال الرئيس بطريقة عفوية والله أنا لم أحسب كم يوم قد مرت عليّ منذ الاستفتاء... صحيح هو مر كم يوم ؟ وحسبنا سويا، وكان قد مر ٨٦ يوم... فقال كالأطفال وهو يضحك، "**ما زال لي ١٤ يوما يا سيدي... إيه رأيك؟**" على كل حال – الحمد لله الأمور استقرت أمنيا ولكن **المُشكلة الاقتصادية هي التي تؤرقني**... لذلك دعوت أهل الخبرة في الاقتصاد، الشهر القادم... لأسمع منهم عن كيفية الخروج من مأزقنا... وبالمُناسبة أنا أريدك أن تتأكد **أنني لم أسع إلى هذا الموقع... لقد كان تعييني نائباً للرئيس مفاجأة تامة لي ولأسرتي... فليلة استدعائي لمُقابلة الرئيس في القناطر... ناقشت تلميذتك سوزان عما تريده لنا كأسرة... واتفقنا أن أطلب من الرئيس السادات تعييني سفيراً، بعد أن أتقاعد من سلاح الجو... شرط أن يكون في بلد هادئ... مثل البُلدان الاسكندنافية**، لا يكون عليها كعب داير، ... حتى نستمتع بعدة سنوات تعوضنا عن سنوات الحرب من ٦٧ إلى ٧٥... وحينما عبّرت للرئيس **السادات** عن هذه الرغبة... قال إيه الكلام ده يا **حسني**... لا... لا أنت وجيل أكتوبر ما زال ينتظركم مهام كثيرة وكبيرة... وكعسكري، قلت طبعا سيادة الرئيس أنا مُستعد للخدمة في أي موقع...

وصافحته، وغادرت الاستراحة... **وفي منتصف طريق العودة إلى القاهرة... وكان الراديو يُذيع نشرة أخبار الثانية والنصف... وكنت شارداً فيما سأقوله لسوزان بعد الإجابة الغامضة التي سمعتها من الرئيس... حين قال السائق فجأة مبروك يا أفندم... مبروك يا أفندم... وسألت مبروك على إيه؟** قال السائق، على "**نائب الرئيس... نائب الرئيس يا أفندم**"... سمعت السائق... ولم أعلق لأنني لم أصدق... حتى وصلت منزلي لأجده مُزدحما بالأقارب والأصدقاء مع كلمات التهنئة في كل مكان... هنا فقط بدأت أصدق... تركت المُهنئين وذهبت إلى التليفون... اتصلت بالرئيس وشكرته على الشرف الكبير... وطلبت تعليماته وأوامره لي... قال الرئيس أن "استجم مع أسرتي لثلاثة أيام، ثم أحضر إلى مقر إقامته في الجيزة... لنتفق على المهام التي سأقوم بها"... هذه هي قصة تعيين **مُبارك** نائبا للرئيس... وقد سمعتها منه ثلاث مرات بعد ذلك، بتفاصيل أقل قليلاً أو أكثر قليلاً.

ثم فاجأني بسؤال "**هل صحيح أنك قابلت الرئيس السادات في أواخر شهر أغسطس؟**" ولما أجبت بالإيجاب... أراد أن يعرف من رتب اللقاء، وأسبابه، وما حدث فيه، والأهم من حضره غيري؟.

استغربت لهذه اللهفة... واستغربت أن الرئيس **السادات** لم يكن قد أخبر نائبه... واستنتجت أن **السادات وقرينته** كانا حريصين على إبقاء المُقابلة سراً، رغم أنهما لم يطلبا مني التكتم عليها... واستنتجت أيضا أن الرئاسة كانت تموج بالدسائس والمؤامرات في الشهور الأخيرة، التي سبقت حادث الاغتيال.

طلب الرئيس **مُبارك** أن ألخص له كل ما دار في لقائي بسلفه الراحل ... وكان بدوره يسأل عن نقاط إضافية... وما إذا كان رأيي أو رؤيتي قد تغيّرت في الشهور الأربعة الأخيرة، في ضوء ما جرى من أحداث.

كان أسلوب **مُبارك** مُختلف تماماً عن **السادات**. كان ينصت، ويسأل... وباستثناء حكاية تعيينه نائباً... كنت أنا الذي أتحدث، وهو الذي يسأل... كان يجلس على مكتبه... ويُسجل بعض النقاط... ورد على التليفون ثلاث مرات، منهم مكالمة من وزير الداخلية **حسن أبو باشا**، وسمعته يقول" **بلغهم أنني تسلمت رسالتهم... وسأقابل كل منهم على حدة حينما تسمح الظروف** " ثم استدار لي وقال إن جماعة قضية ١٥ مايو **(١٩٧١)** الذين خرجوا من السجن بعد انقضاء عقوبتهم، يُريدون الحضور للتحية... لقد أخذوا دورهم... وعليهم أن يتركوا المسرح لغيرهم... واضح أنهم ما زالوا يحنون إلى السُلطة... ولكن بالنسبة لي لكل دوره، ولا ينبغي أن يأخذ أحد حظه وحظ غيره في الحياة"

سأل **مُبارك** عن الطريقة المُثلى للتعامل مع **الإسلاميين؟** وكانت إجابتي هي "الحزم، والإنصاف، وعدم الدخول في مُهاترات معهم... وإفساح المجال لمن يرغب أن يعمل منهم سلميا وفي نطاق القانون مثل الإخوان".

سأل عن **الشباب والجامعات؟**

وقلت إن الشباب يحتاج إلى مشروعات وطنية تلهب خياله، وتستوعب طاقاته وتعيد زرع المثل فيه.

سأل عن **التطبيع والمسألة الفلسطينية؟**

وقلت أن رأيي ما زال هو ما كتبته له منذ ثلاث سنوات... أي "**الحد الأدنى الرسمي الذي تمليه التزامات مُعاهدة السلام، دون إجبار المؤسسات الرسمية أو الشعبية على التطبيع**.. وترك هذا الأمر لكل منهم على حدة"

سأل عن **العلاقات مع العرب؟**

قلت أنه إلى جانب **السودان وسلطنة عُمان**، اللتين لم تقاطعا **مصر**، فإن **الأردن والمغرب والإمارات**، مُهيأة لعلاقات كاملة مع **مصر**، ويليها في ذلك **العراق** بسبب حربها مع **إيران**، وحاجتها إلى دعم مصري، وهم سيطلبون أن يكون بشكل غير علني.

عُدنا للأوضاع الداخلية عدة مرات... واسترعى انتباهي أنه ردّد تعبير "**ولكني خائف**" من هذا أو ذاك، وكذا وكذا، أكثر من عشر مرات خلال اللقاء الذي دام حوالي ساعتين. وكنت أجتهد في تبديد هذه المخاوف، خاصة إذا عبّر عنها بعد أحد اقتراحاتي.

لاحظ الرئيس أنني كنت أنظر في ملف في يدي لأشياء مكتوبة... فاستأذن أن أترك بعض هذه الأوراق وحينما ناولته إياها، طلب أن اترك الملف كله، بسبب أنه أنيق. وربما أقيم من الأفكار التي دونها ورائي"!... وطبعا كانت هذه أحد قفشاته، وبالتالي ضحكت عليها وقلت أنني مُتأكد أن مصير ما كتبته أنا سينتهي في ملف الرئيس الدائري"... سأل عما أقصده بالملف الدائري، قلت له " سلة المُهملات يا ريس. فضحك بدوره ضحكة عالية، كانت واحدة من ضحكاته القليلة خلال اللقاء.

طلب الرئيس عدة أوراق قصيرة، حول بعض الموضوعات التي تحدثنا فيها، دون أن أكون قد أعددت مُذكرة حولها.

قرب نهاية اللقاء، قال الرئيس: "**يا أخي أفكارك مُعتدلة... فلماذا لا تكف عن موضوع الماركسية إياه؟**" وكانت المُلاحظة التي بدت مثل دش الثلج... فقلت ما الذي تقصده بذلك يا سيادة الرئيس؟" أجاب " **قيل لي أنك كنت وربما مازلت شيوعيا ماركسيا**" وأدركت على الفور أن التقارير الأمنية التي وصلت

الرئيس قبل المُقابلة قد خلطت بيني وبين **د.إبراهيم سعد الدين**، الذي هو من جيل أكبر مني بخمسة عشر عاما، وكان مع زميليه **د.فؤاد مرسي**، و**د.إسماعيل صبري عبد الله**، أعمدة الحزب الشيوعي المصري، بعد تمصيره في سنوات ما بعد "**هنري كورييل**، المصري اليهودي". وكان هذا اللبس والالتباس شائعا في تلك الفترة، التي زاد فيها نشاطي العام، وهو ما اضطر **د.إبراهيم سعد الدين** لإضافة اسم جده **عبد الله** إلى اسمه، ليصبح **إبراهيم سعد الدين عبد الله**" ... وشرحت ذلك للرئيس... وبدا أنه فهم واقتنع... ولكني اكتشفت في المُقابلتين التاليتين في عامي **١٩٨٣ ١٩٨٤**، أنه مازال يقع في نفس الالتباس. وانتهزت فرصة وجود **د.إبراهيم سعد الدين عبد الله** معي في نفس لقاء الرئيس بالمُثقفين، لأقدمه عنوة إلى الرئيس، مُعلنا في لهجة المُكتشف..." هذا يا سيادة الرئيس هو أستاذنا الفاضل د.**إبراهيم سعد الدين**، الذي يختلط اسمي دائما باسمه" صافحه الرئيس وسأله إذا كان يقوم بالتدريس **لسوزان** أيضا، وأجاب الرجل " أنه لم يحدث له هذا الشرف أبداً " ... وتمتم الرئيس "غريبة إنها دائمة الحديث عن **د.إبراهيم**، وكلما سألها **د.إبراهيم** من ؟ قالت **سعد الدين**... حاجة تلخبط!.

لذلك رجوت **سوزان** حينما رأيتها في أحد المُناسبات أن تشرح للرئيس نظام المُخاطبة الغربي الشائع بالجامعة الأمريكية، بالاسم الأخير مقرونا "بالسيد" أو "الدكتور"... وفي كل الأحوال إذا جاء أي ذكر لي في أحاديثها أن تستخدم اسمي كاملا... أي **د.سعد الدين إبراهيم**"!.

سألني الرئيس ونحن وقوف في نهاية اللقاء، عن موضوع "**مُنتدى الفكر الديمقراطي**"، وشرحت الفكرة بإيجاز... وسأل إن كانت تمهيدا لإنشاء حزب سياسي، فأكدت له أن ذلك ليس هدف المُبادرة... بل هي ستخدم كل الأحزاب بترشيد حواراتها حول القضايا العامة، التي ليس لدى الأحزاب المصرية بشأنها غير الشعارات العامة والمضمون الذي عفا عليه الزمن!.

أعجب الرئيس بما قلته... فطلب أن أجلس لدقائق إضافية... أجيبه فيها عن التجارب المُماثلة... مثل **الجمعية الفابية** في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين..."**ونادي روما**" الذي تأسس في أوائل السبعينات.

سألني الرئيس "**لماذا لا تنضم إلى الحزب الوطني، حتى تفيده بأفكار هذا المُنتدى؟!**

أجبت بشكل لم يعجب الرئيس" **إنني أعتقد أنه لا حزب، ولا وطني**"

أعطاني الرئيس مُحاضرة، استمرت نصف ساعة تقريبا عن الإصلاح من الداخل... وكيف أن تجربته في إعادة بناء القوات المُسلحة عموما والطيران خصوصا، بعد الهزيمة أقنعته، بأننا نستطيع أن نصنع من الفسيخ شربات، ورجاني أن أتصل بالدكتور **مصطفى خليل** نائب رئيس الحزب، وأتحدث معه في الموضوع، ثم أرسل له مُذكرة حول المُقابلة وكيفية تطوير الحزب من الداخل.

لم تُلتقط صور لمُقابلتي مع الرئيس... ولم يُعلن عنها في الصحف في اليوم التالي... وأيقنت أن الرئيس يُريد لمثل هذه اللقاءات أن تظل غير رسمية، أو من وراء ستار... وكنت قد خمّنت ذلك حينما اقترحت عليه أن يُقابل بعض أعضاء **مُنتدى الفكر الديمقراطي**... فحينما ذكرت الأستاذين **أحمد بهاء الدين وكامل زهيري**، قال: ليس الآن فالصحفيون لا يكتمون السر" فاقترحت عليه آخرين : **علي الدين هلال، السيد يس، حلمي الحديدي، ومحمود شريف، وصبري الشبراوي**. ودوّن الرئيس هذه الأسماء.

قابلت الرئيس بعد ذلك مُنفرداً أربع مرات، في أعوام **١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٨٧**... ثم في مُقابلات جماعية في لقائه مع المُثقفين في **معرض القاهرة الدولي للكتاب**، كانت المقابلات الفردية تتم بناء على استدعائه لسؤالي عن أشياء فعلتها أو كتبت عنها. أو تعليقات مُحددة قمت بها خلال هذه السنوات. وكان الرئيس يسأل في كل مرة إن كنت قد قابلت **د.مصطفى خليل لأنضم إلى الحزب الوطني**... من ذلك لاحظت أنه على مر السنين الست الأولى التي قابلته فيها مُنفردا، كانت ثقته بنفسه تتضاعف... كان يسأل أقل ... ويستمع أقل... ويتحدث أكثر... وأذكر في آخر مُقابلة فردية، وكانت في حديقة منزله عام ٨٧، أنه خلال ما يزيد عن ساعتين... تحدثت أنا عشرة دقائق... وتحدث هو مئة وعشرة دقائق... ولم أسمع كلمة: "**ولكني خائف من كذا أو كذا" ... ولا مرة!**

وفي حديث بيني وبين الكاتب الصحفي الكبير **أحمد بهاء الدين**... وكان أيضا يستدعيه للحديث معه دوريا... قال نفس الشيء... وكان يستدعيني للمُقابلة بعد ذلك... وفعلا مرت السنين وتحققت نبوءة **أحمد بهاء الدين**.

كاتب صحيفة الجمهورية الرئيسي: مُغامرة الديمقراطية

طلبت زميلة من قسم اللغة الإنجليزية (مدام **منى زكي**، زوجة آخر وزير للصناعة في عهد **السادات** وهو المهندس **طه زكي**) أن أقابل صحفيا صديقا عزيزاً عليها وهو الأستاذ/ **حسن عامر**، نائب مُدير تحرير صحيفة الجمهورية اليومية... تصورت أن الرجل يُريد حديثا صحفيا، مثل تلك التي امتلأت بها في

تلك الأيام الصحف المصرية والعربية والأجنبية، وخاصة حول الجماعات الإسلامية.

ولكن اتضح أن **حسن عامر** جاء برسالة وعرض من رئيس تحرير صحيفته الأستاذ **مُحسن محمد**، أن أكتب لهم المقال الأسبوعي الرئيسي في العدد الأسبوعي، كل يوم خميس... وأنني إذا قبلت من حيث المبدأ، فهو مُستعد لزيارتي في مكتبي بالجامعة أو الأهرام أو المنزل للاتفاق معي على التفاصيل... لم أكن قد كتبت في الجمهورية أبداً من قبل... فقد كانت أصغر الصحف القومية عُمرا (١٩٥٤)، وتوزيعا، وتأثيراً... فلما ذكرت هذه المُلاحظة **لحسن عامر**... وافق على الفور، وأبدى مُلاحظة مُقابلة على شكل سؤال "ولماذا تعتقد أن الأستاذ **مُحسن محمد** يعرض عليك "أن تكون الكاتب الأول في صحيفة يرأس تحريرها... وهو أمر لن يفعله رئيس تحرير مصري أو عربي آخر؟ ... أنه يُريد بك وبعلمك، أن يرتفع بالجمهورية لعدة درجات جملة واحدة... فأرجوك أن تقبل يا دكتور". تساءلت "فماذا عن درجات الحرية؟ وماذا عن التزاماتي في الأهرام؟". كان من رأي **حسن عامر** أن هذه أمور يمكن مُناقشتها مع الأستاذ **مُحسن** ... ولكن في رأيه (**أي حسن عامر**) أنه سيقبل ما لم يقبله رئيس تحرير آخر في سبيل أن تكتب للجمهورية... "أنه يُريد كاتبا لامعا... وأنت ألمع كاتب في مصر اليوم !!" شكرت **حسن عامر** على المُجاملة والمُبالغ فيها جداً، وقبلت العرض من حيث المبدأ... وأنني الذي سأزوره في مكتبه، حتى أتفقد مبنى الصحيفة، وأقابل كبار مُحرريها. وطار **حسن عامر** فرحاً بنجاح مُهمته، وقرر أن يأتي في العام التالي ليدرس معي، كما فعل الأستاذ **محمد حسنين هيكل** من قبله!

كان **مُحسن محمد** عملاقاً بدنياً – من حيث الطول والعرض والوزن... لذلك أكبر الرجل زيارتي له في مكتبه، حيث أن حركته وتحركاته صعبة. وكان جاهزاً بإجابات على أسئلتي في مُطلق الحرية فيما أكتبه – إلا حول **شخص الرئيس والجيش**، فهذان هما الخطين الأحمرين الوحيدين... وليس للجمهورية ولاية أو وصاية عليّ فيما أكتب لها أو لغيرها، ما دمت أتعهد بالمقال الأسبوعي الذي سيبدأ على **الصفحة الأولى**، ويُستكمل على **الصفحة الثالثة** – تماماً بنفس الشاكلة التي كان قد يكتب بها **هيكل** في **الأهرام** من مُنتصف الخمسينات، إلى منتصف السبعينات.

وقد ظهر أول مقال لي في الجمهورية في فبراير ١٩٨٢، بعنوان "**مُغامرة الديمقراطية**"، وكان دعوة للرئيس **مُبارك** أن يمضي على طريق الديمقراطية، وأن يقبل مخاطر ذلك.

ومع الأسبوع الرابع، كان توزيع العدد الأسبوعي للجمهورية قد قفز **مئة ألف نسخة!** كما أخبرني الأستاذ/ **محسن محمد**، نفسه.

الصراع على روح مُبارك

مع ذيوع اسمي في وسائل الإعلام الداخلية والعالمية... وزيادة الطلب على مُقابلتي بواسطة أعضاء **الكونجرس والمسؤولين الأمريكيين**، الذين زاد توافدهم على مصر في الأسابيع الأولى من عام ١٩٨٢، والتي كانت غالباً تتم في **مكتب رئيس الجامعة**، أو قاعة اجتماعات **مجلس أمناء الجامعة**، المُجاور لمكتبه... شعر رئيس الجامعة أنه آن لأساتذة وطلاب الجامعة أن يسمعوا رؤيتي لأوضاع مابعد اغتيال الرئيس **السادات**، ولمُستقبل مصر عموماً... وكانت **زوجة رئيس الجامعة** نفسها... من أشد المُعجبين والمُتحمسين... حيث كانت تحرص على الجلوس في مادة واحدة على الأقل من المواد التي أقوم بتدريسها كل فصل دراسي.

وفعلاً، وافقت على إلقاء مُحاضرة عامة في **القاعة الشرقية** بالجامعة، بعنوان "**الصراع على روح مُبارك** **The Fight for Mubarak's soul**". ونُشرت المُحاضرة بعد ذلك في دورية فرنسية اسمها "**مشرق ومغرب**".

كانت القاعة مُزدحمة بالأساتذة والطلاب والدبلوماسيين والصحفيين... وبدأت المُحاضرة بنكتة قديمة عن وراثة **السادات** لسيارة وسائق الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**... ولما سأل السائق عن التعليمات قال **السادات**، "**نفس الطريق الذي كان يسير فيه عبد الناصر الله يرحمه**" ولما صادف السائق تفريعة، سأل السائق، أي اتجاه يسلك... سأله **السادات**، كيف كان الرئيس يسلك؟ رد السائق أنه في السنوات الأولى كان "يسلك يميناً"، وفي سنواته الأخيرة، كان يتجه "يساراً" قال **السادات** "**إذن إعطي إشارة أنك ستتجه يساراً ثم اتجه يميناً!** وضحك الجمهور... فأدركت أن الجمهور لم ينتبه بعد... صمتت القاعة، قلت أن نفس السائق ونفس السيارة ورثهما **مُبارك** عن سلفه... وحينما جاء التفرع إياه، سأل السائق ماذا يفعل؟ وسأله **مُبارك** عما كان يفعل كل من **عبد الناصر والسادات**... وبعد دقيقة تفكير، قال **مُبارك** "أعط إشارة ضوئية إلى اليمين، ثم أخرى إلى اليسار... ثم طر بالسيارة، وعدي فوق الجميع..."، وكان ذلك مُقدمة لمُلاحظاتي حول **الحذر الشديد**، الذي يُميز شخصية الطيار، التي هي **حسني مبارك**... وكيف أن الناصريين والساداتيين، يُحاولون تأميمه، أو الإيحاء له وللرأي العام بأن الرئيس الجديد سيكون نصيراً لتيارهم الأيديولوجي. وأن هذه الحرب المُحدقة على روح الرجل ما هي إلا إسقاطات

من أصحاب كل تيار... وأنه في نهاية المطاف، سيكون (Wishful thinking) "**حسني مبارك**"، وليس نسخة مهزوزة من **عبد الناصر**، أو **السادات**... وإنما سيستفيد من مُميزات وأخطاء كل منهم... فهو لن يمس سياسة الانفتاح الاقتصادي، ولكنه سيهذب بعض مساوئها. وهو لن يمس استراتيجية السلام، ولكنه لن يواصل الاندفاع فيها...

لاحظت أن القاعة كانت مملوءة بضباط مباحث أمن الدولة، الذين طالما رأيتهم في مكتب العقيد **رضا مطاوع**... كذلك كانت **سنية صالح**، صديقة **سوزان**، تجلس في الصف الأول، تُناقش كل كلمة!.

لماذا كانت القاهرة هادئة؟
Why was Cairo Calm?

كان ضمن أهم أنشطة ربيع ١٩٨٢، مُشاركتي في برنامج إخباري توثيقي من الإنتاج المُشترك لأهم محطتين تليفزيون في العالم – وهما الـ **B.B.C البريطانية والـ C.B.S الأمريكية**... ولم أدرك وقت تسجيل البرنامج في حديقة منزلي بالمعادي، أن هذا البرنامج سيُحدث دوياً هائلاً في مصر والعالم... كذلك لم أدرك وقت التسجيل أن ما صرّحت به، سيصبح هو محور للبرنامج الذي استغرق تسعين دقيقة... حيث كانت الكاميرا بعد المونتاج تعود إليّ كل عشر دقائق تقريباً، لأقول شيئاً، تتصرف بعده الكاميرا إلى أماكن وشخصيات أخرى، ثم تعود إليّ. وهكذا... كان البرنامج عني بقدر ما كان عن اغتيال الرئيس **السادات** قبل شهور!

كانت فاتحة البرنامج، هو لقطة لمدة دقيقة، لمشهد من جنازة الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**، عام ١٩٧٠، والتي غطّاها أشهر مُذيعي التليفزيون في وقته وهو "**والتر كوزنكايت**"... **Walter Cozonkite** كانت الجنازة مليونية، قال **كوزنكايت** أنه لم يرَ في حياته مثيلاً لها... وكانت الجنازة أيضاً مليئة بالبكاء والعويل والصراخ... ثم تحولت الكاميرا إلى جنازة الرئيس **السادات**، بعد إحدى عشر عاماً، حيث كان حجمها صغيراً، اقتصر على كبار القوم من المصريين والأجانب، ولم تبدُ فيها نفس مظاهر الحزن والجزع الهستيري، أو الهرج والمرج الذي صاحب جنازة **عبد الناصر**... وكان المُذيع هو هو... ولاحظ التناقض الهائل بين الجنازتين، لذلك أنهى تقريره الإخباري من القاهرة، بأن العاصمة المصرية تبدو **هادئة**... **القاهرة تبدو هادئة تماماً**... وهنا يبدأ البرنامج التوثيقي بالسؤال: **لماذا كانت القاهرة هادئة؟ Why was Cairo Calm?**.

شارك معي في الإجابة على السؤال كل من الكاتب الصحفي الكبير **مصطفى أمين**، والمُفكر **محمد سيد أحمد**، و **د.نوال السعداوي**، ورجال الأعمال، وبعض الشباب الغاضبين أو الذين لا يجدون مسكناً، أذكر منهم مُساعدي في الأهرام الباحث **سيد زهرة**، والفنانة الهاوية والتي كانت تبحث عن فرصة وهي **عبلة كامل**.

دون أن أعرف ما قاله الآخرون أو ما كانوا سيقولون، بل ولم أعرف من سيظهر معي في البرنامج، وجد المُنتج أن ما قلته كان **الأكثر شمولاً**، ولذلك رتب مُداخلات الآخرين، بحيث تكون كما لو أنها تأكيد لما أقول!

كانت مُجمل مُداخلتي في البرنامج أن **خمسة مُشكلات قد تضافرت وتشابكت، وتفاعلت لتخلق أزمة خانقة لنظام السادات**. مُشكلة **اقتصادية** (بطء معدلات النمو)، ومُشكلة **اجتماعية** (تمثلت في البطالة وسوء توزيع الدخل)، ومُشكلة **سياسية** (جمود مسيرة التحول الديمقراطي بل وانتكاسها)، ومُشكلة **إقليمية** (جمود مسيرة السلام)، ومُشكلة **دولية** (زيادة تبعية واعتمادية مصر على الغرب وخاصة الولايات المتحدة).

طبعاً كانت **القدرة اللغوية**، وتمرسي في استخدام الجمل والتشبيهات، في وصف وتفاعلات الداخل والخارج، هو الذي أعطى مُداخلاتي نوعية خاصة، جعلت مُنتج البرنامج ينسج حولها البرنامج كله، دون قصد أو تخطيط من جانبي.

استشراف المُستقبل العربي

كان **د.خير الدين حسيب** يتفاوض مع **الصندوق الكويتي للتنمية**، على منحة لدراسة مُستقبلية عن الوطن العربي... وكان الصندوق يحتاج إلى مُخطَّط بمُقترح تفصيلي للمشروع... ولأن المنحة المُتوقعة كانت تصل إلى حوالي **مليون دولار**، فقد طلب **د.حسيب** من عدة أساتذة أن يتقدموا له بمُقترحات... ولأنني كنت مشغولاً بتقفيل عدد من المشروعات البحثية... فإنني لم أتحمس لنداء **د.حسيب**... ولكن آخرون استجابوا... وبعد عدة شهور، لم يقتنع الصندوق أو **د.حسيب** بما قدم له من مُقترحات، كان مُعظمها بواسطة اقتصاديين، أكبر مني سناً وخبرة – مثل **د.إبراهيم سعد الدين، وإسماعيل صبري عبد الله، وعمرو محي الدين**، و**محمد عبد الفضيل**.

وضغط عليّ **د.خير الدين حسيب** لأشارك بشكل رئيسي... وعدته في النهاية بأن أشارك، بمحور واحد حول "**استشراف مُستقبل المجتمع والدولة**" في الوطن العربي، على أن يقوم آخرون باستشراف مستقبل الاقتصاد، والنظام الدولي، والأمن الاستراتيجي... وسَعِد هو بهذه الموافقة... وكان في ذهنه، كما

اتضح لي بسرعة، أنه كان يأمل أن يجر قدمي، ثم يعهد إليّ **بالإشراف على المشروع كله**... فقد كان واضحاً له، أنني صاحب الخبرة فيمن يعرفهم بقيادة فرق العمل الكبيرة، فضلاً عن ثقته الكبيرة، والمُبالغ فيها في، ورأيه أنني أعرف في الاقتصاد، أكثر مما يعرف أي اقتصادي عربي في علم الاجتماع... ونفس الشيء في السياسة والعلاقات الدولية... وكان ذلك الاعتقاد من جانبه يؤرقني، ويضع على كاهلي ما لا قُدرة لي به. وبعد شهرين من الشد والجذب، وافقت... واستجاب هو لكل شروطي... وأهمها أن **يُدار المشروع من القاهرة، ويكون له مقر مُستقل، وحساب مصرفي مُستقل، وأن تتم المُحاسبة على الإنجاز والمصروفات فصلياً (كل ثلاثة أشهر) طبقاً لجدول زمني وميزانية للمشروع يُتفق عليها مُقدماً.**

وبعد مُفاوضات مضنية، تم اتفاق تعاقدي مكتوب على كل ما سبق... وكان إصراري على كل هذه الشروط هو مُقاومة نزعة **د.حسيب** لإدارة التفاصيل **(micro management)** للأمور على بعد مئات أو آلاف الأميال، كأن يفعل ذلك من بيروت ولندن، بخصوص تعيين ساعٍ أو سكرتيرة، مثلاً... **هذا رغم الثقة المُتبادلة بيننا، بغير حدود في ذلك الوقت**... وبعد شهر تقريباً من توقيع عقد المشروع... ونجاحي في تأجير وتأثيث مقر مُناسب للمشروع في شارع رشدان بحي الدقي في القاهرة... وقد وجد صديقنا المُشترك **د.يحي الجمل**، المُحامي وأستاذ القانون، صيغة قانونية لكل هذه الترتيبات، وبمقتضاها تكونت **شركة توصية بسيطة، يملكها أربعة: أنا كشريك موصٍ له حق التوقيع والإدارة، ود.حسيب، ود.علي الدين هلال، ود.يحي الجمل نفسه**، كمُساهمين.

وقد اعتمدت في إيجاد الشقة، التي كانت من طابقين (أي فيلا في عمارة)، وتأثيثها على مُساعدتي **نعمت جنينة**، الأرستقراطية، ذات الذوق الرفيع... وإنبهر **حسيب** بسرعة وكفاءة هذه الإنجازات، فطلب من نفس المُساعدة (**نعمت**) أن تساعده في إيجاد وتأثيث شقة خاصة له ولابنته في القاهرة... وكان **د.حسيب** في ذلك كله غاية في الحصافة. فقد رأى **سوق العقارات في القاهرة ينمو بسرعة**... وبحسبة بسيطة، أيقن أن الأيام التي يقضيها في القاهرة أصبحت في تزايد مُستمر، يقرب من **مئة وخمسين ليلة سنوياً**... وأن ما يدفعه لفندق، حتى أربع نجوم، يوازي ربع ثمن شقة بها غرفتا نوم وغرفة معيشة ومائدة ومطبخ، في حي راقٍ، مثل الدقي، على مقربة من الفرع الجديد للمركز، ومن صديقيه الأستاذ **محمد حسنين هيكل، ود.يحي الجمل**، ومن مكتب **مُنتدى العالم الثالث**، الذي كان يُديره **د.إسماعيل صبري عبد الله ود.إبراهيم سعد الدين.**

أما مشروع استشراف مُستقبل الوطن العربي، الذي كان محور كل هذه الحركة، فقد تبلور تقريباً على **التصور الذي كنت قد اقترحته من البداية**. فكان هناك ثلاثة محاور، أحدهما اجتماعي (تحت إشرافي المُباشر)، والثاني سياسي تحت إشراف **د.علي الدين هلال**، وثالث اقتصادي، تحت إشراف **د.إبراهيم سعد الدين**. وكان ثلاثتنا وبمُشاركة كل من **د.خير الدين حسيب** وصديقنا الأستاذ **عادل حسين**، بمثابة مجلس استشاري علمي للمشروع، ولإيماني **باللامركزية** عموماً وفي الأعمال الفكرية والعلمية والإبداعية خصوصاً، فقد اقترحت أن يكون لدى مُنسق كل محور نفس الصلاحيات التي أسندت إليّ كمُنسق عام للمشروع. فمُنسق المحور له أن يستعين بمن يُريد من الخبراء والباحثين المصريين والعرب لأداء مهام محوره، ما دام ذلك في حدود المُخطط العام للمشروع، والوقت والميزانية المُقررة لكل محور، ورغم هذه الاستقلالية... فقد كنا نعقد **اجتماعات دورية أسبوعية** للعاملين في كل محور، و**شهرية للعاملين في المشروع**، و**فصلية للمجلس الاستشاري وهيئة المشروع**. وكان مُنسقو المحاور يُعدون تقارير فصلية عن سير العمل، تقدم للمجلس الاستشاري قبل اجتماعه بهم بأسبوع على الأقل.

انتظم العمل، وأصبح المقر خلية نحل، خاصة وأن مُنسق كل محور توسع في عقد ورش عمل وجلسات استماع، دعا إليها كبار المُفكرين والعُلماء المصريين، وكذلك أقرانهم من العرب الزائرين لمصر، والذين بدأت أعدادهم تزيد في ظل رئاسة **حسني مبارك**.

مما استحدثناه مُبكراً في المشروع محوراً رابعاً وهو "المُحاكاة" (Modeling and Simulation) كان نفسه تحت إشراف أحد خبراء **المعهد القومي للتخطيط**، وهو **د.علي نصار**، الذي كان أكثرنا تمرداً على التقاليد... وكثيراً ما ضبطناه، يتزحلق كالأطفال، على ترابزين السلم الداخلي للفيلا، من الطابق الأعلى، حيث يوجد مكتبه إلى الطابق الأسفل، حيث صالة الاجتماعات والاستقبال والسكرتارية، ومكتبي.

ضمن ما اتفقنا عليه مُبكراً أيضاً هو **الناتج النهائي للمشروع خلال ثلاث سنوات**... وقررنا ألا ننتظر إلى النهاية لنشر نتائج المشروع، بل **عمل ذلك أولاً بأول**. وقد صدر عن المشروع بالفعل حوالي **عشرين مُجلد** – بمُعدل خمسة مجلات لكل محور. من ذلك أن محور "**المجتمع والدولة**"، الذي كنت أشرف عليه مُباشرة إلى جانب إشرافي العام على المشروع، صدرت عنه مُجلدات **المجتمع والدولة في الخليج للزميل وعالم الاجتماع الكويتي د.خلدون النقيب**، ومُجلدات ثلاثة مُماثلة عن **المشرق العربي لعالم السياسة اللبناني**

د.**غسان سلامة**، وعدد عن وادي النيل لعالم السياسة المصري المقيم في بريطانيا د.**نزيه نصيف الأيوبي** وعالم الاجتماع السوداني وزوج مُساعدتي السابقة **زينب البكري** وهو د.**الواثق كمير**، وأخيراً **مُجلد المجتمع والدولة في المغرب العربي** للزميل د.**عبد الباقي الهرماسي**، عالم الاجتماع الذي أصبح هو و**غسان سلامة** وزيران للثقافة والخارجية في بلديهما – في أواخر التسعينات ثم ختمنا دراسات المحور بمجلد شامل من تأليفي، بعنوان "**المجتمع والدولة في الوطن العربي**"... ومن الطريف والمُخيف أن اثنين من الذين شاركوا في المحور، تم اعتقالهم ومُحاكمتهم وسجنهم، وهما **خلدون النقيب**، وأنا... ولكن نتاج هذا المحور، كما نتاج المشروع ككل، مثلث **نقلة نوعية في العلوم الاجتماعية العربية، من حيث المنهج والمضمون.**

كان المشروع، مثل كل المشروعات الجماعية التي شاركت فيها أو أشرفت عليها، منذ عودتي إلى الوطن العربي، ١٩٧٥ لا يمثل مجرد تحدٍ، ولكن أيضاً هدف لتوطيد العلاقة مع عُلماء ومُفكرين ومُمارسين عرب... وقد كان مشروع استشراف مُستقبل الوطن العربي أكبر المشروعات التي شاركت فيها... فقد زاملني فيها **عشرون باحثاً أساسياً، وحوالي مئة باحث ومُساعد باحث.**

وكان ذراعي الأيمن في المشروع مُساعدتي في الجامعة الأمريكية **نعمت جنينة**، والتي أصبحت المديرة التنفيذية للمكتب... وكان ذلك هو عامها الثاني كمُساعدة في الجامعة، وعامها السادس كتلميذة لي، وكانت رفقتها لي تتطور تدريجياً إلى إعجاب، ثم افتتان بأستاذها، رغم أنها كانت زوجة لرجل أعمال ناجح، وأما لطفلين، والخطير أنني بدأت أستجيب لافتتان التلميذة... وكان لذلك أسباب موضوعية، أهمها الجمال والذكاء والتفاني في خدمتي دون ابتذال... فقد كان أصلها الاستقراطي يُضفي عليها اعتزازاً بنفسها، يُجبر كل من حولها على احترامها... وكنت أستغرب الوقت والطاقة اللذين تكرسهما لخدمتي في الجامعة، وفي المشروع، وفي أي شيء أطلبه... أو حتى قبل أن أطلبه... فقد كانت مثلاً، خير عون لي، في فترة اعتقال عدد من المُفكرين في سبتمبر ١٩٨١، حتى قبل أن أعود إلى مصر من لبنان والأردن، كانت تذهب إلى عائلاتهم للدعم المعنوي والمادي، نيابة عني، دون أن أكون قد طلبت منها ذلك... وأذكر من تلك الحالات **عزيز خيري** الذي كان يعمل معي في قسم الشؤون العربية بالأهرام، وأحد نشطاء حزب التجمع اليساري.

كانت **نعمت** أكثر اهتماماً بأعياد ميلاد أفراد أسرتي: **بركة، وراندا، وأمير.** وبالطبع أحبوها، وخاصة **راندا**، التي كانت **نعمت** بالنسبة لها نموذجاً للأنثى والأناقة والكبرياء.

سألت **نعمت** يوماً: ألم تشعر أن ارتباطها الشديد بي يثير غيرة زوجتي، وغيرة زوجها؟ وردت: أنها سمعت زوجتي تقول حينما أتت للتدريس في الجامعة الأمريكية أنها لا تريد أن تكون – أي **نعمت** – ظلاً لزوجها **سعد الدين إبراهيم**... وأنها سألتها هل يؤلمك أن أكون ظلاً له... وقالت زوجتي باللغة المصرية الدارجة "**اتفضلي**...". أما عن زوجها "فهو في ملكوت آخر : عالم المال والأعمال... !".

الاجتياح الإسرائيلي للبنان

في الحادي والعشرين من أبريل ١٩٨٢، خرج آخر جندي إسرائيلي من سيناء... وأصبح كل التراب المصري حُراً، لأول مرة منذ عام ١٩٦٧... وفرح كل المصريين... وكان الرئيس **السادات** وكذلك الرئيس **مُبارك** قد ردّدا على مسامعي أنهما لا يُريدان حدوث أي شيء –مصرياً أو عربياً– يُعطي ذريعة لإسرائيل لتخل بالتزامها بالجلاء عن آخر موقع في سيناء في أبريل ١٩٨٢، وكان شائعاً أن الرئيس **السادات** فعل ما فعله في سبتمبر ١٩٨١ كإجراء وقائي، حتى لا يقوم الإسلاميون أو فصائل المُعارضة الأخرى، بما يُعطي مثل هذه الذريعة لإسرائيل... وبينما كان حلم التحرير يشترك فيه كل المصريون إلا إنه كان بالنسبة للعسكريين منهم حلماً أكثر حدة وإلحاحاً. وكنت قد لمست ذلك من أحاديثي مع أقاربي وأصدقائي من العسكريين... كذلك لمسته ممن قابلتهم على أرض سيناء المُحررة حينما زرتها مع أفراد أسرتي وأسرة المهندس/ **عصام عوني** (وزوجته البريطانية **إليزابيت تايلور** وابنهما **آدم**) وزميلتي الدكتورة **سنيثا نلسون** (Cynthia Nelson) بمُناسبة أعياد الميلاد، في جنوب سيناء.

ولكن أمل سلام دائم وشامل بين العرب وإسرائيل كان يتعرض دورياً لانتكاسات... مثلما حدث في يونيو ١٩٨١، من غارات على بيروت وعلى المُفاعل النووي العراقي (أوزيراك). ولكن **السادات** كظم غيظه، كما فهمت منه، حتى تعود سيناء كاملة.

وتبدّد الأمل مرة أخرى في يونيه ١٩٨٢، حينما فوجئ العرب والعالم باجتياح عسكري إسرائيلي كاسح لجنوب لبنان، بدعوى الانتقام من فصائل المُقاومة الفلسطينية، التي قامت ببعض العمليات كالاعتداء على **السفير الإسرائيلي في بريطانيا**... ولكن كان من الواضح من شكل وحجم وسرعة الاجتياح أن خططه كانت جاهزة لبعض الوقت، وأن وزير الدفاع الدموي **إريل شارون** كان ينتظر اللحظة، أي لحظة، سواء كانت مُناسبة أو غير مُناسبة!

ولأن لبنان كان وما يزال مُمزقا بحروبه الأهلية... فقد جاء الغزو الإسرائيلي ليُضاعف الطين بلة، وتفقد المُقاومة مئات الشهداء وكما كان مُتوقعاً، كان هناك ترحيب صامت من اليمين الكتائبي اللبناني بدخول القوات الإسرائيلية جنوب لبنان، الذي هو أحد مواطن الشيعة اللبنانيين ومُخيمات اللاجئين الفلسطينيين...

ورغم وجود قوات سورية في لبنان، إلا أنها، أسوة بالجيش اللبناني نفسه، لم تشتبك مع القوات الإسرائيلية الغازية. لذلك كان المشهد حزيناً، قطر عربي يتعرض للغزو الإسرائيلي، ولا يُدافع عنه جيشه، أو جيش عربي آخر... الجميع ينظرون إلى القوات الإسرائيلية الساحقة بعددها وعتادها وتدريبها، تفتك بعناصر المُقاومة الفلسطينية، وتُطاردها إلى مشارف بيروت، ثم تُحاصر بيروت لمدة ٨٨ يوماً، تصب فيها جام غضبها من نيران الطيران والمدفعية، إلى أن طلب اللبنانيون أنفسهم من **منظمة التحرير الفلسطينية** أن تجلو عن بيروت، حقناً لمزيد من الدماء والدمار.

بذور الحركة العربية لحقوق الإنسان

نظمنا نحن المصريين، مُظاهرة احتجاج بعد صلاة أول جمعة بعد الغزو، خرجت من الجامع الأزهر، وكنت في الصف الأول مع شيوخ الحركة الوطنية في ذلك الوقت: **فتحي رضوان، إبراهيم شكري، خالد محي الدين**... وتقدمنا حوالي خمسين متراً، ونحن نهتف ضد إسرائيل... وكان أمامنا حاجز من قوات الأمن المركزي، وتحدث أحد الضباط بمكبر للصوت... قال "لقد عبّرتم عن مشاعر الغضب التي نشعر بها جميعاً... وهذا يكفي... لذلك أطلب من حضراتكم الانفضاض بهدوء، تنفيذاً للتعليمات..." وكان المُتظاهرون ما يزالون في قمة الحماس والغضب... وأعاد الضابط نفس النداء مرتين... ونحن مازلنا نتقدم نحو الكردون الذي أقامته قوات الأمن بملابسها السوداء، ودروعها وخوذاتها، وفي أيديها هراوات قصيرة... وأعطتنا غلبتنا العددية جسارة وشجاعة... إلى أن أصبحنا وجهاً لوجه أمام القوات... وأطلق صوت أحد الضباط صيحة... انطلق في أثرها الجنود بعصيّهم، يضربون المُتظاهرين... وقام الأصغر سناً منا بإقامة كردون حراسة حول كبار السن، فشاركت أنا وثلاثة آخرين في حماية الأستاذ **فتحي رضوان**... وأصابت ظهورنا بعض الضربات التي تركت في أجسامنا **قشعريرة مؤلمة**، لم ندر سببها في حينه... فقط بعد دقائق علمنا أنها **عصى كهربائية خاصة، مُستوردة من أمريكا لفض الشغب الجماهيري**... وكانت هذه هي المرة الثانية في خمس سنوات التي أخبر فيها مثل هذه المواجهات مع الأمن المركزي... كانت المرة الأولى في يناير ١٩٧٧،

أثناء "**انتفاضة الخُبز**"... وفيها استخدمت قوات الأمن المركزي القنابل المُسيلة للدموع، **الأمريكية الصنع أيضاً**... وكان من الواضح أن أجهزتنا الأمنية تطور دائماً في وسائلها... وتقتني آخر ما تنتجه أمريكا من تكنولوجيا فض المُظاهرات... وقد أحدثت العصى الكهربائية بالفعل التأثير المطلوب... فقد تفرقت "المُظاهرة الألفية" إلى مجموعات صغيرة تجرى في كل اتجاه... إذ كان من الصعب التحكم في اندفاعة جنود الأمن المركزي... لم يكن **فتحي رضوان**، وقد تجاوز السبعين، يستطيع الجري أو الركض أو حتى إسراع الخطى... وبالنسبة لوحوش الأمن المركزي الكاسرة، لم يميزوا بين **فتحي رضوان وإبراهيم شكري** وأي عابر سبيل... دفعتني غريزة البقاء وحماية الشيخ إلى أحد المقاهي القريبة، التي كان مُرتادوها واقفين في تلك اللحظة على الرصيف أمام المقهى... وصحت أن يُفسحوا مكاناً للأستاذ **فتحي رضوان**... وسواء عرفوا من هو **فتحي رضوان** أم لم يعرفوا... فإن **خليطاً من الشهامة والرحمة**، جعلهم يستجيبون على الفور، ويسندونه إلى داخل المقهى، ويُجلسونه على كرسي، ويُسارع أحدهم بإحضار كوب ماء مثلج، حيث كان اليوم شديدة الحرارة... جلس **فتحي رضوان** صامتاً، مشدوهاً، يشرب من كوب الماء... ثم رأيت عينيه تغمرهما الدموع... ربت على كتفيه... وأحضر صاحب المقهى فنجان قهوة للشيخ... قال **فتحي رضوان** "**ماذا حدث لمصر... حتى التعبير عن الغضب سلمياً، يُقابل بهذه القسوة... ماذا تركوا لإسرائيل؟**" ثم عاد إلى شروده.

أتانا بعد دقائق ضابط برتبة عميد (نسر ونجمتين) يبدو أنه تعرّف على الأستاذ **فتحي رضوان**... اعتذر عما حدث... وأخبرنا أن **مكاتب القصر الجمهوري بعابدين مفتوحة الآن**... ويُمكننا أن نتوجه إليها ونسجل لدى كُتابها ما نُريد من رسائل لرئيس الجمهورية... وكان الأستاذ **فتحي** ... مُعرضاً بوجهه عن الضابط فيما يُشبه الامتعاض والاحتجاج... شكرت سيادة العميد، ورجوته أن يتركنا، نتدبر الأمر... قلت للشيخ لماذا لا نذهب إلى قصر عابدين، ونسجل في سجل التشريفات نفس الكلمات التي سمعتها منك من لحظات... سأل أي كلمات، قلت" ماذا حدث لمصر؟ حتى التعبير عن الغضب سلمياً، يُقابل بهذه القسوة... ماذا تركوا لإسرائيل؟".

سألني "**من أنت؟**"، ولما ذكرت اسمي وعملي... قام وصافحني... وقال هيا بنا إلى عابدين... وهناك وجدنا عدداً كبير من الشخصيات العامة التي شاركت في المُظاهرة، تسجل خواطرها واحتجاجاتها... وقبل أن ننصرف سألني الأستاذ **فتحي رضوان** إذا كنت سأكتب عن الأحداث الحزينة في مقالي "بالجمهورية" الخميس التالي، قلت له سأفعل... وطوال الصيف والخريف، لم أكتب عن شيء

غير تلك الأحداث... وكان الأستاذ **فتحي** يتصل، بعد كل مقال ليُهنئ أو يُبدي مُلاحظاته وانتقاداته... وكان في كل مرة يسألني **هل خرجت مُظاهرات في عواصم عربية أخرى**... وكنت أقول له في كل مرة لا، لم يحدث بعد... وكنت أشعر بألمه على نهاية المكالمة... وفي مرة اتصلت أنا به، لأخبره بأنباء **مُظاهرة صاخبة خرجت في الجزائر بالأمس... تهلل صوته... وردّد طبعاً، هذا مُنتظر من بلد المليون شهيد** وتركته دون أن أخبره بسبب المُظاهرة، فقد أشفقت عليه... ولكنه هو الذي اتصل مساء اليوم التالي... ليُخبرني بما كنت أعرفه... وهو أن المُظاهرة الجزائرية، لم تكن احتجاجاً على العدوان الإسرائيلي، ولكن على الحكم الهولندي في مُباراة للجزائر في كأس العالم (المونديال) ...

حاولت التخفيف على شيخ المُعارضين بالبيت الأثير "وكلهم في الهم شرق..." وانتهزت الفرصة لأدعوه لجلسة استماع في مشروع استشراف مُستقبل الوطن العربي... وحضر، وتصادف وجود **خير الدين حسيب**... وتحدثنا عما كان عليه الشارع العربي من حيوية سياسية من المُحيط إلى الخليج حتى أوائل الستينات... فماذا أصاب الشارع العربي... وكل العرب؟.

وخلصنا إلى أننا في حاجة إلى العودة إلى الأساسيات... إلى أبجديات الحُرية، وأولها **حق الإنسان في أن يبكي، ويصيح، ويغضب... وهكذا وضعت البذور الجنينية للحركة العربية لحقوق الإنسان**... والتي استغرقنا سنة ونصف لنجد مكاناً نعقد فيه أولى اجتماعات هذه الحركة... وسيظل **فتحي رضوان** جزءاً من حياتي ومسار حركتي العامة، إلى أن رحل عن عالمنا في أوائل التسعينات.

من مُظاهرة الأزهر إلى مُظاهرة الجزائر إلى مُظاهرة تل أبيب

بعد أيام قليلة من اجتماعنا بشيخ المعارضين في مقر مشروع استشراف المستقبل العربي، اتصل بي الأستاذ **فتحي رضوان** في المنزل... ليخبرني بأنه سمع في راديو لندن عن مُظاهرة قوامها نصف مليون خرجت في تل أبيب احتجاجاً على الغزو الإسرائيلي للبنان... كان صوت الرجل متهدجاً بالألم والحسرة... وحاولت البحث عن كلمات أشاركه بها وجدانيا، وأخفف من حسرته... قلت "ألا يُذكرنا ذلك بالمثل الشعبي "**يقتل القتيل، ويمشي في جنازته**"؟ رد الشيخ "لا... **هذه مثل المُظاهرات التي كانت قد خرجت في لندن صبيحة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، احتجاجاً على حكوماتهم، دون اتهام لهم من مسؤوليهم بالخيانة**، ولم نكتفِ نحن بلطم الخدود وشق

الجيوب؟ "... قال "لا دعنا نتابع مع هذا الرجل العراقي الذي أتى من بيروت ما ناقشناه في مكتبكم بالدقي..."، ووعدته بأن أحاول ترتيب ذلك.

بعد تلك المُكالمة تأملت ملياً المشهدين الخاص والعام... ها هو شخصية مثل **فتحي رضوان** في عُمر والدي... كنت أسمع عنه منذ صباي، وهو أول وزير للإرشاد القومي في عهد الثورة، عندما كنت في الثالثة عشرة من عُمري... وها هو في شيخوخته ما يزال في حماس الشباب... بل وفكرت في جيل الشباب الذي يصغرني بعشرين عاماً، فلم أجد ممن أعرفهم أحداً بمثل هذا الحماس... بل ويندر الاهتمام بالعمل العام بين أبناء الجيل الثاني، وهذا الذي كنت أدرسه في تلك السنوات.

تألمت أيضاً لحقيقة أن هذا الشيخ الذي لم يكن يعرفني أو يسمع باسمي إلى يوم مُظاهرة الأزهر منذ أسبوعين أو ثلاثة، أصبح يتصل بي بشكل شبه يومي، ليبث لي همومه وأوجاعه... وتساءلت هل سقط أبناء جيله، موتاً، أو يأساً، أو شيخوخة... فلم يعد يجد إلا عابر سبيل من أمثالي، شاءت الصدفة وحدها أن يكون على مقربة منه في مُظاهرة الجامع الأزهر؟.

تأملت سؤاله عن "هذا الرجل العراقي الذي أتى من بيروت"... وكيف أن صدفة أحداث لبنان ومشروع استشراف المُستقبل العربي قد جمعت" الشامي على المغربي"، كما يقول المثل الشعبي الدارج.

وتأملت الخاص جداً وهو أنا... العائد من الولايات المتحدة منذ سنوات قليلة، والمتزوج من أمريكية، والذي يعمل في الجامعة الأمريكية، وكيف حكمت مجموعة من الصدف أن يكون حلقة الوصل بين هذا الشامي وذلك المغربي، وبين الأجيال الأربعة التي اجتمعت في مكتب استشراف المستقبل العربي **رضوان/ حسيب/ أنا/ نعمت!**

ولكن هل هي فعلاً مجموعة من الصدف؟

كشفت الشهور التالية للاجتياح الإسرائيلي للبنان، ومُحاصرة المُقاومة الفلسطينية **وياسر عرفات** في بيروت من ناحية... والعجز الحكومي العربي من ناحية ثانية، وتنكيل نفس هذه الحكومات العاجزة بالجماهير الشعبية الغاضبة ومنعها من التعبير عن غضبها من ناحية ثالثة، وحرية الإسرائيليين في الاحتجاج على الحرب من ناحية رابعة... كشفت عن محنة أو أزمة مُركبة.

وتوالت اجتماعاتنا في مقر المركز والمشروع بالدقي... وكان وجود **خير الدين حسيب** لفترات أطول في القاهرة (بسبب تردي الأوضاع في بيروت) حافزاً على استمرار العمل في المشروع المُستقبلي من ناحية، وتعميق وتوسيع النقاش عن محنة الواقع الراهن من ناحية، كنا نعيش تجربة سوريالية... نحاول

أن نستشرف سيناريوهات مُشرقة للوطن العربي في غضون السنوات والعقود القادمة– حتى ٢٠٢٥، كان ذلك الشغل الشاغل لفريق الباحثين في المشروع بالنهار... ثم باقي المساء، حيث يلحق بنا الكهول والشيوخ نستعرض الحاضر الذي كان يزداد كآبة وبؤساً كل يوم... وكلما استقر في نفوسنا أن الأمر العربي قد وصل إلى الحضيض، ولا يمكن أن يزداد سوءاً... نفاجأ بأنه ما زال هناك قاع أعمق للتردي...

كانت دائرة المشاركين في النقاش الليلي تتسع... حيث انضم إلينا، إلى جانب الأستاذ **فتحي رضوان**، كل من الأستاذين **محمد فايق وأمين هويدي**– من أقطاب الحقبة الناصرية، وكانوا أصدقاء شخصيين لكل من **خير الدين حسيب** والأستاذ **فتحي رضوان**. ولأنهم مع **عادل حسين ود.أحمد صدقي الدجاني** كانوا يُقيمون في منطقة واحدة في الجانب الآخر من القاهرة الكبرى، فقد كنا نطلق عليهم مجموعة مصر الجديدة... بينما كنا نحن – **حسيب** وفريق عمل المشروع ود.**يحي الجمل**، نعرف تجاوزاً "بمجموعة الدقي" – رغم أن أحدنا كان يسكن في شارع الهرم (**علي الدين هلال**)، وكنت أنا أسكن في المعادي... ولكننا في صيف ١٩٨٢ كنا نقضي معظم ساعات اليوم في مقر المشروع بشارع رشدان بالدقي.

سافرت أسرتي كالعادة لقضاء إجازة الصيف في الولايات المتحدة... وهو ما سمح بمبيتي أحياناً في مقر المشروع.

وتوالت مقالاتي النارية في الجمهورية، والأهرام الاقتصادي... وكانت تحظى بإعجاب واسع من القرّاء، والمسؤولين على السواء – إلى أن بدأت سلسلة بعنوان "**الأمريكي القبيح**"!

الأمريكي القبيح تُغضب المسؤولين واليسار

طلبت مني **اللجنة المصرية للتضامن الآسيوي ـ الأفريقي**، أن أنضم إلى صفوفها... وكان أمينها العام هو الأستاذ **أحمد حمروش** أحد الضباط الأحرار، والمؤرخ الرئيسي لثورة يوليو... واستقبلت في أول اجتماع للجنة استقبالَ "الفاتحين"، وانتخبت في أول اجتماع عضواً بالمكتب التنفيذي للجنة... ولم أكن قد فعلت شيئاً يذكر للجنة، التي تأسست ضمن منظمة تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية، بعد مؤتمر باندونج (١٩٥٥)، وكان يغلب على عضويتها اليساريون والناصريون... ولم يكن لدي تفسير لهذه الحفاوة الزائدة إلا كتاباتي الصحفية، والبرامج التليفزيونية التي ظهرت فيها، وخاصة برنامج "**لماذا كانت القاهرة هادئة ؟**" ومقالات "**الأمريكي القبيح**".

المهم أن نفس السبب الأخير ـ أي سلسلة مقالات الأمريكي القبيح، قد ولد امتعاضاً في الدوائر الرسمية... فاستدعاني كل من السيد/ **كمال حسن علي**، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، ليطلب مني أن " أهدئ من هجومي على الولايات المتحدة... لأنها هي التي تعطينا الغذاء والسلاح ! واستدعاني أيضاً الصديق القديم **أسامة الباز**، الذي لم أكن أسمع صوته إلا إذا كان يحتاج شيئاً مني... وكان السبب المُباشر هو طلبه بأن أعد ما يمكن أن يكون **خطاباً يلقيه الرئيس بمُناسبة العيد الثلاثيني لثورة يوليو**، واتفقنا على العناصر الرئيسية التي يمكن أن يحتوي عليها الخطاب... وحينما أتينا إلى الموقف العربي والإقليمي الراهن... اتفقنا أن يكون هناك فقرة يُعبر فيها الرئيس عن غضب مصر وإدانتها للغزو الإسرائيلي... وأنه يمثل نكسة لأحلام السلام والاستقرار، الذي استشرفناه جميعاً بمُناسبة جلاء آخر جندي إسرائيلي عن سيناء – ثم فقرة أخرى يدعو فيها إلى وقف إطلاق النار، وانسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان على الفور... ثم نداء للقوى العظمى "لتحمل مسؤوليتها" في وقف القتال، وتطبيق قرارات الأمم المتحدة.

ثم طلب، وأنا أغادر المكتب، أن أهدئ اللعب بالنسبة لأمريكا، التي كان سفيرها في مكتبه منذ ساعة، ليحتج على مقالاتي!

الذي لم أفهمه مع ذلك هو هجوم **د.رفعت السعيد** عليّ بدون مُناسبة، بسبب هجومي على أمريكا، فقد عبّر في عموده بصحيفة "**الأهالي**" عن استيائه وشكه فيما أكتبه في هجومي على أمريكا، حيث أن مؤهلاتي في هذا النقد ليست كافية... فلم يعرف عني في الماضي مُعاداة الولايات المتحدة... فلماذا، وكيف أهاجمها الآن؟... إن الوحيدين الذين لهم المؤهلات السليمة ومن حقهم مُهاجمة أمريكا هم اليساريون الذين لا توجد شبهة في يساريتهم... وهكذا بدا هذا القطب الماركسي المصري كالطفل الذي يخاف أن يُشاركه آخرون في لعبته – أي احتكار الهجوم على أمريكا... لم أغضب منه، بقدر ما أشفقت عليه، ولذلك لم أردّ عليه في هذا الصدد، كما لم أردّ على ادعاءاته وشوشرته على مُبادرة "**مُنتدى الفكر الديمقراطي**".

المكسيك

كان مُخططنا أن أقضي ثلاثة أسابيع في أمريكا الشمالية في شهر أغسطس، أزور فيها أسرة زوجتي، ثم أسافر أنا وبركة إلى المكسيك لحضور "**المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع**"، الذي يُعقد كل أربع سنوات... وكانت الزيارة، الأولى لنا إلى المكسيك... ورغم أنه لم يكن لي ورقة... إلا أنه طُلب مني رئاسة

بعض الجلسات... كما قمت ببعض المُداخلات التي يبدو أنها لفتت الأنظار... فقد تم انتخابي **نائباً لرئيس عُلماء اجتماع العالم الثالث**، التي كان رئيسها عالم الاجتماع البرازيلي **فرناندو كاردوزا**، الذي كان وقتها عضواً في مجلس الشيوخ، وبعد ذلك أصبح رئيساً لجمهورية البرازيل في نهاية التسعينات وأوائل القرن الحادي والعشرين وقد استضافنا رئيس المكسيك السابق، وهو أيضاً كان أستاذ لعلم الاجتماع... وقد استرعى ذلك انتباهي – أي الدور السياسي البارز الذي يقوم به عُلماء الاجتماع في أمريكا اللاتينية... وكان أيضاً من الضيوف على مائدة الرئيس المكسيكي السابق، كل من الأرجنتيني **جوندر فرانك**، والمصري **أنور عبد الملك**، الذي كانت له شعبية كبيرة في أمريكا اللاتينية... وقد أخذت أنا و**بركة** عدة أيام إضافية بعد المؤتمر لزيارة بعض المعالم التاريخية لحضارة "**الانكا**" القديمة، والتي توازت مع الألفي سنة الثانية والثالثة من الحضارة الفرعونية.

في طريق عودتي إلى مصر، توقفت في واشنطن حيث رأيت **د.هشام شرابي**، و**د.حليم بركات**، و**فوزي هيكل**، و**إسماعيل سراج الدين** وأصدقاء مصريين وعرباً آخرين... وأحطتهم علماً بما نتداوله منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان... وتحمس كل من **هشام شرابي (فلسطين) وحليم بركات** (سوريا) لفكرة توسيع دائرة الحوار، ومُشاركة عرب المهجر، وهو ما اتفقت عليه معهما ووعدتهما بأن أنقل ذلك إلى الزملاء في الوطن العربي... وعليهما بدورهما أن يروجا للفكرة تمهيداً للقاء حواري موسع للإجابة على السؤال " **ما العمل؟**".

الطريق إلى عمان: سبتمبر الأحمر

عدت للقاهرة في الأسبوع الأول من سبتمبر... لمدة أسبوعين استأنفت فيهما متابعة ومراجعة أعمال مشروع استشراف المُستقبل العربي، وحوار مجموعتي مصر الجديدة والدقي، بمُشاركة نشطة من **د.خير الدين حسيب**... ثم توجهت إلى عمّان تلبية لدعوة من الأمير **الحسن بن طلال**، ولي العهد، للمُشاركة في ندوة عن "**مُستقبل لبنان**"... وفي هذه الأثناء كان **ياسر عرفات** ومقاتلو المقاومة يتركون بيروت إلى تونس... وكان مُعظم المدعوين هم الذين حضروا لقاء العام السابق عن "**مسألة الأقليات في المشرق**"... وكان واضحاً أن ولي العهد يستريح إلى هذه المجموعة، التي كانت تضم أساتذة عرباً يعملون في الجامعات الأوروبية والأمريكية – من أصول لبنانية وعراقية وسورية وفلسطينية... وكنت أنا المصري الوحيد، بين حوالي ثلاثين مُفكراً ومُمارساً. وكان بينهم اثنان من

المُستشارين المقربين للرئيس اللبناني المُنتخب الجديد بشير الجميل، والذي كان ابن رئيس حزب الكتائب **بيير الجمل**. وكان شائعاً أنه انتخب تحت تهديد الدبابات الإسرائيلية.

كان أحد المُستشارين صديقا قديما هو **د.فؤاد عازر**، أستاذ العلوم السياسية بجامعة نورث كارولينا، ثم جامعة ميريلاند، والآخر لبناني أمريكي هو **فؤاد عجمي**، الأستاذ بجامعة برنستون.

كان مُستشارا الرئيس اللبناني الجديد، يتصوران أنني قريب جداً من الرئيس **مبارك**... ورغم نفي ذلك، وشرحي أن علاقتي بالرئيس **مبارك** لا تتعدى المعرفة العابرة شأن مُثقفين مصريين آخرين، وأنه ليس لي علاقة بصُنع القرار... إلا أنهما اعتبرا ما قلته، نوعاً من التكتم والحصافة... وقالا بصراحة، أنهما جاءا بعرض مُحدد من رئيسهما إلى **مبارك**... ويُريدان ورئيسَهم المُنتخب استباق الوقت حتى قبل تنصيبه رسمياً... ومع ذلك فلا مانع أن أحمل أي رسالة من الرئيس الجديد إلى الرئيس **مبارك**... واتفقنا على أن نتقابل على الإفطار في مكان سيحددانه لي قبل الإفطار بخمس دقائق، وذلك لاعتبارات أمنية... حيث كانا مُتأكدين أن ثلاثة أجهزة مخابرات على الأقل تُراقبنا، وتتصنت على كل الأحاديث في الفندق - وهي المُخابرات الأردنية، والسورية، والإسرائيلية!.

في الصباح المُقرر لإفطار العمل جاءت الأنباء بموت الرئيس **بشير الجميل**، الذي تعرض مقر حزبه - كان مُقرراً أن يعقد اجتماعاً - لانفجار مروع في الليلة السابقة... ونقل الرجل إلى المستشفى، ولكنه لفظ آخر أنفاسه في فجر اليوم التالي... وقد أصاب النبأ جميع من كانوا في ندوة عمّان بالذهول، والحزن، حتى أولئك الذين كانوا ينتقدون حزب الكتائب وقادته بسبب دورهم الدموي في الحرب الأهلية اللبنانية... فقد كان هناك أمل في أن يستطيع هذا الرئيس الشاب أن يستغل قاعدته الجماهيرية بين مسيحيي لبنان، ويقوم بدور حاسم في مُصالحة لبنانية مع الجيل الجديد الذي أفرزته الحرب من قيادات في الطوائف الأخرى - مثل **نبيه بري** بين الشيعة، و**د.سليم الحص** بين السنة، و**وليد جنبلاط** بين الدروز.

قضينا معظم اليوم في أحاديث جانبية حول ما يتوقعه كل منا للبنان... وكان أكثرنا تشاؤماً **د.فؤاد عجمي**، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة برنستون... وهو لبناني شيعي، أحرز سُمعة كبيرة بمقال له منذ عدة سنوات عن نهاية الحركة العروبية (The End of Pan- Arabia). وكان أحد الذين انتهزت

فرصة وجوده في لقاء العام الماضي لإجراء مُقابلة مُتعمقة معه عن المشهد الطائفي في لبنان.

كرر الأمير **الحسن بن طلال** عرضه عليّ بأن أدير مشروع "نادي العقبة"، وخاصة في ضوء تعثر مُبادرتنا في القاهرة لإنشاء "مُنتدى الفكر الديمقراطي"... اعتذرت بسبب قبولي أن أكون مُنسقاً لمشروع "استشراف المستقبل العربي"... قبل اعتذاري على مضض... ولكنه سأل كثيراً عن أسباب تعثر مُنتدى الفكر الديمقراطي، وعن مشروع الاستشراف... وقد تأثرت باهتمامه، وعمق أسئلته ومُلاحظاته... كذلك طلب مني أن أرشح بعض الأسماء المصرية لموقع أمين عام "نادي العقبة".

وأبديت مُلاحظة حول لفظي "**نادي**" التي لا توحي بالجدية عندنا نحن العرب، و"**العقبة**" التي لا توحي بالتفاؤل... واقترحت أن يتبنى اسم مُبادرتنا المُتعثرة في القاهرة، وهي "مُنتدى الفكر الديمقراطي"... فقال ماذا عن اللفظين الأول والثاني – أي مُنتدى الفكر... ودعنا من "**الديمقراطي**"... الآن حتى لا نخيف أصحاب القرار العربي، كما يبدو أن أصحاب القرار المصريين قد خافوا...

تحدثت مع الأمير أيضاً عن مُبادرة فكرية من عمّان **لعودة مصر إلى العرب، وعودة العرب إلى مصر**... وتحمس الرجل للفكرة... واتفقت أن أخطط لها، وأن تهدف إلى عقد لقاء حولها في الربيع... وقد شعر الأمير أنه رغم اعتذاري للمرة الثانية عن نادي العقبة... إلا أنني أكن له احتراماً ومودة عميقين.

وفي طائرة العودة إلى القاهرة... تأملت أحداث عام مضى من سبتمبر ١٩٨١ إلى سبتمبر ١٩٨٢... اغتيل الرئيس **السادات** منذ عام... وها هو الرئيس اللبناني **بشير الجميل** يُغتال هذا العام... فياله من عالم عربي غريب مُتقلب!.

صبرا... شاتيلا... وتونس

لم تكد السفن التي تحمل **عرفات** وعناصر المُقاومة الفلسطينية تغادر بيروت إلى تونس، وعدن، والجزائر، ومصر، حتى بدأ تحرش ميليشيات اليمين اللبناني باللاجئين الفلسطينيين، وتضييق الخناق على مُخيماتهم في منطقة بيروت الكُبرى، والجنوب، حيث كانت تشعر بزهوة الانتصار وحماية القوات الإسرائيلية التي كانت ما تزال تتمركز بين صور وبيروت... ولذلك حينما اغتيل **بشير الجميل** شعرت هذه الميليشيات بأن فرحتها لم تكتمل... بل وأصبيت

بنكسة شديدة... وما هي إلا أيام حتى صبّت هذه الميليشيات جامّ غضبها وإحباطها على مُخيمي **صبرا وشاتيلا** الفلسطينيين، قرب بيروت ... وفي حماية وبتنسيق مع القوات الإسرائيلية، أغار مُسلحون من الميليشيات اليمنيين على سكان المُخيمين، ومارس رجالها وشبابها القتل والإبادة... واستمرت هذه المجزرة تجري في تكتم شديد لمدة ثماني وأربعين ساعة ... إلى أن تسرّبت أخبارها تدريجيا، من خلال بعض وكالات الأنباء الأجنبية ... ولم يُصدق العالم في البداية... ولكن مع الصور وشهادات شهود العيان من نساء وأطفال وشيوخ المخيمين... تحوّل عدم التصديق إلى صدمة في كل أنحاء العالم، وخاصة في الغرب الذي لم يتعود تصديق أن إسرائيل يمكن أن تتواطأ، إن لم تشارك فعلاً في مثل هذه المجازر، والتي ذكّرت الرأي العالم الغربي بجرائم "**المحارق النازية**" التي كان اليهود أنفسهم أول ضحاياها.

أكثر من ذلك صُدم الرأي العام الإسرائيلي نفسه فيما تورطت فيه الحكومة الإسرائيلية... وخرجت مُظاهرات الاحتجاج الغاضبة في تل أبيب تطالب باستقالة حكومة **مناحم بيجن**، ومُحاكمة **أريل شارون**، وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي أشارت إليه كل أصابع الاتهام... وهو فعلاً ما حدث في غضون عدة أسابيع.

أما في القاهرة، فقد استمر غضب الناس... وفي نفس الوقت عجزهم عن عمل أي شيء محسوس للتعبير عن هذا الغضب. وكان ذلك مما يُضاعف من إحباط شيخ المُعارضين **فتحي رضوان**... الذي كان دائم الاتصال والبكاء... وكان منظر شيخ تجاوز السبعين وهو يبكي من أكثر المشاهد إيلاماً لنفسي... ولم يكن هناك من شيء يُخفف على الرجل قليلاً إلا بإشراكه في كل الأنشطة العامة – الحزبية وغير الحزبية. وحيث كان الرجل خطيباً مُفوهاً، من ذاك الجيل الذي عرفته مصر منذ **مصطفى كامل** في أوائل القرن العشرين إلى **مكرم عبيد ومصطفى النحاس** في مُنتصف القرن... فقد كانت هذه اللقاءات بمثابة علاج طبيعي للرجل... وفي نفس الوقت كانت تعطيني فرصة التعرف عليه أكثر وأكثر... **وكان في ذهني أن يقوم الرجل بدور قيادي في الحركة التي كنا نخطط لها لحقوق الإنسان في الوطن العربي.**

كانت اللجنة المصرية للتضامن الآسيوي- الإفريقي هي أحد مجالات الحركة التي تتيح لأعضائها وللأستاذ **فتحي** التعاون ... ومن خلال هذه اللجنة تعرفت على مزيد من الشخصيات العامة التي كنت اسمع فقط عنها من قبل مثل **د.مراد غالب** الذي كان سفيراً لمصر في موسكو، ثم وزيراً للخارجية، والسيد **عبد المنعم النجار** الذي كان سفير في باريس، ويُنسب إليه إعادة تنظيم الجيش

المصري في أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧... وضمن أنشطة ومُبادرات اللجنة المصرية للتضامن كان تنظيم احتفالية تضامن مع الشعب الفلسطيني والمُقاومة في أعقاب مذابح صبرا وشاتيلا... وفي هذه الاحتفالية تقرر إرسال وفد من اللجنة إلى تونس للقاء الزعيم الفلسطيني **ياسر عرفات**، تعبيراً عن هذا التضامن، ومعرفة أوضاع المُحاربين الفلسطينيين في الشتات.

وتوّجه وفد يتكون من الأساتذة: **مراد غالب** و**أحمد حمروش** و**أمين هويدي** وأنا إلى تونس بالطائرة، حيث اجتمعنا **بياسر عرفات** في ليلتين مُتتاليتين، كان كل منهما بدأ بعد مُنتصف الليل. فقد كنا ننتظر في فندقنا من الثامنة مساءً... إلى أن تأتي سيارتان، إحداهما لاند روفر، نستقلهما مع اثنين من المرافقين، كل منهما في سيارة... ونذهب إلى أحد الفيلات خارج العاصمة تونس... وننتظر هناك إلى أن ينزل علينا **ياسر عرفات** فجأة... وكان يعرف زملائي الثلاثة معرفة شخصية من مُقابلات ومُناسبات سابقة، تمتد إلى خمسة عشر عاماً ماضية... لقد كنت أصغر أعضاء الوفد... وكانت هذه هي المرة الثانية التي ألتقي فيها **بياسر عرفات**، حيث كانت المرة الأولى سريعة وعارضة في مكتب الأستاذ **مكرم محمد أحمد** في **المصور** أثناء مروره بالقاهرة (من بورسعيد) إلى منفاه في تونس... وكان ذلك قبل مذبحة صبرا وشاتيلا بأيام قليلة...

حدّثنا **ياسر عرفات** بفخر وثقة عن معركة بيروت التي دامت ٨٨ يوماً، وهي مدة أطول من أي حرب دخلتها الجيوش العربية النظامية مع إسرائيل... لذلك فهو ومُقاتليه يعتبرون صمودهم ٨٨ يوما في مواجهة القذف الجوي والمدفعي بأحدث ما في الترسانة الإسرائيلية الأمريكية من أسلحة وذخائر، بمثابة انتصار لهم على إسرائيل... وقال أنهم كان يمكن لهم الصمود إلى ما لا نهاية، لولا قلق اللبنانيين على ما تبقى من مدينتهم وبلدهم بعد ما أصابهما من دمار واسع... تحدث عن الروح المعنوية للمُقاتلين، وتمثّلهم لمعركة لا تقل عن معركة لينينجراد... وتردد الإسرائيليين بالدخول بمُشاتهم إلى بيروت، خوفاً من الإصابات التي كان مؤكداً أن تكون بالآلاف في حرب مدن شرسة... وحكى عن تفاصيل كثيرة لم نكن قد سمعنا بها.

وفي اللقاء التالي، تركّز الحديث عن العلاقات الفلسطينية العربية، وخاصة بسوريا ومصر... وألقى بلوم شديد على **حافظ الأسد** وموقفه المُتخاذل أثناء المعارك... بينما كان شكوراً لمصر و**حسني مبارك** ... وعن العلاقة الحالية بتونس، وضوابط الوجود الفلسطيني حتى لا تكرر الأخطاء والتجاوزات التي وقعت في الأردن ولبنان... وتحدثنا عما يمكن أن تفعله القوى الشعبية العربية، مثل لجان للتضامن، لدعم المُقاومة الفلسطينية.

وعلى هامش زيارتنا لتونس، زرنا مقر "**الأمانة المؤقتة للجامعة العربية**"... واحتفى بنا الأمين العام الجديد السيد/ **الشاذلي القليبي**، الذي كان أول، وربما آخر أمين عام لها غير مصري... باستثناء اليساري المصري **لطفي الخولي**، لم يتعامل المُثقفون المصريون مع الجامعة العربية بعد تجميد عضوية مصر فيها، ونقل مقرها إلى تونس، عملاً بمُقررات قمة بغداد في أعقاب توقيع مُعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل... لذلك كانت زيارتنا بمثابة كسر للجليد الذي خيّم على علاقة الأمانة العامة والمصريين... حتى موظفي الأمانة العامة المصريين فضّلوا أن يأخذوا موقف الحكومة المصرية، ورفضوا الانتقال إلى تونس... أي أن مفهوم "**الموظف المدني العربي**" لم تغرس بما فيه الكفاية بين العاملين في هذا الجهاز الإقليمي القومي بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٨٠. كان الاستثناء الوحيد البارز في هذا الصدد هو الزميل **جميل مطر**، وكان من المصريين القلائل في جيله، الذي كانت نزعته القومية العروبية قوية صادقة... ومن ثم كان هو... ربما الوحيد – الذي قرر بإرادته الحرة، أن يظل وفياً للجامعة العربية حيثما وأينما كانت. وكان لذلك تأثير كبير على الأمين العام **الشاذلي القليبي**، وكذلك مدير مكتبه السيد/ **المنجي الفقيه**... وكانت هذه الزيارة العابرة، بداية علاقة طويلة مع **المُنجي الفقيه** والأمانة العامة طوال السنوات الثماني التالية.

وأيضاً على هامش رحلتنا للقاء **ياسر عرفات** التقيت بالعديد من أصدقائي التوانسة، الذين كان أقربهم إلى قلبي وتفكيري عالم الاجتماع الشاب **الطاهر لبيب**... والذي كان مسؤولاً عن قسم في وزارة الثقافة التونسية للمركز الجهوي (من جهة) للتنشيط الثقافي... مثل "قصور الثقافة" في مصر... وتحاورنا بخصوص الأوضاع العربية التعيسة في تلك الأيام، وعن مُبادرتنا في القاهرة لتأسيس **حركة عربية لحقوق الإنسان**... وأبدى **الطاهر** تحمسه للفكرة... وكنت أدرك جيداً أنه شخص يُعتمد عليه... ولحسن الحظ كان يعرفه **خير الدين حسيب**، ويحمل له نفس التقدير... وبعد عدة أشهر من هذه الزيارة، سيقوم **الطاهر لبيب** بدور حيوي في توفير مكان للقاء للمُثقفين العرب المهمومين بالأوضاع العربية المُتردية.

وكان **ياسر عرفات** قد طلب من وفد اللجنة المصرية للتضامن على سبيل دعم المُقاومة الفلسطينية أن نُسلط الضوء على مذابح صبرا وشاتيلا... وأن يجعل من ذلك سبيلاً لبعث وإبقاء الاهتمام العربي والعالمي بالقضية حياً... وقد وعد وفدنا أن نفعل ذلك... وفي طريق عودتنا إلى القاهرة تداولنا فيما يمكن عمله لتنفيذ وعدنا **لأبي عمّار**: ندوات، مؤتمرات، مقالات، كتب،

مُسيرات، نقوم بها وتقوم بها لجان التضامن الشقيقة في الوطن العربي، وآسيا وأفريقيا.

زيارة ميدانية لصبرا وشاتيلا

ذهبت إلى بيروت في مُنتصف ديسمبر للمُشاركة في أحد الأنشطة التخطيطية لمركز دراسات الوحدة العربية... وكانت العادة أن يقيم ضيوف المركز في تلك الأيام في فندق "كومودور" الأكثر حراسة وأمناً من ناحية، والقريب من مقر المركز من ناحية أخرى... ولنفس الأسباب الأمنية كان الفندق هو المكان المُفضل لإقامة الصحفيين الأجانب... ولهذا السبب كانت إدارة الفندق توفر مكاناً وعدة تقنية لأجهزة التليكس (لم يكن الفاكس قد اخترع بعد) واستقبال رسائل وكالات الأنباء الرئيسية.

في مساء اليوم التالي لوصولي، سمعت صوتاً نسائياً يُنادي باسمي في بهو الفندق: **سعد الدين... سعد الدين**... التفت فإذا بها شقراء في حوالي الثلاثين... لم تكن غريبة تماماً ولكني لم أتذكرها على الفور... اقتربت، واحتضنتني، وقالت **جان ... جان المعموري** ... وتظاهرت بتذكرها... وقلت ماذا تفعلين هنا؟ قالت أنها قصة طويلة، هل تقيم في هذا الفندق؟ وحينما أجبت بالإيجاب... أخذت رقم الغرفة... وقالت دعنا نتناول العشاء سوياً، فأنا أيضاً أقيم هنا، وليس هناك شيء مفتوح بعد السابعة (حيث كنا)... وأنت لا تستطيع الذهاب إلى الشرقية، التي ما زالت الحياة فيها طبيعية جداً، إلا بحراسة خاصة!.

التقينا على العشاء في المطعم الصيفي بالفندق (رغم أننا كنا في ديسمبر)... وكنت قد تذكرت بصعوبة أنني رأيت هذه السيدة مع زوج تونسي منذ سبع سنوات، حيث كان هو يدرس الإخراج المسرحي في أكاديمية الفنون في مصر... وكانا أصدقاء مُشتركين **لفريج استامبولي**، عالم الاجتماع التونسي... سألتها عن زوجها... قالت للأسف لقد انفصلنا منذ سنتين... وقد حضرت إلي بيروت كصحفية بالقطعة (free lance) منذ انفصلت عن **المعموري!**... وطلبت منها أن تحدثني عن تجربة الاجتياح الإسرائيلي... وظلت **جان** تتحدث إلى مُنتصف الليل... واسترعى انتباهي حديثها بصفة المُتكلم "النحن" – أي لبناني – فلسطيني عرب بيروت و "الهم" – أي الإسرائيليين والميليشيات اليمينية في شرق بيروت... وافترضت طبعاً أنني مع "النحن"... فتحدثت عن أيام الحصار، برومانسية شديدة، كما لو كانت تتحدث عن قصة حب... وكيف عاشوا على الشموع ليلاً... وكيف سادت روح اشتراكية بكل معنى الكلمة بين

سكّان بيروت الغربية... وكيف أنها مُكتئبة منذ نهاية الحصار، وكيف تضاعف الاكتئاب بعد اكتشافها لمذبحة صبرا وشاتيلا...

سألت باندهاش: "أنت يا **جان**... أنت يا **جان**... التي اكتشفت المذبحة!!؟.

قالت ببساطة "نعم... وما هو وجه العجب في ذلك... ألم يكن أحد سيكتشف ذلك إن آجلاً أو عاجلاً؟ ولكن كيف يا **جان**.. كيف؟ قالت بنفس البساطة "في تلك الأيام كان كوني امرأة، وأمريكانية، وشقراء... وتتحدث العربية... يعني إما أنني جاسوسة أو صديقة للفلسطينيين... وكانت صداقاتي في المُخيم، وخاصة للزعيمة **أم صباح** بمثابة جواز مرور إلى المُخيم في كل الأوقات... لقد كنت معروفة للجميع... "

وحين لاحظت **جان** اهتمامي الشديد بموضوع صبرا وشاتيلا، عرضت أن تأخذني لزيارة ميدانية صباح اليوم التالي... ولم أصدقها... إلى أن وصلت، وأصبحت في معية **أم صباح**، التي كانت في السبعين من عُمرها... ولكنها ما زالت في صحة جيدة، بدنياً، وصحة أجود ذهنياً وروحياً... ولأنها امرأة كبيرة في السن، كانت هي وحفيد واحد، **ناصر**، اللذين بقيا في منزلهما في مُخيم صبرا، والذي لم يكن يفصله عن مُخيم شاتيلا، إلا شارع ضيق... بينما المُخيمات الأخرى يُحيط بهما سور متوسط لارتفاع من الطوب والأسلاك الشائكة... كانت **أم صباح** أماً لثلاثة بنات وأربع شباب وتقول إنها محظوظة، مُقارنة بجيرانها، فقد قتل لها ابنان فقط، أحدهما أثناء الحصار، في صفوف فتح، والثاني ليلة المجزرة... أما الاثنان الآخران فيعملان في الخليج... وابنة تتعلم في الأردن، واثنتان متزوجتان في مُخيم برج حمود (مُخيم آخر في شمال بيروت)... كانت ابنتها الكُبرى تدعى "**صباح**"، لم تكن "**أم غسان**" (اسم ابنها الثاني بعد **صباح**) فهي تؤمن بالمساواة الكاملة... مات زوجها منذ عشر سنوات... والأسرة أصلاً من قرية قرب حيفا – وما زالت **أم صباح** تحتفظ بمُفتاح دارهم في القرية... وما زالت تحلم أن تعود إليها... وإن كانت بواقعية حزينة، تقول، بعد وفاة "**أبي صباح**" الذي كان يحلم بالعودة أيضاً... ووفاة آخرين من نفس القرية... بدأ أملها يتضاءل... ولكنه لم يختف... أما حفيدها **ناصر**، فهو ابن أحد البنتين المتزوجتين في برج حمود، وقد أتى إلى مُخيم صبرا، ليؤنس وحدتها.

أخذتنا **أم صباح** في جولة امتدت أربع ساعات مشياً على الأقدام في المُخيمين، كان الجميع يعرفونها... وفي ثلاث مُناسبات أصرت بعض الأسر، أو بالأحرى بعض ربّات الأسر، على دعوتنا للشاي أو للقوة... وكانت **أم صباح** هي التي تقرر أين وممن نقبل الدعوة... حينما عدنا إلى منزل **أم صباح** أصرت أن تدعونا للغداء... وفي ضوء الظروف والسياق، شكرتها واعتذرت... ولكنها

أصرت بشكل جعل **جان** تطلب مني بالإنجليزية أن أقبل الدعوة، مراعاة لشعورها... ولأنها تحتاج إلى الصُحبة... استأذنت من **أم صباح** أن أتغيب لمدة ساعتين، وأعود إليها... ولسبب ما اعتقدت أنها لو استبقت **جان**، فإنني سأعود... وهو ما حدث، أسرعت إلى مركز دراسات الوحدة لأطمئن **د.خير الدين حسيب** أنني ما زلت حياً أرزق... وكما توقعت كان الرجل في غاية القلق حيث اتصل بي في فندق الكودور ولم يجدني... كل نصف ساعة... ثم ذهب بنفسه إلى الفندق ومعه رجل أمن من المركز... كانت الناس تختفي بسهولة في بيروت... ثم بدأ قلقه يتزايد حينما علم أنني غادرت في الثامنة صباحاً مع سيدة أجنبية... المهم ردت الروح في الرجل للوهلة الأولى... ثم انفجر في للوهلة الثانية بسبب "**سلوكي غير المسؤول**"... هدأ "قليلا" حين أخبرته أين كنت، وخوفي أن تفلت فرصة زيارة مُخيمي صبرا وشاتيلا... وأنني **كعالم اجتماع سياسي لم تكن لتفوتني هذه الفرصة الميدانية**... ثم سألته إذا كان قد زار أي مُخيم فلسطيني منذ استقر في لبنان منذ عشر سنوات... وتصبب الرجل عرقاً... واستأنف هجومه على سلوكي غير المسؤول... حاولت احتواء غضبه بإخباره عما رأيت وسمعت ومن قابلت... استمع وهو ما يزال يكظم بقايا غضب، لم أشك لحظة في إخلاص أسبابه. ففي تلك الفترة تزايد إعجاب الرجل وحبه ونزعته للتملك والسيطرة والخوف عليّ بمُعدلات فلكية... ولدرجة ستصبح "مرضية ـ باثولوجية" مع مر السنوات... وهو ما سيأتي الحديث عنه فيما بعد... حينما وقعت قطيعة شبة نهائية دامت خمس سنوات كاملة... المهم أنني زدت الطين بلة، حينما قال دعنا نذهب للغداء... واعتذرت لارتباطي بدعوة غداء "**أم صباح**" اللاجئة الفلسطينية من حيفا، التي بدت لي في ذلك اليوم أهم من **د.خير الدين حسيب**، الذي كنت بدوري أقدره وأحبه بلا حدود... حذرني الرجل ألا أرتبط على العشاء لأتناوله معه وزوجته **شيرين**... ووعدته بذلك... ثم أسرعت عائداً إلى المخيم... وتوقفت في الطريق حيث اشتريت بعض اللعب والهدايا **لأم صباح** وحفيدها **ناصر**... وتنفست هي **وجان وناصر** الصعداء حين رأوني حيث كان قد اشتد بهم القلق والجوع معاً...

كانت وجبة الغداء سلطات حُمص وطحينة، وبابا غنوج ومِسخّم (وهو دجاج مشوي في عجينة، تتحول مع الشوي إلى خبز)... وكانت من أشهى ما أكلت في بيروت، على كثرة وتنوع ما أكلت في تلك المدينة بمطبخها اللبناني الشهير... وكنت أتأمل بساطة المسكن و المطبخ الذي أعدت فيه **أم صباح** هذه الوجبة الشهية... وروحها الأبية، وكرمها الإنساني، الذي لا علاقة له بدخلها المادي، الذي لا شك أنه محدوداً، ربما لدرجة الكفاف... عرضت **أم صباح** بعد

الشاي أن تصحبنا في جولة أخرى مسائية، حيث سيكون الأطفال قد عادوا من "مدارس الوكالة" (وكالة غوث اللاجئين) ووافقت... وتمت جولة رأيت فيها وجهاً آخر للمُخيم. في جولة الصباح كان مُعظم من قابلناهم وتحدثنا إليهم من النساء وقلة من عجائز الرجال... وكانت هناك كآبة في الواقع... ربما كانت من إسقاط خيالي في ضوء معلوماتي عن المذبحة التي وقعت في المكان منذ أسابيع... ولكن في جولة ما بعد الظهيرة... وجدت المُخيم يُضج بالأطفال والفتيان يجرون ويمرحون... والكبار منهم يستذكرون دروسهم. كان المشهد مُبهجاً... وتحدثت لمن استطعت الحديث إليهم من أطفال المُخيم الذين كانوا يعرفون كلاً من **أم صباح وجان** جيداً... وكانوا تواقين إلى استخدام ما تعلموه من إنجليزية مع **جان معموري**... ورأيت في أولئك الأطفال المُنطلقين والمملوئين بالحيوية والشقاوة مُستقبلاً آخر، لا بد أن يهزم كل محاولات **شارون** وأمثاله لإبادة هذا الشعب الفلسطيني الذي تعرض لما لم يتعرض له شعب آخر على وجه الأرض من تعذيب وتشريد وتنكيل في العصر الحديث.

تركت المُخيم بعد عناق طويل **لأم صباح**، التي ذكّرتني **بأمي القروية المصرية**، من حيث أصالة معدنها... تركت المخيم وأنا أكثر بهجة مما دخلته في الصباح...

ذهبت إلى عشاء **د.حسيب** وزوجته الرقيقة شيرين، التي كنت دائماً أشفق عليها من رقتها وصرامة زوجها. وانصرفت حوالي التاسعة مساء، مُسرعاً إلى الفندق... ولكنه لحقني بسيارته في الشارع، وأصر على توصيلي للفندق خوفاً علي من الاعتداء أو الاختطاف... وحينما رأى **جان** تنتظرني في بهو الفندق في قلق ظاهر، وتندفع إلى أحضاني، احمر وجه **حسيب**، أكثر مما هو بالفعل، وقال " يبدو أنك ستختطف... بعد كل شيء" وانصرف على عجل... ولكنه اتصل في الثامنة صباح اليوم التالي، وأصر أن نفطر سويا في الفندق، واعتذرت للحسناء **جان**، لتركها على عجل، وهي مازلت في الفراش. واصطحبني بعد ذلك **حسيب** بحقيبتي إلى المركز، حيث قضيت معظم اليوم ثم غادرت مُباشرة إلى القاهرة... دون أن أودع **جان معموري**... التي قرأت بعد عدة أسابيع نبأ مقتلها في انفجار وقع بالسفارة الأمريكية، في بيروت أثناء إجراء مُقابلة صحفية مع أحد المسؤولين .

حينما عدت إلى مصر، كتبت ونشرت في **الأهرام والاقتصادي والجمهورية** سلسلة مقالات عن "**خريف الحزن**"، كما رأيته في لقاءاتى مع **ياسر عرفات** وزملائه في تونس، وكما خبرته مع **أم صباح** وزملائها في صبرا وشاتيلا ببيروت.

١٩٨٣

استقبلت عام ١٩٨٣، وأنا أتعجب مما يمكن أن يحمله العام الجديد... فقد كانت كل الأعوام منذ عودتي إلى الوطن عام ١٩٧٥، حافلة على المستويين الخاص والعام، واستمر التداخل بينهما بكثافة، كنت واعياً بها في حينها أحياناً، وغير واع بها في أحيان أخرى، وفقط أدركتها بعد مدة، حين تأملت واسترجعت وتتبعت الخيوط الكثيرة التي كانت تتزايد وتتشابك في حياتي، وكان كل عام جديد أكثر إثارة من العام الذي سبقه.

كان استقرار حياتي الأسرية والمهنية عاملاً رئيسياً في توفير الوقت والطاقة للانطلاق إلى آفاق جديدة، وابتداع مُبادرات أو المُشاركة في مُبادرات مُتنوعة... كانت خريطة أنشطتي تمتد من **الكويت شرقاً**، إلى **الولايات المتحدة غرباً** ومن **السويد شمالاً** إلى **السودان جنوباً**.

بدأت السنة برحلة إلى **البرتغال**، بمُناسبة اجتماع ختامي لمُراجعة، ووضع اللمسات الأخيرة في مشروع "**الاقتصاد السياسي لتوزيع الدخل في مصر**"، الذي كان قد بدأ في عام ١٩٧٨ ولكنه تعثر لأسباب "**مصرية**" بحتة. فقد كان الراعي المحلي لهذا المشروع الدولي المقارن (مع تركيا ونيجيريا والمكسيك وتايلاند) في البداية هو **المعهد القومي للتخطيط**، أيام كان **د.إسماعيل صبري عبد الله** عميداً له. ولكن تدهور العلاقة بين **د.إسماعيل** والرئيس **أنور السادات** أدت بالأخير إلى الإطاحة بالأول، وتعيين **د.كمال الجنزوري** خلفاً له. وكان **د.الجنزوري** شخصية مجهولة بالنسبة لمُنسق المشروع **د.جودة عبد الخالق**... هذا فضلاً عن أن مُعظم المُشاركين في المشروع كانوا من تلاميذ **د.إسماعيل صبري عبد الله** من الاقتصاديين، أو من المُعجبين به من غير الاقتصاديين - مثلي و**د.حسن حنفي**، و**د.علي الدين هلال**. لذلك فتضامنا مع **د.إسماعيل** أوعزنا للراعي الدولي للمشروع (جامعة برنستون ومؤسسة فورد) أن تنهي التعاقد مع معهد التخطيط القومي، وتغير الراعي المحلي إلى **المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية**، بناء على توصيتي... وكانت علاقتي بذلك المركز ومُديره **د.أحمد خليفة** جيدة في ذلك الوقت. وأوكل للمركز القيام **بمسح ميداني بالعينة الاحتمالية على ثلاثة آلاف حالة للتعرف على خريطة توزيع الدخل في مصر في أواخر السبعينات**، أي بعد خمس سنوات تقريباً من حرب أكتوبر وبداية سياسة الانفتاح الاقتصادي وكانت البيانات المتوقعة من نتاج المسح هي الأساس الذي ستعتمد عليه معظم مُساهمات العاملين في المشروع. ورغم أن الاتفاق كان يقضي بأن ينتهي المركز من المسح في غضون سنة من توقيع العقد، إلا أن ثلاث سنوات مرت دون الوفاء بالمطلوب، ودون رد

قيمة تكاليف المسح التي تقاضاها المركز بالدولارات (مئة ألف) مقدماً... ولأنني كنت قد خبرت مع ذلك الوقت ألاعيب ومراوغات د.**خليفة**، فقد صارحت زملائي في المشروع أن انتظار نتائج المسح هو من قبيل "**عشم إبليس في الجنة**"... وفي اجتماع طارئ للمشروع قررنا في السنة الرابعة أن أقوم أنا بالمسح على عينة مُصغرة... وهو ما كان، وأنجزنا المطلوب في أربعة شهور... مُستخدمين نفس الأدوات البحثية ونفس الباحثين الميدانيين الذين كان المركز القومي سيستعين بهم... وكانت هذه هي المرة الثانية التي أقوم فيها ببحث ميداني على عينة قومية، خارج الحدود البيروقراطية الرسمية العقيمة، والباهظة التكاليف، والهزيلة النتائج... وبوجود نتائج المسح المُصغر (ألف حالة)، استطاع الزملاء الانتهاء من الأوراق الخاصة بكل منهم، مع أواخر ١٩٨٢... وأصبحنا جاهزين لتسليمها للطباعة والنشر.

وكان اجتماعنا في البرتغال بمثابة احتفال بإنجاز المشروع بقدر ما كان لوضع اللمسات الأخيرة، مع مندوبين من الجهتين الراعيتين، ومُمثلي البلدان الأخرى التي تمت فيها دراسات مُماثلة.

اختيرت مدينة صغيرة هي فترا (Vetra)، على لسان مُمتد من الأرض البرتغالية إلى المُحيط الأطلنطي، قيل أنها أقصى نقطة أوربية غرباً... وأيضاً أقصى نقطة **وصلتها الجيوش الإسلامية الفاتحة للأندلس في الهضبة الإيبيرية**... قضينا ليلة ويوم كامل في لشبونة... واسترعى انتباهي أوجه الشبه بينها وبين إسكندرية الخمسينات: الهدوء، النظافة، وتوسط قامة مبانيها - ثلاثة أو أربعة طوابق... وخطوط وعربات الترام الصغيرة...

أما بلدة فترا نفسها حيث عقدنا الاجتماع على مدى أربعة أيام، فقد كانت خلاّبة في طبيعتها وفي بساطة وطيبة سكّانها الذين رحّبوا بنا بحفاوة ... فقد كانت البرتغال عموماً، وهذا الجزء الطرفي منها خصوصاً، ما تزال أرضاً بكراً بالنسبة للسياحة العالمية... فقد ظلت البرتغال أرضاً مُغلقة تقريباً إلى أن قامت ثورتها الديمقراطية في أبريل ١٩٧٤، وظلت الأمور فيها مُضطربة إلى نهاية السبعينات.

إعادة فتح الأندلس

وكانت إقامتنا في أحد القلاع التي بناها العرب في الأندلس... وظلت قائمة كقلعة عسكرية مُطلة على المُحيط - مثل قلعة قايتباي في الإسكندرية - إلى أن قامت الثورة الأندلسية. وضمن ما شهدته البرتغال من تحولات مدنية وديمقراطية كان تحويل بعض هذه القلاع إلى بيوت سياحية (Hostels)... وهو تقليد كنا

قد شاهدناه في إسبانيا، **أنا وبركة**، منذ اثنى عشر عاماً... كان كل حجر، وكل ركن في القلعة يفوح بعبق التاريخ الأندلسي... وكان القائمون على هذا البيت السياحي حريصين على الإبقاء على طابعه الأندلسي، وفخورين بتاريخه، وينوّهون بذلك في كل مطبوعاتهم ومُلصقاتهم الدعائية عن البيت... لذلك كان وجود عرب بينهم لأول مرة ـ منذ خرج العرب من الأندلس في ١٤٩٢ ـ سببا لتحاول إدارة الفندق وبلدية المدينة أن تحتفي بنا خير احتفاء... ومن ذلك أنهم عرفوا أن إقامتنا عندهم تتزامن في آخر يومين مع أول أيام عيد الأضحى المُبارك... وأن المسلمين ينحرون، ويأكلون لحم الخراف في هذه المُناسبة، بعد أداء صلاة العيد... فأعدّوا مكاناً في أحد أركان القلعة كان يُستخدم "مصلية" لجنود القلعة في القرون الخوالي... لتؤدي فيه صلاة العيد... وبالفعل استيقظنا مُبكراً... وذهبنا إلى المصلية وكبّرنا... وأمنا **د.حسن حنفي** في الصلاة... ثم وقف فينا خطيباً... حيث دارت خُطبته العصماء على معنى أن **وجودنا في هذا المكان الذي بناه أجدادنا المسلمون... ليس، وما كان له أن يكون محض صدفة**... وأن تزامنه مع ثورة **إسلامية مجيدة في إيران**... ليس، وما كان له أن يكون محض صدفة أيضا... وأن تزامن وجودنا هنا مع **صحوة إسلامية** تعم عالمنا الإسلامي ليس محض صدفة كذلك... وأن تزامن وجودنا هنا في هذا المكان، وهو أقصى ما وصله أجدادنا الفاتحون العظام، وفي **مطلع قرن هجري جديد**، ليس وما كان له أن يكون محض صدفة... **إنه موعدنا مع التاريخ... موعدنا مع المجد والخلود... إن جدران هذه القلعة تنادينا أن نهب... فهل نلبي النداء... وهل نكون نحن طلائع فتح جديد...؟**

انخراط "**أبو علي**" (كما كنا نطلق عليه) في دور الإمام الفاتح... أو **عبد الرحمن الداخل**... حتى خُيّل إلينا ونحن ننصت إليه، وهو في قمة اندماجه، وكأن سنابك الخيل، وصليل السيوف، وزحف الجيوش الإسلامية على القلعة قد أصبح قاب قوسين أو أدنى... كان **أبو علي** في أقوى أدواره على الشاشة!.

بعد أن فرغنا من كل طقوس صلاة عيد الأضحى... إلى باحة القلعة، حيث الزينات التي نُصبت، والموائد قد أعدت... وعليها ثلاثة خراف مشوية، وما لذ وطاب من أنواع الطعام "والشراب" الأخرى... أرسلنا لزملائنا غير المسلمين، وكانوا عشرة من الولايات المتحدة ونيجيريا والمكسيك، ليلحقوا بنا في هذه الوليمة العامرة، التي كانت تكفي مئة... بينما عددنا بزوجاتنا لا يتجاوز ثلاثين... مع ذلك صادفتنا مُشكلة **بروتوكولية**... فقد أتى مُدير البيت السياحي ليهنئنا بالعيد وخلفه عربة مطعم مُتحركة يدفعها أحد العاملين في الفندق وعليها صينية كبيرة، عليها **اثنى عشر زجاجة شامبانيا**... فتحها النادل وصب عدداً من الكؤوس،

وتقدم بها نحونا، وأخذ المُدير أولها، ورفعها في الهواء استعداداً لشرب نخبنا في عيدنا... وللحظة سادنا ذهول... فقد **خرجنا لتونا من الصلاة**، وقد شحننا **حسن حنفي (أبو علي)** بشحنات إيمانية، لا يجوز تدنيسها، بمُعاقرة الخمر... ولاحظ **أبو علي** ترددنا، فتقدم الصفوف، وأخذ كأساً، ولامس به كأس المُدير، وقال بفرنسيته الفصحى (Ala Voter) في صحتك... وتبعنا "الإمام الفاتح، **عبد الرحمن الداخل، وحسن حنفي**..."

كان المشهد سيريالياً في كثير من الوجوه... فقد اختلطت فيه الأوهام، بالخيال، بالتاريخ، بالحاضر، بالفنتازيا، التي تحلل ما حرمه الله في لحظات... ولكنه كان يوماً جميلاً لا يُنسى.

قضيت **أنا وبركة** يومين إضافيين في لشبونة... وكان زميلان آخران قد صحبا زوجتيهما أيضاً، وهما **جودة** وزوجته **كريمة كريم** وهي أيضاً أستاذة اقتصاد، وكذلك **د.إبراهيم عيسوي** وزوجته أستاذة الاقتصاد **د.مُحيا زيتون**... فكنا نقوم ببعض الأنشطة سوياً... وبعضها الآخر وحدنا... وكان ذلك مُمتعاً... وكانت هذه الرحلة كغيرها، التي صاحبتني فيها زوجتي **بركة**... كنا نعيد اكتشاف بعضنا البعض... وكان يتأكد لي، رغم كل المُغامرات الرومانسية العارضة، أن **بركة هي الزوجة والصديقة والحبيبة والعشيقة، التي أسعد بصحبتها ودون ملل**...

وفاة شقيقتي الكُبرى

كان من أحداث الربع الأول من عام ١٩٨٣، رحيل شقيقتي الكُبرى **روحية**، عن عُمر لم يتجاوز الرابعة والستين... وفضلاً عن حزني عليها كشقيقة... فقد أشفقت على كل من تركتهم ورائها من أحبائها... وكان مؤلماً بوجه خاص حزن أمي، التي كانت في مطلع الثمانينات، وتردد ليتها كانت هي **(أمي)** التي فارقت الحياة، بدل ابنتها، التي تركت ورائها زوجها وتسعة من الأبناء والبنات... كان أصغرهم ما يزال في المرحلة الثانوية **(محمد)** ...

انتابتني مشاعر عديدة... منها إحساسي ببعض الذنب نحو شقيقتي الراحلة، التي لم يتسع وقتي، أو هكذا حدث، لرؤيتها أكثر، والحديث معها لفترات أطول... كان هذا الوقت يتسع لكثيرين من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومن كل الأعمار... وفي طريقي إلى جنازتها في المنصورة... أدركت كيف أصبحت عائلتي الأصيلة المُمتدة أكثر هامشية في حياتي، رغم كل حُبي لأفرادها... فيالها من مُفارقة كلما نشطت من أجل الوطن المصري والأمة العربية، كلما زادت هامشية أقربائي، وكلما زادت صلاتي بأمثال **د.حسيب**،

والأمير **الحسن**، والأميرة **سعاد الصباح**، **والسيد يس**، و**علي الدين هلال**، **ونعمت جنينة**، **والطاهر لبيب**، **ومحمد عابد الجابري**، كلما ضعفت "صلة الدم"!

انتابني شعور آخر حول الظلم الذي يقع على نسائنا... كانت شقيقتي الكُبرى **روحية**، من أول البنات في قريتنا اللئي التحقن بمدرسة القرية في الثلاثينات... وتعلمت القراءة والكتابة والحساب في المدرسة الإلزامية... ويقال أنها كانت أشطر تلاميذ المدرسة، أولاداً وبناتاً، وكانت أجمل بنات القرية مما دفع أخي الأكبر **إبراهيم** الذي كان يكبرها بثلاث سنوات فقط... أن يسر لأبيه على ألا تتجاوز شقيقته المرحلة الإلزامية، رغم استعدادها ورغبتها في مواصلة تعليمها... وظلت في نفسها غصة، تجاه شقيقها بسبب ذلك إلى نهاية حياتها... ولكنها كانت وديعة هادئة، نادراً ما رأيتها غاضبة في طفولتي... تذكرت كيف تمت خطبتها لأحد أصدقاء شقيقي الأكبر **إبراهيم**... وكان ابن عمدة قرية مُجاورة لقريتنا... وكيف حرّك ذلك صراعاً بين شباب القريتين، انتهى بفسخ الخطوبة الأولى، وخطبتها **لأحمد السيد البيلي**، ابن عمدة قريتنا، وزواجهما وهي في السادسة عشرة... وربما كان عُرسها، هو أول ذكريات طفولتي... كان زوجها **أحمد** في صراع مُستمر مع شقيقي الأكبر **إبراهيم**، ومع كل أبناء جيله من أعيان القرية... كان يكبر **إبراهيم** بحوالي ست سنوات ولكن لأنه ظل في التعليم سنوات أطول، قبل أن يضطر كل الأعيان إلى التوقف عن إرسال ابنائهم للمدارس الثانوية والعالية في المنصورة والقاهرة بسبب "**الكساد الأعظم**" في الثلاثينات من القرن العشرين... ولم يستطع والدي أن يُبقي شقيقه **عبد الوهاب** (أي عمي) وابنه **إبراهيم** (شقيقي الأكبر) في التعليم بالمنصورة، فقرر إخراج **إبراهيم** وإعادته إلى القرية، وبقاء **عبد الوهاب**، الذي أكمل تعليمه، إلى أن أصبح **مُهندساً مرموقاً**... وهنا تختلف الروايات التي يحيكها كل من شقيقي **إبراهيم**، وزوج أختي **أحمد البيلي**، وعمي **عبد الوهاب** عن الأسباب الحقيقية لقرار والدي بتفضيل إبقاء الأخ وليس الابن في التعليم... رواية **أحمد السيد البيلي** هو أن عمي كان هو الأشطر... ورواية شقيقي هو أن والدي ظلمه من أجل العم **عبد الوهاب**... بينما كان هذا الأخير يبتسم دون أن يُدلي بروايته... ولكنها نموذج لحدوتة مصرية ـ قروية، ظلت تتردد لسنوات طويلة... دون حسم... ولم يكن مطلوباً حسمها... فقد كانت مُفيدة في استدعائها حينما تشتد المُنافسات والصراعات...

عانت شقيقتي كثيراً من هذه الصراعات، التي كان أطرافها يطلبون من الجميع أن يأخذوا موقفاً، طبعاً لصالحهم... وطالما ظلت شقيقتي لا تدخل منزلنا لسنوات... كانت حكيمة من حيث بقائها مع زوجها وأطفالها منه... وطالما كان

شقيقي الأكبر بالمُقابل يحرّم علينا زيارتها في بيت مُنافسه اللدود... وكانت والدتي أيضاً تعاني من هذا التمزق بين ابنتها الكُبرى وزوجها من ناحية، وابنها الأكبر من ناحية ثانية... وكثيراً ما كنت أنا أتسلل لزيارة شقيقتي **روحية**، رغم الحظر المفروض بواسطة شقيقي... وكان يُساعدني في ذلك أن منزلها، أو بالأحرى بيت **أحمد السيد البيلي** زوجها، كان في الطرف الآخر للقرية.

ظل شعور الحب والدفء بيني وبين شقيقتي الراحلة قائماً إلى نهاية عُمرها... حتى وأنا في الخارج، وبسبب تضخم عمود أفراد أسرتها (تسعة من الأولاد والبنات)... وإسراف زوجها، وتبديده لمعظم ما ورثه عن أبيه العمدة من أطيان... فإنني كنت أرسل لها دعماً مالياً شهرياً، بطريقة غير مُباشرة، لا تهدر ماء الوجه...

كانت هذه الخواطر والذكريات تتدافع في رأسي، وأنا في الجنازة الهائلة... التي كشفت حب الناس لها... ولم أنس رغم المشهد الحزين أن أتأمل المُنحنى الديموغرافي لأشقائي وشقيقاتي... كان **لروحية** الأكبر تسعة، و**لشفيقة** التي تليها سبعة، و**لآمال** أصغر الشقيقات أربعة... وكان المسح الإنجابي لشقيقاتي يحكي التاريخ السكّاني لمصر في الستين سنة الأخيرة من القرن العشرين. ولم يختلف الوضع كثيراً بالنسبة للأشقاء... فقد أنجب أكبرهم ـ **إبراهيم** ـ ستة، و**حامد** الذي يليه في الترتيب ثلاثة، ثم أنا اثنين، وكذلك أصغر الأشقاء، **أحمد**، اثنين... ولم يكن الفارق الإنجابي جيلياً فقط، ولكنه كان تعليمياً أيضاً... فقد تعلمت شفيقة سنوات أطول، و**آمال** سنوات أطول إلى الجامعة.

يُحمد للراحلة **روحية**، رغم كثرة الأبناء وضيق ذات اليد، أنها كان لها الفضل الأكبر في رعايتهم، بعد الانتقال من قرية بدين إلى المنصورة... وتعليمهم أفضل تعليم ممكن (اثنان من الأطباء، ومُهندسة، وأربعة مُحاسبين). حدوتة مصرية ـ ريفية أخرى جديرة بالتنويه!

ومع كل حُبي ومودتي نحو الشقيقة الراحلة، لا أتذكر أنني تحدثت معها بعد عودتي من الولايات المتحدة أي حديث مُمتد، تجاوز دقائق... لم أبذل ما يكفي من جهد لاستدراجها في الحديث لمعرفة مكنونات نفسها... رغم أنني كنت ماهراً في ذلك مع كل خلق الله الآخرين!

بين حسيب والحسن وسُعاد

شهدت شهور ربيع وصيف وخريف ١٩٨٣، زيارات مُتكررة من **حسيب** إلى القاهرة... وكان ذلك مُعتاداً ومُتوقعاً في ضوء **مشروع استشراف المُستقبل العربي**، الذي كنت أقوم بتنسيقه لحساب مركز دراسات الوحدة العربية والصندوق

الكويتي للتنمية الاقتصادية ـ الاجتماعية... وفي ضوء الحوار المُتصل منذ شهور، حول تأسيس حركة عربية لحقوق الإنسان، والتي كان الأستاذ **فتحي رضوان** طرفاً فيها.

شهدت نفس الشهور دعوات مُتكررة من الأمير **الحسن بن طلال** ولي عهد الأردن للمُشاركة في أنشطة فكرية، عربية وإسلامية ودولية... وبدأ مساعدوه يطلبون مني المساعدة في أوراق عمل أو خطابات يُلقيها الأمير في هذه المُناسبات... وكانت العلاقة الشخصية تتوطد بيني وبينه مع كل زيارة أو لقاء... وبدأت أشعر فعلاً بمدى اعتماد هذا الأمير المُثقف عليّ، كمُحاور ومُستشار فكر، وصديق. وأدركت ربما لأول مرة، كيف يمكن لشخص مثله أن يشعر بالوحدة، لغياب علاقات صداقة تنطوي على النديّة والاستقلال... فرغم تزاحم الناس حوله، إلا أنهم كانوا "رعاياه" أو رعايا شقيقه، ملك الأردن، وكان من الصعب، إن لم يكن مُستحيلاً، عليهم وعليه أن ينسوا أو يتناسوا طبيعة العلاقة، رغم أن بعض هؤلاء المُثقفين الأردنيين لم يكونوا أقل مني معرفة وعلماً أو قدرة على الحوار... وفي كل مرة ذهبت فيها إلى عمان، كان الأمير يُجدد عرضه عليّ بأن أتولى شؤون مُنتدى الفكر العربي... واكرر أنا اعتذاري... وأرشح له آخرين ـ ومنهم بالترتيب: **د.لبيب شقير**، الذي تحمس في البداية، ثم فضل عرضاً آخر من **صندوق النقد العربي في أبو ظبي**... ثم رشحت **د.سمير أمين**، الماركسي المصري والاقتصادي المرموق الذي كان يعيش بين باريس ودكار، وكان قد عبّر عن رغبته في العودة بعد عقدين في المهجر إلى مصر أو أحد البُلدان العربية القريبة منها ولكن الأمير وأعضاء المُنتدى الذين التقوا به، وجدوا **لغته العربية ركيكة**، رغم إعجابهم بفكره حينما يُعبّر عنه بالفرنسية أو الإنجليزية... وكان الأمير **الحسن** ما زال مُصراً على أن يكون الأمين العام للمُنتدى **مصرياً**، لكي يستقطب الاهتمام المصري والمُثقفين المصريين... فقد كان إحساسه الصادق أنه بدون مكان بارز لمصر والمصريين في المنتدى ـ على الأقل في المرحلة الأولى... فإنه لن ينطلق، كما يتمنى هو... وكان في نفس الوقت يُتابع أخبار "**مُنتدى الفكر الديمقراطي**"، الذي حاولنا تأسيسه بعد اغتيال الرئيس **السادات**... وكنت ألمح في عيون الأمير **رضا** (أو ربما شماتة) كلما نقلت إليه أخبار ما نواجهه من صعوبات مع السلطات المصرية... واقترح عليّ أن تنتقل مُبادرتنا إلى عمان ... ووعدته أن أستبين رأي زملائي... وتم ذلك فعلاً... فتحمس البعض، ولكن الأغلبية رأت أنه لا ينبغي أن نيأس من تأسيس المُنتدى الديمقراطي في مصر بعد... ولكنهم وافقوا على تجربة بعض الأنشطة المُشتركة في البداية.

الذي كان جديراً في هذه الفترة، هو تكرار زيارات **د.سعاد الصباح**، إلى القاهرة، وحرصها على اللقاء بي، وبأسرتي... ثم بدأت تحضر أفراد أسرتها، ما عدا زوجها الشيخ **عبد الله المُبارك الصباح** وتعارف أطفالنا وأطفالها... وكانت تغدق على أسرتي بالهدايا. وعرفت أنها تقرض الشعر... وأن عاملاً من عوامل الإعزاز والإكبار الذي كانت تحمله نحوي يرجع إلى مقال مُبكر نشرته في مقالي الأسبوعي في الجمهورية في مطلع عام ١٩٨٢، دفاعاً عن الشاعر **نزار قباني**، الذي كان يُريد الاستقرار في مصر، وكانت زوبعة في الصحافة المصرية قادها الكاتب الصحفي الكبير **أنيس منصور** ضده لموقفه من كامب دافيد والسادات. وكانت مقالتي في الواقع رداً على مقال **لأنيس منصور** بعنوان **"لا مكان لك في القاهرة يا شاعر اليهود"**... وكانت فكرة مقالي هي **"أن لكل عربي وطنان... وطنه الأصلي، ومصر كوطن ثان... وبالتالي فإنني كمصري عربي أرحب بالشاعر السوري العربي في مصر"**... واتضح لي أن الشيخة **سعاد** كانت من أشد المُعجبات بنزار كشخص وكشاعر، وخاصة **منذ اغتيال زوجته في انفجار السفارة العراقية ببيروت** منذ سنوات قليلة... كان للشيخة **سعاد** أصدقاء وزميلات عديدين في القاهرة... وقد عرّفتني بعدد منهن في هذه الأثناء وبدأت أشعر نحوها ببعض ما شعرت به نحو الأمير **الحسن** وهو أنهم يفتقدون إلى صداقات عميقة حقيقية، دون خوف من سلطتها، أو طمعاً في جاهها أو ثروتها... وكنت أدرك أن استقلاليتي وفكري غير التقليدي هو سبب انجذابهما نحوي.

المُشكلة التي بدأت تظهر بدورها منذ ربيع ١٩٨٣، هي التنافس أو الغيرة الخفية بين **حسيب والحسن وسعاد**، على وقتي أو صداقتي أو ولائي لكل منهم، وخاصة بين **حسيب والحسن**، وبدرجة أقل بين **سعاد والحسن**... وقد تظاهرت لمدة أن مثل هذه المشاعر والنزاعات غير موجودة... إلى أن بدأت تفصح عن نفسها، مُداعبة في البداية، ثم بشكل صريح بعد ذلك... ولم يكن أمامي من بديل لتبديد هذا التوتر المُتزايد إلا بالتفكير في أنشطة ومُبادرات أشرك ثلاثتهم فيها ... من ذلك أني اقترحت على الأمير **الحسن** أن يدعو **حسيب وسعاد** لعضوية مُنتدى الفكر العربي. وهو ما حدث.

اقترحت على **حسيب والحسن** أن يتبنيا ندوة مُشتركة عن مُستقبل **العلاقات العربية - الإفريقية**.

وقد تم ذلك فعلاً... وبدّد التوتر إلى حين.

الرجال والنساء في الحمامات

قبل أن ينتهي ربيع ١٩٨٣، كان زملاؤنا في الولايات المتحدة قد نجحوا في توفير تبرع من أحد رجال الأعمال الفلسطينيين، وهو السيد/**عبد المحسن القطان**، لتمويل لقاء لمُفكرين ومُمارسين عرب للقاء كعصف ذهني (Bnain – Storming) حول الإجابة على السؤال **"ما العمل"؟ بعدما حدث في لبنان خلال عام ١٩٨٢**... وكانت المُشكلة هي كيفية ومكان هذا اللقاء... وهدانا التفكير إلى الاعتماد على زميلنا **الطاهر لبيب** في تونس، دون لفت الانتباه الإعلامي أو الحكومي العربي، حتى لا يتم إجهاض ما نحاوله.

ولأننا كنا في أحاديث مُتصلة مع الأستاذ **فتحي رضوان**، مُنذ **مُظاهرة الأزهر**، في مُنتصف يونيو ١٩٨٢، فقد كانت أفكاراً كثيرة قد تبلورت في ذهني، أيدها **د.حسيب**، و**د.سعاد**، وأ. **فتحي رضوان**... واتفقنا على حوالي ثلاثين اسماً للمُشاركة في لقاء تونسي... حصلوا جميعاً على "تأشيرات سياحية"... والتأم الجمع في **مُنتجع الحمامات** التونسي. كان المصريون المُشاركون من مصر إلى جانبي هم الأستاذ **فتحي رضوان**، وكل من **علي الدين هلال**، و**السيد يس**، و**د.نوال السعداوي** و**د.عفاف محفوظ**... وكان هناك مُشاركون من فلسطين ولبنان والعراق وتونس والمغرب والكويت... وشارك من الولايات المتحدة **د.هشام شرابي** و**د.حليم بركات**، و**د.إبراهيم الإبراهيم**.

وتداولنا بصراحة، والمشهد العربي، بلا مُزايدات، أو عنتريات في اليوم الأول، ثم تقدمت أنا بورقة عمل في اليوم الثاني... تمت مُناقشتها باستفاضة... والخروج منها ببعض المُقترحات القابلة للتنفيذ، في حدود إمكانياتنا كمُثقفين ومُمثلي **مُنظمات عربية غير حكومية**، وفي هذه الورقة تحدثت لأول مرة عن مفهوم **"المجتمع المدني"** وأنه **"الفريضة الغائبة"** لبعث الحيوية في الشارع العربي، واحتراق الأنظمة الاستبدادية العربية، التي تأملت شرعيتها منذ هزيمة ١٩٦٧، وتحدث آخرون عن **"أزمة الديمقراطية"** في الوطن العربي، وأهمية العودة إلى **أبجديات العمل العام** للخروج من هذه الأزمة، والالتحاق بمصاف **الثورة الديمقراطية الجديدة**، التي كانت تجتاح جنوب أوربا (أسبانيا، البرتغال، اليونان) وأمريكا اللاتينية (البرازيل وشيلي والأرجنتين) وشرق آسيا (كوريا الجنوبية والفلبين وتايلاند وماليزيا)...

ومع اليوم الثالث تبلور برنامج عمل ينطوي على **الدعوة لمحفل عربي أكبر لتدشين حركة عربية لحقوق الإنسان**، على غرار **منظمة العفو الدولية**... وأن نُمهد لهذا المحفل **بمؤتمر كبير لمُناقشة أزمة الديمقراطية في الوطن العربي**...

وعلى هامش هذين النشاطين، **نُبادر بتأسيس بعض مُنظمات مهنية للمجتمع المدني**... ولاقت هذه الأفكار استحساناً من أغلبية المُشاركين. وتكونت لجنة لصياغة بيان عام عن مُداولات مُلتقى الحمامات يكون ضمن أوراق الدعوة لمؤتمر الديمقراطية وحقوق الإنسان... وقامت لجنة صغيرة، كنت أنا و**نوال السعداوي** ضمنها، لصياغة البيان الختامي... وكان البيان يبدأ بعبارة "**نحن المُثقفين العرب المُجتمعون في الحمامات**..." ولكن **نوال السعداوي** كانت تصرّ على النص الصريح على وجود "**النساء**" في كل إشارة إلى ضمير المتحدث الذكوري... وفي الجلسة الختامية حيث قرأت مسودة البيان، كانت هذه هي المُلاحظات الاعتراضية الوحيدة للأستاذ **فتحي رضوان**، حيث قال "أنا لا اعتراض لي على مضمون البيان بالمرة، ولكن فقط على نون النسوة المُتكررة من قبيل نحن الرجال والنساء، والمُثقفين والمُثقفات، والمُفكرين والمُفكرات، والمواطنين والمواطنات، العرب والعربيات... وحتى هذا لا اعتراض لي عليه من حيث المبدأ... إلا بسبب تكرار أننا فعلنا كل ذلك في الحمام أو "الحمامات" وضجت القاعة بالضحك، لأن هذه المُلاحظة جاءت من شيخنا، وأكبرنا سناً، ووقاراً"... وكان لخوفه ما يُبرره، حيث لا يعلم القارئ العربي العادي أن "**الحمامات**" في الواقع اسم مدينة، وليس مُرتبطاً بدورات مياه! فكان علينا أن نضيف "بلدة" أو "مدينة" كلما ذكرنا "الحمامات".

انتخبني المُجتمعون والمُجتمعات في بلدة الحمامات، رئيسا للجنة التحضيرية لمؤتمرات الديمقراطية وحقوق الإنسان... وكان على هذه اللجنة أن تقرر أسماء المدعوين، ومكان وزمان الاجتماعين، وتدبير نفقاتهما، وتحديد جدولي أعمالها... وكان معي في اللجنة التحضيرية **الطاهر لبيب** (تونس) و**غسان سلامة** (لبنان) و**خلدون النقيب** (الكويت)، و**خير الدين حسيب** (العراق). وخفضاً للنفقات، ولسرعة الإنجاز، طلبت من اللجنة أن تمد إقامتها يومان في بلدة الحمامات، لكي نُخطط لما اتفقنا على تنفيذه.

وقمنا بذلك فعلاً... وقسّمنا العمل... واتفقنا على اجتماعي مُتابعة في القاهرة في مايو... وديسمبر ١٩٨٣، على أن يكون الاجتماعين في أكتوبر ونوفمبر، أو ديسمبر.

كانت هناك حكمة في تكوين اللجنة التحضيرية بالشكل الذي تكوّنت به... فمن ناحية كان أعضاؤها، قد عملوا معاً في عدة مشروعات سابقة... وتعاونوا جميعاً مع مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت والقاهرة... وكان مُعظمهم مُشاركاً في مشروع استشراف المُستقبل العربي... أي أنهم كانوا يأتون إلى القاهرة دورياً لاجتماعات المشروع، وبالتالي سيكون هناك توفير في نفقات السفر

والإقامة... وكنت مع د.**خير الدين حسيب** قد تمرسنا على ضغط مشروعات الأنشطة المُختلفة بطرق مُبتكرة، وإن كانت مُرهقة للمُشاركين فيها إلى حد كبير... ولكنهم نادراً ما كانوا يشتكون من تنظيم أكثر من نشاط بشكل مُتتالي، في نفس المكان.

كذلك كنا نراعي دائماً سواء في الأنشطة البحثية أو الحركية أن تكون كل مناطق الوطن العربي الرئيسية مُمثلة: المغرب، وادي النيل، المشرق، والخليج. وكان مطلوباً من كل عضو في اللجنة التحضيرية أن يستمزج أقطار منطقته، أو بمعنى أدق الجهات الأمنية في كل منها على مبدأ أو فكرة عقد المؤتمر في عاصمته ... كذلك كان مطلوباً من كل عضو أن يُرشح مُشاركين آخرين من أقطار منطقته للمؤتمرين. أما الدكتور **حسيب** فقد عهد إليه توفير الأموال اللازمة لتمويل المؤتمرين...

الطريق إلى ليماسول
من أجل منظمة عربية لحقوق الإنسان

حينما اجتمعت اللجنة التحضيرية لمؤتمري الديمقراطية وحقوق الإنسان، في مايو بالقاهرة، كان أعضاؤها قد استمزجوا الجهات الأمنية في أقطار مقاطعتهم لعقد اللقاءين... وفي **لحظة تاريخية نادرة من لحظات الإجماع الرسمي العربي، جاءت نفس الإجابة من كل العواصم التي تم الاتصال بمسؤوليها الأمنيين، وهي الرفض القاطع**. لذلك ذهب الجزء الأكبر من الاجتماع في البحث عن بدائل... كان واضحاً أن كلمات مثل **الديمقراطية وحقوق الإنسان** كانت تُخيف الحُكّام العرب، وأجهزتهم الأمنية في مطلع الثمانينات، وربما إلى سنوات كثيرة تالية.

وكانت البدائل هي مواصلة السعي للحصول على موافقة إحدى الحكومات العربية، حتى إذا كان ذلك ينطوي على تأجيل ما نبتغيه. وكان البديل الثاني هو **صرف النظر عن الفكرة كلية**، وإرسال رسالة إلى الموقعين على بيان الحمامات بهذا المعنى. وكان البديل الثالث هو **عقد المؤتمرين سراً** ، أو بلا إعلان، كما تم في لقاء الحمامات وكان البديل الرابع هو **عقد المؤتمرين خارج الوطن العربي**... وتعرض كل بديل للتفصيل والتمحيص... لم يحظ بديلا الإلغاء أو التأجيل بأغلبية تذكر في اللجنة الخماسية. وظل بديلا، الاجتماع بشكل سري أو شبه سري، وعقد المؤتمرين **خارج الوطن العربي** هما المطروحان للنقاش... وانتهينا إلى التخلص من بديل "**المؤتمر السري**" على اعتبار الصعوبة العملية في إبقاء مؤثر يُشارك فيها ـ كما كان مُستهدفاً ـ **مائتي شخص سراً** مكتوماً عن

الإعلام فضلاً عن حكومة عربية. ثم أن السرية، حتى إن كانت مُمكنة، **تقوض الهدف من المُبادرتين وهو بدء نشاط أو حركة جماهيرية لتغيير الأوضاع القائمة، وهو ما يستلزم العلنية، خاصة ما دمنا نستخدم وسائل سلمية التغيير والتطوير**... وهكذا ظل بديل عقد المؤتمرين العربيين في **أرض غير عربية**، هو البديل المقبول نظرياً، رغم صعوباته العملية وتكلفته المادية.

واتضح أن هذه الصعوبة الأخيرة ـ أي التكلفة المادية ـ ليست حقيقية. فالبدائل التي طُرحت خارج الوطن العربي كانت قبرص، ورودس، ومالطا، وأثينا... وتم تكليف أحد المكاتب السياحية بعمل **دراسة جدوى** سريعة عن تكاليف السفر والإقامة من مصر إلى أي من الأماكن الأربعة... وجاءت الإجابة: قبرص. ثم حاولنا تدريب مُحاكاة (simulation) ـ بافتراض أن عشرة سيأتون من كل بلد عربي من المغرب إلى العراق... واتضح أن قبرص (مطار لأرنكا في الجانب اليوناني من قبرص) هو النقطة المُثلى بالنسبة لسبعين في المئة من المشاركين من إقليمين، هما وادي النيل والمشرق... بينما تكون التكاليف أعلى في كل الأحوال للمُشاركين من الأقطار الطرفية ـ مثل المغرب والعراق واليمن.

تبقّى إعداد أجندة المؤتمرين، وحصر الأسماء التي ستُدعى، وتحديد التواريخ، وتوفير المال، والاتصال بالسُلطات القبرصية، والفنادق... وترك **د.حسيب** لأعضاء اللجنة مهام إعداد الأجندة... والشروط المرجعية لأوراق العمل، وترشيح من سيُعدون الأوراق، ومن سيعقبون عليها... وتطوّع بأن يتولى هو ومكتبه في بيروت كل الترتيبات الإدارية (اللوجيستية) ؟ وكذلك توفير الميزانية... وحينما سألناه عن مصدر التمويل أفادنا بأن "**سعد وسعاد** سيتكفلان بذلك".

أزمة الديمقراطية في الوطن العربي

كان مفهوم تعظيم "الطاقة التأليفية" (Synergy) جديداً على المُمارسات المهنية والتنظيمية العربية، وكان يعني الاستفادة القصوى من مجهود رئيسي واحد، وتدور في فلكه جهود فرعية تحدث نفس أثر أو نتاج المجهود الرئيسي... وهذا بالضبط ما حاولته، ولاقى هوى لدى **د.حسيب** دائماً، حيث كان الرجل بالسليقة "**حيواناً اقتصادياً**" يهدف كل الوقت إلى تقليص التكلفة وتعظيم العائد... لذلك فإنني في تخطيط أجندتي المؤتمرين واختيار المُشاركين ومُعدي الأوراق، راعيت ذلك، فإلى جانب "حقوق الإنسان"، كان هناك المسألة اللصيقة بها، وهي الديمقراطية.

من ذلك الاستفادة القصوى من حوالي مئة خبير ومُفكر من المُشاركين في **مشروع استشراف المستقبل العربي**، من **عشرة بُلدان عربية**... فقد كان هؤلاء هم **العمود الفقري** أو حربة الهجوم في قبرص، يُضاف إليهم خمسون آخرون من الذين **شاركوا في مسح اتجاهات الرأي العام العربي منذ سنتين سابقتين**... كان هؤلاء المئة والخمسين هم المُرشحون للمُشاركة في النشاطين، إلى جانب عدد مماثل ممن لم تكن لهم هذه الخبرات بالضرورة، ولكن خبرات وتجارب أخرى لا تقل أهمية، وخاصة **ممن مارسوا السياسة العملية** على امتداد الخمسين سنة السابقة... وفي ضوء تجاربنا السابقة كان ينتهي ثلثي المدعوين إلى تلبية الدعوة والحضور فعلاً... لذلك كان ترشيح ودعوة **ثلاثمئة** هو بدء تحقيق المُشاركة الفعلية **للمائتين** الذين سيتولون الحد الأدنى **للكُتلة الحرجة**، التي تعطي الحركة المُستهدفة مصداقيتها وقوة دفعها ـ خاصة إذا كانوا **يُمثلون أقطار الأمة من المُحيط إلى الخليج، وثلاثة من أجيالها على الأقل**، ويُمثلون **كل الأيديولوجيات والاتجاهات السياسية الرئيسية**.

وهذا ما تحقق بالفعل إلى حد كبير — كان هناك مُشاركون من المغرب (**عابد الجابري**، و**محمد القباح**، و**علي أومليل**) ومن العراق (**حسيب، وحسين جميل، ووليد خدوري، ووفيق نظمي**). وكان هناك من تجاوزوا السبعين (**فتحي رضوان وحسين جميل**). وكان هناك ناصريون (**محمد فايق وأمين هويدي**)، ووفديون (المُحامي **محمد علوان**) وساداتيون (**منصور حسن**) وماركسيون (**إسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي**) وإخوان مسلمون (**عادل عيد وأحمد صدقي الدجاني**)، وبعثيون (**جمال الشاعر، حمد الفرحان، وليد خدوري**)، وكان هناك رموز للحركة النسائية العربية من المغرب (**فاطمة الجامعي الحبالي**)، ومصر (**نوال السعداوي وعفاف محفوظ**)، ولبنان (**ليلى شرف**) والخليج (**سُعاد الصبّاح**)... وهكذا كان الجمع يُمثل أفضل ما يمكن تجميعهم من رجال ونساء الأمة العربية.

ثم جاءت أوراق مؤتمر "**أزمة الديمقراطية في الوطن العربي**"، كانت الورقة الأولى لأحد أضلاع الثلاثي، وهو **علي الدين هلال** عن "**مفاهيم الديمقراطية وتجلياتها المُعاصرة**"، وأهم ما يوجّه لها من نقد في البلدان ذات الديمقراطيات الراسخة. وكانت الورقة الثانية مُباشرة هي ورقتي، ودخلت مُباشرة في صُلب موضوع المؤتمر، حيث كانت بعنوان "**مصادر الشرعية في أنظمة الحكم العربية**"... وكان أهم ما فيها هي جزءها الأخير، الذي تحدث عن تآكل شرعية بعض – إن لم يكن كل – أنظمة الحكم العربية، بصرف النظر كيف بدأت هذه الشرعية أصلاً (وراثية ملكية، أو ثورية جمهورية)... وكيف تواجه هذه الأنظمة

أزمة شرعيتها **إما بمزيد من القهر والاستبداد الداخلي، أو بالمُغامرات والحروب الخارجية.** وقد فجرت الورقة نقاشاً مُثيراً، اضطرت معه أمانة المؤتمر أن تطيل الجلسة ساعة كاملة... أثارت الورقة مواضيع كثيرة، حيث عانى معظم المُشاركين بشكل أو بآخر من قهر واستبداد أنظمة بلدانهم... أو حيث كانت مُغامرات بعض هذه الأنظمة قائمة صارخة بالفعل ضد جيرانها. **العراق يحارب إيران**، سوريا متورطة في صراع الأهلي بلبنان. والجزائر والمغرب حول الصحراء، ونظام سياد برى الصومالي مُتورط في صراع الأوجادين مع أثيوبيا... وكانت خلاصتي هي أن "**الديمقراطية هي الحل**".

وتتألق أوراق الندوة، بنفس القوة والإثارة، وبدون اتفاق مُسبق... كانت الخلاصات كلها تصل إلى نفس المصب، وهو أن أزمة الوطن العربي هي في غياب الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وقد جُمعت أوراق هذا المؤتمر في مُجلد هام وضخم، قمت أنا بتحريره.

وقد مهد كل ذلك لأعمال المؤتمر الثاني، الذي كان مؤتمراً تأسيسياً لمنظمة حقوق إنسان عربية، والذي عُقد في **نفس الفندق في نفس المدينة** (ليماسول - قبرص)، **في اليوم الأخير من نوفمبر، واليوم الأول من ديسمبر ١٩٨٣.**

المُنظمة العربية لحقوق الإنسان

كانت اللجنة التحضيرية قد أعدت مسودة نظام أساسي لمنظمة عربية لحقوق الإنسان. وهي ديباجة هذا النظام الأساسي بما آل إليه حال الأمة والإنسان العربي من ذُل وهوان، وهو الأمر الذي مسخ آدميته، واستنزف كرامته، وشوّه عقليته، وقلّص قدرته، وقتل روح المُبادرة والمُقاومة فيه... وفقد الشارع العربي حيويته، التي كانت مضرب الأمثال إلى بداية ستينات القرن العشرين، وقد تجلى عجز الجماهير عن الحركة، أو حتى الصياح والبكاء، في صيف ١٩٨٢، وهي ترى أرض لبنان تُجتاح بواسطة بربرية الغزاة الصهاينة... وترى الأنظمة العربية الحاكمة، التي طالما استأسدت على مواطنيها، تقف عاجزة جبانة تتفرج على حصار، ثم احتلال عاصمة عربية هي بيروت...

نوّهت الديباجة أيضاً إلى **عجز الداعين إلى هذه المُبادرة عن الحصول على تصريح لعقد هذا الاجتماع التأسيسي في أي عاصمة عربية**... وهكذا ضاقت الأرض العربية بأعداد محدودة من أبنائها الغيورين على حقوق الإنسان بها، مما اضطرهم إلى اللجوء إلى أقرب أرض للوطن العربي، وهو جزيرة قبرص.

وتمت **الموافقة على النظام الأساسي**، بعد تعديلات هنا وهناك، **وتم انتخاب مجلس للأمناء من واحد وعشرين شخصاً**... وانتخب الأستاذ **فتحي رضوان** رئيساً للمنظمة الوليدة، وانتخب المهندس **أديب الجادر** (العراق) نائباً للرئيس، وانتخبت أنا (سعد الدين إبراهيم) **أميناً عاماً للمنظمة العربية لحقوق الإنسان**. وضم مجلس الأمناء كل من: **فاروق أبو عيسى**، أمين عام اتحاد المُحامين العرب (السودان)، **وسعاد الصباح وحسن الإبراهيم** (الكويت) و**محمد فايق** (مصر).

جمعيات عربية جديدة بذور لمجتمع مدني وليد

وعلى هامش مؤتمري "**أزمة الديمقراطية**" أو "**حقوق الإنسان**"، عُقدت اجتماعات جانبية **للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية**... كنت قد نوّهت لزملائنا بالاستعداد لها قبل الوصول إلى قبرص... وتم بالفعل تكوين لجان تحضيرية **لثلاث جمعيات عربية لعلم الاجتماع**، واختير الزميل **الطاهر لبيب**، أميناً عام لها. ولجمعية عربية **للعلوم السياسية**، اختير **علي الدين هلال**، أميناً عاماً لها، ولجمعية عربية **للاقتصاد**، اختير **د.إسماعيل صبري عبد الله** أميناً عاماً لها.

وكانت هذه اللجان التحضيرية مؤقتة، لحين الدعوة لمؤتمر تأسيس، يضم ما لا يقل عن مئة من العاملين في مجال نشاط الجمعية، لإقرار نظام أساسي، وانتخاب مجلس أمناء، خلال عام ١٩٨٤. وكان نموذج المنظمة العربية لحقوق الإنسان، هو النمط الذي أوصى بنسج الجمعيات العمومية على منواله. كما أوحينا بأن يكون هناك **تخطيط لندوة فكرية أو علمية مُصاحبة لكل اجتماع تنظيمي لهذه الجمعيات**، وذلك توخياً للجدية، وتعظيم العائد من أي اتفاق على أنشطة هذه الجمعيات، عملاً بمبدأ الطاقة المُركبة (Cynergy).

وهكذا تمخضت اجتماعات ليماسول ــ قبرص عن ولادة أربع منظمات جديدة: منظمة أم لحقوق الإنسان، وثلاث منظمات مهنية في العلوم الاجتماعية... وكنت ود. **خير الدين حسيب** في قمة الرضا لهذا الإنجاز، الذي احتفت به وسائل الإعلام الغربية الحُرة، وبعض وسائل الإعلام الأجنبية. كانت هذه المنظمات الأربعة في أجندتي، هي **بداية ولادة جديدة لمجتمع مدني عربي جديد**.

الاستقبال العدائي من الأنظمة العربية

حين حطت الطائرة بنا نحن المُشاركون المصريون، في مطار القاهرة بعد ظهر يوم ١٩٨٣/١٢/٣، كنت مازلت في قمة نشوتي: فقد استقبلت ورقتي في المؤتمر بإعجاب منقطع النظير، وتم قبول أوراق العمل التنظيمية التي كنت قد

أعددتها أو شاركت في إعدادها لولادة أربع منظمات عربية مُستقلة هي نواة مجتمع مدني عربي جديد، وأعلنت ولادة هذه المنظمة بالفعل ـ منظمة كاملة، والثلاث الأخريات في حضانات مؤقتة. ورغم أن انتخابي أيضاً أميناً عاماً للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، كان تشريفاً بلا حدود، إلا أنه أيضاً حمل معه أعباء ومسؤوليات ومخاطر بلا حدود. ومع ذلك قبلت تحمل هذه الأعباء والمسؤوليات والمخاطر، كتحديات جديدة في مسيرة حياتي... خاصة وأنها تزامنت مع عيد **ميلادي الخامس والأربعين**. والذي كانت **بركة ورانda وأمير** ينتظرونني بالمنزل للاحتفال به.

وكنت شارداً في المسؤوليات والمخاطر الجديدة، وفي مُناسبة عيد ميلادي وفي أسرتي... حين صاح في ضابط الجوازات أن أترك جواز سفري وأنتظر قليلاً... وتكرر نفس الشيء مع بقية المُشاركين المصريين، من غير الوزراء السابقين.

إن الوزراء السابقين الذين ما زالوا يحملون جوازات سفر حمراء ـ وهم **فتحي رضوان**، و**محمد فايق**، و**منصور حسن**، و**إسماعيل صبري عبد الله**، و**فؤاد مرسي**، و**أمين هويدي** ـ فقد سُمح لهم بالمُغادرة فوراً... وانتظرنا نحن، حوالي خمسة عشر مصرياً آخرين عدة ساعات، إلى أن سُمح لنا بمُغادرة المطار إلى منازلنا... سمعت بعد ذلك بمُضايقات مُشابهة لزملاء آخرين من الذين شاركوا في لقاءات ليماسول، حينما عادوا إلى بُلدانهم، جزاء لهم على ما حدث في ليماسول، وهي مُقدماته ومؤخراته المُتوقعة... وربما كان أبشع ردود الأفعال جميعاً هو ما حدث في بغداد... حيث جرت مُحاولة اغتيال السيد/ **حسين جميل** نقيب المُحامين العراقيين، بين المطار والمنزل، وقُتل في المحاولة شقيقه التوأم، الذي استقبله في المطار، وهو المهندس **مهدي جميل**.

وهكذا كان استقبال الأنظمة العربية "للعائدين من قبرص"... مؤشراً ومُقدمة لما سيحدث لي كأمين عام للحركة العربية لحقوق الإنسان... واستدعيت كلمات الصديق **جميل مطر**، الدبلوماسي المصري النابه، الذي ظل يعمل مع أمانة جامعة الدول العربية، بعد انتقالها إلى تونس. فقد لاحظ أن أكثر قطاع عربي يتم فيه التنسيق بين كل البلدان العربية، مهما كانت خلافاتها السياسية، هو القطاع الأمني (الداخلي)... وأن أكثر مجلس وزاري عربي مُنتظم في اجتماعاته هو مجلس وزراء الداخلية العرب. وفي كل مرة تم استوقافي فيها بأحد المطارات العربية، ومنها بل وأولها مطار القاهرة الدولي، فإنني كنت أتذكر كلمات **جميل مطر**.

وصلت إلى منزلي مُتأخراً... ولم تكن **راندا وأمير** قد ذهبا إلى الفراش بعد، لحسن الحظ. واحتفلنا بعيد ميلادي الخامس والأربعين في جو أسري هادئ ولكنه جميل... وكان يوماً، وعيد ميلاد لا يُنسى.

مرض أمي

أبلغت بمرض والدتي في مُنتصف ديسمبر ... فسافرت إلي بدين للاطمئنان عليها، وكان هناك غموض في تشخيص حالتها ولم يكن هناك اتفاق بين أطباء المنصورة ،الذين فحصوها، حيث أنها تشكو من تدهور في وظائف الكبد ... كانت أمي في الثالثة والثمانين من عُمرها ... وساورتني هواجس، أنها ربما تكون في مرضها الأخير... فهذه كانت المرة الأولى، التي تشكو فيها شكوى جادة... بل **ولا أذكر أنها ترددت على الأطباء من قبل هذه المرة**... نعم كانت دائمة الشكوى في السنوات الثلاث الأخيرة من آلام في ظهرها أو مفاصلها... ولكنا نحن أبنائها كنا نرجع ذلك إلى تقدمها في السن من ناحية وإلى زيادة في وزنها من ناحية أخرى.

أصررت على إحضار والدتي معي إلى القاهرة لفحوص طبية مُتخصصة... ولكي تقضي بعض الوقت معي ومع حفيديها **راندا وأمير**... واتضح من الفحوص والأشعة أن هناك احتمال كبير في إصابة الكبد بورم خبيث... وهو ما لم أخبر والدتي أو أفراد الأسرة به، إلى إعادة الفحوص في معهد الأورام الذي كان عميده صديقي، وعضو مُنتدى الفكر الديمقراطي، الدكتور **محمود شريف**، الذي كانت تربطني به عدة وشائج أخرى. فهو من قرية مُجاورة لقريتي (البرامون)، كما كنت أعرف شقيقين له، أحدهما **د.حلمي شريف**، عالم الطبيعة النووية النابه، والذي زاملني في مدرسة الملك الكامل الثانوية بالمنصورة، ثم في جامعة واشنطون بمدينة سياتل الأمريكية.

أكد **د.محمود شريف** ما كنت أخاف منه، وأن الورم تقدم بالفعل إلى مرحلة لا يُمكن استئصاله معها... ولكن يمكن وقف انتشار الورم، وتقوية ما تبقى سليماً للقيام بوظائف كبد شبه كامل... وسألت بصراحة كم بقي لها على قيد الحياة... أعطاني الإجابة التقليدية "أن الأعمار بيد الله ... ولكن مثل هذه الحالة المُتقدمة من الورم تعني أننا نتحدث عن عدة شهور..."

كانت الأدوية والجلسات الكهربائية، تقلل الشعور بالألم، وتضع والدتي في مزاج طيب... وكانت سعيدة عموماً لقضائي وقتاً طويلاً معها... **وقامت راندا، التي لم أخبرها بخطورة مرض جدتها، بعمل تسجيلات صوتية معها عن طفولتها... وكيف تعرفت بجدها محمد (والدي) وحفلة عرسها... وكم وليداً**

أنجبت (عشرة مات منهم ثلاثة في سن الطفولة، وهو ما أبكى راندا على ثلاثة (أعمام لم ترهم). وكان الجديد لراندا، أن أم كلثوم، والتي كانت ما تزال مغمورة ومن قرية مُجاورة (طماي الزهايرة) هي التي أحيت عُرس جدتها **جوهرة** وجدها **محمد**.

وكان أشقائي **أحمد وحامد وإبراهيم آمال وشفيقة**، يترددون على منزلي دورياً للاطمئنان وقضاء بعض الوقت مع والدتنا، بعد أن أخبرتهم جميعاً بالمرض الحقيقي لأمنا، وإن لم أخبرهم بمسألة الشهور المعدودة التي قدّرها **د.محمود شريف** لها... وكان إحاطتها بأولادها وبناتها وأحفادها يُسعدها، رغم آلام المرض، وكانت هذه السعادة تتضاعف حينما تجلس في حديقة الفيلا، والشمس مشرقة، وتنضم إليها شقيقتها الأصغر "**شاهدة**"، التي كانت الوحيدة من شقيقاتها السبع التي تعيش في القاهرة... وحينما أخبرت خالتي "**شاهدة**" بحقيقة مرض شقيقتها الكُبرى، فقد ضاعفت لا فقط من زياراتها ولكن أيضاً قضاء الليالي معها مبيتاً... وكنا نلاحظ الشقيقتين الكُبرى والصُغرى يتحدثان في الفراش طول الليل... كما كنا نفعل نحن كأطفال وصبيان وشباب!.

أخبرت **بركة** والديها بمرض والدتي، وإقامتها معنا... فقررا عدم الحضور لقضاء أعياد الميلاد في مصر، كما هي العادة، هذا العام... ومع ذلك فقد أحضرنا، وقمنا بتزيين شجرة عيد الميلاد... وحاولنا جهدنا أن يستمتع **راندا وأمير** بالمُناسبة مع أمهما... ولدهشتنا استمتعت والدتي وأشقائي وشقيقتها **شاهدة** بالجو الاحتفالي وبألوان وزينات شجرة عيد الميلاد. كان لديهن جميعاً روحاً دينية مُتسامحة، ستختفي تدريجياً من الأجيال المصرية التالية!

وقد تركنا والدتي مرة واحدة في تلك الفترة لعدة ساعات في ليلة رأس السنة... قضتها هي مع شقيقتها **شاهدة وراندا وأمير** أمام التليفزيون... ومع المشروبات والحلويات، أي أنهم أيضاً احتفلوا برأس السنة.

أما **أنا وبركة**، فقد قضينا ليلة رأس السنة مع **د.نوال السعداوي ود.ايفيلين رياض، ود.ميلاد حنا، ود.عواطف عبد الرحمن، ود.لطيفة الزيات** في منزل **نوال السعداوي وشريف حتاتة** في الجيزة!.

١٩٨٤

كان عام ١٩٨٤، هو العام الذي قضيت مُعظمه في بناء المنظمة العربية لحقوق الإنسان... وكانت الشهور الأربع الأولى من العام هي لوضع أنظمة داخلية وبرامج نشاط مقترحة للانطلاق بالمنظمة الوليدة، التي لم يكن لها بعد مقر أو سكرتارية أو موظفين أو ميزانية... **كنت أدبر شؤون المنظمة من**

مكتبي في الجامعة الأمريكية ومكتبي في مركز دراسات الوحدة العربية، حيث العاملون في مشروع استشراف المستقبل العربي... إلى أن قرر د.خير الدين حسيب أن هناك خطرين من جراء هذا التداخل ـ أحدهما تنظيمي (خلط شؤون المؤسسة) والثاني أمني، حيث لم يكن واضحاً ما ستفعله الحكومة المصرية مع المنظمة العربية لحقوق الإنسان. وكان النظام الأساسي لهذه الأخيرة، كما اقرّه المؤسسون في قبرص، ينص على أن المقر الرئيسي للمنظمة هو القاهرة، أو أي مدينة عربية أخرى قد يرى مجلس الأمناء، اتخاذها مقراً إذا لم تسمح الظروف في القاهرة.

لم يكن لدى المؤسسين أي أوهام حول استقبال الأنظمة، أو تسامحها مع وجود مقر للمنظمة في أي من عواصمها... وخلصت المداولات في قبرص، إلى أنه ما دامت الحكومات العربية تتقارب، أو تتساوى، في عدوانيتها نحو حقوق الإنسان والحُريات الأساسية، فلنحاول القاهرة أولاً... ولنستفد من وزن مصر الثقافي والحضاري، وخاصة وجود اتحاد المُحامين العرب فيها... وفعلاً كان وجود الأستاذ **فاروق أبو عيسى**، الأمين العام للمُحامين العرب، كعضو في مجلس أمناء المنظمة الوليدة، عاملاً إضافياً مُساعداً على توطين المنظمة في القاهرة.

وبالفعل فتح لنا **فاروق أبو عيسى** اتحاد المُحامين العرب لعقد اجتماعاتنا التنظيمية الصغيرة، ثم بعد ذلك لمجلس الأمناء الأول في فبراير... وفي هذا الاجتماع حصلنا من **د.سعاد الصباح** على تبرع لاقتناء مقر مُستقل للمنظمة، في حدود ما يُساوي مئة وخمسين ألف دولار... كما وافق مجلس الأمناء على الأنظمة الداخلية المُقترحة، وإصدار كُتيبات تعريفية ومُلصقات ونشرة دورية، وعقد لعدة ندوات في النقابات المهنية الرئيسية (المحامين والمهندسين والأطباء) لتقديم المنظمة، وحثت هذه النقابات على استحداث لجان لحقوق الإنسان، والانضمام إلى المنظمة كمؤسسات داعمة.

مقر المُنظمات العربية لحقوق الإنسان

من المُشكلات المُبكرة التي صادفتنا هي عدم وجود شخصية قانونية مُعترف بها للمنظمة الوليدة... ومن ثم كان يصعب فتح حساب في أي بنك، أو استئجار صندوق بريد، أو التعاقد باسم المنظمة... تحايلنا على ذلك بالقيام بخطوات تسجيل المنظمة كجمعية أهلية في وزارة الشؤون الاجتماعية، رغم يقيني أن طلب التسجيل سيُرفض كما حدث مع العاملين في الجامعة الأمريكية عام ١٩٧٧، ومع مُنتدى الفكر الديمقراطي عام ١٩٨٢... ومع ذلك مكّننا تقديم

أوراق التسجيل، أن نعلن أن "**المنظمة هي جمعية تحت التأسيس**" كذلك نجحنا بتوصية موجهة من القطب الناصري **محمد فايق** إلى السيد **حاتم صادق** (زوج ابنة الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**) ومُدير البنك العربي في مصر بفتح حساب مشترك باسم "**المنظمة العربية لحقوق الإنسان**" واسمي **سعدالدين إبراهيم**.

كانت مُساعدتي السيدة/ **نعمت جنينة** هي ساعدي الأيمن، لا فقط في الجامعة الأمريكية، ولكن أيضاً في **مشروع الاستشراف**، والآن **المنظمة العربية لحقوق الإنسان**... وربما مثل الأطفال، كان الطفل الأخير، وهو المنظمة، هو **الطفل الأولى بالرعاية**... وكان ذلك سبباً إضافياً لغيرة **د.خير الدين حسيب** الذي كان يضيق باقتسام أو توزيع الولاء... المهم أن نعمت رمت بكل ثقلها وراء المُنظمة الوليدة... وهي التي وجدت مقراً جديداً للمُنظمة، وكانت مثل مقر مشروع الاستشراف... فيلا داخلية من طابقين في عمارة سكنية، رقم ١٧ ميدان أسوان في منطقة المُهندسين / العجوزة. وقامت بالإشراف على إعادة تنظيم وتأثيث الفيلا لتصبح مقراً للمنظمة الوليدة"... وعُقد فيها الاجتماع الثاني لمجلس الأمناء في شهر مايو ١٩٨٤، وأعجب الأعضاء بالإنجاز الذي تم خلال ثلاثة شهور، والذي يرجع الفضل فيه حقيقة للمُساعدة الوفية **نعمت جنينة**، والتي كانت قد أصبحت مثل ظلي... وفضلت دائماً أن تعمل في صمت وبلا مُقابل.

ولكن الجزء المادي في بناء المنظمة العربية لحقوق الإنسان كان هو الجزء الأسهل... بفضل كرم وحُب **سُعاد الصبّاح**، وتفاني وحُب **نعمت جنينة**، ودعم وحُب **فتحي رضوان**.

لقد كان الجزء المعنوي في بناء المنظمة هو الأصعب، وأقصد بذلك إرساء تقاليد وروح ومعايير الدفاع عن حقوق الإنسان. ففي مُجتمعات عربية تختلط فيها المعايير الإنسانية العامة بالاعتبارات الإرثية، من ولاءات عائلية وقبلية وطائفية وحزبية وأيدلوجية، يصعب إقناع كل الناس كل الوقت بأن "الإنسان" هو الإنسان، بصرف النظر عن أصله وفصله، ودينه ومذهبه، وانتمائه العائلي أو العشائري أو الأيدلوجي.

ولم يكن هناك من سبيل لغرس وتكريس مبدأ وروح ومُمارسة هذه "**العمومية**" (universality) إلا بالمُمارسة، والنفس الطويل... وقد شهد عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥ اختبارات قاسية لي وللمنظمة ـ لا فقط مع الأنظمة العربية التي كان يجمعها الاستبداد، وإن بدرجات مُتفاوتة، ولكن أيضاً مع قوى سياسية وشخصيات عامة مُتشككة في كل مشروع لحقوق الإنسان، على أساس أنه "**بدعة غربية ليبرالية**"... كما كانت متشككة بشكل خاص فيمن قاموا بالمُبادرة،

بدءاً بلقاء الحمامات في تونس، وانتهاء بشخصي... أي **سعد الدين إبراهيم**، الذي يحمل جنسية أمريكية إلى جانب جنسيته المصرية، والمتزوج من أمريكية، والذي يعمل في الجامعة الأمريكية، وصاحب الصداقات الشيوعية بأميرات النفط، والأمراء الهاشميين. وأخذ اليسار الماركسي، وبدرجة أقل الاتجاه الناصري أو التيار الديني مواقف تراوحت بين العداء السافر، والتخبط، والبرود، من الحركة العربية لحقوق الإنسان. وكتب أحد المُفكرين اليساريين الذين كانوا يعيشون في باريس وهو **غالي شكري** سلسلة من اثنتي عشر مقالاً في مجلة **الأسبوع العربي**، والتي كانت تصدر في باريس، يُهاجم فيها المُنظمة، وشخصي المُتواضع! .

ولكن الأقسى عليّ كانت معاركي مع رئيس المنظمة وشيخ المعارضين الأستاذ **فتحي رضوان**.

رحيل ست الحبايب

في **الأسبوع الثاني من شهر أبريل ١٩٨٤** لفظت والدتي آخر أنفاسها في منزلنا الريفي بقريتنا بدين، مركز المنصورة، دقهلية.... وكانت عودتها إلى منزلنا بناء على طلبها وبإلحاح منها قبل رحيلها الفعلي بأسبوع كامل، حينما أحست بدنو أجلها.

ورغم إدراكي أن الموت علينا حق... وأنني كنت مُعد نفسياً لرحيل والدتي منذ أخبرني **د.محمود شريف**... ورغم زيادة مُعاناتها في الأسبوعين الأخيرين قبل النهاية... إلا أنني انفجرت باكياً، حينما اتصلت بي شقيقتي **آمال** من المنصورة، في مكتبي بمركز دراسات الوحدة العربية بشارع رشوان بالدقي... وحينما دخلت عليّ **نعمت**، ووجدت الدموع في عينيي، أدركت على الفور أن والدتي قد رحلت... فأمرتني بالقيام معها لتأخذني بسيارتها إلى منزلي في المعادي... وأمرت سائقي الخاص، بأن يتبعنا في سيارتي... كانت **نعمت** قد قابلت والدتي عدة مرات أثناء علاجها في الشهور الأخيرة، وكانت تتابع الحالة... ورغم أنها كانت تسخر كثيراً من تقليد نشر نعي الوفيات في الصُحف... وأجرت على ذلك دراسة طريفة قارنت فيها بين نعي الأقباط ونعي المسلمين، وفسّرت الفروق بعوامل اجتماعية سياسية... ورغم ذلك، فحينما علمت بأن والدتي طلبت أن تعود إلى بيتها في بدين، فقد اقترحت **نعمت** بطريقة عملية أن أعد نعي والدتي مُقدماً... ولذلك طلبت من السكرتيرة أن تأخذ النعي الذي كنت قد أعددته، إلى **وفيات الأهرام**، وتحدثت مع **د.سامي منصور** الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، وكان صديقاً مُشتركاً، أن يتابع نشر

النعي في مكان بارز بصفحة الوفيات... وهكذا كانت **نعمت**، رغم ارستقراطيتها ورقتها الظاهرة، عملية للغاية، حينما يستدعى الموقف ذلك.

حينما وصلت إلى منزلنا بالمعادي، كان **راندا وأمير** يلعبان في الحديقة، وكانت **بركة** في مكتبها **بمؤسسة فورد**، التي التحقت بها منذ عام كمُديرة لبرنامج المرأة ومُناهضة الفقر... أخبرت **حليمة** مُديرة البيت (الشغالة) بالخبر، وكانت شديدة التعلق بوالدتي، فقد كانت مؤنس صُحبتها، خلال ساعات عملنا خارج المنزل... وأعدت حقيبة سفر صغيرة... وكان سائقي الخاص قد وصل إلى الفيلا قبل نعمت ببضع دقائق... اتصلت **ببركة** في مكتبها بفورد، وأخبرتها أنني سأسبقها إلى بدين للمُشاركة في مراسم الجنازة عصر نفس اليوم... وحينما هممت بركوب السيارة احتضنت ابنتي **راندا**... وفرت من عيني دمعة... ونظرت **راندا** إلي بعيون ساهمة حزينة، وكأنها تقول أنها تعلم أن هناك شيئاً محزناً قد وقع، رغم أنني لم أتفوه لها بكلمة... كانت **راندا** قد أتمت عامها الحادي عشر منذ أسبوعين... وكانت جدتها (نينة) **جوهرة** قد حضرت الاحتفال في (٣/١٧) .

وفي الطريق إلى قريتي تدافعت الذكريات والخواطر والمشاعر... كان الخاطر الذي طغى عليّ هو كيف أننا نأخذ وجود الأم في حياتنا، وحُبها لنا ضمن المُسلّمات، إلى أن يخطفها الموت... وتبدأ مشاعر الذنب تحاصرنا بأننا لم نقض معها وقتاً أطول... أننا لم نرد لها جمائلها التي لا تُحصى بالقدر الكاف... أننا أهملنا تلبية بعض طلباتها... أننا لم نُعبّر لها عن مشاعر حُبنا بما يكفي من أقوال وأفعال...

خفف قليلاً من مشاعر الذنب، أنه مُنذ وفاة شقيقتي الكُبرى **(روحية)** وأنا أكثر وعياً وحرصاً على اقتناص الفرص لقضاء الوقت مع أمي، والحديث إليها كثيراً في كل الموضوعات... وكم أسعدني الآن أن ابنتي **راندا** قامت بتسجيل أشرطة لحديثها عن ذكرياتها... وخفّف قليلاً من شعور الذنب أنها كانت دائمة الثناء والدُعاء لي **ولبركة** (زوجتي) على حُبنا لها، وحُسن استقبالها والعناية والرعاية التي تلقاها في منزلنا، أكثر من أي من منازل بقية الأشقاء والشقيقات... إلى أي حد كان ذلك مُجاملة منها أو حقيقة؟! سيظل ذلك في علم الغيب...

خفّف من مشاعر الذنب قليلاً، حديثها التلقائي الطبيعي عن الموت، بلا خوف أو هلع... كان إيمانها بالله عميقاً... وكان تدينها هو السياج الواقي من المصائب والمُلحّات... رأيتها تبكي مرات عديدة في مُناسبات تستدعي الحزن والبُكاء... ولكني لا أذكر أبداً أنني رأيتها تولول أو تلطم خدودها، كما كان ولا يزال شائعاً في ريفنا المصري، وفي أحيائنا الشعبية.

في الأسابيع الأخيرة كانت أمي تُحدثني عن الكيفية التي تُريد بها جنازتها... ومن يقرأ في الصوان الذي سيُقام في وفاتها (وهو الشيخ الطبلاوي، الذي لم أكن قد سمعت به)... قالت أنها لا تخاف الموت... ولكنها تخاف المرض الطويل وما يُصاحبه من آلام لها وأعباء على أبنائها وبناتها... ولم أعلم يقيناً إذا كانت قد عنت فعلاً ما قالت... ولكني أذكر في أحد مُداعباتي لها وهي تتحدث عن جنازتها ووفاتها... أنني سألتها إن كانت تُريد أن يُنشر نعي في الصُحف... قالت على الفور "**طبعاً**"!... وشجعني ذلك أن اقرأ لها نماذج مما ينشره "**الأهرام**" في صفحة الوفيات... وكانت تهز رأسها وهي تستمع باهتمام... ثم طلبت مني ورقة وقلماً... وأملت عليّ ماذا نكتبه في نعيها... وكانت أمي أمية ورغم ذلك كانت حريصة على تعليم كل أبنائها وبناتها... وكانت كلما تذكرت أحد أقربائها أو قريباتها، طلبت مني أن أضيف أسماءهم إلى مسودة النعي الذي كنا قد أعددناه... لذلك حينما اقترحت مُساعدتي إعداد نعي والدتي مُسبقاً كان الأمر قد فرغ منه فعلاً.

أما شريط الذكريات، فقد بدأ بعد مدينة "**كفر شكر**" واستمر إلى أن وصلت إلى قريتي "**بدين**"... كان الربيع في أوجّه وكانت الشمس مُشرقة على الحقول الخضراء بالبرسيم والفول والقمح وأشجار الفاكهة... تدافعت ذكريات طفولتي التي كانت في مُعظمها سعيدة آمنة، وتذكرت... **وتشجيعها الدائم لي ولأشقائي لأن نتفوق لنصبح مثل خالها** "**إسماعيل بك**" الذي كان مُديراً "**للخاصة الملكية**" إلى أن توفاه الله في أواخر أربعينات القرن العشرين... كان **إسماعيل** بك هو القُدوة... وحينما أخبرناها بإلغاء الألقاب ـ البكوات والباشوات ـ انتقلت إلى عمنا المهندس **عبد الوهاب** شقيق والدي، الذي أفلت من مصير أقرانه خلال "**الكساد الأعظم**"، بقبول أي أعمال أو وظائف متواضعة إلى أن أنهى تعليمه الهندسي الجامعي... وهكذا طالما وضعت أمامنا هذه المرأة المصرية التي لم تحظ بأي تعليم نظامي نفسها، وضعت أمامنا التعليم كقيمة، والتفوق كمعيار للصلاح في الدنيا والآخرة.

كانت فخورة بتفوقي الدراسي، حتى عندما لم تدرك موضوع هذا التفوق أو تفاصيله أو آلياته... وكانت تقرن هذا التفوق برضا الله سبحانه وتعالى عليّ... نعم كنت مُتديناً في طفولتي... وكانت هي تؤمن إيماناً جازماً، أنه لولا هذا التدين لما تفوقت... ورغم تناقص تديني في مرحلة المُراهقة والشباب، فقد استمر تفوقي... وظلت هي على اعتقادها بسببية التدين والتفوق... وكان شقيقي الأكبر **إبراهيم** يهوى تدمير أو تشويه الصورة المثالية التي تحملها والدتي عني، وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتي بالجنس الآخر... ورغم الأدلة المادية التي كان ينقب عليها

ويحملها من شقة العزوبية في القاهرة إليها في بدين (من صور وملابس داخلية وأدوات تواليت نسائية) إلا أنها كانت ترفض تصديقه، وتعتبره "مفترياً على الله وعليّ كذباً" وتفسر هذه الافتراءات من منطلق "**غيرة الأشقاء**"...

كنت أبتسم لنفسي وأنا أتذكر هذه المشاهد وغيرها من طفولتي وشبابي... وتذكرت أول عيد أم احتفلت فيه بها عام ١٩٥٥، حين دعا إليه الصحفي الكبير **مصطفى أمين**... وأذكر زجاجة العطر، التي اشتريتها لها بهذه المُناسبة... وكيف بدأت بذلك تقليداً في القرية كلها، إلى أن سافرت للدراسة في الولايات المتحدة... فانقطع التقليد بالنسبة لي لمدة اثني عشر عاماً... إلى أن عدت، فوجدت أن عيد الأم أصبح عيداً قومياً تحتفل به مصر وكل الشعوب العربية... وتذكرت كيف أصبح هذا اليوم (٣/٢١) من كل عام **مصدر فرحة مُزدوجة وإرهاق مزدوج منذ عودتي إلى مصر عام ١٩٧٥**، لأنه كان أيضاً عيد ميلاد **بركة**، زوجتي... فما لم تكن أمي في زيارتنا بالقاهرة، فإنني كنت أستيقظ مُبكراً، وأسافر إلى القرية للاحتفال بعيد الأم معها، طوال اليوم... وكانت شقيقاتي عادة ما يأتين أيضاً من المنصورة... و كنت أسارع بعد الغداء مُباشرة بشدّ الرحال، عائداً إلى القاهرة لأحتفل مع طفليّ بعيد ميلاد **بركة**... وابتسمت ابتسامة عريضة لأنها كانت معنا في القاهرة في آخر عيد أم، منذ ثلاثة أسابيع، واحتفلنا به وبها... وكنت و**بركة** وخالتي **شاهدة**، وأشقائي وشقيقاتي الذين أتوا إلى منزلي بالقاهرة، ندرك أنه قد يكون آخر عيد أم نحضره معها... وسالت دموعي مرة أخرى... وتزامن ذلك مع وصولي إلى قريتي... حيث وجدنا القرية كلها ملفوفة بغلالة ثقيلة من الحزن... والناس تتدافع نحو السيارة، ويجرون بموازاتها من مدخل القرية إلى منزلنا ليقدموا العزاء... ولا أظن أنني رأيت كمية بُكاء في قريتنا مثلما رأيت في ذلك اليوم... كانت القرية تبكي فراق ورحيل أكثر نسائها ورعاً، وتقوى، وكرماً، وإحساناً على الفقراء والمساكين... كانوا يودّعون معنا **ست ستات الحبايب.**

سبتمبر ١٩٨٤
نعمت جنينة

خلال رحلة الطائرة من عمّان كان لدي همّ مواجهة مُساعدتي الوفية **نعمت جنينة** بقرار توقيعي لعقد العمل مع مُنتدى الفكر العربي... كانت **نعمت** قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كل مشاريعي الفكرية والحركية. من ذلك أنها أعدت رسالة الماجستير في الجامعة الأمريكية عن تنظيم "**الجهاد**" كبديل إسلامي لنظام الحكم، واستخدمت في ذلك نفس المنهجية التي كنت قد

استخدمتها قبل سنوات في دراستي لتنظيمي "**الفنية العسكرية**"، و"**التكفير والهجرة**" (١٩٧٧) بل وأصبحت هي بدورها حجة في **الحركات الإسلامية المصرية المُعاصرة**. كذلك اندفعت بكل ثقلها لمُساعدتي في مشروع استشراف مُستقبل الوطن العربي. وأصبحت مُديرة مكتبي في كل من الجامعة الأمريكية ومركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة... وأخيراً وليس آخراً أصبحت مُساعدتي والمديرة التنفيذية لمكتبي كأمين عام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان. وفوق ذلك، أو ربما بسبب ذلك، كانت تقضي معي ما لا يقل عن اثنى عشر ساعة يومياً... كانت معي في كل مكان تقريباً، في الجامعة... في مركز دراسات الوحدة العربية... في المنظمة العربية لحقوق الإنسان... وفي مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية... وفي المؤتمرات والندوات والمُحاضرات العامة... وأصبحت أكثر الناس قرباً مني فكرياً وروحياً ووجدانياً... كانت جميلة، وذكية، ومُناقشة ومُحاورة في معظم إن لم يكن كل القضايا التي كانت محل اهتمامي... وكان لا بد أن تتطور هذه العلاقة إلى استلطاف، فجاذبية، فحب... وحينما أدركنا هذه الحقيقة بعد عدة سنوات من بداية العلاقة في ربيع ١٩٧٦... أدركنا أيضاً أنه "حُب مُستحيل"... فهي زوجة وأم لطفلين... وأنا زوج وأب لطفلين.

وكنت أنا راض سعيد بزواجي وأسرتي... أما هي فلم تكن كذلك... وربما كان ما لديها من فراغ عاطفي هو الذي دفعها نحوي... ونحو مشاريعي العديدة... ورغم أنها لم تُفصح في البداية عن ذلك، إلا أنها بدأت في السنتين الأخيرتين تبوح بأسرارها وهمومها الزواجية... التي كانت حالة كلاسيكية لزوجة أكثر نضجاً من زوجها، بعد عدة سنوات من الزواج المُبكر... وكان من غرائب هذه العلاقة هي أنها **وقعت في حب كل أفراد عائلتي**... وكانت هي التي تتولى تذكيري **بأعياد ميلادهم**... وتختار الهدايا والألعاب **لراندا وأمير**... حتى تعلقا بها تعلقاً شديداً، وخاصة **راندا**، التي كانت مُعجبة بالذوق الأرستقراطي الرفيع **لنعمت**... وتأثرت بها للغاية منذ طفولتها إلى أن تزوجت، وهي في الثانية والعشرين... كانت علاقتنا وثيقة ولافتة للأنظار... ولكنها مُحيرة للجميع لخلوها من الخلاعة والإسفاف... وظلت **نعمت** تحظى بحب واحترام الجميع... وكانت تحيط بها دائماً هالة من الوقار الذي يعمل له الجميع حساباً، بما فيهم أنا.

كنت أعلم يقيناً أنها ضد عملي بعيداً عن مصر وعنها... وعن **المنظمة العربية لحقوق الإنسان**، التي استحوذت على مشاعرها أكثر من أي مؤسسة أو مشروع آخر شاركتني فيه... لذلك كان عليّ أن أمهد لها خبر توقيعي لعقد العمل مع مُنتدى الفكر العربي في عمان... ولكن **نعمت** كانت قد أصبحت

تعرفني أكثر من أي إنسان آخر... لذلك حينما استقبلتني في المطار، كعادتها في كل سفرياتي في السنوات الثلاث الأخيرة... فاجأتني بالسؤال "أنت وافقت على أنك تروح المُنتدى... مش كده ؟"... تلعثمت... ترددت... قبل أن أقول "مش بالضبط..." وصمت... ولم تسألني سؤالاً آخر... ولم تقل شيئاً طوال الطريق من المطار إلى منزلي... نزلت من سيارتها... واعتذرت هي عن الدخول هذه المرة لتحية الأسرة كما تعودت... كان واضحاً لي أنها غاضبة أو حزينة... حاولت تقبيلها، ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً عني... قلت لها أراك غداً؟ ردت وهي ساهمة "إن شاء الله..." سألتني زوجتي لماذا لم تدعُ **نعمت** إلى الداخل؟"... أجبت وأنا شارد "يبدو أنها ليست سعيدة بخبر عملي في المُنتدى..." علقت **باربارا** "طبعاً... لأنك ستبعد عنها... وقد أصبحت محور حياتها..." لم أعلق... ولكني تعجبت هذه المرة مثلما تعجبت مراراً عن المشاعر الحقيقية المُتبادلة بين هاتين المرأتين... لم تعبر **باربارا** أبداً أمامي عن أي مشاعر بالغيرة... ولكنها عبّرت مراراً عن مشاعر بالاحترام **لنعمت**... وربما الإعجاب والتقدير... مُقارنة بنقدها الحاد لنساء مصريات أخريات كن يتقربن إلىّ ... وكانت تعتبرهن غير جديرات بوقتي واهتمامي... ويبدو أنه اتفاقاً ضمنياً صامتاً بين ثلاثتنا سرى على هذه الشراكة العاطفية... ما دام يسودها الاحترام والتزام حدود اللياقة. كانت باربارا (بركة) حصينة... وكم من علاقات نسائية أخرى... عبروا... ومضوا.. وبقيت هي مركزا للصمود في حياتي وحياة الأسرة!

حينما رأيت **نعمت** في الأيام التالية كانت مازالت صامتة شاردة... ولم أحاول سؤالها عن سبب الصمت والشرود فقد كنت أدرك السبب... ومع ذلك كنت مُفتقداً لحرارة ومُتعة صحبتها... وبعد أسبوع كامل من عودتي من عمان... طلبت منها أن نتناول الغداء سوياً في أحد المطاعم التي تعودنا على ارتيادها... قالت ممكن ولكن بعد أن تجيب علي سؤال لديّ "**هل تتزوجني؟**" فوجئت بالسؤال... تلعثمت... ترددت... تلجلجت... "**طبعاً، أتزوجك**..." ابتسمت وقالت "إذن أقبل دعوتك على الغداء "حمام مشوي في حاتي الجيش..." وقد كان... قالت على الغداء "أنها ستطلب الطلاق من زوجها... فهل سأطلب الطلاق من زوجتي؟" قلت لها "طبعاً لا..." ولكني مُستعد للزواج منك كزوجة ثانية... وفقط إذا رفضت **باربارا** ذلك يمكن لها هي أن تطلقني..." نظرت لي **نعمت** ملياً... وتنهدت... وقالت "وأنا لا أقبل أن أكون زوجة ثانية، رغم حُبي لك... وأحترم حرصك على **باربارا**، التي ضحت ببلدها وأهلها من أجلك... إن الوضع المثالي هو أن تختار هي أن ترحل من تلقاء نفسها... وبما أنها كمُحبة للخير ومُساعدة الفقراء... ما هي احتمالات التحاقها بالأم **تريزا** (Mother Theresa) في

الهند؟" ضحكت على هذه الفكرة الخيالية... وبعد أيام فأجئتني **باربارا** باقتراح أن تجد **لنعمت** وصديقتها **مايسة الجمل** منحتين للدراسة في إنجلترا أو الولايات المتحدة... كانت **باربارا** تعمل في مؤسسة فورد بالقاهرة... وكانت قادرة بالفعل على تنفيذ هذا الاقتراح... وضحكت... وحينما سألت **باربارا** عن سبب ضحكي... حكيت لها ما دار بيني وبين **نعمت** في حاتي الجيش قبلها بأيام... وعما إذا كانت مُستعدة للالتحاق بالأم **تريزا** في الهند ؟ ردت زوجتي بشقاوة غير مُعتادة "إذن، كل منا يُفكر في طريقة محترمة لإزاحة الأخرى من الساحة... أليس كذلك؟" رددت ببراءة مُصطنعة "فعلاً... هكذا يبدو الأمر لي...!" سألت هي بحسم "وأنت يا **سعد**، ماذا تريد منا... وماذا تريد لنفسك ؟" قلت لها اقتراحي **لنعمت**، وهو زواج الاثنتين... ضحكت... وقالت إنها مُستعدة إذا كان ذلك هو ثمن الاحتفاظ بي... ورأيت دمعة تترقرق في عينيها لأول مرة منذ سنوات طويلة... عانقتها... وانتهى الحديث في الموضوع... لم تفتحه هي مرة أخرى... ولم أفتحه معها مرة أخرى بدوري. ولكن، لم يكن الأمر كذلك مع **نعمت**... لقد مضت فعلاً في طلب الطلاق من زوجها رجل الأعمال... حكيت لها ما حدث بيني وبين **باربارا**، وعرضها السخي أن توفر لها منحة دراسية... طلبت مني أن أشكرها مع الاعتذار عن المنحة... وبدأت **نعمت** تتقبل الوضع الجديد على مضض وبكثير من الألم والمُعاناة... وأصيبت بعد شهر بمرض السرطان... وهزني ذلك، كما هزها هي وأسرتها بشدة... وتوجهت هي إلى الولايات المتحدة مع والديها للعلاج... وكنت أتصل بها في بوسطن يومياً تقريباً... إلى أن عادت إلى مصر بعد جراحة ناجحة لإزالة ورم صغير في صدرها.

كانت تجربة المرض والاقتراب من الموت لهذه المرأة الجميلة الذكية الثرية في ريعان الشباب، مدعاة للتأمل منها ومني ومن كل من عرفها... وساد جو من التسامح في الفضاء المُحيط بنا جميعاً... وتوارت إلى حين دراما الحب والزواج والغيرة... ونزعة التملك والاستئثار العاطفي والوجداني... وحلّت محلها إلى حين النزعة إلى أن نحيا اللحظة، ونستمتع بها... وأن نشكر الله على الصحة والعافية والستر !.

خير الدين حسيب

كان الهمّ الثاني من جراء قبولي عرض الأمير **الحسن** أن أكون أميناً عاماً لمُنتدى الفكر العربي، هو رد فعل الدكتور **خير الدين حسيب**، المُدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية... كان قد جمعني بالرجل إيماننا المُشترك **بالعروبة والوحدة العربية**... ومنذ عام ١٩٧٥، وأنا أرافق الرجل في بناء مركز

دراسات الوحدة العربية... وقد توطدت وتعمقت واتسعت علاقتي بالدكتور **حسيب** في خضم التعاون المُشترك، حتى أصبح هو بالنسبة لي، وأكثر أنا بالنسبة له، بمثابة الأخ والسند والصديق.

وتزامنت صداقتي مع **خير الدين حسيب** مع صداقتي مع **نعمت**... ورغم أنهما لم يكونا يُكنان لبعضهما حُباً جماً، إلا أن موقفهما من نية ذهابي إلى مُنتدى الفكر العربي في عمان كان مُتشابهاً... وإن لأسباب مُختلفة... فمن جانب **نعمت** كانت المسألة الخوف على فراق حبيب، أما بالنسبة **لخير الدين حسيب** فقد كانت المسألة ذعراً من خسارة قريب وصديق وحليف وشريك... وكما حملت همّ رد فعل **نعمت**... حملت هماً مُضاعفاً لرد فعل **خير الدين حسيب**... لقد كان الأمر بالنسبة له بمثابة "خيانة عُظمى"... لا فقط لأنني أضحي بصداقته... ولكن لأنني سأضحي "بالقضية"... قضية "الوحدة العربية" و"التقدمية" و"الثورية"... ومع من... ومن أجل من... ومن أجل ماذا؟ لقد بدا الأمر للدكتور **حسيب** أنني أضحي بكل هذه الأمور، ارتماءً في أحضان "الرجعية العربية" مُمثلة بالأسرة الهاشمية... التي كان يعتبرها، مثلما كان يعتبرها كثيرون من القوميين واليساريين العرب في ذلك الوقت بمثابة "الخونة" لقضايا التحرر الوطني... وخونة أو عملاء للغرب الإمبريالي!.

وكانت أعراض غيرة **د.حسيب** من علاقتي بالأمير **الحسن** قد ظهرت مُنذ سنتين... وكان بطريقته الخشنة. من ذلك أنه سارع بنشر الورقة التي كنت قد قدمتها للجمعية العمومية للمُنتدى، دون إذن مني أو من المُنتدى بذلك. كما أنه شجّع عديدين على الرد أو التعليق أو الهجوم على ما جاء فيها، وكانت بعنوان: "تجسير الفجوة بين المُثقف والأمير"، واستجاب له على الفور الزميل **نادر الفرجاني**، الذي كان لأسباب لا أدريها، غيوراً من صداقتي الوطيدة للدكتور **حسيب**... ومن الذين كانوا يعتقدون أنني أتمتع بمكانة رفيعة لدى الجماعة القومية، لا أستحقها، وبسُمعة علمية عالية مُبالغ فيها جداً... وكان دائماً يطرح نفسه كبديل في هذه الدوائر... وكان يُبالغ في المُزايدة عليّ في كل شيء قمت به فكرياً ومهنياً... وكنت ألاحظ ذلك، أو يلفت الآخرون نظري إليه، بمن فيهم **د.حسيب** نفسه... ولأنني كنت أحب في **نادر الفرجاني** صفات عديدة، فلم أكن أبادله مشاعر الغيرة هذه، والتي كنت أعتبرها مظاهر صبيانية، سيتجاوزها، إن عاجلاً أو آجلاً...

المهم أن **د.حسيب** بدأ يفتح صفحات مجلة مركزه، **المُستقبل العربي**، للهجوم على "تجسير الفجوة بين المثقف والأمير" ظناً منه أنني سأتراجع عن نية العمل في المُنتدى... وهو ما لم يخطر ببالي على الإطلاق... لذلك غيّر من

تكتيكه بعد عدة شهور... حصل على نسخة من العقد الذي وقّعته مع المُنتدى من صديقنا المُشترك **يحي الجمل**، الذي كان مُفترضاً أن يكون هو أميناً عاماً للمُنتدى، وتراجع في آخر لحظة، على نحو ما ذكرت في مكان سابق. وهال **د.حسيب** ضخامة المُرتب والامتيازات التي نص عليها العقد الذي كان قد وقّعه **يحي الجمل**... وسألني في أحد زياراته للقاهرة عما إذا كنت قد وقّعت عقداً مُماثلاً... ولما أشرت بالإيجاب، أتى لي بعرض أكثر سخاء... بل وبعمل وراتب لا يقل سخاء لزوجتي **باربارا** في بيروت، حتى لا نذهب إلى عمان!. شكرته على عرضه الكريم، واعتذرت له... وأكدت له ولغيره أنني لم أطلب لا الراتب ولا المزايا للعمل في عمان، ولكن ذلك كان ثمرة مُفاوضات **د.يحي الجمل** نفسه ولنفسه... وفقط حينما غيّر رأيه، قبلت توقيع العقد الذي قُدم لي... وأن المسألة بالنسبة لي لم تكن أبداً راتباً أو امتيازات... ولكنها ما ينطوي عليه بناء مؤسسة مدنية عربية جديدة من تحديات... البعض صدقني، والبعض لم يُصدق... أكثر من ذلك بدأت موجة من الإشاعات والمُبالغات، التي أوصلت راتبي وامتيازاتي المادية من سبعة آلاف دولار شهرياً إلى سبعين ألفاً ! وكان جزء من تلك المُبالغات يرجع إلى أن قيمة الراتب في العقد كانت للسنة كلها... بينما في مصر ومُعظم البُلدان العربية يُحسب الراتب بالشهر!.

وحينما أدرك **د.حسيب** أن **نعمت** ضد فكرة ذهابي إلى عمان... وهو الذي كان يُخمن دائماً أن ثمة علاقة حميمة بيننا... فإنه لم يتردد عن تجنيدها في حملة صرف نظري عن مُنتدى الفكر العربي... ولم يُحبط خطته في ذلك إلا مرضها العضال وسفرها المُفاجئ إلى الولايات المتحدة للعلاج.

لا أنكر أن هذه الضغوط مُتعددة الأطراف كان لها بعض التأثير. من ذلك أنني تعهدت **لخير الدين حسيب** لا فقط أن أنتهي من كل المشروعات البحثية التي التزمت بها للمركز - وهي استشراف المُستقبل العربي، والأقليات في الوطن العربي - ولكن أيضاً أن أساهم في كل مؤتمرات وندوات المركز، في المُستقبل، وأن أوظف إمكانيات مُنتدى الفكر العربي لخدمة نفس القضايا والأهداف التي يعمل المركز من أجلها. وقد أراح ذلك **د.خير الدين حسيب** إلى حد ما... وخفّضت حدة اعتراضاته على ذهابي للمُنتدى، وإن لم تختف تماماً.

وكنت في الواقع أتعجب لهذه المواقف الحادة المتوترة كردود أفعال على قرارات فردية خاصة بي... صحيح كانت هذه القرارات في المجال العام... ولكنها تظل خاصة بي أساساً... كنت أفهم أن تعترض أسرتي مثلاً، على انتقالي إلى عمان بينما يظلّون هم في القاهرة... كذلك كنت أفهم رد الفعل العاطفي لصديقة حميمة مثل **نعمت**... أما **د.حسيب** فقد كان الأكثر استعصاءً

على الفهم والتفسير... لقد جعلني أشعر أحياناً أن مصير الأمة كلها يتوقف على قراري، وكنت أرد: "كيف يتوقف مصير أمة على قرار فرد مهما كان، وإلا كان ذلك بئس المصير!".

بعد فترة أدركت أن نزعات السيطرة والتحكم في الآخرين هي سمة بارزة في الثقافة العربية عموماً، والثقافة السياسية خصوصاً... وأن نزعة السيطرة والتحكم هذه غالباً ما تتخفى تحت أقنعة "المصلحة العامة"، و"الوطنية" و"القومية"، و"العدالة"... وما إلى ذلك من قيم سامية أو شعارات جذابة.

سارة المهدي

في أكتوبر ١٩٨٤ اتصلت السيدة **سارة المهدي** بالمُنظمة العربية لحقوق الإنسان، مُستغيثة بنا، أن نطالب بالإفراج عن زوجها السيد **صادق المهدي** رئيس الوزراء السوداني الأسبق من سجون الرئيس السوداني **جعفر نميري**... ورأيت أن نستجيب لندائها فوراً... خاصة أن صحة الرجل تتدهور بسرعة... وقيل لنا أنه على وشك أن يفقد بصره في سجن **كوبر** اللعين نتيجة سوء الرعاية الصحية.

وبعد أخذ ورد مع رئيس المُنظمة، الأستاذ **فتحي رضوان**، أذعن لطلب السيدة **سارة**، ما دام لن يضع اسمه على أي مُكاتبات مع أي جهة من أجل أحد من أفراد "أسرة **المهدي**"، الذين كان يعتبرهم "**خونة... وعُملاء للإنجليز، وأنهم الذين أضاعوا وحدة وادي النيل**"، على نحو ما ذكرت في موضع سابق. وشاركت معنا في الحملة للإفراج عن **الصادق المهدي**، كل من **مُنظمة العفو الدولية بلندن**، و**لجنة الحقوقيين الدوليين بجنيف**، والتي كان زميلنا الناشط المغربي، الأستاذ **محمد اليوسفي** عضواً نشطاً بها. وقد آتت الحملة الدولية أُكُلَها في الضغط على نظام **جعفر نميري** العسكري ، فأفرج عن **الصادق المهدي**... وكان ذلك انتصاراً هاماً لنا في المُنظمة العربية... وحينما مرت السيدة **سارة** بالقاهرة، حرصت على أن تأتي للمُنظمة لتشكر الأستاذ **فتحي** وتشكرني... وكانت هذه أول مرة يُصافح فيها الأستاذ **فتحي رضوان** أحداً من **آل المهدي**... وتحدث معها، وانبهر بذكائها ووطنيتها، وروحها الديموقراطية... وأظن أنه أحس بشيء من الحرج أو الخجل لموقفه في البداية - أي مُحاسبة الأبناء والأحفاد على ما يمكن أن يكون قد اقترفه الآباء والأجداد...!

وقد تزامن الإفراج عن **الصادق المهدي** مع احتفالات المُنظمة **باليوم العالمي لحقوق الإنسان**، والذي يقع في العاشر من ديسمبر كل عام (صدر الإعلان في ١٩٤٨/١٢/١٠).

وكان مما ضاعف انبهار الأستاذ **فتحي رضوان بسارة المهدي**، أنها تحدثت إلينا عن المُخالفات الأخرى الجسيمة لحقوق الإنسان في السودان. والتي سجّلت ضحايا من كل الاتجاهات الأيديولوجية... ومعها من يسمون "**بالإخوان الجمهوريين**"، الذين يتزعمهم المهندس **محمود محمد طه**، والذين كانوا يُحاكَمون في ذلك الوقت (ديسمبر ٨٤)، بسبب أفكارهم غير التقليدية في تفسير القرآن والسنة، وكان سبب انبهار الأستاذ **فتحي**، هو أن الإخوان الجمهوريين كانوا من أكثر المُناهضين فكرياً وسياسياً **لحزب الأمة**، وطائفة الأنصار التي يتزعمها زوجها، السيد **الصادق المهدي**، ومع ذلك فقد تحدثت عنهم بكثير من الإنصاف، وأهم من ذلك أن الذي كان موضع المُحاكمة هي حرية الاعتقاد والتعبير.

يناير ١٩٨٥
مُحاولة إنقاذ الإخوان الجمهوريين
ومواجهة مع فتحي رضوان

لم أكن أعرف الكثير عن مُعتقدات الإخوان الجمهوريين، كما كنت لا أعرف الكثير عن مُعتقدات جماعة **البهائيين**. ومع ذلك تحمّست في الحالتين لتصدي المُنظمة العربية لحقوق الإنسان للدفاع عن الجماعتين، رغم المُقاومة المبدئية من الأستاذ الكبير **فتحي رضوان**... وكنت أعجب في البداية كيف يتردد هذا الرجل الفاضل في الانتصار لقضايا حُرية الاعتقاد، إلى أن واجهني هو والدموع تترقرق في عينيه، وصاح "ماذا عن حُريتي أنا في الاعتقاد... وماذا لو كنت في قرارة نفسي أعتقد أنهم مُرتدون عن صحيح الدين ؟ كيف تطلب أو تتوقع من إنسان في الثمانين من عُمره أن يتخلى عن مُعتقداته للدفاع عن حُرية إنسان آخر في أن يُمارس مُعتقدات أجزم في ضميري أنها مُنجرفة، ألا يكفيك أنني لا أجهر برأيي فيهم علناً، وأنني أكتفي بقوله سبحانه وتعالى (لكم دينكم ولي دين)، وأنني لا أمانع أن تقوم أنت وغيرك في التصدى للدفاع عنهم؟ أرجوك لا تطلب مني أكثر من ذلك!".

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا النقاش الانفعالي الشديد... فقد حدث من قبل في حالة الدفاع عن مجموعة "**البهائيين**" الذين كان يتزعمهم فنان الكاريكاتير الكبير **بيكار**، وفي حالة السيد/ **الصادق المهدي**، كما أسلفت. ولكن يبدو أنني في أعماقي كنت آمل في تغيير الرجل، رغم كل دفوعه الوجيهة إنسانياً !.

كان الحكم قد صدر بالفعل من أحد المحاكم السودانية بتكفير الشيخ **محمود محمد طه**، وأربعة من زملائه - وخيّرتهم المحكمة بين اعترافهم بخطيئة مُعتقداتهم وسلوكياتهم الدينية أو إعدامهم... ورفض قادة الإخوان الجمهوريين أن يتنازلوا أو يتخلوا عن مُعتقداتهم، وأصر **د.حسن الترابي**، الرجل القوي في نظام **جعفر نميري** الحاكم على تنفيذ حُكم المحكمة - أي التوبة أو الإعدام بصفته **نائباً عاماً**... أي في مقام وزير العدل - كان يملك سُلطات تقديرية واسعة، لا فقط في توقيت التنفيذ أو التنفيذ من عدمه، ولكن بصفته أيضاً زعيماً للإخوان المسلمين (الجبهة الإسلامية الوطنية) في السودان، فقد كان مُتمتعا بنفوذ سياسي كبير، يتيح له التأثير على الرئيس **جعفر نميري** والذي كان يملك دستورياً أن يعفو أو يُخفف الأحكام بأي عقوبة.

سعيت إلى تكوين وفد رفيع المُستوى من أعضاء المُنظمة العربية لحقوق الإنسان، للسفر إلى السودان فوراً لالتماس العفو أو تخفيف عقوبة الإعدام على الشيخ **محمود محمد طه** وزملائه من الإخوان الجمهوريين. وقد راعينا في تكوين الوفد أن يضم **قانونين من الإخوان المسلمين المصريين**، الذين عرفوا **د.حسن الترابي** لسنوات طويلة، ويُعدون من الأصدقاء أو الزملاء الذين يحمل لهم مشاعر ودّ وتقدير، وفي مُقدمتهم الأستاذان **محمد المسماري وعادل عيد**. وكان الأخير عضوا مُنتخباً أيضاً في **مجلس الشعب المصري**. وكان الأستاذ **المسماري** عضو مجلس إدارة **نقابة المُحامين المصريين**، أعرق النقابات المهنية المصرية والعربية. كما ضم الوفد الأستاذ **فاروق أبو عيسى**، أمين عام اتحاد المُحامين العرب، والذي كان قد شغل لفترة منصب وزير الخارجية، في أوائل عهد الرئيس **النميري** في الحكم، والأستاذ/ **محمد فايق**، الذي كان أحد الضباط الأحرار، وأحد وزراء الرئيس **عبد الناصر**.

وصل الوفد إلى الخرطوم في الأسبوع الأول من يناير، واجتمع بأعضاء المُنظمة من السودانيين، وفي مقدمتهم **د.محمد أحمد عمر**، والمُحامي **أمين مكي** وآخرين. وفهمنا منهم أن المُحرك الرئيسي للأحداث والمؤثر في صناعة القرار في السودان في تلك الأيام هو **حسن الترابي**، وهو يكاد يكون المُهيمن الوحيد على الرئيس **النميري**، لذلك يحسن التفاهم معه أولاً... وأخيراً. وفعلاً طلب الوفد مُقابلته، كما طلب مُقابلة الرئيس... ولدهشة الوفد لبى الرئيس طلب المُقابلة، بينما ماطل **الترابي**... وفي النهاية اعتذر مكتبه عن عدم ضرورة المُقابلة، ما دام الوفد قد قابل الرئيس، عملاً بالقول المأثور "إذا حضر الماء بطل التيمم". وكانت مُقابلة **النميري** للوفد ودية للغاية... ووعد خيراً، بعد مُراجعة النائب العام !.

المهم أن الوفد غادر غادر عائداً إلى القاهرة بعد رفض السُلطات السودانية السماح له بزيارة **محمد محمود طه** وزملائه في السجن... وبعد وصول الوفد عائداً إلى القاهرة بيومين، أذاعت وكالات الأنباء خبر تنفيذ حكم الإعدام في **محمد محمود طه** وإخوانه الجمهوريين... وكان يوماً حزيناً لي ولكل دُعاة وحماة حقوق الإنسان في الوطن العربي والعالم... وأعلنا يوم ١٤ يناير (حيث تم الإعدام) يوماً لحقوق الإنسان العربي.

مارس ١٩٨٥
دفاعاً عن حسن الترابي

كانت الشهور الأخيرة من عام ١٩٨٤ والأولى من عام ١٩٨٥. انشغالاً دائماً بالسودان... فمن قضية **الصادق المهدي** إلى قضية **الإخوان الجمهوريين**... وجدنا أنفسنا في المُنظمة العربية لحقوق الإنسان مشغولين بقضية حقوق إنسان أخرى في السودان في أواخر فبراير وطوال شهر مارس ١٩٨٥... وكانت المُفارقة أن القضية هذه المرة تخص رجل السودان القوي **د.حسن الترابي**، الذي ماطل وسوّف ثم رفض في النهاية مُقابلة وفد المُنظمة قبل أسابيع في الخرطوم... فقد انتهز الرئيس **النميري** النقمة الواسعة التي نتجت عن إعدام الإخوان الجمهوريين داخلياً وخارجياً، للتخلص من **حسن الترابي** وفريقه السياسي من الإخوان المسلمين الذي كانوا قد أصبحوا مركز قوة طاغية، دون أن يُساعدوا **النميري** في حل مُشكلات السودان المُتفاقمة، ومن ضمنها مُشكلة الحرب الأهلية في الجنوب، والتي كانت قد انفجرت مُجدداً من قبل سنتين (١٩٨٣) نتيجة مشروع **الترابي** في تطبيق الشريعة الإسلامية، حتى على غير المسلمين، وهو ما رفضه الجنوبيون، واعتبروه مع قرارات أخرى، انقلاباً من حكومة الخرطوم على اتفاقية أديس أبابا، التي أنهت الحرب الأهلية الأولى (١٩٥٦ـ ١٩٨٣) مُقابل **الحكم الذاتي لجنوب السودان**... المهم أنه مثلما الحال عادة في بُلدان العالم الثالث، لا يحدث فض المُشاركة في السُلطة سلمياً. فلم يكتف **النميري** بإقالة **الترابي** من كل مناصبه الرسمية، وإنما وجّه له عدة اتهامات وأمر باعتقاله وإيداعه السجن.

أبريل ١٩٨٥: سقوط النميري

وكان لا بد من الدفاع عن حق **حسن الترابي في** مُحاكمة عادلة... ولكني لم أجد أي تعاطف من زملائي في المنظمة العربية لحقوق الإنسان لبدء حملة للإفراج عن الرجل، الذي طالما انتهك حقوق الآخرين وهو في السُلطة... ولم

أكن أحمل له بدوري أي ودّ أو تعاطف. ولكن دوري كمؤسس وكأمين عام للمُنظمة، وحرصي على إرساء تقاليد راسخة في الدفاع عن حقوق الإنسان بصرف النظر عن الخصومات أو العداوات السياسية فرض عليّ أن أواصل السعي للدفاع عن **حسن الترابي**... وهو ما نجحت فيه ... واستمرت الحملة شهرين، كانت الأوضاع فيهما تتفاقم من سيئ إلى أسوأ، وانفجرت المُظاهرات الشعبية الغاضبة تطالب بإسقاط النظام... وهو ما أدى إلى تحرك الجيش، واستيلائه على السُلطة... وتصادف ذلك كله مع وجود **النميري** خارج السودان في جولة، كانت تنتهي بمصر... ووقع الانقلاب ضد **النميري** والرجل في مصر، والتي لم تسمح له بمُغادرتها بحجة الخوف على حياته!.

وقد فرحت كما فرح ملايين السودانيين والعرب بسقوط أحد الأنظمة العربية المُستبدة... وتولى مقاليد السُلطة قائد الجيش السوداني الفريق **عبدالرحمن سوار الذهب**، الذي وعد في أول بيان له، أنه سيرأس "**حكومة انتقالية**" تعد السودان لانتخابات برلمانية ديموقراطية خلال سنة واحدة، يلتزم بعدها بتسليم السلطة للحكومة المدنية المُنتخبة.

وقد أوفى الرجل بوعده حقاً وفعلاً وعملاً... وخلال العام أفرج **سوار الذهب** عن كل المُعتقلين السياسيين بمن فيهم **حسن الترابي**.

بداية إغضاب السُلطة
المُجتمع والدولة في الوطن العربي

كنت أنا وفريق بحث استشراف مُستقبل الوطن العربي نعمل بجد واجتهاد للانتهاء من المشروع... وكنت من أنصار نشر كل جزء ننتهي منه أولاً بأول، كنوع من تشجيع المُشاركين من ناحية، وللإعلان عن المشروع من ناحية ثانية، وفتح حوارات واسعة حول القضايا التي يتبادلها المشروع من ناحية ثالثة. ولم يكن د.**خير الدين حسيب** مُتحمساً لهذا التوجه في البداية، حيث كان يُفضل أن نتريث إلى أن تنتهي دراسات المشروع كلها... وفي النهاية اقتنع بوجهة نظري.

وظهرت أولى دراسات المشروع فعلاً في ربيع ١٩٨٥، للكويتي **د.خلدون النقيب**، حول المجتمع والدولة في بُلدان الخليج... ولأنني كنت المسؤول المُباشر عن هذا المحور في المشروع إلى جانب إشرافي العام على المشروع كله... فقد أعددت مُقدمة عن المشروع، وعن المحور، وعن كل كتاب (مونوجرافية) في السلسلة. وكانت كتب المحور، بل والمشروع كله، تنحو نحواً جديداً في العلوم الاجتماعية العربية، أهمها **الموضوعية والأمانة والجرأة**. وجاء كتاب أستاذ الاجتماع الكويتي بهذه المواصفات، فاستقبل استقبالاً حسناً ممن

قرؤوه... ولكن بعد عدة شهور، اطلع عليه المسؤولون في بلدان **مجلس التعاون الخليجي**، واستاءوا من الصراحة التي أتسهم بها... وكان السعوديون على ما يبدو هم الأكثر استياء، وخاصة في الجزء الخاص بالفساد والعمولات ... وتوالت الاحتجاجات على الكويت، رغم أن الكتاب لم يصدر في الكويت ولكن في بيروت... وكالعادة، لكي تمتص الكويت غضب جيرانها، فقد أصدرت أمراً بالقبض على **د.خلدون النقيب** وتوجيه تهمة "**القدح والذم والإساءة إلى هيبة الدولة في الكويت ودول شقيقة أخرى**".

وشعرت والعاملين في المشروع، فضلاً عن مُثقفين آخرين في الكويت وبقية الوطن العربي بالغضب لعدم تحمل هذه الحكومات حتى لهامش متواضع من حرية البحث العلمي والتعبير عنه...

وكان دوري هنا مُتعدد المسؤوليات من حيث الإشراف على مشروع الاستشراف ككل، ومن حيث إشرافي المُباشر على محور المجتمع والدولة، وبصفتي أميناً عاماً للمنظمة العربية لحقوق الإنسان... وبصفتي صديقاً شخصياً **لخلدون النقيب**. لذلك نهضت للدفاع عن الرجل بقوة هائلة... ونجحنا فعلاً خلال أسابيع معدودة في إجبار الحكومة الكويتية على الإفراج عن **خلدون النقيب**... وفي غضون الأسابيع القليلة التالية، تم حفظ التحقيق... وعاد **خلدون** لمُمارسة حياته الجامعية والبحثية.

واستمر إصدار سلسلة المجتمع والدولة. فظهر كتاب اللبناني **د.غسان سلامة** عن المشرق، وبعدها بشهور صدر كتاب **عبد الباقي الهراس** عن المغرب العربي، ثم كتاب **نزيه الأيوبي** عن مصر... أما كتابي أنا، فقد كان آخر ما ظهر، وكان بعنوان "**المجتمع والدولة في الوطن العربي**"، واحتوى على إسهاماتٍ نظرية وميدانية، أعتبرها أنا، واعتبرها آخرون، هامة ومُبدعة... حيث تناولت فيها قراءة نقدية استقرائية للتاريخ السياسي ـ الاجتماعي العربي، في دورات مُتابعة لعوامل "التوحيد" وعوامل "التجزئة"، دون اللجوء لنظرية المؤامرة.

أتممت هذا العمل في أواخر عام ١٩٨٥، وظهر ككتاب في أواخر عام ١٩٨٦، بعد مؤتمر كبير لمُناقشة نتائج المشروع كله، عُقد في **تونس في ربيع ١٩٨٦**.

كان نشر كتابي بطريقة لم أرض عنها، سبباً إضافياً للخلاف بيني وبين **د.خير الدين حسيب**، الذي كانت أسباب الخلاف معه تتزايد مع اقتراب ذهابي إلى عمّان، ثم بعد أن توليت المسؤولية فعلياً في صيف ١٩٨٥.

نحو ثقافة عربية لحقوق الإنسان

في ضوء حملات التشكيك والتشويه والافتراء من مُثقفين وسياسيين عرب، وفي ضوء عدوانية الأنظمة العربية لحقوق الإنسان خضت عدة معارك مُتزامنة... وحينما أنظر للوراء، أدرك أننا خضنا هذه المعارك بقدر ملحوظ من النجاح، لأننا كنا نجازف وبشيء من الرعونة... وربما لو فكرت ملياً وعقلانياً لما أقدمت في تلك الأيام والسنوات على ما أقدمت عليه... ربما لكثرة المسؤوليات والمشاغل، واللهاث وراء الاستجابة للالتزامات، لم يكن لدي وقت كبير للتفكير والتروي قبل اتخاذ القرارات... وربما كانت ثقة زائدة بالنفس... وربما كان مديح وإطراء الآخرين يُداعب كبريائي أو غروري... وبدا لي في تلك السنوات أن كل ما كنت أصادفه من مُشكلات كان يجد حلولاً...

كان وقتي موزعاً بالكاد بين أسرتي، وجامعتي، ومشروع الاستشراف، ومركز الأهرام، والمُنظمة العربية لحقوق الإنسان... وكانت هذه الأخيرة بالنسبة لي، كما لنعمت هي آخر المواليد، ومن ثم الأولى بالاهتمام والرعاية... قامت **نعمت** بمُعظم ما كان مطلوباً للمُنظمة مؤسسياً، من حيث الإدارة اليومية للمكتب، واستحداث نشرة دورية رشحت لها صحفياً ماركسياً قديماً، قضى في سجون مصر في ثلاثة عهود (الملكي والناصري والساداتي) أكثر من عشرين سنة، وهو **مصطفى طيبة**... وكان اختيارها صائباً حيث استوعب الرجل بسرعة فلسفة المُنظمة ورسالتها وترجم ذلك إلى نشرة جيدة جمعت بين الفكر النظري لحقوق الإنسان، والدراسات المُقارنة، والانتهاكات العربية لحقوق الإنسان.

وقد تعلمنا من مُنظمة العفو الدولية، بالمُراسلة وبالزيارات الميدانية الشيء الكثير. فتكوّنت لجنة قانونية تولت فحص ما تتلقاه المُنظمة الوليدة من شكاوى في خمسة خطوات مُتتالية: ١- التحقق من جدية الشكوى، ٢- إرسال صورة منها إلى الجهة المشكو في حقها، ٣- وطلب الرد، فإذا لم نتلق رداً خلال شهر، فإننا نرسل إلى نفس الجهة وإلى عدة أطراف في نفس الدولة صورة ثانية من الشكوى، ويُحيطنا علماً بأننا إذا لم نسمع منهم سلباً أو إيجاباً فإننا سنعتبر الشكوى جادة، و أيضاً صادقة، ٤. فإذا لم نتسلم رداً خلال شهر آخر ننشر الشكوى والإجراءات أو المُكاتبات بيننا وبين الأطراف المعنية في نشرتنا الدورية ٥- ثم نرفع الأمر على الملأ - محلياً، وعربياً، ودولياً .

لم تعرنا أي حكومة عربية اهتماماً، أو ترد على أي من مُراسلاتنا خلال الشهور الأربعة الأولى من عمل المُنظمة... وأخيراً وصلنا رد على أحد الشكاوي من حكومة موريتانيا، اعتبرناه نصراً مجيداً... ثم أتى لنا رد آخر من دولة

الإمارات، ثم من الكويت، ثم من الأردن... وكان القاسم المُشترك بين هذه الدول أنها دول صغيرة، أو في أطراف الوطن العربي... ولكن عندما بدأت مُنظمة العفو الدولية، وصحيفة لوموند الفرنسية والـ B.B.C تنشر عن أنشطة المُنظمة من خلال مُراسليها في القاهرة، تضاعف اهتمام الحكومات العربية بالرد على مُكاتباتنا. صحيح أنها كانت كقاعدة تنفي ما جاء في الشكوى... ولكنا اعتبرنا أن مُجرد الرد هو اشتباك إيجابي... وحينما ردت حكومة عُمان مرة، بأنها حققت في الشكوى، وأفرجت عن المُعتقل موضوع الشكوى، نوّهنا بذلك ووجّهنا للسُلطان **قابوس** الشكر خطياً، وعلى صفحات نشرة المُنظمة. أي أنه كان مُهماً شكر الحكومات حينما تقدم على عمل صائب في مجال الحريات وحقوق الإنسان، مثلما ننتقدها على الانتهاكات... ومن هنا أرسينا قاعدة ومُمارسة مهمة، وهي أن المُنظمة ليست ضد الحكومات أو معها، ولكنها ضد سياسات الانتهاك ومع سياسات احترام الحقوق... وكنا في هذا نختلف جوهرياً عن الأحزاب والقوى السياسية في الساحة العربية، والتي دأبت أن تكون مع أنظمة بعينها وضد أخرى، بصرف النظر عن سلوكياتها اليومية تجاه شعوبها ومواطنيها.

كنا نُصر على أن يخلع الأعضاء ثيابهم الحزبية ونظاراتهم الأيديولوجية، حينما يدخلون من باب المُنظمة، أو يتحدثون باسمها... ولم نكن ننجح دائماً رغم هذا الإصرار، حتى مع بعضنا البعض، من المؤسسين... ولكن الإلحاح، وتذكير بعضنا البعض، وأهم من ذلك مُمارستنا لهذه المبادئ الأساسية كان هو الطريق لبناء ثقافة عربية لحقوق الإنسان.

وحينما كانت المُنظمة تتصدى للدفاع عن حقوق "الإسلاميين" و"الماركسيين" في نفس الشهر أو الأسبوع أو نفس اليوم كان ذلك يُكسبها مصداقية حتى لدى الذين تشككوا في البداية، من ذلك ـ أن الكاتب اليساري **غالي شكري**، الذي هاجم المُنظمة وهاجمني شخصياً على امتداد اثني عشر مقالاً، في مجلة الأسبوع العربي (الباريسية)، لم نردّ عليه في حينه... ولكنه في نهاية عام ١٩٨٤ أرسل لنا شكوى بأنه ذهب إلى سفارتنا في باريس لتجديد جواز سفره، وبدلاً من تجديده، تمت مُصادرته... وأرسلنا الشكوى إلى وزير الداخلية المصري اللواء **أحمد رشدي**، دون أمل في الرد، ولكنه فاجأنا برسالتين الأولى يخبرنا فيها أنه أمر بالتحقيق في الشكوى، والثانية بعد أسبوعين تفيد بأن الشكوى صادقة، ويعتذر عما حدث للدكتور **غالي شكري** في رسالة على عنوانه في باريس ومعها جواز السفر مُجدّداً... واستلمنا بعد أيام تليكساً من **غالي شكري** يُعبّر عن الامتنان العميق، ويعتذر في مقاله الأسبوعي بالمجلة التي كان يكتب فيها عما صدر منه في حق المُنظمة العربية وفي حقي أنا شخصياً. لقد

كان ذلك أحد أمثلة النجاح القليلة في السنة الأولى للمُنظمة... بعدها عاد **غالي شكري** إلى مصر من منفاه الاختياري... وتغيّر اللواء **أحمد رشدي** في أول تعديل وزاري... ولم يردّ أي وزير داخلية آخر على شكاوى المُنظمة ـ على الأقل خلال سنوات خدمتي... حيث وصل الاختلاف إلى حد التهديد بالاستقالة حينما عارض رئيس المُنظمة في التصدي للدفاع عن مجموعة من "البهائيين" بدعوى "**الزندقة**"، وازدراء الأديان. وكان رأيي أن حرية الاعتقاد هي أحد حقوق الإنسان التي يحميها الدستور، وينص عليها الإعلان العالمي والمواثيق المُكمّلة له... وبعد مواجهة حامية بكى الأستاذ **فتحي رضوان** خلالها، وافق في النهاية ما دمنا لا نطلب منه شخصيا أن يتصدى لهذا الدفاع (ذلك حقه الإنساني أيضاً) وكانت تلك تسوية معقولة أنقذت المُنظمة وكذلك علاقتنا التي كانت قد توطدت جداً... حتى أصبحت بمثابة الابن له، وهو الأب لي.

تجسير الفجوة بين المُثقف والأمير

في زحمة أحداث الشهور الأولى من عام ١٩٨٤، تذكّرت أنني كنت قد وعدت الأمير **الحسن بن طلال**، أن أعد ورقة بحثية للاجتماع السنوي لما أصبح يسمى "**مُنتدى الفكر العربي**" (نادي العقبة سابقاً)... وكان موضوع الورقة هو في الواقع ما يهدف إليه المُنتدى ـ أي العلاقة بين أصحاب الأفكار وأصحاب القرار، أو بين المثقف والسُلطة... وكان الأمير يأمل أن تكون الورقة بحثية موضوعية من ناحية وتطبيقية مُستقبلية من ناحية أخرى. وبتعبير آخر، كان يُريدها أن تصبح بمثابة منهج، **قانون أو دستور للمُنتدى**.

كان التكليف ثقيلاً... ولكني كنت قد وافقت عليه في يناير، لاجتماع في مايو ١٩٨٤... وكان ذلك نموذجاً لما أورط فيه نفسي عادة... يطلب مني شيء وأقوم به بعد خمسة شهور أو سنة... ويبدو الطلب معقولاً... ويبدو أن لدي فسحة كافية من الوقت... وإذا بالأيام والأسابيع والشهور تمضي بسرعة وأنا في غفلة عن تأدية المطالب الآنية، والتي لا تنتهي... وهكذا لم أتذكر ما عليّ من التزام للأمير، ولمُنتدى الفكر العربي، إلا في **طريق العودة من قريتي، بعد جنازة والدتي**، حيث أدركت فجأة أنه لم يبق على الاجتماع سوى شهر واحد، وهم يُريدون الورقة قبل الاجتماع بأسبوعين على الأقل، لإرسالها إلى الأعضاء تمهيداً للحوار حولها في الاجتماع... ولم يكن هناك ورقة أخرى غيرها... أي أن الاجتماع كله مُنصبّ حول الورقة، التي لم أكن قد سطرت فيها كلمة واحدة بعد... وبدأت فوراً التفكير في المفهوم الأساسي للورقة، والمعمار الذي سيُبنى حول هذا المفهوم.

ومع وصولي للقاهرة، كانت قد اختمرت في رأسي عدة أفكار، استوحيت فيها تقليد **ميكيافيلي** ونصائحه للأمير، في كتابه الذي أصبح كلاسيكياً بنفس العنوان "**الأمير**" منذ القرن السادس عشر... ولكن لأن "**الميكيافيلية**" تثير مشاعر سلبية لدى الكثيرين، دون أن يكونوا قد قرؤوا الكتاب، فقد فكرت أن أضع **ميكيافيلي** في سلسلة أطول، تبدأ من **أرسطو**، مروراً **بابن خلدون**، و**ميكيافيلي**، وانتهاء بالمُفكرين والسُلطة في القرنين الأخيرين... ثم الانتقال إلى الوضع العربي في القرن العشرين.

وفي اليوم التالي عبّأت مُساعدي في الجامعة لحصر كل ما كتب عن المُفكرين والسُلطة... وبدأت الكتابة، ومكثت أطوّر وأبلور معمار الورقة... التي جاءت في النهاية في حوالي ثلاثين صفحة بعنوان "**المُثقف والأمير**"... وكان العنوان في حد ذاته مُثيراً... وظن القرّاء لأول وهلة أن الورقة هي عن علاقتي بالأمير **الحسن**... حتى شرعوا في القراءة... ليجدوها تنميطا أكثر عمومية عن العلاقات، وليس علاقة واحدة، المُمكنة بين المُثقف والسُلطة... وتبدأ "بجسر ذهني" يعترف فيه الطرفان بوظيفة كل منهما للمجتمع، المُفكر، ينقد، ويصوغ الرؤى للمُستقبل. والأمير يحكم ويُقنن ويضبط. وتنشأ بينهما **علاقة ندّية يشوبها التوتر والصراع، حيناً والانسجام والتعاون أحياناً**، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى "جسر فضي"، ينعدم فيه التعاون والانسجام، ويكثر فيه التوتر والصراع... ولكن دون إبادة مادية جسدية... وأخيراً هناك "الجسر الخشبي"، الذي يصبغ العلاقة فيه بالكراهية والعداء والرغبة في الإبادة المُتبادلة بين المُثقف والأمير. وأخيراً "جسر الحبال"، وما ينطوي عليه من لعب على الحبال، وكذا خطورة انقطاعها، والتهلكة كمصير حتمي.

وخلصت إلى أن المُثقفين العرب في علاقتهم بالسُلطة، في القرن الحالي (العشرين) كما في عصور سابقة إما "**شهداء**" (الجسر الخشبي)، أو "**خبراء**" أي بين الجسرين الفضي والذهبي، أو "**عملاء**" (الجسر الحبالي- النفاقي).

ولدهشتي لاقت هذه الورقة - التي كتبتها على عجل وفي ظروف وفاة والدتي الصعبة - إعجاباً شديداً... وأثارت نقاشاً حاراً طوال يوم كامل... كما أصرّ **خير الدين حسيب**، الذي لم يُشارك في الاجتماع، على نشرها في أول عدد من مجلة المُستقبل العربي، وعبّرت الورقة عن الحالة بين المُثقفين العرب والسُلطة على امتداد الرُبع قرن التالي، أي إلى مطلع الألفية الميلادية الثالثة.

أهم من ذلك، أن أعضاء المُنتدى انضموا إلى الأمير **الحسن** في الضغط عليّ لقبول مسؤولية الأمين العام للمُنتدى... وهو ما شكرتهم عليه، واعتذرت عنه في الوقت الراهن بسبب مسؤوليتي في المُنظمة العربية لحقوق الإنسان.

وكان من المُشاركين في الاجتماع صديقي **د.يحي الجمل**، والوزير السابق، وأستاذ القانون الإداري بجامعة القاهرة، ووالد إحدى طالباتي المُتميزات، وهي **مايسة** صديقة وحليفة **نعمت** مُساعدتي في الجامعة الأمريكية، وكان المُحامي الخاص لي في قضية "الحراسة" القديمة... ولكل هذه الوشائج طلب مني أن أرشحه لأمانة مُنتدى الفكر العربي... إذا طلب مني الأمير ذلك وكنت أنوي الاعتذار... أسوة بترشيحي لآخرين من قبل (مثل د.**سمير أمين** و**د.لبيب شقير**). ووعدته بذلك... فلما اعتذرت للمرة الرابعة، اقترحت اسم **د.يحي الجمل** على الأمير **الحسن**... وكان ذلك في حضور **د.خليل السالم**، مُحافظ البنك المركزي الأردني، والذي كان يُتابع شؤون المُنتدى بشكل تطوعي إلى أن يُختار أمين عام مُتفرغ... لذلك سارع **د.خليل السالم** بتزكية اقتراحي... وأضاف الإطراء في حق **د.يحي الجمل**... وفي ضوء التوصية المزدوجة... ووجود **د.يحي الجمل** في مكان الاجتماع، استدعاه الأمير، واختلى به في أحد أركان القاعة في استراحة القهوة. وعرض عليه في حضوري ... ورد **د.يحي الجمل** " بأنه فوجئ... ويحتاج لبعض الوقت للتفكير في الأمر". وسأله الأمير كم من الوقت يحتاج للحصول منه على رد... فقال **د.يحي** أنه يحتاج إلى ساعتين ليقوم ببعض المُكالمات إلى ذويه ... وإلى زملائه في مكتب المُحاماة... وبالفعل أعلن موافقته بعد الساعتين... وأعلن الأمير **الحسن** ذلك في اجتماع المُنتدى المُخصص للأمور الإدارية، في اليوم التالي... وشعرت بجبل ينزاح عن كاهلي... وهو الحرج الدائم مع الأمير في كل مرة يعرض عليّ أمانة المُنتدى، واضطر للاعتذار.

عُدت إلى القاهرة مع العديد من المصريين أعضاء المُنتدى وكنت أجلس في المقعد المُجاور للسيد/ **محمود رياض**، علي الطائرة... وهو وزير الخارجية المصري الأسبق، وآخر أمين عام لجامعة الدولة العربية، قبل انتقالها إلى تونس. وبقي **د.يحي** يومين إضافيين في عمان لإتمام الإجراءات اللازمة، وتوقيع العقد.

لقاء مع الرئيس حول الانتخابات

بعد أيام من عودتي من عمّان، وخلال الاستعدادات لإنهاء العام الدراسي، تم استدعائي لمُقابلة الرئيس في مسكنه... جلسنا في حديقة منزله... وكانت هذه هي المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك... وتعوّد هو بعد نهاية اللقاء أن يصحبني إلى داخل المنزل، ويُنادي بأعلى صوته، كأي زوج مصري على زوجته

"**سوزي**... **سوزي**... تعالي سلمي على أستاذك..." فتأتي للسلام، وتبادل المُجاملات الرسمية ونحن وقوف... ثم أنصرف.

كان السبب الرئيسي للمُقابلة هذه المرة هو موضوع **الانتخابات بالقائمة النسبية**، وهو ما كنت قد دأبت على الدعوة له في عدد من مقالاتي بالأهرام والجمهورية خلال السنتين الأخيرتين... وسألني لماذا أدعو لهذا الخيار، وكيفية عمله ومزاياه وعيوبه... ولخّصت له وجهة نظري... والتي تنطوي على **إعطاء الفرصة لكل القوى السياسية للمُشاركة في السُلطة، على الأقل التشريعية، وليس بالضرورة "التناوب" على السُلطة**... وسأل عن الفارق بين المُشاركة و"التناوب"... وما هي مزايا وعيوب كل منهما على الآخر، وكانت، وما زالت، وجهة نظري هي إعطاء كل القوى الشرعية الفاعلة الفرصة للمُشاركة، حتى لا تنقلب على الشرعية، وتلجأ إلى وسائل تخريب أو مُقاومة، من تحت الأرض... باختصار، أن يصبح لكل أحزاب المُعارضة مصلحة في المُحافظة على النظام العام القائم. وبدا لي أن الفكرة تروق له... وطلب أن أعد له مُذكرة تفصيلية حول الموضوع وكيفية تطبيقه، وربما للأخذ به في الانتخابات البرلمانية القادمة بعد خمسة أو ستة شهور... وأخبرته أنني مُسافر بعد يومين إلى الخارج، لارتباطات مُسبقة، فاقترح أن أرسل المُذكرة بالبريد السريع المخصوص (DHL)، وليس "**بالحقيبة الدبلوماسية**" كما اقترحت في البداية... وكانت العجلة هي لعرض تعديل قانون مزاولة الحقوق السياسية **قبل انقضاء الدورة البرلمانية في آخر يونيو.**

وبالفعل ورغم الانشغال الشديد في تصحيح امتحانات آخر العام، إلا أن حماسي لفكرة التمثيل النسبي جعلني أكرّس ٢٤ ساعة مُتواصلة لإعداد المُذكرة، وإرسالها إلى منزل الرئيس قبل السفر بساعتين (وأنا في طريقي للمطار) مع مُلاحظة أنني سأرسل تفاصيل مُكملة للمُذكرة من الخارج، حسب ما كان مطلوباً قبل السفر... وكنت سأقضي أربعة أيام في جينيف **لإجراءات خاصة بإنشاء فرع ومكتب للمُنظمة العربية لحقوق الإنسان في سويسرا**، حيث يُقيم نائب رئيس المُنظمة السياسي العراقي المُعارض **أديب الجادر**، بالإضافة إلى أحد أعضاء مجلس الأمناء وهو محامي فلسطيني كان يعمل في مركز الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. ونجحت في إنجاز المُهمتين، وكانت أهمها بالنسبة لي في ذلك الوقت، هي الصفحات التكميلية للمُذكرة حول مزايا وكيفية العمل بنظام انتخابات بالقائمة النسبية.

كان قد استرعى انتباهي في مُقابلتي الأخيرة للرئيس **رأيه شديد السلبية في الأحزاب المصرية المُعارضة، وزعمائها**، وتحدث بإسهاب عن "**بلاوي**" فساد

بعض رؤساء هذه الأحزاب، وأهمهم **مصطفى كامل مراد**، رئيس حزب الأحرار، "**ويلاوي**" أخلاقية لآخرين ذكرهم بالاسم، وأكد أن النماذج القليلة التي ذكرها هي على سبيل المثال... وأنه "**ساكت على ذلك كله حتى لا يحدث بلبلات وارتجاجات في البلد... ولكنه عند وقت اللزوم، لن يتردد في فتح عدة ملفات**".

لم يفتح الرئيس معي موضوع المُنظمة العربية لحقوق الإنسان... ولكنه سأل بشيء من التهكم عن أخبار "**المُنتدى الديمقراطي**"... ولما قلت "سيادتك عارف أن الجهات الأمنية رفضت الموافقة على تسجيله كجمعية"، علّق بلهجة من استدرك وقوع شر مُستطير" يا راجل تقولوا أنكم لم تقصدوا أن يكون المُنتدى حزب، وأنه سيكون مثل تلك **الجمعية البريطانية... اسمها إيه؟**" قلت "**الجمعية الفابية**"... " لكن يا خويا لم تقولوا ليّ أن الجمعية الفابية... هي التي تحوّلت فيما بعد إلى **حزب العمال البريطاني**، أليس كذلك؟" قلت هذا صحيح... ولكن حتى لو حدث ذلك عندنا أيضاً فما هو الضرر؟ قال "لا ضرر... ولكن لا أحب المراوغة، كان ينبغي أن تُصارحوني من البداية... ولكن **د.فؤاد محي الدين** (كتر خيره) هو الذي كشف الملعوب..." ولم أعلّق، حيث كنت حريصاً على الموضوع الرئيسي للقاء وهو الانتخابات بالقائمة.

وحين استرجعت تفصيلات اللقاء وأنا في الطائرة من جنيف للندن... قلت لنفسي أرجو ألا يُفسد أو يعرقل **د.فؤاد محي الدين** مفهوم أو مُمارسة الانتخابات بالقائمة النسبية... ولم أستغرب أن يفعل الرجل أو أباطرة الحزب الوطني الآخرون، مثل **كمال الشاذلي**... وظل خوفي مع ذلك من **د.فؤاد محي الدين**، فهو أكثر طاقم الحكم ثقافة ودهاء... وهو كادر يساري قديم منذ أيام دراسته في كلية الطب... ثم أنه من أسرة ذات تاريخ وثقل سياسي، حيث أن اثنان من أولاد عمه (**زكريا وخالد**) كانا من قادة ثورة يوليو.

من مُفردات مُقابلة الرئيس أيضاً سؤاله ليّ فيما إذا كنت قد قابلت **د.مصطفى خليل**، تمهيداً للانضمام للحزب الوطني... وحسمت الأمر "أنني قانع بدور عام غير حزبي، من خلال الكتابة في الصحافة والجمعيات الأهلية ومُنظمات المجتمع المدني..." قال الرئيس بلهجة مُداعبة "والله لعمل فيك فصل وأعيّنك وزير، وأحرمك من مُرتب العشرة آلاف جنيه" التي تأخذها شهرياً من الجامعة الأمريكية!" وضحكت، وقلت "ليه كده يا ريس؟" ... قال الرئيس وهو ما يزال في مزاح المُداعبة" بكرة هتشوف... كل أصحابك في مُنتدى الفكر الديمقراطي هنسحبهم للحزب الوطني أو الوزارة..."!

وفعلاً خلال السنوات التالية عيّن عدد منهم وزراء (**حلمي الحديدي/ محمود الشريف/ حسين كامل بهاء الدين، وعلي الدين هلال**) أو في مجلس

الشورى (**د.صبري الشبراوي، ومحمود محفوظ**) أو مُحافظين (**د.أحمد جويلي ود.عبد الرحيم شحاته**) .

لندن مركز دراسات الوحدة العربية

من الأشياء التي كان يُلح عليها **د.خير الدين حسيب** في الشهور الأخيرة، وخاصة بعد تبرع **د.سُعاد الصبّاح** لشراء مقر للمُنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة هو أن تتبرع أيضاً لشراء مكتب لمركز دراسات الوحدة العربية في لندن... وكان الرجل مُقتنعاً أن **د.سُعاد** تفعل ذلك بسببي! وعبثاً كنت أحاول إثنائه عن هذه الفكرة... وكان كثيراً ما يتحداني بأن يقول "فقط اطلب منها وسترى"... وكان يُبرر ذلك بأنه للصالح القومي العام وليس لمصلحته أو لمصلحتي الشخصية... ثم أن هذه الطلبات بتبرعات تعتبر هزيلة وفي غاية التواضع بالنسبة لثروة **د.سُعاد** وزوجها الشيخ **عبد الله المُبارك الصبّاح**، الذي يُعتبر من أغنى أغنياء الكويت...! وكنت دائماً أرد عليه بالآتي "ما دمت أنت مُقتنعاً... ولديك كل هذه الحيثيات الوجيهة... فلماذا لا تطلب منها أنت ؟ وعند هذا الحد في النقاش يلجأ **د.حسيب** إلى العامل الشخصي، وهو "**الكاريزما**"، الجاذبية، القبول "... وكنت أرد عليه أنه يتمتع بكل هذه الصفات أكثر مني... وكانت المُناقشة تطول أحياناً بالساعات... وكنت في النهاية أرضخ مع القسم بأن تكون هذه آخر مرة أطلب منها أي تبرعات لأي مشروع، هو وأنا طرفان فيه... وكان يُجاريني... ويعد ألا يطلب مني ذلك مرة أخرى.

وكان مُبرره هذه المرة **تفاقم الأوضاع الأمنية والمصرفية في بيروت.** وفاتحت **د.سُعاد** في الموضوع بالفعل، وأنا في غاية الخجل... حيث لم أكن أنا نفسي مُقتنعاً بحجج **خير الدين حسيب**، خاصة وأن لديه بالفعل بديل في القاهرة (أي مكتب الدقي، وشقته الخاصة للسكن) ولكن **حسيب** كان يُحب لندن، حيث درس، وكان يُريد دليلاً على حبي واستجابتي لطلباته، وكان ينطوي على شيء من الغيرة من المُنظمة العربية لحقوق الإنسان الوليدة، رغم أنه أحد مؤسسيها. نعم كان مثل "الزوجة الأولى"، التي تمتعض من أي زوجة أخرى... فإذا لم تستطع منعها، فعلى الأقل تؤكد أقدميتها وأولويتها في كل شيء، وفي كل مُناسبة، وأحياناً بلا مُناسبة.

كان **د.حسيب** مُتأكداً من نجاح مسعاي في الحصول على التبرع الذي حدد هو قيمته (مئة وخمسون ألف جنيه استرليني)، مُقابل شقة من غرفتين وصالة استقبال، ومطبخ وحمام في مكان مركزي في لندن (برنسيس كورت) مُقابل محلات هارودز، وكانت فعلاً صفقة مُمتازة... وكانت هذه من أهم نقاط القوة

العديدة في د.**خير الدين حسيب**، وحضرت **د.سُعاد** من منزلها في أحد ضواحي لندن لمُعاينة الشقة، التي كانت مؤثثة أثاثاً وظيفياً معقولاً... تصادف أيضاً وجود الأستاذ **أحمد بهاء الدين**، الذي حضر من شقته في لندن... وتحولت المُناسبة كما لو كانت حفل افتتاح المقر الجديد للمركز في لندن... وكانت سعادة **سُعاد** لا تقل عن سعادة **حسيب** بهذه الإضافة الجديدة... ففي خلال السنوات الثلاث الأخيرة أصبحنا بالنسبة لها بمثابة الأسرة... كانت هذه المجموعة هي أحد عوالمها الثلاثة... عالم الأسرة المحافظ، وعالم الشعر والشعراء المُتقلب، وعالم المُثقفين الذين كبرت بهم واشتهرت من خلالهم .

د.يحي الجمل: عين في الجنة وعين في النار

توجهت من لندن إلى الولايات المتحدة لقضاء أسبوعين مع الأسرة في بيلا فيستا ـ أركنساس، ثم المرور في طريق العودة بواشنطن العاصمة، ولندن مرة أخرى، حيث كنا قد طرحنا فكرة صحيفة يومية أو أسبوعية عربية، نُعبّر من خلالها عن الفكر العربي الجديد باستنارته وعقلانيته التي حفرناها من خلال مركز دراسات الوحدة العربية خلال السنوات العشر الأخيرة... وكانت **د.سُعاد** قد تحمّست للفكرة... ولمعت عينا **د.حسيب**... وهو ما أثار هاجسي... حيث توقعت أن يطلب مني للمرة الخامسة أن أتوسط للحصول على تمويل منها... ولذلك حاولت وقتها تبريد الموضوع...ولكنه اقترح أن نجتمع مرة أخرى في لندن، وأنا في طريقي للعودة... وكان حماس الأستاذ **أحمد بهاء الدين** للفكرة فاتراً... وفي لندن حيث اجتمعنا في **الفرع الجديد للمركز**، كانت **سُعاد وحسيب** على حماسهما، وكنا **بهاء وأنا** فاترين... وانتهزت فتور **أحمد بهاء الدين**، وطرحت عليه سؤالاً صريحاً وهو ما إذا كان مُستعداً أن يرأس تحرير الصحيفة المُرتقبة... فانتفض وقال بحسم "**لا... لا... إن سني وصحتي لا يُمكناني من القيام بهذا الدور، ولكنني ألتزم بكتابة عمود يومي، ومقال أسبوعي**". وهنا اقترحنا أن نتوقف إلى أن نجد من يصلح رئيساً للتحرير لكي يُسهم منذ البداية في صياغة المشروع... واقترح **بهاء الدين** نفسه أن نتحدث مع الأستاذ **محمد حسنين هيكل** في هذا الصدد... وافق **حسيب وسُعاد**، وتنفست الصعداء...

وعدتُ إلى القاهرة لتسريع العمل في المشاريع البحثية المُقترحة ومُتابعة بناء المُنظمة العربية لحقوق الإنسان، وثقافة حقوق الإنسان... وما هي إلا أيام حتى واجهت أزمتين إحداهما خاصة بالدكتور **يحي الجمل**، والأخرى خاصة بمساعدتي الوفية **نعمت جنينة**.

حينما عدت إلى مصر كان تعديل قانون الانتخابات قد تم فعلاً، وأقر نظام القائمة النسبية، ولكن **بمسمار جُحا، كما توجست، وهو اشتراط حصول الحزب على ستة في المئة من إجمالي الأصوات كحد أدنى للحصول على مقاعد برلمانية بنسبة ما حصل عليه من أصوات**... أي أن حصول الحزب على ٦.١ في المئة يُتيح له الحصول على ٢٤ مقعداً، ولكن حصوله على ٥.٩٩ في المئة لا يُتيح له الحصول على أي مقاعد بالمرة... بل وتذهب هذه الأصوات إلى حزب الأغلبية! بينما كنت قد اقترحت في مُذكرتي للرئيس أن يكون الحد الأدنى المطلوب للتنفيذ هو (واحد) في المئة من الأصوات للحزب، وهو ما يغطيه أربعة مقاعد (من مجموع ٤٤٤ مقعداً في مجلس الشعب). **وأدركت على الفور أن أباطرة الفساد السياسي في الحزب الوطني، قد نجحوا في إقناع الرئيس باشتراط هذه النسبة العالية (٦%) كشرط للتنسيق، وهو ما يُلغي جوهر فلسفة المُشاركة في السُلطة**... ففي البلاد التي تتوخى مبدأ المُشاركة لكل القوى، لا تشترط إلا النسبة المئوية المُقاربة لمقعد واحد في البرلمان، حتى لو كان ٠.٣ أو ٠.٢ في المئة.

كانت الحملة الانتخابية بمجلس الشعب قد بدأت... وفوجئت يوماً وأنا في سيارتي في طريقي إلى مكتبي في شارع **رشدان** بالدقي بلافتات انتخابية باسم **د.يحي الجمل**، مُرشحاً عن الحزب الوطني في إحدى دوائر الجيزة... وما إن وصلت إلى مكتبي حتى اتصلت به هاتفياً... وأكد الخبر بأنه مُرشح، وطلب أن يراني... وكان يسكن على بعد دقائق (شارع بوصيري)... فمررت عليه لأسمع منه، "أنه طُلب منه على أعلى مُستوى أن يُرشح نفسه توطئة لتعيينه رئيساً لمجلس الشعب في الدورة القادمة"، خلفاً للدكتور/ **صوفي أبو طالب** الذي لن يُرشح نفسه، ولن يُعين في المجلس القادم... وأنه الآن يشعر بحرج شديد من الأمير **الحسن**، بعد أن كان قد وعد والتزم، ووقّع عقداً، يصبح بمُقتضاه أميناً عاماً لمُنتدى الفكر العربي من بداية سبتمبر ١٩٨٤..." استمعت للرجل نصف مذهول... وحين سألني ما الذي أنصح به... وإن كان مُمكناً أن اعتذر نيابة عنه للأمير **الحسن**، وأشرح هذه الظروف الطارئة لولي العهد... حاولت ضبط غضبي الداخلي... وقلت له "**أنت يا دكتور يحي الذي طلب مني أن أرشح... وقد فعلت ذلك بناء على إلحاحك في مايو الماضي... ولكنك أنت الذي وقّعت العقد مع الأمير... وأقل ما يجب هو أن تأخذ الطائرة إلى عمان... وتعتذر أنت للأمير... فإذا تعذر عليك ذلك فاتصل به تليفونياً... وتقول له ما قلته لي الآن**..." فكر لحظة ثم سألني "ما رأيك في أن أكتب له رسالة طويلة، أشكره فيها، وأعبّر عن أسفي الشديد للظروف الطارئة التي تمنعني الآن

من الوفاء بما التزمت به، وأن أرجوه أن يتفهم ويغفر..." وكنت أستمع للدكتور **يحي الجمل** وأنا شارد فيما تسبب فيه من حرج في مايو بطلبه المُلح أن أرشحه لأمانة المُنتدى، وما سيسببه لي من حرج مرة أخرى باعتذاره! .

خلال عدة أيام تلقيت رسالة هاتفية من كبير مُستشاري الأمير، السيد/ **ميشيل طراونة**، ليُخبرني بتسليم الأمير لرسالة من **د.يحي الجمل** يعتذر فيها عن أمانة المُنتدى، وأنه في غاية الحزن... ويرجو أن أحضر إلى عمّان في أقرب فرصة مُمكنة..."

انتظرت أسبوعين لإدارة أزمة أخرى خاصة بمُساعدتي **نعمت جنينة** مع زوجها، وعزمها على طلب الطلاق...

حينما وصلت إلى عمان في النصف الثاني من سبتمبر... كنت قد بدأت العام الدراسي، وتشاورت مع زوجتي حول احتمال أن يضغط علىّ الأمير **الحسن** لقبول أن أكون أميناً عاماً للمُنتدى، في ضوء ما فعله **د.يحي الجمل**... وكالعادة أشارت بعدد من الاقتراحات، أفادتني بالفعل في حديث حاسم مع الأمير، الذي لم يعرض وإنما طلب مني أن أوقع العقد، وأن أترك فقط تاريخ بدء العمل، ما دام سيكون خلال عقد الثمانينات! سألته إن كان يعني ذلك فعلاً... قال وهو مقطب الجبين... نعم أعني كل كلمة... لقد قبلت أنت مواقع عديدة منذ عام ١٩٨١، واعتذرت دائماً عن المُنتدى... فهل هناك لا سمح الله شيء عندك ضدي؟ قلت له: نعم... كان وما يزال لدي هاجس أن ما تبقى من رصيدي الثوري سيختفي تماماً إذا عملت مع أمير هاشمي. ضحك الأمير ضحكة رعدية كانت الأعلى على الإطلاق... وقال "إذن هذا هو السبب؟ أنت تفضل العمل مع **صدام، أو القذافي**، أو **الأسد**؟" سارعت بالتصريح "لا لا لست ثورياً لهذه الدرجة..." وظللنا نضحك لعدة دقائق بعد أن وعدت أن أقبل العرض، وأحضر **نعمت** للعمل أميناً عاماً لمُنتدى الفكر العربي في النصف الثاني من عام ١٩٨٥"، أي بعد انتهاء العام الدراسي في جامعتي. وهو ما كان.

الفهرس

إن العقود الستة من انخراطي في الحياة العامة شهدت أحداثاً مرحلية، ووطنية، وإقليمية، وعالمية، كنت شاهداً عليها، وقد انفعلت بها من ناحية، وتقاطعت هي مع مسيرة حياتي من ناحية أخرى، وشجّعني كثيرون على الحديث عنها من منظوري الشخصي، وهو ما حاولته في هذه المذكّرات فأرجوا أن تكون إضافة، ولو متواضعة، تُسهم في فهم التاريخ الاجتماعي لمصر والوطن العربي منذ منتصف العشرين إلى أوائل القرن الحادي والعشرين. لقد كُنت محظوظاً أنني التقيت وجهاً لوجه كل رؤساء مصر - جمال عبد الناصر، وأنور السادات، وحسني مُبارك، ومحمد مُرسي، كما التقيت عدداً من الرؤساء والملوك العرب، مثل الملك فيصل، والملك حسين والملك الحسن الثاني، والرئيس العِراقي صدام حسين، و الرئيس السوري حافظ الأسد، والرئيس السوداني جعفر نميري، و اللبناني بشير الجمل، والرئيسين الفلسطينيين ياسر عرفات، ومحمود عباس، وحاكم قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وزوجته المتميزة، الشيخة موزة بنت ناصر المُسند، والزعيم الليبي مُعمر القذافي
(الذي سجلته لمدة ساعة على قناة الجزيرة عام ١٩٩٥).



ميريت